تَوجِيهُ النَّبِيهِ
لِمَرضَاةِ بَارِيهِ

اسم الكتاب: توجيه النبيه لمرضاة باريه
اسم المؤلف: فهمي بن علي بن عبيدون
f.ben3beidon@gmail.com
الطبعة الثانية ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م
عدد الصفحات : ٣٥٢
قياس القطع: ١٧ × ٢٤

إشراف:
مكتب النور بتريم.
مركز النور للدراسات والأبحاث.

الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة

تَوجيهُ النَّبيه لِمرضَاةِ بارِيه

للعلامة المُرَبِّي الداعي إلى الله

عمر بن محمّد بن سالم بن حفيظ
إبن الشّيخ أبي بكر بن سالم

جمع وترتيب
فهمي بن علي بن عبيدون

بسم الله الرحمن الرحيم

نُبذَةٌ مُختَصَرَةٌ عَن صاحِبِ التَّوْجِيهاتِ

الحَبِيبُ عُمَر بن مُحَـمَّد بن سالِمِ بن حَفِيظ

هُوَ الدّاعِي الإِسلامِي العَلّامَة عُمَرُ بن مُحَمَّد بن سالِمِ بن حَفِيظ العَلَوِيّ الحُسَينِي . وُلِدَ بِمَدِينَةِ تَرِيم بِحَضرَموت - الجُمهُورِيَّة اليَمَنِيَّة - يوم الاثنَينِ الرّابِع مِن شَهرِ مُحَرَّم لِعام ١٣٨٣ هـ - المُوافِق ٢٧ مِن شَهرِ مايو لعام ١٩٦٣ م - وَنَشَأَ بِها ، وَحَفِظَ القُرآنَ العَظِيمَ ، وَتَرَبَّى تَربِيَةً صالِحَةً فِي أَحضانِ والِدِهِ فِي بِيئَةِ العِلمِ والإِيمانِ والأَخلاقِ الفاضِلَةِ .

أَخَذَ عُلُومَ الشَّرِيعَةِ المُطَهَّرَةِ عَلَى أَيدِي مَن أَدرَكَهُم مِن عُلَماءِ حَضرَموت وَمِن أَجَلِّهِم والِدُهُ مُفتِي تَرِيم .

ابتَدَأَ التَّدرِيسَ وَعَمِلَ فِي الدَّعوَةِ إِلَى اللهِ وَهوَ فِي الخامِسَةَ عَشَرَ مِن العُمرِ مَعَ مُواصَلَةِ التَّعَلُّمِ والأَخذِ والتَّلَقِّي .

ثُمَّ لما اشتَدَّ الوَضعُ بِسَبَبِ الحُكمِ الشُّمُولِيّ الشُّيُوعِي فِي ذَلِكَ الوَقتِ انتَقَلَ إِلَى مَدِينَةِ البَيضاء بِاليَمَنِ فِي أَوائِلِ شَهرِ صَفَر عام ١٤٠٢ هـ - المُوافِق شَهرَ دِيسَمبر ١٩٨١ م . وَأَقامَ فِي رِباطِ الهَدّارِ بِالبَيضاءِ . وَكانَ حَرِيصاً عَلَى عَقدِ الدُّرُوسِ والمَجامِعِ العِلمِيَّةِ ، كَثِيرُ الخُرُوجِ لِلدَّعوَةِ إِلَى اللهِ فِي مُختَلَفِ مَناطِقِ البَيضاءِ والحُدَيدَةِ وَتَعز .

تَرَدَّدَ عَلَى الحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ بدءا مِن شَهرِ رَجَب عام ١٤٠٢ هـ - المُوافِق شَهر إِبرِيلَ ١٩٨٢ م - وَأَخَذَ عَن عُلَمائِها .

فِي عامِ ١٤١٣هـ - الموافِق ١٩٩٢م - انتَقَلَ إِلَى مَدِينَةِ الشِّحرِ بِمُحافَظَةِ حَضرَمَوتَ حَيثُ واصَلَ إِقامَةَ الدُّرُوسِ فِي رِباطِ الشِّحرِ لِلدِّراساتِ الإِسلامِيَّةِ ، وَأَقامَ قَبلَها مُدَّةَ سَنَة وَنِصف تَقرِيبا فِي سَلطَنَةِ عُمان .

ثُم انتَقَلَ مِنها إِلَى مَدِينَةِ تَرِيم حَيثُ استَقَرَّ بِهِ المقام فِيها واستَقبَلَ أَعدادَ الطُّلّابِ القادِمِينَ عَلَيهِ مِن أَنحاء مُختَلِفَة مِن العالم. **وابتَدَأَ تَأسِيسَ دارِ المصطَفَى لِلدِّراساتِ الإِسلامِيَّةِ [عام ١٤١٤هـ - الموافِق ١٩٩٤م] عَلَى ثَلاثَةِ مَقاصِد :**

- ❋ أَخذِ عُلُومِ الشَّرِيعَةِ وَما اتَّصَلَ بِها بِالتَّلَقِّي عَن أَهلِها بِأَسانِيدِهِم .
- ❋ تَزكِيَةِ النَّفسِ وَتَهذِيبِ الأَخلاقِ.
- ❋ نَشرِ العِلمِ النافِعِ والدَّعوَةِ إِلَى الله عَزَّ وَجَلّ.

لَه العَدِيدُ مِن الرِّحلاتِ فِي الدَّعوَةِ إِلَى الله وَنَشرِ العِلم الشَّرعِيّ إِلَى مُختَلَفِ الأَقطارِ كالشّام وَمِصرَ والسُّودان والهِند وَباكِستان واندُونِيسيا وَمالِيزيا وَسِنغافُورَة وَبُروناي وَسِيرِيلانكا ، وَكِينيا وَتَنزانِيا وَجُزُر القُمُر وَدُوَل الخَلِيج العَرَبِي واتَّصَلَ بِأَسانِيدَ كَثِيرٍ مِن العُلَماءِ فِي تِلكَ الأَقطارِ . كَما شارَكَ فِي حُضُورِ عِدَدٍ مِن المؤتَمَراتِ الإِسلامِيَّة .

مُؤَلَّفاتُه :

١. إِسعافُ طالِبِي رِضا الخَلّاقِ بِبَيانِ مَكارِمِ الأَخلاقِ .
٢. تَوجِيهاتُ الطُّلّابِ .
٣. شَرحُ مَنظُومَةِ السَّنَدِ العَلَوِيّ .
٤. خُلُقُنا .
٥. الذَّخِيرَةُ المشَرَّفَة ، وَقَد تُرجِمَ بِعِدَّةِ لُغاتٍ.

٦. خُلاصَةُ المدَدِ النَّـبَوِيّ فِي الأَذْكارِ .

٧. الضِّياءُ اللّامِع بِذِكرِ مَولِدِ النَّبِيِّ الشّافِع .

٨. الشَّرابُ الطَّهُور فِي ذِكرِ سِيرَةِ بَدرِ البُدُور .

٩. فَيضُ الإمدادِ في خُطبِ الجُمعةِ والكُسُوفَينِ والاسْتِسْقاءِ والأَعْيَاد.

١٠. المختارُ مِن شِفاءِ السَّقِيم .

١١. ثَقافَةُ الخَطِيبِ .

١٢. نُورُ الإِيمانِ مِن كَلامِ حَبِيبِ الرَّحمن .

١٣. دِيوانُ شِعرٍ «فائِضاتُ المَنّ مِن رَحماتِ وَهّابِ المَنَن» تَحتَ الطَّبع .

١٤. سِلسِلَةُ مَعالِمِ الدُّعاةِ فِي طَرِيقِ حَبِيبِ الله .

١٥. الوَصِيَّةُ .. لِلعامِلِينَ فِي صُفُوفِ الدَّعوَةِ المحَمَّدِيَّة .

١٦. مُنْطَلَقاتٌ فِي بِناءِ ذَواتِ الدَّاعِيَات.

١٧. تعايش المسلمين مع غيرهم.

١٨. مسلك أهل الفطن من معاني قصيدة ما لذة العيش لأبي مدين.

١٩. الوسطية في الإسلام.

٢٠. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهر ريحكم.

٢١. مقاصد حلقات التعليم ووسائلها.

٢٢. الحياض المطهرة لواردي المدينة المنورة.

٢٣. زاد الناسك من أدعية وآداب المناسك.

٢٤. الصلوات بأسماء الله الحسنة على جامع الصفات الحسناء.

٢٥. سعادة المعاد والمحيا شرح قصيدة (إذا شئت أن تحيا).

مقَدِّمَة

الحَمدُ لله الَّذِي خَلَقَ الإنسان، عَلَّمه البَيان، والصَّلاةُ والسَّلامُ الأتـمّان الأكمَلانِ عَلى مَن أَنزَلَ اللهُ عَلَيه القُرآنَ سَيِّدِنا محـمَّدٍ المصطفَى مِن عَدنان، وَعَلى آلِه وَأَصحابِهِ نُجُومِ الهدَى وَأَئِمَّةِ الاهتِداء لمن رامَ سَبيلَ الجِنـان.

وَبَعدُ فلَقَد عِشتُ فِي فَترَاتٍ عَصِيبَةٍ مَلِيئَةٍ بِالمتناقِضات لما شَهِدَتْه السّاحَة الإِسلامِيَّةُ مِن انقِسامَاتٍ وَنِزاعاتٍ كانَت مِن أَهمِّ أَسبابِ الضَّعفِ والفَشَلِ الَّذِي أَصابَ أُمَّةَ الإِسلامِ مِصداقاً لِقَولِ الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال:٤٦]، فَشَأنِي فِي هَذِهِ المرحَلَة كَشَأنِ كَثِيرٍ مِن شَبابِ هَذِه الأُمَّـةِ الَّذِين عاصَروا هَذِهِ الأَحداثَ الـمُـؤلِمَة.

كُنتُ حِينَها أَلتَفِتُ يَمنَةً وَيَسرَةً أَبحَثُ عَمَّن يَأخُذُ بِيَدِي مِن وَحلِ هَذا التَّـناقُضِ، أَسعَى لَعَـلِّي أَجِدُ مَن أَطمَئِنُّ إِلَى صِدقِهِ وَأَثِقُ فِي عِلمِهِ وَنَهجِهِ وَإِخلاصِهِ فِي دَعوَتِهِ؛ فَقَد قِيل: «**إِنَّ هَذا العِلمَ دِينٌ، فانظُـرُوا عَمَّن تَأخُذُونَ دِينَـكُم**»، وَلا تَـثرِيبَ عَلَيَّ إِذا طالَ أَمَدُ ذَلِك النَّظَرِ؛ لأَنَّها قَضِيَّةُ دِين.

نَعَم.. فَقَد استَغرَقَتْ رِحلَةُ البَحثِ تِلكَ سَنَواتٍ كُنتُ أَلجَأُ فِيها إِلَى مَن بِيَدِهِ أَمرُ حَيرَتِي أَسأَلُهُ أَن يَأخُذَ بِيَدِي مِما أَهَـمَّنِي وَأَغَـمَّنِي.

انقَضَتْ هَذِه السُّنُونَ وَبَعدَها جادَ اللهُ عَلَيَّ بِمَحضِ فَضلِهِ بِتَحقِيقِ ما سَأَلتُ

فَجَمَعَنِي بِالدّاعِيَـةِ المرَبِّي والعَلّامةِ الفَقِيهِ الحَبِيبِ **عُمَر بنِ محمَّد بن سالم بنِ حَفِيظ** مِن سُلالةِ الدَّوحَةِ المطَـهَّرةِ .. شافِعِيِّ المذهَـبِ .. سُنِّيِّ المعتَـقَدِ مِن عُلَماءِ مَدِينَةِ تَرِيم وَفُضَلائِها ، وَقَد كان عالَمِـيّاً فِي فِكرِهِ ، واقِعِيّاً فِي طَرحِهِ ، عَمِيقاً فِي مُدرَكِهِ ، بَعِيداً فِي نَظرَتِهِ لِلأُمُور ، فَـوَجَدتُ فِيهِ بُغـيَتِي وَعَثرتُ حِينَها عَلى ضالَّتِي .. فالحَمدُ لله عَلى ما أَعطَى وَأَسأَلُهُ المزِيدَ مِن فَضلِهِ .

فَجَلَستُ بَينَ يَدَيهِ أَنهَلُ مِن عِلمِهِ وَأَستَـنِـيرُ بِحِكمَتِهِ وَمَعِي ثُلَّةٌ مُبارَكَةٌ مِمَّن جَمَعَتنِي وَإِيّاهُم رابِطَةُ الأُخُوَّةِ فِي اللهِ والهَمِّ بِدِيـنِهِ تَعالَى فِي عُلاهُ .

وَقَد جَمَعْتُ فِي هَذِهِ الصَّفَحاتِ دُرَراً مِن أَنفاسِهِ المبارَكَةِ وَكَلِماتِهِ الجامِعَةِ الشّامِلَةِ ، والَّتِي استَطرَدَ الحَدِيثَ فِيها عَن أُسُسِ بناءِ الذّاتِ ، وَتَزكِيَةِ النَّفسِ ، وَمَعالِمِ الانطِلاقِ لِعالَمِيَّةِ هَذِهِ الدَّعوةِ المحَمَّدِيَّةِ ، وَقَواعِدَ فِي التَّعامُلِ بَينَ الدُّعاةِ خُصُوصاً فِي مُحِيطِهِم الدَّعْوِيّ والمسْلِمِينَ عُمُوماً ، وَما يُفـتَرَضُ أَن تَكُونَ عَلَيهِ نَظرَتُنا إِلى الآخَرِينَ .

وَأَوضَحَ كَذَلِكَ فِيها دَقائِقَ مِن آفاتِ النُّـفُوسِ ، والَّتِي تَخفَى فِي كَثِيرٍ مِن الأَحيانِ عَلى الخاصَّةِ فَضلاً عَن العامَّةِ مِن المسلِمِينَ ، وَتَحَدَّثَ عَن مُقَوِّماتِ النَّهضَةِ لِهَذِهِ الأُمَّةِ وَدَعا مِن خِلالِها إِلَى ضَرُورَةِ التَّـقارُبِ وَجَمعِ الكَلِمَةِ وَلَـمِّ الشَّمْلِ وَنَـبْذِ كُلِّ خِلافٍ يُمَـزِّقُ عُـرَى وُحدَتِها وَيُقعِدُها عَن القِيامِ بِواجِباتِها وَأَداءِ مَهامِّها.

كَما تَضَمَّنَتْ تَوجِيهاتٍ وَتَنبِيهاتٍ مُهِمَّةً يُصَحِّحُ بِها مَسارُ الدَّعوَةِ والعَمَلِ الإِسلامِي فِي هَذا العَصرِ مِما التَصَقَ بِه مِن شَوائِبَ وَعَلِقَ بِهِ مِن آفاتٍ .

وَإِنِّي لأَراها بِما تَضَمَّنَـتهُ مِمّا ذُكِر صَمّامَ أَمانٍ لِلبَشَرِيَّةِ يَبلُغُونَ بِها بَرَّ الأَمانِ وَيَشِيدُونَ مِن خِلالِها لمجدِنا الأَثِيلِ أَسمَى وَأَعلَى بُنـيانٍ ، بَل هِي كَهفٌ فِي هَذِهِ المرحَلَةِ مِن مَراحِلِ التَّنكُّرِ لأَصالَتِنا وَأَساسِ عِزِّنا وَسَبِيلِ سَعادَتِنا

وَمُقوِّماتِ خَيرِيَّـتِنا نَأوِي إِلَيهِ لِيَنـشُرَ لَنا رَبُّنا مِن رَحمتِه وَيُهيِّئَ لَنا مِن أَمرِنا رَشَداً ، فنَكُونَ بِذَلِكَ فِتيَةً آمَنُوا بِرَبِّهِم فيَزِيدَهُم الله إِلَى هُداهُمْ هُدَى .

مَعَ مُلَاحَظَةِ أَنَّ بَعض هَذِهِ الجَلْسَاتِ كَانَت مَع أَفرَادٍ أَو مجمُوعَاتٍ أَو رَسَائِلَ لأُنَاسٍ مُعيَّنِينَ .. وَلِذَلِكَ جَاءَ بَعضُهَا بِصِيَاغَةِ التَّوجِيه لِلمُرِيدِ وَالطَّالِبِ ، وَبَعضُهَا بالصِّيَاغَةِ العَامَّةِ .. وَكَذَا بَعض الأَلفَاظِ الدَّارِجَةِ تَرَكتُهَا عَلَى حَالِهَا مَع تَعلِيقٍ عَلى مَعنَى بَعضِهَا لِلتَّوثِيق .

وَختاماً .. لا يَسعُنِي إِلا أَنْ أَتَوجَّه بِالشُّكرِ لِكلِّ مَن سَاهَمَ فِي إِخراج هَذا المجمُوعِ مِن هَذِهِ الأَنفاسِ المبارَكَةِ وَأَخُصُّ بِالذِّكرِ مِنهُم السَّيِّدَ الفاضِلَ الدّاعِيةَ **مُحمَّد بنَ عَبدِالرَّحمنِ السَّقاف** حَفِظَه الله وَرَعاه.

أَسأَلُ اللهَ سُبحانَهُ وَتَعالى أَن يُتحِفَ هَذا العَمَلَ بِقَبُولٍ مِن عِندِهِ أَنالُ بِهِ رِضاه ، وَأَنْ يجعَلَهُ خالِصاً لِوجهِهِ الكَرِيم تَقَرُّ بِه عَينُ مَن تَراه ، وَأَن يجِدَ فِيهِ كُلُّ صادِقٍ مُقبِلٍ عَلى الله مُبتَغاه ، وَصَلَّى الله وَسَلَّم عَلى سَيِّدِنا محمَّد وَعلى آلِهِ وَصَحبِهِ صَلاةً مُستَمِرَّةً دائِمَةً إِلى يَومِ نَلقاه .

كَتَبَهُ بِمَدِينَةِ تَرِيم ـ حَضرَموت ـ اليَمَن

فَهمِي بن عَلِي بن عَبيدُون

٢٣/ ٥/ ١٤٢٨هـ

٩/ ٦/ ٢٠٠٧م

الباب الأول

مدخلٌ واستفتاحٌ
لفقه الدعوة وشرف القيام بها

في عالميّة رسالة الحبيب صلّى الله عليه وسلّم

قال رضي الله عنه ونفعنا به جاءَ نَبيُّنا الجامعُ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الَّذي مِن جَمعِهِ .. حَمَلَ رِسالَةً استوعَبَتْ جَميعَ المكَلَّفينَ مِن الجِنِّ والإنسِ إلى يَومِ القِيامَةِ ، عَلَى مُختَلَفِ عُقُولِهِم وأَفكارِهِم وأَزمِنَتِهِم وأَعصارِهِم وتَقلُّبِ أَطوارِهِم إلى يَومِ الدِّين .

وَلَقَد صَرَّحَ بِهَذِهِ الخُصُوصِيَّةِ صاحِبُ هَذِهِ المزِيَّةِ ، وَقالَ فِي أَقوالِهِ الصَّحيحَةِ المَروِيَّةِ «وَكانَ الرَّسُولُ يُبْعَثُ إِلى قَومِهِ خاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلى النّاسِ كافَّةً»(١) ، وَقالَ فِي اللَّفظِ الآخرِ «وَبُعِثْتُ إِلى الخَلْقِ كافَّةً»(٢) صَلىَّ الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم .

وَفِي ذَلِكَ إِشارَةٌ عَجِيبَةٌ إِلى اتِّساعِ مَكانَتِهِ وَقُوَّةِ ما تَحَمَّلَ ، حَتَّى يَشتَرِكَ فِي التَّشَرُّفِ بِالإيمانِ بِرِسالَتِه أَصنافٌ مِن المخلُوقاتِ غَيرِ المكَلَّفينَ وَغَيرِ المخاطَبينَ كالحَيَواناتِ والنَّباتاتِ والجَماداتِ ، وَلَقَد شَهِدَتْ بِالرِّسالَةِ لِخَيرِ البَرِيّاتِ صَلى الله وَسَلَّمَ وَبارَكَ عَلَيهِ وَعَلَى آلِه ، بَلْ جاوَزَتْ مُجَرَّدَ التَّصديقِ والشَّهادَةِ بِأَنَّه رَسُولُ الخالِقِ إِلى مُستَوى الشَّوقِ وَمَعنَى الرَّغبَةِ فِي القُربِ مِنه وَفِي لِقائِه ، والعَجَبُ أَنَّ حَنِينَ الجِذعِ لَم يَكُنْ مِن مَكانٍ مُنْتَزَحٍ بَعِيدٍ ، بَلْ إِنَّما عَلَى فِراقِ مُلامَسَةِ الجَسَدِ الشَّرِيفِ الَّذي لَم يَبعُدْ عَنه إلا أَذرُعاً مَعدُودَة ، وَهوَ قَرِيبٌ مِنهُ عَلَى المِنبَرِ يَسمَعُ صَوتَهُ الشَّرِيفَ ، وَيَرَى شَخصَهُ العَظِيمَ المنِيفَ ، وَلَكِن مَعَ ذَلِكَ ما حَمَلَ هَذا الجِذعُ مِن شُعُورٍ أَدَّى بِهِ إِلى أَنْ لا يُطِيقَ أَنْ يَبعُدَ عَنهُ وَلَو أَذرُعاً مَعدُوداتٍ ، وَأَنْ يَضِجَّ وَيَحِنَّ حَتَّى يَكادَ أَنْ يَنشَقَّ فَلا يَسكُتَ حَتَّى يَضُمَّه إِلى صَدرِهِ حَبِيبُ الرَّحمنِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، وَيُشَبِّهُ الصَّحابَةُ سُكُوتَهُ بِالأُمِّ تَضُمُّ وَلَدَها إِلى صَدرِها فَيَسكتُ شَيئاً فَشَيئاً حَتى يَنقَطِعَ بُكاؤُهُ ،

---

(١) رَواهُ البُخارِيّ وَمُسلِم .

(٢) رَواهُ مُسلِم والتِّرمِذي عَن أَبِي هُرَيرَة .

فَكَذَلِكَ لاحَظوا الجِذعَ كَيفَ يَسكُنُ أَنينُه قَليلاً قَليلاً الَّذِي كادَ أَنْ يَنشَقَّ بِسَبَبِه ، حَتَّى هَدَأَ الجِذعُ وَسَكَنَ وَسَكَت .

تَحدَّثَ جَدُّ الحَسَنِ وَقالَ عَن هَذا المَقامِ «لَو لَمْ أَضُمَّهُ إِلَيَّ لَبَقِيَ يَحِنُّ إِلى يَومِ القِيامَةِ»[١] صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، فَما سَكَنَتْ لَوعَةُ الجِذعِ إلاّ بِضَمِّ صَدرِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ، فَسُبحانَ الله ! حَتَّى الجَماداتُ أَحَبَّتْه ، حَتَّى الجُذُوعُ حَنَّتْ إِلَيهِ ، وَأَرادَتْ اللِّقاءَ وَما سَكَنَتْ إلا بَعدَ أَنْ ضَمَّها إِلى صَدْرِهِ الشَّرِيفِ ، فَما أَعظَمَ مَقامَه عِندَ رَبِّهِ جَلَّ جَلالُه وَتَعالَتْ عَظَمَتُه ، هَذِهِ المَحَبَّةُ تَسَرَّبَتْ إِلَى الجَماداتِ الَّتِي خَلَقَها الله ؛ لأَنَّها عَلِمَتْ أَنَّه لَيسَ أَكرَمُ عَلَى الله مِنه صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم وَمَن والاه واهتَدَى بِهُداه .

فيما يتعلّق بمعاني خصوصيّة النّسبة إلى رسالة الحبيب ﷺ

وقال رضي الله عنه ونفعنا به النِّسبَةُ إِلى حَبِيبِ الرَّحمَنِ الَّتِي جاءَت بِها الرِّسالةُ نِسبَةٌ قَلبِيَّةٌ ، وَنِسبَةٌ رُوحِيَّةٌ ، مَعَ أَهلِ دائِرَةِ الاستِجابَةِ لِهَذِهِ الرِّسالَةِ السَّماوِيَّةِ المُتَمَثِّلَةِ فِي الحَضرَةِ المُحَمَّدِيَّة .

وَكانَتْ نِسبَةُ هَذِهِ الاستِجابَةِ .. نِسبَةً بَينَهُم وَبَينَ رَبِّ الأَرضِ والسَّماءِ ، يُعلِي لَهم بِها الشَّأنَ هُنا وَهُناك فَضلاً وَكَرَماً ، وَهَذِهِ النِّسبَةُ هِيَ مَعَ كُلِّ مُؤمِنٍ مِنَ المؤمِنِينَ مِن أَهلِ الأَرضِ والسَّماءِ ، تَمَيَّزَتْ واختَلَفَتْ ، فَكانَ أَشرَفُ النَّسَبِ نِسبَةَ المُنْطَوِينَ فِي دائِرَةِ سَيِّدِنا مُحَمَّد صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم مِن خُصُوصِ أُمَّتِه ، فَكانَ لَهم بِهَذِهِ الخُصُوصِيَّةِ تَمَيُّزٌ عَنِ الأُمَمِ السّابِقَةِ ، وَتَمَيُّزٌ عَمَّن قَبلَهُمْ مِنْ أَنواعِ الخَلائِقِ الَّذِينَ كانَت مَعَهم نِسبَةُ التَّوحِيدِ ، وَنِسبَةُ الإِيمانِ بِالمَلِكِ المَجِيدِ ، غَيرَ أَنَّنا مَعشَرَ الأُمَّةِ كانَ لِنِسبَتِنا قُوَّةٌ مِن حَيثُ انتِماؤُنا لِخاتَمِ النُّبوةِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم ، فالحَمدُ لله عَلَى هَذِه المِيزَةِ وَهَذِه الخُصُوصِيَّة .

---

(١) قالَ صَلىَّ الله عَلَيهِ وَسَلَّم : «لَو لَمْ أَحتَضِنه لَحَنَّ إِلى يَوْمِ القِيامَةِ» رَواهُ أَحمَد .

في شأن ارتباط مجالس المؤمنين بجلسات نبيّهم المصطفى ﷺ

وقال رضي الله عنه ونفعنا به إنّ مجالِسَنا هَذه إنّما هِي سِلسِلةٌ مِن تِلك السَّلاسِلِ ، جَعلَها اللهُ حَلَقةً مُحكَمةً مَربُوطَةً بأُولئِك القَومِ ، وحَقائِقُ ما فِي المجلِسِ إنّما كان مَعدِنُها تِلكَ المجالِسَ، ومَعدِنُها ذلِكُم الجالِسُ بَينَ أظهُرِهِم ، وَهوَ الجالِسُ بِرُوحِهِ بَينَ أَحبابِهِ حَيثُما كانُوا وَأَينَما كانُوا ، وَهِي الرُّوحُ الَّتِي ما شَهِدَتِ الأَكوانُ أَوسَعَ مِنها ، وَلا أَكرَمَ مِنها ، وَلا أَطهَرَ مِنها ، وَلا أَبرَكَ مِنها ، رُوحُ مُحمَّدٍ المختارِ صَلَّى الله وَسَلَّم عَلَيه وَعَلَى آلِه.

إِنْ بَرأَ اللهُ أَرواحاً لِلأَنبياءِ يَحضرُ بِها أَحدُهُم فِي بَيتِ المَقدِسِ أَو يَحْضُرُ بِها فِي السَّماواتِ العُلَى ، أَو بَرأَ اللهُ أَرواحاً لخاصَّتِهِ مِن غَيرِ الأَنبياءِ كَجَعفَرَ بنِ أَبي طالِبٍ حَتى تَطِيرَ مِن الأُردُنِ إِلى المدِينَةِ المنَوَّرَةِ فَتُسلِّمَ عَلَى الحَبِيبِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم[١] وَتُخَاطِبَهُ وَتَرجِعَ فِي مِثْلِ لَمحِ البَصَرِ ، فَرُوحُ محمَّدٍ أَكبرُ مِن ذَلِكَ وَأَسرَعُ وَأَوسَعُ ، وَأَعظَمُ قُدرَةً عَلَى التَنَقُّلِ والخِطابِ ، فَهوَ رُوحُ المخاطَبَةِ مِن أَهلِ الأَرضِ والسَّماواتِ بِالصَّلَواتِ والتَّسلِيماتِ ، وَإِنَّ اللهَ يُسَلِّمُ عَلَيهِ فَتَتَلَقَّى رُوحُه سَلامَ بارِئِهِ الَّذِي أَكرَمَهُ وَجَعلَهُ أَقرَبَ الخَلقِ إِلَيهِ ، وَأَكرَمَ العِبادِ عَلَيهِ، وإِنَّ اللهَ لَيُسلِّمُ عَلَيهِ ، وَإِنَّ الملائِكَةَ لَيُسَلِّمُون عَليه ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : «وَما مِنْ مُسَلِّمٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلاّ رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ»[٢] .

(١) الحديث: إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم صَعَدَ المنبرَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثنى عَلَيهِ ثُمَّ قالَ : «أَيهُّا النّاسُ.. إِنَّ جَعفرَ بنَ أَبِي طالِبٍ مَع جِبرِيلَ وَمِيكائِيلَ لَه جَناحانِ عَوَّضَه الله مِن يَدَيْهِ يَطِيرُ بِهِما فِي الجَنَّةِ حَيثُ شاءَ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ فَأَخبَرَ كَيفَ كانَ أَمرُهُم حِينَ لَقِيَ المشرِكِينَ، فاستَبانَ لِلنّاسِ بَعدَ ذَلِكَ أَنَّ جَعفراً لَقِيَهُم، فَسُمِّيَ جَعفَرَ الطَّيّارَ فِي الجَنَّةِ ذا جِناحَيْنِ يَطِيرُ بِهِا حَيثُ شاءَ مَخضُوبَةٌ قَوادِمُهُ بِالدِّماءِ» رَواهُ الطَّبَرانِي .

(٢) رَواهُ أَبُوداوُدَ عَن أَبِي هُرَيرَةَ بِإِسنادٍ صَحِيحٍ .

من معاني «الواحِديّة» و«الإحاطة»

وقال رضي الله عنه ونفعنا به (١) الصّباحُ مُتّصِلٌ بالمساءِ ، والمساءُ متّصِلٌ بالصّباحِ ، هَل مِن انفِصالٍ بينَهُما ؟ ثُمَّ النّاسُ في عالَمِهِم هَذا ـ الكوكَبِ الأرضِيِّ ـ لا يَخلُو وَقتٌ عَن صَباحٍ وَمَساءٍ ، وَهَذا يُشيرُ إلى مَعنىً في الواحِديَّةِ ، وَمَعنىً في الإحاطَةِ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] .

وَلِذَلِكَ إذا كانَ وُقوفُكَ صَحيحاً عَلَى صَباحِ مَعرِفَةٍ ، أَو صَباحِ وَجْدٍ ، أَو صَباحِ ذَوقٍ ، فَلابُدَّ أَنْ يَتَّصِلَ بِمَسائِهِ ، وَإذا صَحَّ لَكَ ذَلِكَ اتَّصَلَ بِصَباحِهِ ، وَلا تَزالُ بَينَ صُبحٍ وَمَساءٍ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢] ، وَكَذَلِكَ الحَرَكَةُ في الدَّعوَةِ وَأَنْواعُ الطّاعاتِ لها صَباحٌ وَمَساءٌ ، فاللهُ جَعَلَ اللَّيلَ سَكَناً ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:١٠-١١] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢] .

فَبَقِيَ عَلَى قَدرِ القُربِ مِنهُ ، فَهْمُ التَّفصيلِ عَنهُ ، فَعَجَبٌ لِمَن يُؤمِنُ باللهِ وَقُرآنِهِ يَتلُو مِثلَ هَذِهِ الآيَةِ ثُمَّ يَتَعَجَّبُ في سِعَةِ مَعرِفَةِ المقرَّبِينَ ، وَإذا لَم يَتَلَقَّ التَّفصيلَ ذَلِكَ العَبدُ المقرَّبُ مِن رَبِّهِ ، فَيَكونُ اللهُ قَد فَصَّلَه لِمَن ؟ إنْ شاءَ اللهُ تَعلُو الهِمَّة .. فَترَتَقُوا إلى القِمَّة.

كانَ سَيِّدُنا العَيدَرُوسُ دائِماً يَتَمَثَّلُ بِقَولِ الشّاعِرِ :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزائِمُ ... وَتَأْتِي عَلَى قَـدْرِ الكِرامِ المكارِمُ (٢)

---

(١) لَيلَةَ الأَربعاءِ ١٨ مِن شَهرِ صَفَر ١٤٢٠ هـ.

(٢) البَيتُ مَطلَعٌ مِن قَصيدَةٍ لِلمُتَنَبِّي وَيَلِيها:

وَتَعظُمُ في عَينِ الصَّغيرِ صِغارُها ... وَتَصغُرُ في عَينِ العَظِيمِ العَظائِمُ

أُنظُر دِيوانَ المتَنَبّي (٢: ١٣٨) .

وَفِي ذَلِكَ إشارَةٌ إِلَى ما شَرَعَ الحَقُّ تَعالَى لأَربابِ الإِيمانِ مِن أَهلِ الذَّوقِ والتَّمكِينِ ، مِن اقتِحامِ لُجَجِ الوِجهاتِ بِالصِّدقِ والكُلِّيّاتِ ، وَأَنْ لا يَقنَعُوا وَلا يَزهَدُوا فِي إِفرادٍ لِلقَصدِ ، فَمَعَ اقتِحامِهِم لِتِلكَ البُحُورِ لا يَقصِدُونَ مِنها شَيئاً ، وَلا يَقِفُونَ عِندَ شَيءٍ مِنها ، هُم يَقِفُونَ عَلَيها وَلا يَقِفُونَ عِندَها ، فَيَقِفُونَ عَلَيها اعتِباراً بِها ، وَعُبُوراً مِنها ، وَمُرُوراً عَلَيها ، وَمُطالَعَةً فِي صَفَحاتِها ، واطِّلاعاً عَلَى أَسرارِها ، وَعُرُوجاً بِها وَعَلَيها وَمِنها .. وَهَكَذا ، اللهُ يُثَبِّتُ أَقدامَنا وَإِيّاكُم .

فيما يتعلق بالمخاطبة والتذكير

وقال رضي الله عنه ونفعنا به [1] كَلامُ النّاسِ وَما يَصدُرُ مِن أَلسِنَتِهِم وَأَفواهِهِم .. هُو إِنطاقٌ مَصدَرُهُ الخَلّاقُ ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فُصِّلَت:٢١] .

عِندَ صُدُورِ هَذِهِ الكَلِماتِ ، وَبُرُوزِ هَذِهِ الأَلفاظِ ، تَحصُلُ تَجاذُباتٌ واتِّصالاتٌ بَينَ القَلبِ واللِّسانِ ـ أَي بَينَ الباطِنِ والظّاهِرِ ، وَبَينَ الرُّوحِ والجَسَدِ ، وَبَينَ عالَمِ الغَيبِ والشَّهادَةِ ـ فَتَحصُلُ فِي العالَمَيْنِ مِمّا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ النّاطِقِ والمتَكَلِّمِ شُؤُون .

وَلِهَذا ذَكَرَ الحَقُّ الهِدايَةَ إِلَى القَولِ الطَّيِّبِ فَقالَ عَن أَهلِ ذَلِكَ المقامِ الشَّرِيفِ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [الحج:٢٤] . هُدُوا إِلَيهِ فاهتَدَوا وَهَدَوا بِهِ ، والطَّيِّبُ مِنَ القَولِ : ما كانَ أَنسَبُ لِلحالِ والشَّأنِ الَّذِي فِيهِ المُتَكَلِّمُ ، فَما كانَ أَنسَبَ فَهوَ أَطيَبُ ، وَقَد يَكُونُ ذَلِكَ القَولُ الأَطيَبُ هُوَ السُّكُوتُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحوالِ .

وَلِحُصُولِ هَذِهِ الشُّؤُونِ عِندَ التَّكَلُّمِ والمخاطَبَةِ ، بِمَعنَى عِندَ إِنطاقِ الحَقِّ لِلِسانٍ لَحمِيَّةٍ مُتَّصِلَةٍ بِبِضْعَةٍ قَلبِيَّةٍ لها حِبالٌ إِلَى سَرائِرَ غَيبِيَّةٍ ، تَتَواصَلُ العَوالِمُ الشُّهُودِيَّةُ بِالغَيبِيَّةِ ، فَتَحْصُلُ شؤونٌ فِي العالَمَيْنِ لها تَعَلُّقٌ بِذَلِكَ الشَّخْصِ النّاطِقِ .

---

(١) فِي ٧ مِن شَهرِ رَجَب ١٤٢١ هـ.

مِن هُنا كانَ لِلكَلامِ أقوى الأثَرِ وَأعظَمُ الخَبَرِ في استِقامَةِ السَّيرِ ، وَتَطهيرِ الضَّمائِرِ، وَتَنقِيَةِ السَّرائِرِ ، وَتَنويرِ البَصائِرِ ، والتَّصفِيَةِ عَنِ الكُدُوراتِ ، وَكانَ في اعوِجاجِ هَذا اللِّسانِ أكبَرُ الأثَرِ في تَرادُفِ الظُّلُماتِ ، وَتَواكُبِ جُيُوشِ الغَفَلاتِ ، وَتَوسِيعِ وَتَكثِيفِ الحُجُبِ إلى غَيرِ ذَلِكَ مِن المَكارِهِ الظّاهِرَةِ والباطِنَةِ .

فَصارَ لِلِّسانِ شَأنٌ وَأيُّ شَأنٍ قالَ عَنه سَيدُ الأكوانِ : «أَلا أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ، كُفَّ عَلَيْكَ هَذا»[1] فالله أنْطَقَ كُلَّ شيءٍ وَلَكِنْ أنتَ أنطَقَكَ عَلَى وَصْفٍ مَخصُوصٍ ، ثُمَّ تَستَشعِرُونَ نِعمَةَ الله عَلَيكُم في أنَّ هَيئَةَ النُّطقِ وَصُورَتَه مِن ألسِنَتِكُم شابَهَتْ هَيئَةَ النُّطقِ مِن صَفوَةِ الخَلقِ ، وَتِلكُم خُصُوصِيَّةٌ وَمَزِيَّة .

في جلسة مع طلبة كتاب «المنهاج» عند الإمام المهاجر إلى الله أحمد بن عيسى

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[2] ما تُرِيدُونَ أنْ نَقُولَ لَكم وَلَنا وَإيّاكم سَنَواتٍ نَسمَعُ فِيها صَدَى صَوتِ المُنادِي ؟! والدَّعوَةُ هَذهِ بِحَقِيقَتِها يُوصِلُ صَدَى صوتِها في العالَمِ إلَى الخَلقِ أربابُ الاختِصاصاتِ مِنَ الَّذينَ يُبْدِيهِمُ الله عَلَى ظَهْرِ هَذِهِ الأَرضِ ، يُبَلِّغُونَ النّاسَ ويُوصِلُونَ إليهِم هَذِهِ المَعانِي .

فَكُلُّ ما يُوصِلُونَه إلَيهِم بِهذِهِ الألْسُنِ الخَلقِيَّة ، بِهَذِهِ الألْسُنِ اللَّحمِيَّة ، بِهَذِهِ الألْسُنِ الجَسَدِيَّة .. هوَ صَدًى لِحَقِيقَةِ ذَلِكَ النِّداءِ ، والمنادِي الَّذِي يَقُولُ عَنه أُولُوا الألبابِ ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران:١٩٣]، هُوَ المَخصُوصُ مِن حَضرَةِ القُدْسِ بِدَعوَةِ الخَلقِ كُلِّهِم ، وَهوَ الَّذِي جَعَلَه الحَقُّ سُبحانَهُ وَتَعالَى السَّبَبَ الموصِلَ

---

(١) رَواهُ التِّرمِذِي وَقالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(٢) في لَيلَةِ الأحَدِ مِن شَهرِ ذِي القِعدَةِ، وكتابُ «المنهاج» هو «منهاجُ الطّالِبين» للإمامِ النَّوَوِيّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى، وهو مِن أَجَلِّ كُتُبِ الفِقهِ الشّافِعِيّ وكذا من مَناهِجِ التّدرِيسِ في دَارِ المُصْطَفَى.

لحقائقِ ندائِهِ لأَربابِ القُلُوبِ ، فيَبقى عامَّةُ الخَلقِ عَلَى ظَهرِ هَذِهِ الأَرضِ تَقُومُ عَلَيهِم الحُجَّةُ بِسَماعِ هَذِهِ الأَصواتِ ، وَوُصُولِ هَذا الصَّدَى عَلَى أَيدِي المُبَلِّغِين إِلَيهِم فِي أَشكالٍ مُختلِفَةٍ .

كُلُّ قَوْلٍ مِنْ تِلكَ الأَقوالِ لا يُفِيدُ الإِفادَةَ وَلا يُؤَثِّرُ الأَثَرَ إِلا إِنْ تَمَّ ذَلِكَ بِارتِباطٍ واتِّصالٍ بِشُيوخٍ مِنْ وَرَثَةِ الحَبِيبِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، أُولئِكَ الَّذِين لَهُم قُلُوبٌ أَصغَتْ إِلَى حَقائِقِ النِّداءِ الَّذِي تَوَجَّهَ لهم مِنَ المَلِكِ الأَعلَى سُبحانَه وَتَعالَى .

إِلا أَنَّ الحَقَّ سُبحانَه وَتَعالَى أَنابَ النِّيابَةَ المطلَقَةَ فِي بَلاغِ نِداءاتِهِ حَبِيبَهُ المصطفَى صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، ثُمَّ أَظهَرَ مِنْ ذَلِكَ الحَبِيب هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَسمَعُونا هَذا النِّداءَ ، وَأَوصَلُوا إِلينا حَقائِقَ هَذِهِ الدَّعوَة .

فالنِّداءُ الَّذِي نَسمَعُهُ وَإِيّاكُم مَضَتْ عَلَينا وَعَلَيكُم سَنَواتٌ وَنَحنُ نَسمعُهُ بِهَذا الوَجهِ وَبِهَذا الوَصفِ ، لَكِنْ يَنبَغِي أَنْ نَصِلَ إِلَى مَرحَلَةٍ نُدرِكُ بِها حَقِيقَةَ هَذا النِّداءِ، وَنَرتَقِيَ إِلَى سَماعِ شَيءٍ مِنْ مَعانِيهِ ، وَإِدراكِ بُعْدِ ذَلِكُم الصَّدَى ، وَنَتَّصِلَ بِشَيءٍ مِنْ حَقائِقِهِ ، وَنَعلَمَ المنادِيَ الَّذِي يُنادِي وَحَقِيقَةَ نِدائِهِ ، أَو نَتَّصِلَ بِشَيءٍ مِنْ مَعانِي تِلكُم الحَقِيقَة ، حَتَّى نَتَهيَّأَ وَإِيّاكم لِلإِبلاغِ الَّذِي تَتَهيَّؤُونَ بِهِ فِي واجِبِكُم بِما يَتَعَلَّقُ بِشَأْنِ هَذِهِ الرِّسالَةِ العَظِيمَةِ ، النَّبوِيَّةِ ، المحمَّدِيَّةِ ، الأَحمَدِيَّةِ ، المصطَفَوِيَّةِ ، الكَبِيرَةِ ، الجَلِيلَةِ، الَّتِي خَتَمَ اللهُ بِها الرِّسالاتِ ، وَأَشرَقَ شَمسُها فاندَرَجت فِيهِ بُدُورُ الرِّسالاتِ كُلِّها ، وَما مِنْ رِسالَةٍ لِنَبيٍّ مِنَ الأَنبِياءِ إِلا وانْدَرَجَتْ فِي أَنوارِ هَذِهِ الرِّسالَةِ الَّتِي حُمِلَت إِلَيكُم عَلَى يَدِ الحَبِيبِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم .

وَأَنتُم إِذا تَهَيَّأْتُم إِلَى هَذِهِ المعانِي الَّتِي تُدْعَونَ إِلَيها ، والَّتِي تُحدَوْنَ إِلَى الارتِقاءِ فِي مَراقِيها ، كانَت الآثارُ فِي تَبلِيغِكُم لمن حَوالَيكُم غَيرَ الآثار ، وَكانَت الحالاتُ الَّتِي

تُبلِّغُونَ بها غيرَ الحالاتِ ، وتَهيَّأتُم لِلخِدمَةِ فِي تَجدِيدِ هَذِهِ الرِّسالَةِ عَلَى رَأسِ هَذا القَرنِ الَّذِي واجَهنا وَواجَهكُمْ ، وواجَهَ هَذِهِ الأُمَّةَ كُلَّها ، لابُدَّ لَنا مِنِ الْتِفاتٍ إِلى حَقِيقَةِ النِّداءِ ، فالمنادِي يُنادِي .

فالَّذِي تَسمَعُونَه الآنَ مِنْ صَوتِي وَكَلِماتِي الَّتِي أُلقِيها عَلَيكُم ، هَذِهِ كُلُّها قَوالِبُ لَها رُوحٌ، هَذِهِ كُلُّها صُوَرٌ لَها مَعانٍ ، هَذِهِ كُلُّها حِسٌّ لَه باطِنٌ ، هَذِهِ كُلُّها مَظاهِرُ لَها جَواهِرُ، وَهَذِهِ كُلُّها الَّتِي تَسْمَعُونَها إِشاراتٌ لَها رُمُوزٌ تَرْمُزُ لَها وَمَعانٍ تَهْدِفُ إِلَيها، فَلابُدَّ أَن نَطلُبَ وَإِيّاكُم مَعانِيَ هَذا السُّمُوِّ إِلى إِدراكِ هَذِهِ المعانِي مِنْ وَجهٍ أَكبَرَ مِمّا كُنْتُمْ تُدْرِكُونَ .

الحمدُ للهِ عَلَى وُصُولِ هَذا النِّداءِ إِلينا وَإِلَيكُم ، وامتِدادِ هَذا الحَبلِ ، لَكِم بَعْدَ ذَلِكَ مَراتِبُ تَختَلِفُونَ أَنتُم فِيها ، فِي استِعدادِكُم ، وَفِي تَحمُّلِكُم ، وَفِي إِقبالِكُم ، وَفِي صِدقِكُم، وَفِي نَزاهَتِكُم ، وَفِي صَفائِكُم ، وَفِي مُصافاتِكُم ، لها مَراتِبُ كُبْرَى يَخْتَلِفُ الواحِدُ عَنِ الثّانِي ، كُلٌّ لَه فِيها مَرتَبَةٌ وَكُلٌّ لَهُ فِيها مَقامٌ ، وَكُلٌّ لَه فِيها مَنزِلٌ يَنزِلُه ، وَعلَى حَسَبِ ما هُيِّئَ لَه وَما قُدِّرَ لَه فِي الأَزَلِ .

كُلٌّ عَلَى قَدْرِ الصَّفا والاقْتِدا ... نالَ الهُدَى فِي أَحْسَنِ اسْتِقْبالِ[1]

وَفِي استِقبالِهِ -لِهَذا الهُدَى- يَبدَأُ اضْمِحْلالُ الكائِناتِ مِنْ حَيثُ الاستِقلالِ ، فَلا يَبْقَى عِندَه شَيءٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفسِه قَطّ ، وَيَعلَمُ أَنَّ الموجُودَ الحَقَّ صاحِبَ الوُجُودِ المطلَقِ الَّذِي لا أَوَّلَ لِوُجُودِهِ وَلا نِهايَةَ لِوجُودِهِ ، هُو الَّذِي أَوجَدَ الكائِناتِ كُلَّها، فَيَبدَأُ اضْمِحْلالُ الاستِقلالِ لِجَمِيعِ الكائِناتِ ، حَتَّى يَرتَقِيَ إِلى سَلالِمَ يُدرِكُ فِيها مَعانِيَ نِداءِ المنادِي الكَبِيرِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم الَّذِي يَقُولُ لَنا : أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قالَها

---

(١) البَيتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإمامِ عَبدِ الرَّحمنِ بنِ عَبدِ اللهِ بِلفَقِيه مَطلَعُها :

سُبحانَ رَبِّ العِزَّةِ المُتَعالِي ... عَنْ كُلِّ ما يَصِفُونَ مِن أَقْوالِ

اُنظُر «فَتحَ الخَلّاقِ وَرَفعَ الأَستارِ» ص١٣١ .

الشّاعِرُ كَلِمةُ لَبِيدٍ : أَلا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ[1] .

والعالَمُ يَرُوجُ بِأَنواعٍ مِنْ وَطْئاتِ النُّفُوسِ ، وَوَطْئاتِ الشَّهَواتِ ، وَوَطْئاتِ الأَهْواءِ عَلَى الخَلقِ ، وَيَقَع كَثِيرٌ مِنَ الخَلائِقِ صَرْعَى فِي تِلكُم السّاحاتِ لِهذِهِ الوَطْئاتِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي تَطرَأُ عَلَيهِم ، وَلا إِنقاذَ مِنْ ذَلِكَ إِلا بِإِيصالِ النِّداءِ وَحدَهُ إِلَى قُلُوبِ الخَلقِ .

وَنَحنُ الآنَ وَإِيّاكُم عَلَى مَشارِفِ انْتِشارِ أَنْوارِ عِنايَةٍ .. يُنقِذُ اللهُ بِها مَنْ يَشاءُ ، وَيُدخِلُهُم بِها فِي دَوائِرَ ما يَعرِفُونَ فِيها إِلا التَّواضُعَ ، وَلا يَعرِفُونَ فِيها إِلا الإِنابَةَ ، وَلا يَعرِفُونَ فِيها إِلا الاسْتِقامَةَ ، وَلا يَعرِفُونَ فِيها إِلا سعةَ الصَّدرِ ، وَلا يَعرِفُونَ فِيها إِلا كثرةَ الاحْتِمالِ ، وَلا يَعرِفُونَ فِيها إِلا مَدْحَ مَنْ يَذُمُّ ، وَلا يَعرِفُونَ فِيها إِلا الإِحْسانَ لِمَن يُسِيء ، وَلا يَعرِفُون فِيها إِلا أَنَّ كُلَّ ما يَجرِي حَوالَيهِم يَجرِي بِحُكْمِهِ، وَيَعرِفُونَ الأَدَب مَع كلِّ ما يَجرِي لَهم ، وَما يَجرِي حَولهم ، وَما يَكونُ فِي هَذه الكائناتِ ، عَلَى ثِقةٍ مِنهُم وَعَلَى يَقِينٍ وَعَلَى اعتِمادٍ كامِلٍ عَلَى الواحِدِ جَلَّ جَلالُه ، بِحِبالِ الاتِّصالِ

---

(١) عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلىَّ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم قالَ : «أَصدَقُ كَلِمَةٍ قالَها شاعِر كَلِمَةُ لَبِيدٍ : أَلا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

وَرَوَى السِّلَفِي فِي «مَشيَخَتِهِ البَغدادِيَّة» عَن يَعلَى بنِ جَرادٍ قالَ: أَنشَدَ لَبِيدُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم قَولَهُ : أَلا كُلِّ شَيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ . فَقالَ : «صَدَقتَ» ، فَقال : وَكُلّ نَعِيمٍ لا مَحالَةَ زائِلُ . فَقالَ: «كَذَبتَ ، فَنَعِيمُ الآخِرَةِ لا يَزُول» .

وَهَذا البَيتُ مِن قَصِيدَةٍ مَدَحَ بِها النُّعمانَ مَطلَعُها :

أَلا تَسأَلانِ المرءَ ماذا يُحاوِلُ ... أَنَحبٌ فَيُقضَى أَم ضَلالٌ وَباطِلُ

نَعِيمُكَ فِي الدُّنيا غُرُورٌ وَحَسرَةٌ ... وَعَيشُكَ فِي الدُّنيا مُحالٌ وَباطِلُ

أَرَى النّاسَ لا يَدرُونَ ما قَدرَ ماهُمُ ... بَلَى كُلُّ ذِي رُوحٍ إِلَى اللهِ واصِلُ

أَلا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ ... وَكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحالَةَ زائِلُ

بِنَبِيِّهِ وَأَولِيائِهِ ، والارتباطِ بِسَلاسِلِ الصِّلَةِ بِحَضرَةِ النُّبوَّةِ وَحَضرَةِ الرِّسالَةِ ، الَّذِينَ أَشرَقَتْ أَنوارُهُم ، فَقَد عَرَفنا ما عَرَفنا ، وَقَدَرْنا أَنْ نَتكلَّمُ بِما نَتكَلَّمُ، أَو نَتَّصِلُ أَو نَجتَمِعُ أَو يَقُومُ ما يَقُومُ مِنْ هَذِهِ المظاهِرِ الَّتِي المقصُودُ مِنها أَن تُؤَدِّيَ إِلى الإِدخالِ في دَوائِرِ العِنايَةِ .

إِدخالُ طَوائِفَ كَثِيرَةٍ مِنَ الإِنسِ والجِنِّ ، مِنَ العَرَبِ والعَجَمِ ، مِنَ الشَّرقِ والغَربِ بِتَرتِيبٍ مِنَ الحَقِّ سُبحانهُ وَتَعالَى وَحُكمِهِ ، وَخُطوَةٌ كُبرَى يَقُومُ عَلَيها تَجدِيدُ هَذا الدِّينِ وَهَذِهِ الرِّسالَةِ فِي العالَمِينَ ، فَضلٌ مِنَ الله سُبحانَه وَتَعالَى يَعرِفُهُ مَنْ يَعرِفُه ، وَيَتَأَهَّلُ لَه مَنْ يَتَأَهَّلُ لَه ، وَيُدرِكُه مَنْ يُدرِكُه .

وَفِي القِيامَةِ تَصطَفُّ صُفُوفُ أَهلِ حَقِيقَةِ هَذا النِّداءِ ، فَيَجتَمِعُ حولَهم وَيَدخُلُ دَوائِرَهُم مَنْ أَحسَنَ الاستِماعَ إِلى الصَّدَى ، أَو أَحسَنَ الإِجابَةَ ، أَو تَعلَّقَ أَو تَشَوَّقَ أَو تَخلَّقَ أَو تَحقَّقَ ، أَو نالَ نَصِيبَه مِنْ مَعانِي هَذا النِّداءِ فَيَصطَفُّونَ صَفّاً واحِداً مِنْ أَوَّلِهم إِلى آخِرِهِم مِمَّن يَأتِي بَعدَنا إِلى حُدُودِ المدَّةِ الَّتِي قُدِّرَ أَنْ يَبقَى فِيها هَذا الخَيرُ عَلَى ظَهرِ هَذِهِ الأَرضِ ، ثُمَّ يَأذَنُ الحَقُّ بِرَفعِهِ فَلا يَبقَى فِي الأَرضِ شَيءٌ مِنْ هَذا النُّورِ وَلا مِنْ هَذا الـخَيرِ ، وَيَكُونُـونَ شِـرارَ الخَلقِ وَعَلَيهِم تَقُومُ السّاعَة .

وَتَتَهَيَّؤونَ أَنتُم لِذَلِكَ بِصِدقِ إِقبالِكُم وَتَوَجُّهِكُم ، وَتَوسِيعِ مَعانِي الفَهمِ فِيما يُلقَى إِلَيكُم ، وَتَتَهَيَّؤونَ لِحَملِ واجِبِكُم ، وَحَملِ أَماناتِكُم ، فِي مَناطِقِكُم ، وَفِي مَنازِلِكُم، وَفِي أَصحابِكُم ، وَفِي لَيلِكُم ، وَفِي نَهارِكُم ، وَفِي يَقَظَتِكُم ، وَفِي مَنامِكُم ، وَفِي مَقاصِدِكُم، وَفِي نَواياكُم ، وَفِي حَرَكاتِكُم ، وَفِي سَكَناتِكُم ، حَتَّى تَتَّصِلُوا بِسِرِّ هَذِهِ الرِّسالَةِ ، فَتَكُونُوا مَعَها إِنْ قُلتُم ، وَمَعَها إِنْ فَعَلتُم ، وَمَعَها إِنْ فَكَّرتُم ، وَمَعَها إِنْ نِمتُم ، وَمَعَها إِنْ قُمْتُم ، وَمَعَها إِنْ دَخَلتُم ، وَمَعَها إِنْ خَرَجتُم ، وَمَعَها إِنْ حَيِيتُم ،

وَمَعَها إنْ مِتُّم ، وَمَعَها إذا وَصَلتُم إلى القُبُورِ ، وَمَعَها إلى يومِ البَعثِ والنُّشُورِ ، وَمَعَها إلى دارِ الكَرامَةِ ، الله يُكرِمُنا وَإيّاكُمْ بِهَذِهِ المَعِيَّةِ والمَزِيَّةِ والخُصوصِيَّةِ، وَيُثْبِتُنا وَإيّاكُمْ في دَوائِرِ مَنِ اختَصَّهُم بِرَحمَتِهِ الَّتي يَختَصُّ بها مَنْ يَشاءُ واللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ .. إنَّهُ أكرَمُ الأكرَمِينَ .. وَأرحَمُ الرّاحِمِين .

والَّذِي يَقِرُّ في قُلُوبِكُم يَسمَعُه الحَقُّ وَيَراهُ ، وَيومَ الجَمعِ سَيَظهَرُ هَذا الَّذِي يَستَقِرُّ في بَواطِنِنا ، وَتَحصُلُ مِنه بَعضُ مَعاني المُقابَلَةِ والمُواجَهَةِ .

فَماذا تَنْوُونَ في باقِي أعمارِكم الَّتي تُقَضُّونَها عَلَى ظَهرِ هَذِهِ الأَرضِ ؟ ماذا تَنْوُونَ فِيها ؟ تَنتَبِهُونَ إنْ شاءَ اللهُ وَتَستَقِيمُونَ وَتَجتَهِدُونَ وَتَبذُلُونَ الفِكْرَ كُلَّهُ والعُمرَ كُلَّه والوُسْعَ كُلَّه والحالَ كُلَّه ، فَما أعظَمَ هَذِهِ الأمانَة ، هَيَّأَكُم الله لأَدائِها ، وَأعانَكُم عَلَى حَمْلِها ، وَرَزَقَكُم الصِّدقَ في القِيامِ بِحَقِّها .

فضل الحقّ علينا بتوفيقه لنا لسماع التّذكير به

وقال رضي الله عنه ونفعنا به (١) مِن نِعمَةِ الله عَلَينا أنَّ التَّذكِيرَ بِهِ يُرسِلُه إلَيكَ الحَقُّ عَلَى لِسانِ مَخلُوقٍ ، وَتَسمَعُه وَتَقرَأُه في كِتابٍ وَتَنظُرُ إلَيهِ بِأيِّ وَسِيلَةٍ .

والحَقِيقَةُ أنَّ الحَقَّ سُبحانَهُ وَتَعالَى هُوَ الَّذِي دَعا خَلقَه إلَيهِ ، ثُمَّ في العالَمِ الخَلْقِيِّ جَعَلَ الدّاعِيَ لَنا نَبِيَّهُ مُحَمَّداً صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، فَما كانَت لِسانُ دَعوَةٍ إلا مُفَرَّعَةً عَن لِسانِهِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، فَصارَتْ دَعوَةُ الحَقِّ تَصِلُ إلَيك .. وَأنتَ مِن حَيثُ تَصَفَّيتَ ، وَمِن حَيثُ تَنَقَّيتَ .. تُصافَى .

كَثِيرٌ مِن الصّالِحِينَ والعارِفِينَ كانَتْ لا تَخرُجُ مِنهُم إلا كَلِماتٌ قَلائِلُ ، وَبَعضُهُم

---

(١) يَومُ الثُّلاثاءِ ١٤٢٠هـ .

أَلسِنَتُهُمْ ما تُساعِدُهُم عَلَى التَّعبيرِ ، أَو تَثقُلُ عَن بَعضِ الكَلامِ ، لَكِنْ تَأْتِي الكَلِمةُ مِنهُم كُلٌّ يَشربُ مِنها ، فَهَذا يَصِلُ بِها إِلى حالٍ عَجيبٍ ، وَهَذا يَصِلُ بِها إِلَى مَقامٍ أَعلَى مِنه ، وَخَرَّجُوا بِها رِجالاً ، وَأَوصَلُوا بِها أناساً كَثِيراً .

وَقالُوا: لَو كانَتِ الدَّعوَةُ بِالفَصاحَةِ لَكانَت الرِّسالَةُ أَحَقَّ بِها هارُونَ قَبلَ مُوسَى، لَكِنَّ الرِّسالَةَ جاءَتْ أَوَّلاً إِلَى مُوسَى وَبَعدَ ذَلِكَ هُو الَّذِي تَسبَّبَ فِي النُّبوَّةِ لِهارُونَ، مَع أَنَّ لِسانَهُ لَيسَ ظاهِراً بِالانطِلاق ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء:١٣]، ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ﴾ [القصص:٣٤]، لِهَذا قالُوا فِي عالَمِ تارِيخِ الخَلقِ : ما هُناكَ أَحَدٌ أَفادَ أَخاهُ فِي شَيءٍ كَما أَفادَ مُوسَى أَخاه هارُونَ ، فاللهُ سُبحانَه وَتَعالَى رَتَّبَ رِسالَةَ هارُونَ عَلَى كَلامِ مُوسَى ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ [الأعراف:١٤٢].

ربط التذكير بنيات الصالحين

وقال رضي الله عنه ونفعنا به [(١)] نَحنُ ما نُرِيدُ أَحَداً مِنكم لـمّا يَرجِعُ[(٢)] يَتَكَلَّمُ بِلِسانِه ، لَكِن خُذُوا المِنّةَ الكَبِيرَةَ بِأَنْ تَتَكلّمُوا بِأَلسِنَتِهِم .. وَمَنْ هُمْ ؟

اقبَلُوا نِعمَةَ اللهِ الَّتِي أَسداها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم:٨].

الحَمدُ لله .. مائِدَتُهُ وَحضرَتُهُ وَرِجالُ حَضرَتِهِ كُلُّهُم مُتَوجِّهُونَ إِلَى اللهِ فِي شَأنِكُم وَيقولُونَ لَكُم ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا

(١) فِي لَيلَةِ الأَحَدِ ١٠ مِن شَهرِ ذِي القِعدَةِ .

(٢) لـمّا يَرجِع : أَي عِندَما يَرجِع إِلَى بِلادِهِ .

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل:٩١].

والله رَبَط دَعوَتكُم هَذِه وَوِجهَتكُم بِالحَبيب الكَبير بِربطٍ عَظيم عالٍ جَليل ، ناصرُوه في الدَّعوَةِ هَذه ، فَإنَّ حَبيبَ الله رائِدُها ، نِعْمَةٌ كَبيرةٌ عَليَّ وَعلَيكُم ، وَعَلى كُلِّ حال أَحوالُكُم مَعرُوضَةٌ عَليه وَعَليهم .

وَإنْ عَصَينا وَقارَفْنا الزَّلَلْ والخَطِيَّهْ ... هُـــوْلِلْخَطاوالزَّلَلْ

حَبيبُنا لِي تَعَكَّتْ جاتْ مِنُّهْ بَتِيَّهْ ... عَطْوَتُهْ فَوْقَ الأَمَلْ(١)

يُتِمُّ الله عَلَيَّ وَعَلَيكُم هَذِهِ النِّعمَة ، وَأَنتمُ اصْدُقُوا فِي تَوبَتِكُم وَأَوبَتِكُم وَرَجعَتِكُم إلى الله ، وارتَقُوا فِي مَراقِي التَّوبَةِ ما دُمتُم فِي أَعمارِكم حَتَّى تَلقَوا اللهَ مِنَ المَحبُوبِينَ، وَقَد قالَ لَه وَخاطَبَه : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤].

معاني النّيابة

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ (٢) حيّاكُمُ الله ما الأَخبارُ عِندَكُم؟ وَكَيفَ المناطِقُ الَّتي أَنتُم فِيها؟ وَمَنطِقُكُم القَولي والعَمَلي؟ وَمجالُ استِشعارِ النِّيابَة عِندَكم بِالذَّوقِ والتَّرجَمَة؟

أَما استِشعارُهُ بِالذَّوقِ .. يُنهِي وَيُباعِدُ عِلَلَ القَلبِ ، واستِشعارُهُ بِالتَّرجمة .. يُذهِبُ عِلَلَ الأَعمالِ ، وَلَولا الفَوائِدُ الكُبرَى فِي أَمرِ الارتِباطِ بِالنِّيابَةِ الذَّوقِي والعَـمَلي، والمتَرجَـمِ

(١) الأبياتُ لِلحَبيبِ عَلِيِّ بنِ مُحَمَّدٍ الحَبَشِي مِن قَصِيدَةٍ مَطلَعُها :

بانقرَعِ الباب والمَولَى عَلَيهِ العَطِيَّه ... يُعطِي جَميعَ الأَمَلْ

الدِّيوانُ الحُمَينِي ص ١٤٥ .

(٢) لَيلَة الأَحَد ٢ مِن شَهرِ شَوّالٍ ١٤٢٠هـ .

عَنه بِما قال النبي صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم : «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَة»[1] لما دُعِينا إِلَيهِ .

لِذا أَيُّ وَقتٍ تُرِيدُ أَنْ تُبَلِّغَ .. يَكونُ لَكَ حَبلٌ مُوصِلٌ إِلى النَّبِيِّ ، وَبابٌ يُدخِلُك عَلَيهِ ، فَتُبَلِّغ بَلاغاً صَحِيحاً عَنه ، وَإِنْ جِئتَ مَعك عَقلٌ أَو فِكرٌ أَو نَفْسٌ .. فَهَذِهِ لَيسَت بِأَبوابٍ تُدخِلُكَ عَلَيهِ ، وَلَيسَت بِأَبوابٍ تُوصِلُكَ بِه ... إِذا انْقَطَعَتِ النِّيابَةُ حَلَّتِ العِلَلُ فِي القَلبِ ، والعِلَلُ فِي العَمَلِ .

فَلِهَذا كانَ مِن نِعمَةِ الله تَعالَى الارتِباطُ بِالسَّنَد وَربطُ الحِبالِ، فَيُبَلِّغُ المبَلِّغُ وَمَعَهُ رابِطَةٌ ، وَمَعَه بابٌ ، وَمَعَه حَبلٌ ، فَيَستَشعِرُ هَذِهِ النِّيابَةَ ، يَستَشعِرُها بِالذَّوقِ فَيَذهَبُ عَنه العُجُبُ والغُرُورُ ، وَيربُو بِقَلبِهِ عَن أَن يَحسِدَ أَو يَحقِدَ أَو يَلتَفِتَ إِلى الدَّنايا ، وَيَستَشعِرُها وَيُتَرجِمُها فِي حُسْنِ أَعمالِهِ بِما يُصْلِحُها وَيُنقِّيها عَن الخَلَلِ .

بِاستِشعارِ النِّيابَةِ ذَوقاً.. تَذْهَبُ عِلَلُ القُلُوبِ
وَبِاستِشعارِ النِّيابَةِ تَرجَمَةً.. تَذْهَبُ عِلَلُ الأَعمالِ

وَمَن كانَ يَنُوبُ عَن حِبالِ النِّيابَةِ المتَّصِلَةِ بِالنُّبُوَّةِ .. فَلْيَتَّقِ الله فِي ذَوقِهِ وَتَرجَمتِهِ ، وَهوَ بِذَلِكَ مَهما صَدَقَ يَتَهَيَّأُ إِلى شَيءٍ كَبِيرٍ ، وَتَتَلاشَى مِنه أَوصافُ الإِهمالِ ، والإِغفالِ، والتَّكاسُلِ ، وَرُكُونِ النَّفسِ ، فالنَّفسُ تَركَنُ إِلى الرّاحَةِ وَإِلى الدَّعَةِ ، وَإِلى الالتِفاتِ إِلى شَهَواتِها وَما إِلى ذَلِكَ .

فَلابُدَّ مِن مُداواةِ ذَلِكَ فِي إِحسانِ إِقامَةِ النِّيابَةِ هَذِهِ ، وَيَكونُ الاجتِهادُ دائِماً وَمُستَمِرّاً فِي تَصفِيَةِ القَلبِ والفُؤادِ وَنَفعِ العِبادِ ، وَكُلَّما " عَرَضَ عَلَيكَ خاطِرٌ يَنْزِلُ بِكَ إِلى تَحت.. بِأَيِّ مَعنًى مِن مَعانِي النُّزولِ والسُّقُوطِ .. أَعرَضتَ عَنه وَسَمَوْتَ ؛ لأَنَّه فِي الدُّعاءِ

(١) رَواهُ أَحمَد فِي مُسنَدِهِ ، والبُخارِيّ والتِّرمِذيّ عَن ابنِ عَمرو .

الوارِدِ النَّبويّ الَّذِي تَدعُو بِه فِي الصَّباحِ والمساء «وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»[1] وَهُوَ أَن يَنزِلَ الإِنسانُ مِن رُتبَةٍ عالِيَةٍ إِلى أَدنى ، فَهَذا اغتِيالٌ مِن التَّحت .

وَإِنَّما يكونُ المبلِّغُ والمعَلِّمُ والمرشِدُ والإمامُ والمذَكِّرُ والخَطِيبُ والدّالُّ فِي كلِّ وَقتٍ أَصفَى .. أَنقَى .. أَوفَى .. أَعظَمَ .. أَحزَمَ .. أَطهَرَ .. فَيكُونُ فِي كُلِّ وَقتٍ أَحسَنَ مِن الَّذِي قبلَه .

التّناجي بين النّاس وما يترتّب عليه

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ يَقُولُ اللهُ تعالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [المجادلة:٩]، فَيَترَتَّبُ عَلَى التَّناجِي بِالإِثمِ والعُدوانِ .. انتِشارُ الشُّرُورِ فِي النّاسِ ، وَعلى التَّناجِي بِالبِـرِّ والتَّقوى .. انتِشارُ الخُيُورِ فِي النّاسِ .

وَيَنشُرُ اللهُ سُبحانَه وَتَعالَى الخَيرَ والهدَى عَلى أَيدِي أَقوامٍ يَتَناجَونَ بِالبِـرِّ والتَّقوَى وَطاعَةِ الرَّسُول ، كَما يَنشُرُ فِي واقِعِ النّاسِ الشُّرُورَ والفَسادَ بِواسِطَةِ أَقوامٍ يَتَناجَونَ بِالإِثمِ والعُدوانِ وَمَعصِيةِ الرَّسُولِ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [المجادلة:٨-٩] ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾ - النجوى: التَّحادُثُ فِيما بَينهم - ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا﴾ [النساء:١١٤].

---

(١) رَواهُ النَّسائِي .

الحقُّ تَبارَكَ وَتَعالَى بِمَشِيئَتِهِ اختارَ أَنْ يَقذِفَ فِي قُلُوبِكُم التَّصدِيقَ بِهذِهِ الرِّسالَةِ ، ثُمَّ الشُّعُورَ بِواجِبكُم نَحوَها ، وَما طُوِّقَتْ بِهِ أَعناقُكُم مِن مَسؤُولِيَّةِ فَهمِها والعَمَلِ بِها وَتَبلِيغِها والذَّبِّ عنها ، فَهِي عِبارَةٌ عَن البَيعَةِ الَّتي بايَعَنا اللهُ عَلَيها ، والعَهدِ الَّذِي عاهَدناهُ عَلَيه فِي الزَّمنِ القَدِيمِ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، إذاً فالطّاعَةُ لِي فقُومُوا بِأمرِي ، فَأَرسَلَ إِلَينا الرُّسُلَ ، حَتَّى خَتَمَ الرِّسالاتِ بِخَيرِ البَرِيّاتِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم .

فالحَمدُ للهِ الَّذِي آتاكُم وَأَعطاكُم هَذا الخَيرَ بِفَضْلِهِ وَبِكَرَمِهِ وَإِحسانِه ، مَع استِقبالِكُم لِهذا الخَيرِ يَكونُ قُربُكم مِن رَبِّكم عَلَى قَدرِ القُوَّةِ فِي أَخذِ الأَمرِ الرَّبانِيّ ، وَإِفرادِ القَصدِ للواحِدِ ، لما أَوحَى اللهُ إِلَى سَيِّدنا يَحيَى قالَ : ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢]، وَقالَ لِسَيِّدنا مُوسَى : ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ ، فَمَع قَصدِ وَجهِ اللهِ القَوِيِّ .. لا يُناسِبُ قَصْدَ وَجهِهِ إِلا القُوَّةُ فِي الوِجهَةِ ، القُوَّةُ فِي العَزِيمَةِ ، القُوَّةُ فِي الصِّدقِ ، ثُمَّ مَع هَذِهِ القُوَّةِ وَأَخذِ الأَمرِ بِقُوَّةٍ .. طُهْرٌ فِي الجَنانِ ، باعْتِقادِ الخيرِ فِي المَدعُوِّينَ ، وَعامَّةِ الخَلقِ أَجْمَعِين ، فَضلاً عَن السّابِقِينَ وَعَن الأَخيارِ ، وَعَن أَهلِ العِبادَةِ مِن المُؤمِنِينَ ، بِحَيثُ يَنْتَفِي مِنكَ الكِبرُ عَلَى أَحَدٍ مِنهُم ، واعتِقادُ السُّوءِ فِي أَحَدٍ مِنهُم .

أَصحابُ الغَفلَةِ مِنهُم والذُّنُوبِ والمَعاصِي .. كُلّهُم مُعَرَّضُونَ لِلمَغفِرَةِ ، مُعَرَّضُونَ لِلتَّوبَةِ ، مُعَرَّضُونَ لأَنْ يَقرُبُوا مِن رَبِّهِم ، مُعَرَّضُونَ لأَنْ يَتَحَوَّلَ بَعِيدُهُم قَرِيباً ، وَشَقِيُّهُم سَعِيداً ، فَإِذاً لا نَقدِرُ فِيما بَينَنا وَبَينَ اللهِ أَنْ نَجزِمَ بِالسُّوءِ عَلَى أَحَدٍ مِنهُم ، بَل الكافِرُ بِعَينِهِ ما نَقدِرُ نَحكُمُ عَلَيهِ بِعَينِهِ ؛ لأَنهُ رُبَّما أَسلَمَ فِي أَيِّ وَقْتٍ أَو أَيِّ ساعَةٍ ، إِذاً يَنتَفِي عَنّا الكِبْرُ ، وَيَنتَفِي عَنّا العُجْبُ بِأَنفُسِنا .

فإنا نعلمُ أنَّ كُلَّ ما أُوتينا مِن الإيمانِ ومِن العَمَلِ الصّالِحِ .. مَنٌّ مِنَ الله ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الحُجُرات:١٧]، عَلَى أَنّنا أيضاً عَلَى خوفٍ أن يُسلَبَ عنّا أيُّ خَيرٍ ، أو أَنْ نُحوَّلَ إلى أيِّ سُوءٍ ، ومَع هَذا الخَوفِ .. رَجاءٌ أكبَرُ منه في أَنْ يقبَلَنا اللهُ عَلَى ما فينا ، ويَقبَلَ مِنّا ما وفَّقنا لَهُ مِنْ خَيْرٍ، ويُدْرجَ ذَلِكَ فِي أَعْمالِ مَشايخِنا وأَئمَّتنا مِن هُداةِ الطَّرِيقِ خِيارِ الخَلِيقَةِ ، فيُدْرِجها فِي أعمالِ مَن قبلَهم ، حتَّى تَندرجَ كُلُّها في أَعمالِ وأحوالِ وأقوالِ وأفعالِ ونيّاتِ ومَقاصِدِ وشُؤُونِ سَيِّدِ الوُجُودِ مُحمَّد صَلَّى الله عَلَيهِ وآلِهِ وصَحبِهِ وسَلَّم.

فَذلِكَ البَحرُ الخِضَمُّ الزّاخِرُ ، الَّذِي يَتحوَّلُ ما وُضِعَ فِيهِ إلى جَواهِرَ ، ولَو كانَ ذَلِكَ المَوضُوعُ مُلَطَّخاً[1] ، أَنتُم تَرَونَ بِحارَ الدُّنيا هَذِهِ تَقبَلُ حَتَّى أَوساخَ النّاسِ ، تَأتي بِها فتَضَعُها فِيهِ ، وبعدَ ذَلِكَ تتحوَّلُ فِيها إِلَى ماءٍ طاهِرٍ ، ويُحلُّونَهُ[2] ويَشرَبُونَ منه ، فَلا يَقُولُونَ: قَد دَخَلَ فِيهِ الخَمَجُ[3] والكَدَرُ ، فكَيفَ بِبَحرِ حَبيبِ الرَّحمَنِ لَوِ اتَّصَلْنا بِهِ ، فَتَرجِعَ أعمالُنا عَلَى ما فِيها تَطهُرُ وتَصلُحُ وتَتنوَّرُ وتُقبَلُ وتَدخُلُ فِي المُحِيطِ الكَبِيرِ .

المبدأ وأهميته في توضيح الطريق

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: بِئسَ الإِنسانُ إِنْسانٌ لَيسَ لَه مَبدَأٌ أَمامَهُ أَغلَى مِنَ الوَلَدِ وأَغلَى مِن الأَهلِ والوَطَنِ وأَغلَى مِن كُلِّ شَيءٍ فِي حَياتِهِ ، هَذا إِنسانٌ ما طَرَقَ القِيَمَ ، ولا دَخَلَ بابَ التَّكرِيمِ مِن مَولَى الكَرَمِ جَلَّ جَلالُه .

إِنْسانٌ لا يَحمِلُ بَينَ جوانِحِهِ مَبدَءاً يُوقِنُ بِهِ يَقِيناً يَحمِلُهُ عَلَى أَنْ يَترُكَ مِن أَجْلِهِ أَوطاناً

---

(١) أي: وَسَخٌ وقَذَرٌ .

(٢) **تحلِيَةُ ماءِ البَحرِ** : إبعادُ الأملاحِ الَّتِي فِيهِ وتهيِئَتُهُ لِلشُّرْبِ .

(٣) **خَمَج** : فَسَد وتَعفَّن ، انظر «القاموس المحيط» .

وأولاداً وأهلاً ، وَأَنْ يَتَحَمَّلَ المَشاقَ ، وَكَثِيرٌ مِن النّاس حَسِبَ أَنَّ اتِّصالَهُ بِهَذا الدِّينِ العَظِيم .. يَكفِي أَنْ يَقُومَ فِيهِ بِبَعضِ واجِباتِهِ ، أَو يُحافِظَ عَلَى بَعضِ فَرائِضِهِ وَيَكفِيهِ ذَلِكَ ، وَلَيسَ لَهُ ضَمِيرٌ وَلا شُعُورٌ يُهَيِّئُهُ وَيُشْعِرُهُ بِأَنَّهُ صاحِبُ مَبْدَأٍ مِن أَجلِهِ سَيُقاتِلُ، وَمِن أَجلِهِ يُدافِعُ ، وَلَه يُسافِرُ ، وَمِن أَجلِهِ يُقِيمُ ، وَمِنْ أَجلِه يَتَحَرَّكُ فِي الحَياةِ، وَمِن أَجلِهِ رُبَّما غَيَّرَ مَوازِينَ مَصالِحِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَمِن أَجلِهِ رُبَّما فَعَلَ وَرُبَّما فَعَلَ .

هَذا هُوَ المَبدَأُ الَّذِي جاءَ بِهِ نَبِيُّكُم مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم ، مَبدَأٌ بِعَظَمَتِهِ وَجَلالِهِ وَمَكانَتِهِ وَفَخامَتِهِ إِذا عَرَفَهُ أَصحابُهُ .. احْتَقَرُوا كُلَّ شَيءٍ مُقابِلَهُ ، هَذا المَبدَأُ هُوَ مَبدَؤُكُم أَنتُم ؛ لأَنَّكُم عَلَى ظَهرِ الأَرضِ تَحمِلُون مَبدَأً سَماوِيّاً ، تَوَلَّى رَبُّ الأَرضِ والسَّماءِ بَيانَهُ وَإِرسالَهُ ، واختارَ لَكُم فِي تَبْلِيغِهِ أَحَبَّ خَلقِهِ إِلَيهِ وَأَكرَمَ العِبادِ عَلَيهِ .

فَأَنعِمْ بِمَن عَرفَ مِنكُم عَظَمَةَ هَذا المَبدَأِ ، وَمَكانَةَ هَذا المَبدَأِ ، وَأَحقِّيَّةَ هَذا المَبدَأِ، وَعَلِمَ أَنَّه أَغلَى شَيءٍ عَلَى ظَهرِ هَذِهِ الأَرضِ ، وَأَنَّهُ لا يُوجَدُ فِي شَرقِ الأَرضِ وَلا غَربِها ما يُساوِيهِ ، وَلا ما يَقرُبُ مِنهُ وَلا ما يُدانِيهِ ، وَلا ما يُساوِي شَيئاً مِن قِيَمِهِ وَمَبادِئِهِ ، وَأَنَّهُ لَيسَ عَلَى ظَهرِ الأَرضِ فِي عَقلِهِ وَفِي مَشاعِرِهِ وَفِي عَواطِفِهِ أَغْلَى مِن هَذا المَبدَأِ ، وَهَذا المِنْهاجِ ، وَهَذا الدِّينِ ، وَهَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، وَهَذا الوَحيِ الَّذِي خَصَّ اللهُ بِهِ نَبِيَّنا المُصْطَفَى صَلَّى اللهُ وسَلَّم وبارَكَ عَلَيهِ وعَلَى آلِهِ .

هَذا المَبدَأُ هُوَ أَغلَى شَيءٍ فِي هَذا الوُجُودِ ، وَفِي ذَلِكَ يُقالُ : «إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لا يُحِبُّ ، وَلا يُعْطِي الدِّينَ إِلا مَن أَحَبَّ»[1] وَمَن أَعطاه الدِّينَ.. عَرَفَ قِيمَةَ الدِّينِ وَعَظَمَتَه ، وَعاشَ لِلدِّينِ ، وَماتَ فِي سَبِيلِ هَذا الدِّينِ ، وَحَيِيَ لِهَذا

---

(١) رَواهُ الإِمامُ أَحمَدُ ، وَتَتِمَّةُ الحَدِيثِ «فَمَن أَعطاه اللهُ الدِّينَ فَقد أَحبَّه».

الدِّينِ ، وَأَقامَ مِنْ أَجلِ الدِّينِ ، وَتَعامَلَ مَعَ النّاسِ عَلَى ضَوْءِ هَذا الدِّينِ ، وَعَلِمَ أَنَّ مَعنَى هَذا الدِّينِ كَمالُ الاستِسْلامِ لِرَبِّ العالَمِينَ جَلَّ جَلالُه وَتَعالَت عَظَمَتُه .

وَما أَشَدَّ الحَسْرَةَ عَلَى مَنْ مَضَت حَياتُه وَهوَ لا يَستَضِيءُ بِهَذا النُّورِ ، بَل لا حَقِيقَةَ لإِيمانٍ يَقِرُّ فِي فُؤادِ العَبدِ .. إلاّ بالاسْتِسْلامِ لِهَذا النُّورِ ، والخُضُوعِ لِهَذا النُّورِ ، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء:٦٥]، و «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبعاً لِما جِئْتُ بِهِ»[١] .

وَذَلِكَ أَنَّ الهَوَى[٢] هُوَ الغالِبُ عَلَى عامَّةِ الخَلائِقِ ، وَهُوَ شَوكَةُ المِيزانِ الَّتِي تُبَيِّنُ اتِّجاهَ الإِنسانِ فِي الحَياةِ ، فَإِنَّ لِكُلِّ إِنسانٍ فِي الحَياةِ هَوىً ، وَإِنَّ لَهُم فِي تَسيِيرِ أَهْوائِهِم والسَّيْرِ مَعَها أَحوالاً ، هِيَ حَقِيقَةُ ما يَقِرُّ فِي قُلُوبِهِم أَو وِجهَتِهِم الَّتِي يَتَوَجَّهُونَ إِلَيها ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة:١٤٨] و ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [الأعراف:١٦٠].

فَوِجهَتُك مِنْ حَيثُ تَوَجُّهِ قَلبِكَ وَخاطِرِكَ .. تَظهَرُ فِي الهَوَى ، أَينَ يَذهَبُ بِكَ هَواكَ؟ هَل عِندَكَ قاعِدَةٌ تَضبِطُ بِها هَواكَ حِينَما تُرِيدُ أَنْ تَتَصَرَّفَ أَو تَتَكَلَّمَ أَو تَتَحَرَّكَ فِي هَذِهِ الحَياةِ ؟ أَمْ أَنَّ هَواكَ هُو الَّذِي يُحَرِّكُ ، وَهوَ الَّذِي يُسَيطِرُ ؟ أَمْ أَنَّ إِرادَةَ الفانِياتِ هِيَ الَّتِي تُخضِعُ مُقْتَضَى هَواكَ ؟ وَ «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبَعاً لِما جِئْتُ بِهِ»[٣] صَلَّى اللهُ وسَلَّم وبارَك عَلَيه وعَلَى آلِهِ .

فَلا واللهِ لا يَذُوقُ السَّعادَةَ فِي الدُّنيا قَبلَ الآخِرَةِ إِلا شَخصٌ وَقَفَ بِهَواهُ وَعَواطِفِهِ

---

(١) أَخرَجَهُ الحَسَنُ بنُ سُفيانَ وَغَيرُهُ ، وَرِجالُهُ ثِقاتٌ، وَقَد صَحَّحَهُ النَّوَوِيّ فِي آخِرِ «الأربَعِين» .

(٢) الهَوَى هُوَ مَيلُ النَّفسِ الخاطِئ ، وَخُطُورَةِ اتِّباعِهِ قالَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون:٧١].

(٣) سَبَقَ تَخرِيجُه .

وَمَشاعِرِهِ كُلِّها أَمامَ هَذا النُّورِ .

هُـوَ النُّـورُ المُبـينُ بِـهِ اهْتَدَيْنـا ... هُـوَ الدّاعِـي إِلى أَقْوَى سَـبيلِ
أَتانـا داعِـيـا بالحَـقِّ يَدْعُـو ... إِلى الإِسْـلامِ بالقَـوْلِ الثَّقِيـلِ
فَبـادَرَ بالإِجابَـةِ كُلُّ عَبْـدٍ ... مُطِيعٍ لِلإِلـهِ وَلِلرَّسُـولِ
وَأَنكَـرَ كُلُّ ذِي كُفْـرٍ وَبَغْـيٍ ... وَأَعْـرَضَ كُلُّ خَتّـالٍ ضَلُـولِ
فَفـازَ المُقْبِلُـونَ بِـكُلِّ خَـيْرٍ ... وَعُقْباهُـمْ إِلى الظِّـلِّ الظَّلِيـلِ
وَخابَ المُعْرِضُونَ وَكانَ عُقْبَى ... مَعاصِيهِمْ إِلى الخِزْيِ الوَبِيلِ (١)

معاني تكليف الله لعباده

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: **مَعنَى التَّـكلِيفِ** : ابتِلاءُ اللهِ واختِبارُه لَكَ باختِيارٍ يُؤتِيكَ إيّاهُ ، ثمَّ يَطْلُبُ مِنكَ أَنْ تُسخِّرَ هَذا الاختِيارَ عَلَى مَنهَجٍ يَرضاهُ تَعالَى فِي عُلاه .

فَإذا أَعطاكَ أَمراً تَقدِرُ فِيهِ أَنْ تَفعَلَ وَأَنْ لا تَفعَلَ .. وَجَّهَ إِلَيكَ خِطاباً بِأَنِ افْعَلْ كَذا وَلا تَفعَلْ كَذا ، فَكَأَنَّ التَّـكلِيفَ عِبارَةٌ عَن هَذا الخِطابِ المُوَجَّهِ مِن الرَّبِّ المُبَلَّغِ عَلَى أَيدِي الرُّسُلِ صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُه عَلَيهِم لِهَذا النَّوعِ مِن المَخلُوقاتِ أَنْ افعَلْ كَذا ، وَلا تَفعَلْ كَذا .

فَإِنْ سَخَّرَ الإِنسانُ اختِيارَه لِـما رَضِيَه رَبُّه وَلَم يَتَصَرَّفْ إِلا فِيما أَباحَهُ لَهُ خالِقُه .. نَجَحَ فِي هَذا الاختِبارِ ، وَقامَ بِحَقِّ التَّـكلِيفِ ، فاسْتَحَقَّ أَنْ يُرفَعَ إِلى دَوائِرِ التَّـكرِيمِ والتَّشرِيفِ ، وَيُحظَى بِجُودِ مَوْلاهُ البَرِّ اللَّطِيفِ ، وَكَرَمٍ لا تَصِلُه عُقُولُ الخَـلائِقِ ، مِن

---

(١) الأبياتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإمامِ عَلِيِّ بنِ مُحَمَّدٍ الحَبَشِي مَطلَعُها :

لَكُم بُشرَى الإِجابَةِ والقَبُولِ ... مِن المَولَى بِواسِطَةِ الرَّسُولِ
دَعا داعِي العِنايَةِ فاستَجَبْتُمْ ... وَبادَرْتُمْ إِلَى الفَضلِ الجَزِيلِ

أَنواعِ جُودِ الخـالِقِ سُبحانَه وَتَعالَى .

وَإِنْ لَم يَقُمْ بِحَقِّ التَّـكلِيفِ .. كانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يَنْقُلَه إِلَى دائِرَةِ الذِّلَّةِ والمَهانَةِ بِما يُسَلِّطُهُ عَلَيهِ مِن التَّعذِيبِ والتَّعنِيفِ والشَّدائِدِ والأَهوالِ الَّتي هِي أَيضاً لا تُطِيقُها وَلا تُحِيطُ بِها العُقُولُ مِن الهَولِ المَهُولِ الَّذي يَحْصُلُ مِن الرَّبِّ الجَبّارِ جَلَّ جَلالُه لِلمُعْرِضِينَ عَن أَمْرِه .

خطر التّكاسل والتّواني في خدمة الرّسالة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ .. الآيَةَ﴾ [التوبة:٣٨] ، إذا وُجِّهَ الخِطابُ لِلرَّعِيلِ الأَوَّلِ ، فالأَوْلَى لَنا أَنْ نَتَفَكَّرَ فِيهِ ، قالَ تَعالَى : ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة:٣٩]، وَهَل تَقدِرُ عَلَى عَذابِهِ الأَلِيمِ ؟ وَيَستَبدِلْ قَوماً غَيرَكُم يَنصُرُونَه ، وَلا يَخافُونَ لَومَةَ لائِمٍ ، اِذْهَبْ .. نَمْ ، وَسَيَأتِي رِجالٌ يَأخُذُونَ الصُّفُوفَ ، وَيطلَعُونَ إِلى فَوق .

إِنْ تُضَيِّعُوا المَراتِبَ .. تَقعُوا فِي المَشاغِبِ ، وَيَسْتَبدِلْ قوماً غَيرَكُم ، وَهُم أَهلُ نُصرَتِهِ ، وَهُم أَهلُ نَظْرَتِهِ ، وَهُم أَهلُ رَحْمَتِهِ ، وَهُم أَهلُ تَـكْرِيمِهِ وَإِفْضالِهِ ، وَكُلُّ مَن تَأَخَّرَ فَإِنَّما تَأَخَّر عَن نَفسِهِ ، والحَقِيقَةُ أَنَّ النَّصْرَ مِن عِندِ اللهِ ، وَلَكِن إِنْ نَصَرتُمُوهُ .. فَسَيُسَمِّيكُم أَنـصاراً . نَقُومُ بِالنُّصرَةِ إِن شاءَ اللهُ ، وَإِلا نَـكُونُ مَكَرَةً(١) والعِياذُ بِاللهِ .

(١) أَي : مِن الـمَكْرِ وَهوَ الخَدِيعَة والاحتِيال .

دعوة الأنبياء
عهود بين العباد والمعبود

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: أحوالُ ابْتلعتِ المُسْلِمين، إنْ شاء الله يُخلِّصُهم الله منها، ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨]، الله مَعِي، وبه الثِّقةُ وعَلَيه التُّكْلانُ، وإذْ ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف:١٤]، وإذْ قَدْ فَعلَ ذلِك بِبَنِي إسرائيلَ فأَنْ يَفْعَلَ ذلِك بالأُمَّةِ أولَى؛ لما اقْتَضاهُ اختِيارُه واصْطِفاؤُه وكَرَمُه لهَذِه الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّة.

والخُلاصَةُ أنَّ دَعواتِ الأنبياءِ والرُّسُلِ هؤُلاءِ الَّتي تَوجَّهتْ لِلعِبادِ .. عِبارةٌ عَن عُقُودٍ وعُهُودٍ بَين الواحِدِ المَعْبُودِ ومَن يستَجِيبُ مِن عِبادِه لِذَلِك ويُدرِكُه، ثُمَّ اخْتَلَفَتْ بَعدَ ذَلِك أَحوالُ المُستَجِيبِينَ لِلدَّعْوةِ، فَمِنهُم مَن شَهِدَ شَهادَةَ الحَقِّ واكْتَفَى بِالعَمَلِ بِها فِي خاصَّةِ نَفْسِهِ، ولَم يَنتَهِضْ .. فكانَ مِن القاعِدِينَ، ومِنْهُم مَن عَلِمَ أنَّ مُقتَضاها ما يَجعَلُه عاشِقاً لِلبَذلِ فِي سَبيلِ الرَّبِّ تَعالَى، وعاشِقاً لأنواعِ التَّضحِياتِ فكانَ مُسابِقاً ومُسارِعاً لِلصُّفُوفِ، قالَ تَعالَى فِي الفَرِيقَين: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِي ٱلضَّرَرِ﴾ فلَم يُخرِجهُم مِن قاعِدَةِ الإيمانِ، ولَكِنَّهُم ما اسْتَوَوْا مَعَ الصِّنفِ الآخَرِ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٥-٩٦]، وقالَ عنِ الَّذِينَ أَدّاهُم[1] تَقاعُدُهُم إلَى نَقصٍ فِي إقامَتِهِم لأمرِ الحَقِّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟

(١) أي: أوصلَهُم.

كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:٩٧]، ثُمَّ قالَ فِي الآيَةِ الأُخرَى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ [الحديد:١٠] ، إِذْ قَد أَنفَقُوا وَقاتَلُوا مَعَهُم فَهذا مقامُهم ، وَأَمّا القاعِدُونَ ممَّن لَيس لهُم غَرَضٌ أَنْ يُجاهِدُوا .. فَقَد انْتَهى أَمرُهُم وَعُلِمَ مَصِيرُهُم .

وَأَمّا هؤُلاءِ المجاهِدُونَ فَقَد قالَ الله عَنهُم : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ [الحديد:١٠]، مَع أَنَّهُم كُلَّهم أَنْفقُوا وَقاتَلُوا لَكِن هؤُلاءِ أَعظَمُ دَرَجَةً ؛ لأَنَّهم أَنْفَقُوا وَقاتَلُوا وَقْتَ الشِّدَّة ، وَوَقْتَ أَنْ كانَ الحالُ أَصعَب ، وَقبلَ الفَتْحِ ، فَتبيَّنَتْ بِذَلِكَ المَراتِبُ لِلاسْتِجابَةِ لِهَذِهِ الدَّعوَةِ .

إِذا فَهِمتُم ذَلِكَ .. فَأَين نَحنُ فِي أَعمالِنا مِن مَراتِب هَذِهِ الاستِجابَةِ ؟ بِمَعنى أَنَّنا نُرِيدُ أَن نُدرِكَ حَقَّ الإِدراكِ لمعنَى انتِمائِنا لهذِه الدَّعوَةِ وَقِيامنا بِها ، وَما هُو تَفسِيرُهُ ؟ وَما هُو بَيانُهُ؟ وَما هِي حَقِيقَتُهُ ؟ وَنُدرِكَ أَنَّ لله فِيهِ اختِياراً يَظْهَرُ فِي الصِّدقِ والعَزمِ مِنَ المستَجِيبِينَ ، وَنُدرِكَ أَنَّه لا يَصْلُحُ لَه مَن آثَرَ الحَياةَ الدُّنيا ، وَلا يَصْلُحُ لَه مَن كانَ قَصدُهُ غَيرَ الحَقِّ تَبارَكَ وَتَعالَى .

إِذا أَدرَكْنا مَعنَى اجتِماعِنا وَإِيّاكُم واستِجابَتِنا لِهذِهِ الدَّعوَةِ ، فَنعلَمُ أَنَّه لا يَقُومُ أَمرُها إِلا بِصِفاتٍ يَجِبُ أَن نَتَخَلَّى عَنها وَنَنْخلِعَ منها ، وَنَتصفَّى فَنَقْلَعَ جذورَها منّا ، وصفاتٍ يَجِب أَن نَتحلَّى بِها ، وَنَتثبَّتَ علَيها ، وَنَتَشَبَّث بها ، وَنُقوِّيَ مغرسَها فِي نُفُوسنا ، يَتَرتَّبُ عليه بَعدَ ذلِك قِيامُ كلِّ عامِلٍ مِنّا فِي أَيِّ مجالٍ مِن مجالاتِ العَمَلِ فِي هذه الدَّعوَةِ ، فِي البَلَدِ أو فِي خارِجِها ، قِيامُه بِالأَمرِ عَلَى وَجهِ الصَّفاءِ ، عَلَى وَجهِ

النَّـقاءِ ، عَلَى وَجهِ التُّقى ، وَعَلَى وَجهِ الإِحسان ، وَعَلَى وَجهِ الإِتقانِ ، وَعَلَى وَجهِ التَّفانِي وَبَذلِ الوُسعِ .

مهمة الداعي في الحياة

وَقالَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ : مَن صَدَّقَ بِالرِّسالَةِ .. خَدَمَها ، وَمَن صَدَّقَ بِالرِّسالَةِ .. تَحمَّلَ مِن أَجلِها ، وَمَن صَدَّقَ بِالرِّسالَةِ .. بَذَلَ مالَه وَنَفسَه مِن أَجلِها .

حَقائِقُ الرِّسالَةِ .. عَظِيمَةٌ ، حَقائِقُ الرِّسالَةِ .. كَبِيرَةٌ ، تُنادِيكُم: أَنتُم خُلِقتُم لِمُهِمَّةٍ كُبـرَى ، أَنتُم وُجِدتُم لمقصَدٍ عَظِيمٍ ، أَنتم لَكُم تكرِيمٌ مِن الكَرِيم إِذا قَبِلتُم هَذِهِ الرِّسالَةَ ، لَكُم فِي دارِ الخُلدِ مَنازِلُ الكَرامَة الكبرى مِن الرَّبِّ ، فَما أَعظَمَ ما هُيِّئـتُمْ لَه إِذا قَبِلتُمُ الكَـرامَة .

قَد رَشَّـحُوكَ لأَمـرٍ لَو فَطِـنْـتَ لَهُ ... فاربأْ بنَفسِكَ أَنْ تَرعَى مَعَ الهَمَلِ [1]

والله ما مهِمَّتُكَ فِي هَذِهِ الحياةِ .. إِلا أَن يَزدادَ الإِيمانُ فِي قَلبِك ، وَيَزدادَ اليَقِينُ بِالله الَّذِي خَلَقَكَ ، فَـتَسعَدَ وَتَذُوقَ لَذّاتِ السَّعادَةِ فِي دُنياكَ ، وَتَتَهَيَّأَ لِلانتِقالِ لِلسَّعادَةِ الكُـبرَى بِوَفاتِك عَلَى (لا إِله إِلا الله) .

اللَّهُمَّ أَحْيِنا عَلَيها يا حَيُّ ، وَأَمِتنا عَلَيها يا مُمِـيتُ ، وابعَثنا عَلَيها يا باعِـثُ ، يا أَرحَمَ الرّاحِمِين .

---

(١) البَيتُ مِن القَصِيدَةِ اللاَّمِيَّةِ المشهورِ بـ«لامِيَّةِ العَجَم» والمنسُوبَةِ لِلعَمِيدِ أَبِي إِسماعِيلَ الطُّغْرائِي مَطلَعُها :

أَصالَةُ الرَّأيِ صانَتنِي عَن الخَطَلِ ... وَحِليَةُ الفَضلِ زانَتنِي لَدى العَطَلِ

أُنظُر «جَواهِرَ الأَدَبِ» لِلسَّيِّدِ أَحمَدَ الهاشِمِيِّ ص ٤٩٩ .

اتصال سند الدعوة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: الدَّعوةُ ما يَقومُ بها إلا مَن دُعِي ، إذا دُعي قامَ ، وَإذا قامَ دَعا ، وَإذا دَعا قامَ واعتَلَى لَه المقامُ ، وَهكَذا فَهوَ مَدعوٌّ إِليهِ ، وَمَدعُوٌّ به ، وَمُوفَّقٌ إِلى مَعانٍ أُخرَ ، ثُمَّ تَنطَوي فِي بَعضِها البَعض فِي الدّاعي الأَوَّلِ ، وَهو أَيضاً أَوَّلُ مَدعُوٍّ ، وَمَن لَم يُدْعَ كَيفَ يَدعُو ؟

مفهوم العيد

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: العِيدُ .. اجتماعُكُم عَلَى طَرِيقَةِ أَصلِ كلِّ عِيدٍ ، وَخيرِ العَبِيدِ ، صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم ، الاجتماعُ عَلَى طَرِيقَتِهِ وَهَديهِ وَدَعوَته ، مِن أبركِ الأَعيادِ ظاهِراً وَباطِناً ، حيثما وُجِدَ همُّهُ فِي قلبٍ .. فَبَشِّرْ صاحِبَه بالعيدِ والمزيدِ، وحيثُما فُقِدَتْ هُمُومُهُ وأفكارُهُ مِن القُلُوب .. فَبَشِّرْ أَصحابَها بِالخَيبَةِ ؛ لأَنَّه صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم أُسوَةُ الله الَّذي جَعلهُ اللهُ سُبحانه وَتَعالَى أُسوةً لخلقِهِ ، فَكلُّ قلبٍ ما حَمَلَ فِكرَهُ ولا حَمَلَ همَّهُ .. فهو مَقطُوعٌ عنه فِي القيامةِ ، فما هو العِيدُ عِندَه؟!

سر القرب في استشعار الاهتمام بالأمة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: تعرِفُونَ ما سِرُّ القُربِ فِي الهَمِّ بالأُمَّةِ وَنَفعِهِم ؟ سِرُّ القُربِ فِيهِ مُشابَهتُهُ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، الآنَ هَذِهِ هُمُومُنا ، بَل هُمُومُ أَهلِ الوُجُودِ كُلِّهِم مِنَ الأَخيارِ بِالأُمَّةِ، ما تُساوِي شيئاً مِنْ همِّهِ هُو صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، هُو مُهْتمٌ بِالأُمَّةِ اهْتِماماً كَبِيرا، وَهُو مُنتبِهٌ مِنَ الأُمَّةِ كَثِيراً ، نَحنُ وَإِيّاكُم ساعَةً نَقُومُ وَساعَةً نَنامُ ، ساعَةً نَذكُرُ وَساعَةً نَنسَى ، لَكِن هُو صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم الأُمَّةُ فِي بَرَكَتِهِ ، وَفِي رَحمَةِ الله بِهِ .

فَإِذا أَنتُم شابَهتُمُوهُ ، فَهَذا بِعَينِهِ سِرُّ القُربِ ، يَحصُلُ لَكُم القُربُ لما تُشابِهُونَه بِحَملِ هَذا الهَمّ .

خاصَّةً هَذا الوَصفُ ، وَصفٌ قَويٌّ فِيه ، وَلِهَذا الَّذي يُشابِهُهُ يَكُونُ قَوِيّاً فِي الصِّلَةِ بِهِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم .

ثمرة الاهتمام بالأمة

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ: هَمُّهُ وَفِكرُهُ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم .. يُنقِذُ النّاسَ مِن النّارِ إلى الجَنَّةِ ، مِنَ البُعدِ إلى القُربِ ، مِن الغَفلَةِ إلى الذِّكرِ ، مِن الإدبارِ إلى الإقبالِ، هَذا هَمُّه ! وَهَذِهِ الوَظِيفَةُ الَّتي وَظَّفَهُ اللهُ فِيها ! ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦] .

مهام يلزم التحقق بها

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ: هَذِه مَهامٌّ لازِمَةٌ متأَكِّدةٌ ، مِن الضَّرُورِي تَحَقُّقكُم بِها وَنَشرُها :

* تَثبيتُ قَواعِدِ الأُخُوَّةِ والتَّآلفِ والمُؤازَرَةِ والمَوَدَّةِ ، وَشَدِّ العَضُدِ ، واحتِرامِ وَإكرامِ الغَيرِ ، وَنُكرانِ الذّاتِ .

* غَرسُ الرَّوحانِيَّةِ والسُّمُوِّ بِالمقاصِدِ والإراداتِ ، وَتَقوِيَةُ التَعَلُّقِ بِالله وَرَسُولِهِ وَأَهلِ بَيتِهِ وَأَصحابِهِ والصّالِحِينَ ، والتَّحَقُّقِ بِالذِّكرِ والشُّكرِ ، وَحُسنِ العِبادَةِ.

* تَوسِيعُ وَتَعمِيقُ آفاقِ التَّصوّراتِ والمدارِك ، وَمُلازَمَةُ الجِدِّيَةِ والوَقارِ ، وَإِنْجازُ الأَعمالِ والوُعُودِ والالتِزاماتِ.

نية الخدمة والتعلق بسر الصالحين

وقالَ رَضِيَ اللهُ عنهُ ونفعَنا بهِ[1] إنْ كانَ هُناكَ مِن نَوايا في خِدمَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ وَخِدمَةِ هَذا الدِّين في أعمارِكُم المحدُودَةِ القَصِيرَةِ فَأَنْعِمْ بذَلِك ؛ لأَنَّ النَّوايا تَفتَحُ أَبوابَ التَّوفِيق ، وَإِنْ كانَ الواحِدُ منكُم يُفَكِّرُ تفكيراتٍ قاصِرةٍ أَو ساقِطَةٍ ، فَيا وَيحَ مَن عُرِضَتْ عَلَيهِ أَغلَى البِضاعاتِ فَرَضِيَ بِالتّافِهاتِ والدَّنِيّاتِ ، وَآثَرَ عَلَيها ما لا يُساوِي شَيئًا .

وَبَعْضُ الَّذِينَ يَبقَى فِي قُلُوبِهِم شَيءٌ مِن تَفخِيمِ شَأنِ الدُّنيا والمالِ ، وَلَهم أَعمالٌ صالحاتٌ واجتِنابٌ لِلسَّيِّئاتِ ، يُؤتَى بِأَحدِهِم فَيُرفَع عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ ، فَيُنادِي المَلَكُ عَلَيهِ: «أَلا إِنَّ هَذا عَظَّم ما حَقَّر اللهُ»[2] فَيَخجَلُ حَتّى يَتَساقَطَ لحمُ وَجهِهِ مِن الخَجَلِ ، مَوقِفُ خَجَلٍ وَحَياءٍ ، أَمامَ الأَنبياءِ والرُّسُلِ والصِّدِّيقِين والملائِكَةِ والأَوَّلِينَ والآخِرِينَ يُقال لَهم: «أُنْظُرُوا هَذا عَظَّمَ ما حَقَّرَ اللهُ» .

وا أَسَفاه! كَيفَ يُحَقِّرُ رَبُّ العِبادِ أَمراً وَأَنتَ تُعَظِّمُهُ؟ فَيَستَحِي عَلَى نَفسِهِ مِن ذَلِك حَتَّى يَتَساقَطَ لَحمُ وَجهِهِ مِن الخَجَلِ والحَياءِ ؛ لأَنَّ فِي قَلبِهِ شَيئاً مِن تَعظِيمِ الدُّنيا ، مَع أَنَّهُ تَرَكَ السَّيِّئاتِ وَفَعَلَ الطّاعاتِ ، وَلَكِن لَم يَتَصَفَّ قَلبُهُ مِن تَعظِيمِ الدُّنيا الَّتِي أَبى اللهُ أَن تُساوِيَ جَناحَ بَعُوضَةٍ .

مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عَلَى شاةٍ مَيتَةٍ فَقالَ : «أَتَرَونَ هَذِه الشّاةَ هَيِّنَةً عَلَى أَهلِها ؟ قالُوا : مِن هَوانِها أَلقَوها . قال : والَّذِي نَفسِي بِيَدِه لَلدُّنيا أَهوَنُ عَلَى اللهِ مِن هَذِهِ الشّاةِ عَلَى أَهلِها ، وَلَو كانَتِ الدُّنيا تَعدِلُ عِندَ اللهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَى

(١) بِمَسجِدِ العَيدَرُوسِ عَصرَ يَومِ الاِثنَينِ ٦ مِن شَهرِ ذِي القِعدَةِ ١٤١٩ هـ .

(٢) عَن مُحَمَّدِ بنِ المنكَدِرِ يَروِيهِ قالَ : «وَلَو أَنَّ عَبداً جاءَ يَومَ القِيامَةِ قَد أَدَّى إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ جَمِيعَ ما افتَرَضَ عَلَيهِ إِلا أَنَّه مُحِبٌّ لِلدُّنيا إِلا أَمَرَ اللهُ لَه مُنادِياً يُنادِي بِه عَلَى رُؤُوسِ أَهلِ الجَمعِ : أَلا إِنَّ هَذا فُلاناً ابنَ فُلانٍ قَد أَحَبَّ ما أَبغَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلّ». «حِليَةُ الأَولِياءِ».

كافِراً مِنها شَربَة ماءٍ»[1]، فَلِماذا تَترُكُ لها في قَلبكَ مَـحَلّا ، بَعدَ هذا الكَلامِ مِن الحَبيبِ الأَجَلِّ؟ أَلَيسَ هوَ أَصدَقُ قائلٍ مِنَ الخَلائِق؟ أَم هَلْ عِندَك شَكٌّ فِي كَلامِه؟ اللهُ يَربِطُنا به إنْ شاءَ الله .

والآنَ نَختِمُ كِتابَ «الغُرَرْ»[2] ، ذُكِرَ فِيه قَومٌ غُرَرْ ، عَسَى نَتَشَبَّهُ بِهِم وَنَقُصُّ الأَثَر ، وَتَحيا ما لَهُم مِنَ السِّيَر فِينا وَفِيمَن يُـجالِسُنا ، وَتَحسُنُ إنْ شاءَ الله .

ما نَجلِسُ إلا وَنَحنُ نُحيي سِيَرَهُم ، وَلا نَتَكَلَّمُ إلا وَنَحنُ نُحيي سِيرَهُم ، وَلا نُسافِرُ إلا وَنَحنُ نُحيي سِيَرَهُم ، وَلا نُقيمُ فِي مكانٍ إلا وَنَحنُ نُحيي سِيرَهُم ، وَلَنا الهَنَاءُ بِذَلِكَ ، ما نَحمِلُ لِلنّاسِ ظُلمَةَ كَذِبٍ ، وَلا ظُلمَةَ غِيبَةٍ[3] ، وَلا ظُلمَةَ فُسُوقٍ ، وَلا ظُلمَةَ نِيَّةٍ سَيِّئَةٍ ، وَلا ظُلمَةَ جُحُودٍ بِنِعَمٍ ، وَلا ظُلمَةَ سُوءِ ظَنٍّ .

نَحمِلُ لِلنّاسِ أَنوارَ الأَدَبِ مَعَ الله ، وَمَع خَلقِ الله ، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[البقرة:٦٠]، النّاسُ لَهُم مَشارِبُ ، وَهؤلاءِ وَرَثَةُ المصطفَى طَرِيقَتُهم وَمَشرَبُهم الصَّفاءُ ، فَما يَعرِفُونَ يَحمِلُونَ عَلَى أَحدٍ ، وَلا يَحقِدُونَ عَلَى أَحدٍ ، وَلا يَحسِدُونَ أَحداً ، وَلا يُفاخِرُونَ أَحداً ، وَلا يُكابِرُونَ أَحداً ، وَلا يُعانِدُونَ أَحداً ، وَلا قَصدُهُم إلا الأَحَد.

لِباسُهُمُ التَّقْوَى وَسِيماهُمُ الحَيا ... وَقَصْدُهُمُ الرَّحْمَنُ فِي القَوْلِ والفِعْلِ
مَقالُهُمْ صِدْقٌ وَأَفْعالُهُمْ هُدىً ... وَأَسْرارُهُمْ مَنْزُوعَةُ الغِشِّ والغِلِّ[4]

عَلَيهِم رِضوانُ الله ، اللهُ يَجعَلُ مَشرَبَنا مَشرَبَهم ، وَلا يَجعَلُ لَنا مَشرَباً ثانِياً ، حَتَّى لا

---

(١) رَواهُ ابنُ ماجَه والحاكِمُ وَصَحَّحَ إِسنادَه مِن حَدِيثِ سَهلِ بن سَعدٍ .

(٢) هُو المسَمَّى «**غُرَرَ البَهاءِ الضَّوِيِّ وَدُرَرَ الجَمالِ البَدِيعِ البَهِيِّ**» كِتابٌ فِي التَّراجِمِ لِلإِمامِ المحَدِّثِ مُحَمَّد بن عَلِيّ بن عَلوِيّ خرد باعَلَوِيّ المتوَفى سَنَة ٩٦٠هـ .

(٣) **الغِيبَةُ** : هِي ذِكرُكَ أَخاكَ المسلِمَ بِما يَكرَهُ وَلَو كُنتَ صادِقاً .

(٤) البَيتانِ مِن قَصِيدَةٍ لِلإِمامِ الحَدّادِ مَطلَعُها :

أَقُومُ بِفَرضِ العامِرِيَّةِ والنَّفلِ ... وَأَصدُقُها فِي القَصدِ والقَولِ والفِعلِ

يُقالَ لنا ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، إنْ كانَ لَكَ مَشرَبٌ آخَرُ سَتأتِي يومَ القِيامَةِ تُريدُ أنْ تكونَ مَعَهم يقُولُ لَكَ الحَقُّ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦٠]، اشربْ مَعَ الَّذِين شَربتَ مَعَهُم فاذهَبْ إِلَيهِم ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء:٧١].

هَؤلاء أَلْصَقُ[1] الأَئِمَّةِ بِإمامِ الأَئِمَّةِ، وأَقربُ الأَئِمَّةِ من إمامِ الأَئِمَّةِ، فاضَتْ عِنايَتُه عَلَيهِم مِن كلِّ جانِبٍ فآثَرهم، فما أَحبَّ أَحداً مِثلَهُم، قالَ سَيِّدُنا الحَدّاد[2]:

وَلِي مِنْ رَسُولِ الله جَدِّي عِنايَةٌ ... وَوَجْهٌ وَإِمْدادٌ وَإِرْثٌ وَإِيْثارُ[3]

آثَرهُم فلا يَبْلغُ أَحدٌ شَأْوَهُم؛ لأَنَّ سُلطانَ الحَضرةِ آثَرهُم، فكُلٌّ يَلزَمُ مَكانَه، وكَما قالَ الحَبيبُ أَبوبَكر بن شِهاب:

لا بِما قَدْ عَمِلتُمُوه مِنَ الخَيـ ... ـيرِ وَلكِنْ قَضَتْ بِذاكَ الإرادَة[4]

والمرادُ بالعامِرِيَّة: **النَّفسُ**، انظرْ «الدُّرّ المنظوم» حَرفُ اللّامِ، ص ٢٦٨ .

(١) أَلصَق: أي أقرَب .

(٢) **الإمامُ الحَدّادُ**: هُوَ الإمامُ عَبدُ الله بنُ عَلَوِيّ بنِ محمَّدُ الحَدّاد، وُلِدَ بالسَّبيرِ مِن ضَواحِي مَدِينَة تَرِيم بِحَضرَموتَ لَيلَةَ الخَميسِ الخامِسِ مِن شَهرِ صَفَر ١٠٤٤هـ، كُفَّ بَصَرُه وَهوَ صَغِير فَعوَّضه الله عَنهُ بِنُورِ البَصِيرَةِ، سافَر إِلَى الحَرَمَينِ الشَّرِيفَينِ عام ١٠٧٩هـ، ولا زالَ داعِياً إلَى الله باذِلاً في ذَلِكَ غايَةَ جُهدِهِ حَتَّى كانَت وَفاتُه لَيلَةَ الثُّلاثاء ٧ من شَهرِ ذِي القِعدَةِ عام ١١٣٢هـ، وَدُفِنَ بِمقبَرَةِ زَنبَل بِتَرِيم .

(٣) البيتُ مِن قَصِيدَةٍ للإمامِ الحداد مَطلَعُها:

أَلا لَيتَ شِعرِي والفُؤادُ بِه نارُ ... وفي العمرِ إسراعٌ وفي الدَّهْرِ إدْبارُ
هَلِ العَيْشُ في حَيِّ الأَحِبَّةِ عائدٌ ... وهل قدجَرَتْ بالعَوْدِياسعدُأقدارُ

(٤) البيتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلحَبيبِ أَبِي بَكرِ بنِ عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ شِهابِ الدِّينِ مَطلَعُها:

مِن غَرامِي بِقُرطِها والقِلادَةْ ... إِنْ أَمُتْ مُغرَماً فَمَوتِي شَهادَةْ

وُلِدَ عامَ ١٢٦٢هـ بِقَرِيَةِ حِصنِ آلِ فلوقة، نَشأَ وتَرَبَّى بِتَرِيم في حِجرِ والِدِه، كانَ حادَّ الذَّكاءِ، سَرِيعَ الفَهمِ والحِفظِ، بَيِّنَ الحُجَّةِ، **مِنَ الَّذِينَ أَخَذَ عَنهُم**: السَّيِّد محمَّد بن إبراهيم بلفقِيه والحَبيب مُحسِن بن عَلَوِيّ السَّقّاف وَمَن في طَبَقَتِهِ والحَبيب أَحمَد المحضار، تُوُفِّيَ سَنَة ١٣٤١هـ بِحَيدَر أَباد بِالهِند .

وَقالَ الحَبِيبُ عَلِيٌّ الحَبْشِي :

فانَّهُمْ قَوْمْ ماجَدْ فِي البَرِيَّةْ كَماهُمْ
لا تُرافِقْ وَتَصْحَبْ فِي الخَلِيْقَةْ سِواهم
فانَّ مَوْلاكْ وَفَّرْ مِنْ هِباتِهْ عَطاهُمْ
جادْ وانعَمْ عَلَيْهِمْ بالرِّضَى واجْتَباهُمْ
يا لَهُمْ قَومْ يَرْضَى رَبُّنا مِنْ رِضاهُمْ
فاسْعَ فِيْما سَعَوْا واشْرَبْ مَعَ القَومْ ماهُمْ
عَلَّ يَحْبُوكْ رَبُّكْ مِثْلَ ما قَدْ حَباهُمْ(1)

لا تَترُكُوا هَذِهِ الفُرَصَ ، فالحَقُّ دائِماً يَنتَخِبُ أُناساً وَيَختارُ أُناساً يُسَجَّلُونَ وَيُثْبَتونَ فِي دَواوِينِ الاختِصاصِ مَعَ الخَواصِّ ، هَذا يُنتَخَبُ لِإحياءِ السُّنَنِ وَهَذا يُنتَخَبُ لِإحياءِ الشَّرِيعَةِ فِي عِدَّةِ أَماكِنَ ، فَعَسَى اللهُ لا يَحرِمُنا ، وَيُوَفِّرُ حَظَّنا إِنْ شاءَ اللهُ ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء:٦]، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣].

مخاطباً طلّابه المتخرّجين من دار المصطفى

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ (2) لا يَضَعُ أَحدٌ مِنكُم فِي ذِهنِهِ أَنَّه غَيرُ خادِمٍ لِلحَقِّ وَرَسُولِهِ وَشَرعِهِ ، فَماذا سَيَعمَلُ هُناكَ ؟ عَمَلُ الخادِمِ ، عَمَلُ العَبدِ مَعَ السَّيِّدِ .. دَوامُ إِنابَةٍ وَخَشيَةٍ وَخُضُوعٍ ، وَطَلَبٍ لِأَداءِ ما أَحَبَّ اللهُ مِنه .

---

(1) الأبياتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإمامِ عَلِيِّ بنِ مُحَمَّدٍ الحَبْشِي مَطلَعُها :

اعرِف الحَق لأَهْلِ الحَقِّ واسْلُكْ مَعاهم ... في طَرِيق التُّقَى مِن حِيثْ سارُوا وَراهُم

أُنظُر «سِمط الدُّرَر» ص ١٢٧ .

(2) عامَ ١٤٢١ هـ .

فَإِنْ كان يَخطُرُ عَلَى بالِ أَحَدِكُم أَنَّ بِنايَةَ الأَرْبِطَةِ هُو الغَرَضُ أَو عَقْدَ الدُّرُوسِ هُو الغَرَضُ ، أَو الحَدِيثَ مَع النّاسِ هُو الغَرَضُ ، أَو الظُّهُورَ هُو الغَرَضُ ، أَو الشُّهرَةَ هِي الغَرَضُ .. فَعَلَيهِ أَنْ يُعالِجَ نَفسَه وَيُداوِيها ، ما هُناك شَيْءٌ مِن هَذا هُو الغَرَضُ ، حتّى بِناءُ الأَربِطَةِ والمَدارِسِ لَيسَ غَرَضاً مُفِيداً لِذاتِها أَبَداً ، الغَرَضُ .. أَداءُ حَقِّ الأَمانَةِ لله تَبارَكَ وَتَعالَى بِبَذلِ الرُّوحِ والنَّفسِ ، وَبِبَذلِ غايَةِ الوُسعِ والمُستَطاعِ والقُدرَةِ كُلِّها فِي العَمَلِ بِشَرعِ الله سُبحانَه وَتَعالَى وَنَشرِهِ بَينَ الخَلقِ ، سَواءً كانَ فِي دُكّانٍ أَو فِي سُوقٍ أَو فِي سَيّارَةٍ أَو فِي طائِرَةٍ أَو فِي مَطارٍ أَو فِي مَسجِدٍ أَو فِي مَلعَبٍ أَو فِي رُباطٍ أَو فِي مَعهَدٍ أَو فِي مَدرَسَةٍ أَو فِي دائِرَةٍ حُكومِيَّةٍ إِلَى غَيرِ ذَلِكَ ، فالخادِمُ يَطْلُبُ ما هُوَ أَرضَى لِلسَّيِّدِ دائِماً .

لا يُقِرّ نَفسَه عَلَى مَيلٍ لِثَناءِ النّاسِ ، وَلا عَلَى اسْتِلذاذٍ بِمَدحِ النّاسِ ، وَلا عَلَى الْتِفاتٍ لِلمَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِ النّاسِ ، وَلا عَلَى مَورِدٍ لِغَرَضِ النَّفْسِ ، وَلا يَزالُ يَجْتَهِدُ وَيَطلُبُ مِن رَبِّه الثَّباتَ .

وَيَتَجَلَّى هَذا فِي حُسنِ انْطِوائِكُم فِي الَّذِينَ سَبَقُوكُم ، وَنِيَّتِكُم فِي جَمعِ قُلُوبِ المسلِمِينَ والتَّآلُفِ بَينَهُم ، وَفِي القِيامِ بِشَرعِ الله تَبارَكَ وَتَعالَى ، وَنُصرَةِ دِينِه ، وَمُعاداةِ أَعدائِهِ مِمَّن يُعادِي المُسلِمِين مِن نَصارَى أَو يَهُودَ وَمَن والاهُم ، فَنَكُونُ حَرباً لِمَن حارَبَ وَسِلماً لِمَن سالَمَ ، نُحِبُّ بِحُبِّه النّاسَ ونُعادِي بِعَداوَتِهِ مَنْ خالَفَهُ مِن خَلقِه ، ما نُوالِي نَصرانِياً ، وَلا نُوالِي كافِراً ، ولا نُوالِي فاجِراً ، ولا نُوالِي فاسِقاً ، يَكُونُ تَبَعَ قُوَّةٍ أَو دَوْلَةٍ أَو حاكِمٍ أَو مَحْكُومٍ ، كُلُّهُم فِي نَظَرِنا سَواء .

مِيزانُ الوَلاءِ عِندَنا واحِدٌ ، مَن كانَ فِي مَرضاةِ الله وَطاعَتِه فَهُو صاحِبٌ لَنا ، يَكُونُ مِسكِيناً أَو فَقِيراً أَو صُعْلُوكاً بَينَ النّاسِ ، أَو حاكِماً أَو مَحْكُوماً ، كُلُّهُم سَواءٌ ،

وَمَن يُخالِفُ أَمرَ الله فَهُو عَدُوٌّ لَنا يَكُونُ مَن يَكُون ، فَقِيراً أَو غَنِياً أَو وَزِيراً أَو أَمِيراً أَو مَأمُوراً .. كُلُّهم سَواء .

تُصادِفُونَ مِنهُم دَعَواتٍ .. فَلا تَستَجِيبُوا لها ، تُزَيِّنُ لَكُم أَنَّكُم بِالمظْهَرِ تَخدُمُونَ الدِّينَ ، وَأَنَّكُم بِالتَّقَدُّمِ عَلَى الغَيرِ تُحافِظُونَ عَلَى الشَّرِيعَةِ .. فَلا تَستَجِيبُوا لها .. كَذّابَة ، قُولُوا لَهَا : مَعَنا دَعوَةٌ مِن الصّادِقِ المَصْدُوقِ .. تُخالِفُ دَعوَتَكُم .. فَلا نَقبَلُ ما دَعَوْتُمونا إِلَيهِ وَنَرُدُّ دَعْوَةَ حَبِيبِ الرَّحْمَن صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، اقْطَعُوها عَنكُم واقْبَلُوا دَعوَةَ النَّبِيِّ وَحْدَه واعْمَلُوا بِها .

هَذِهِ الدَّعْوَةُ ما قامَتْ إِلا عَلَى الصِّدقِ والصَّبرِ والتَّضْحِيَةِ والاحْتِمالِ مِن أَوَّلِها ، مِن أَوَّلِ خَطَواتِها فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، ماذا كانَ عَمَلُ الدَّعوَةِ ؟ هَل هُناكَ مَبانِي بَناها ؟ هَل هُناكَ مَظاهِرُ تَظاهَرَ بِها ؟ وَمَكَثَ ثَلاثَ سَنَواتٍ لا يَسْتَطِيعُ الجَهرَ ، حتَّى جاءَهُ الأَمرُ وجَهَرَ ، وَماذا جَرَى لِبِلالٍ ؟ وَماذا عَمِلُوا مَعَ عَمّارٍ وَأَبِيهِ وَأُمِّهِ ؟ هَكَذا الدَّعوَةُ، حَبَسُوهُ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّمَ فِي الشِّعبِ ، وذَهَبَ أَصْحابُه إِلى الحَبَشَةِ ، أَحْياناً يَكادُوا يَخْنُقُوه عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلام ، وأَحْياناً يَضَعُون السَّلا فَوقَ ظَهْرِهِ وهو فِي السُّجُودِ.

هَذِه الدَّعوَةُ دَعوَةُ تَضحِيَةٍ وَبَذلٍ ، ما شِيَ فِي الدَّعوَةِ مَظاهِرُ ، وَلا مَفاخِرُ ، وَلا جَلبُ مالٍ ، هَكَذا قامَتِ الدَّعوَةُ ، وَهَذا تارِيخُ دَعْوَتِنا ، وَأَيّامَ الصَّبرِ فِي مَكَّةَ .. هُوَ سَبَبُ فَتْحِها ، بَلْ وَفَتحِ العالَمِ بَعدَها ، فَهذا تارِيخُ دَعْوَتِنا مِن بِدايَتِها .

دَعوَتُنا.. دَعوَةُ الوَفاءِ بِالعَهدِ والبَذلِ والعَطاءِ والتَّضحِيَةِ والإِيثارِ والصَّبرِ والاحتِمالِ والزُّهدِ والرَّغبَةِ فِيما عِندَ الله ، فَكُلُّ ما قامَ عَلَى غَيرِ هَذا الأَساسِ .. لَيسَ مِن الدَّعوةِ ، وَلَيسَ بِمُتَّصِلٍ بِسِرِّ هَذِهِ الوِراثَةِ ، كَم نُعانِي مِن النُّفُوسِ هَذِهِ ؟ الله يُصْلِحُنا وَيُؤتِي نُفُوسَنا تَقْواها .

ما المَقصُودُ مِن هَذِهِ الدِّراسَةِ وَمِن هَذِهِ الدَّعوَةِ ؟ وَما المَقْصُودُ مِن هَذا العِلمِ والتَعليمِ كُلِّهِ ؟ والصّادِقُ مَعَ الله إذا قِيلَ لَه : اِذْهَب إلى جَنُوبٍ .. ذَهَبَ جَنُوب(١)، أَو قِيلَ لَه : اِذْهَبَ إِلى شَمالٍ .. ذَهَبَ شَمال ، حَيثُ ما تُرِيدُنا ، هَكَذا الدَّعوَةُ ، أَمّا الَّذِي يَضَعُ لَه عِشْرِينَ غَرَضاً أَمامَهُ لِنَفْسِهِ .. فَهَذا لَيسَ بِجُندِي لله ، بَل هَذا جُندِيٌّ لِنَفْسِهِ ، فَأَينَ الجُندِيُّ لله ؟

قالَ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم لأَصحابِهِ: «اذْهَبُوا إلى الحَبَشَةِ»(٢) ، أَيعرِفُون مَن في الحَبَشَةِ؟ هَل لَهُم غَرَضٌ هُناك ؟ لا يَعرِفُونَهم وَلا يَعرِفُون طَبائِعَهُم ، وَلا يَعرِفُون عاداتِهِم ، لا لَهُم أَصحابٌ وَلا لَهم أَصدِقاءُ ، غُرباءُ ، خَرَجُوا امْتِثالاً لأَمْرِهِ ، حَتَّى بَعضُ بَناتِهِ(٣) صَلىَّ الله عَلَيهِ وَسَلَّم خَرَجنَ مَعَهُم ، فارَقُوا الوَطَنَ ، فارَقُوا المَكانَ ، وبَعدَ ذَلِك جاءَتِ الهِجْرَةُ إلى طَيْبَةَ، وأَيّام كانَ في طَيبَةَ ما الذِي حَصَل ؟ كُلَّما جَلَسَ فَتْرَةً .. خَرَجَتِ السَّرايا التِي يَبعَثُها صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم .

هَذا تارِيخُ دَعوَتِنا ، وَكَم أَيّامٍ رَبطَ الحجَرَ عَلَى بَطنِهِ وهو في المَدِينَةِ؟ وما هي إلا عَشْرُ سَنَواتٍ ، ولَكن كَم مِن بَرَكاتٍ فِيها ؟ لا زِلْنا نَسْتَقِي مِنها ونَشْرَبُ مِن ماءِ هَذِه العَشرِ السَّنَواتِ ، ومَرَّتْ عَلَيهِ بَعضُ الأَيّامِ يَبعَثُ لِلبُيُوتِ التِّسعَةِ ما يَجِدُ شَيئاً فِيها لِلضَّيفِ ،

---

(١) أَي : إِذا قِيلَ لَه اذهَبْ إِلى جِهَةِ الجَنُوبِ قالَ : سَأَذهَبُ . كِنايَةٌ عَن غايَةِ الامتِثالِ .

(٢) عَن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِي الله عنها زَوجِ النَّبِيِّ صَلىَّ الله عَلَيهِ وَسَلَّم أَنهَّا قالَت : لما ضاقَت عَلَينا مَكَّةُ وَأُوذِيَ أَصحابُ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم وَفُتِنوا وَرَأَوْا ما يُصِيبُهُم مِن البَلاءِ والفِتنَةِ فِي دِينِهِمْ وَأَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم لا يَستَطِيعُ دَفعَ ذَلِكَ عَنهُم وَكانَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم فِي مَنعَةٍ مِن قَومِهِ وَعَمِّهِ ، لا يَصِلُ إِلَيهِ شَيءٌ مِمّا يَكرَهُ مِمّا يَنالُ أَصحابَهُ فَقالَ لَهُم رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم : «إِنَّ بِأَرضِ الحَبَشَةِ مَلِكاً لا يُظلَمُ أَحَدٌ عِندَه فالحَقُوا بِبِلادِهِ حَتى يَجعَلَ اللهُ لَكم فَرَجاً وَمَخرَجاً مِما أَنتُم فِيهِ» رَواهُ البَيهَقِي .

(٣) خَرَجَتِ ابنَتُهُ رُقَيَّةُ مَعَ زَوجِها سَيِّدِنا عُثمانَ بنِ عفان .

وهو الذي يَقُول لِبِنْتِه : «ما يَبْقَى مِنْ بَيْتِ مَدَرٍ ولا وَبرٍ ولا حَجرٍ إلاّ وَدَخَلَهُ دِينُ أَبيكِ، بذلِّ ذَليلٍ أَوْ عِزِّ عَزيز»[1] ، أَمرٌ قاهِرٌ ، بِهذا الصَّبر .. بِهذا الاحْتِمالِ، وَقالَ لأَبي بكرٍ وَعُمَرَ : «ما الَّذِي أَخْرَجَكُما ؟ قالا : الجُوعُ . قالَ : قَدْ أَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُما»[2]، هَذِهِ أَيّامُهُ وَهو فِي المَدِينَةِ ، وَجاءَ فَتحُ مَكَّةَ وَجاءَتِ الوُفُودُ وَجاءَ الخَراجُ والجزيات والزَكَواتُ مِن الأَماكِنِ المُختَلِفَةِ ، ثُمَّ مَع ذَلِكَ يَتوفَّى وَدِرْعُهُ مَرهُونَةٌ عِندَ يَهُودِيٍّ فِي دَيْنٍ كانَ قد أَخذَه ، وَبعدَ هَذِهِ الفُتُوحاتِ بَحَثُوا فِي بَيْتِهِ فَما وَجَدُوا شَيئاً مِن الطَّعام إلا شَطْراً مِن شَعِيرٍ ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيه وعَلَى آلِهِ وأَصْحابِهِ .

نَضعُ هَذِهِ الأُمُورَ أَمامَ أَعْيُنِنا وَنَعلَمُ ما عِندَنا مِن الضَّعفِ والعَجزِ ، وَلَكِن ما نَرضَى أَن نَهوِيَ وَراءَ هَذِه الفانياتِ ، وَمَيلِ النُّفوسِ إِلَيها وَتَعَلُّقِ القَلبِ بِها ، وَهِي أَصلاً مُسَخَّرَةٌ ، والحالَةُ المادِيَّة لِزَمانِنا بِالنِّسْبَةِ لِحالَةِ الصَّحابَةِ نادِرَةُ المُشابَهَةِ لَهُم .

والقَصْدُ أَن نَفقَه وَنَعلَمَ المقصَدَ ، وَنَشكُرَ اللهَ تَعالَى عَلَى ما أَتانا ، وَلا نَمِيلُ بِقُلُوبِنا إِلَى الفانياتِ ، فَلَيسَ أَحدٌ مِنّا مِن قَومٍ رَبَطُوا الحَجَرَ ، وَلا مِن قَومٍ لا يُوجَدُ فِي بَيتِهِم

---

(١) عَن أَبِي ثَعلَبَةَ الخُشَنِيِّ قالَ : كانَ رَسُولُ الله صَلىَّ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم إذا قَدِمَ مِن سَفرٍ بَدَأَ بِالمسجِدِ فَصَلَّى فِيهِ رَكعَتَينِ ثُمَّ يُثَنِّي بِفاطِمَةَ ثُمَّ يَأتِي أَزواجَهُ، فَقَدِمَ مِن سَفرٍ فَصَلَّى فِي المسجِدِ رَكعَتَينِ ثُمَّ أَتَى فاطِمَةَ فَتَلَقَّتْهُ عَلَى بابِ البَيتِ فَجَعَلَتْ تَلثُم فاهُ وَعَينَيْهِ وَتَبكِي، فَقالَ : «ما يُبْكِيكِ؟» فَقالَت : أَراكَ شَعثاً نَصِباً قَد اخلَولَقَتْ ثِيابُكَ . فَقالَ لَها : «لا تَبكِ .. فَإِنَّ اللهَ قَد بَعثَ أَباكِ بِأَمرٍ لا يَبقَى عَلَى وَجهِ الأَرضِ بَيتٌ وَلا مَدَرٌ وَلا حَجَرٌ وَلا وَبَرٌ وَلا شَعَرٌ إلا أَدخَلَه اللهُ بِه عِزاً أَو ذُلاً حَتى يَبلُغَ حَيث بَلَغَ اللَّيلُ» رَواهُ الطَّبَرانِيّ ، وَفِي رِوايَةِ المِقدادِ بنِ الأَسْوَدِ وَتَمِيمِ الدّارِي: «لاَ يَبقَى عَلَى ظَهرِ الأَرضِ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إلا أَدْخَلَهُ الله كَلِمَةَ الإِسْلامِ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَو ذُلِّ ذَلِيلٍ، إِمّا يُعِزُّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَيَجْعَلُهُمْ مِن أَهْلِها أَوْ يُذِلُّهُمْ فَيَدِينُونَ لَها» رَواهُ أَحمَد.

(٢) عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنه قالَ : «خَرَجَ رسولُ الله صَلىَّ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يَوْمٍ أو لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكرٍ وَعُمَرَ فَقالَ : مَا أَخرَجَكُما مِن بُيُوتِكُما هَذِهِ السَّاعَةَ ؟ قالا : الجُوعُ يَا رَسُولَ الله . قَالَ : وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُما» رَواهُ مُسلِم.

إلا الماء ، فلا أَحَدٌ مِنّا من هَذا الصِّنف ، وَإذا نَحن مِمَّن لَم نُتعِبْ أنفُسَنا .. فعَلَى الأَقَلِّ نَشْكُرُه تعالَى وَنَعلَمُ عَجْزَنا وَضَعْفَنا وَنُؤَدِّي حَقَّ المَوجُودِ الَّذِي عِندَنا ، الله يُوَفِّقُنا وَإيّاكُم وَيَنظُرُ إلَينا وَإيّاكُم .

في صفات الصادق في حمل الدعوة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[1] لابُدَّ أَن تَتَحَسَّسُوا فِي كُلِّ وَقتٍ أَينَ مَن يَصدُقُ فِي حَمل هَذِهِ الدَّعوَةِ؟ عَسَى أَنْ نَكُونَ مِنهُم إنْ شاءَ الله .

إنَّما يَكُونُ مِنهُم مَن يَعشَقُ رَبَّه ، وَقَدَّم أَمرَهُ عَلَى كُلِّ أَمرٍ ، وَرَفَض نَفسَه وَهَوَى نَفسِهِ ، وَشَهوَةَ نَفسِهِ .. فِي مُقابِل رِضاهُ ، وبَذَل عُمرَه وَحياتَه ، وَنَفسَه وَنَفِيسَه .. فِي خِدمَةِ الإِسلامِ والمُسلِمِين ، والإِيمانِ والمُؤمِنِين ، والإحسانِ والمُحسِنِينَ ، وَتَواضَعَ مِن أَجلِ رَبِّ الكَونِ ، مَعَ جَمِيعِ أَجزاءِ الكَون .

فَمَن ظَفِرَ بِهذِهِ الأَشياءِ الَّتِي ذَكَرناها .. فَهوَ صادِقٌ مُتَهَيِّئٌ لأَنْ يَنظُرَ إلَيهِ حَمَلَةُ الرّايَةِ ، وَمَن نَظَر إلَيهِ حَمَلَةُ الرّايةِ .. بَلَغَ الغايَةَ ، فَهَيّا انتَبِهُوا ، مَنِ انتبَهَ فِيكم فَهَذِهِ الانتِباهاتُ تُوصِلُ إلَى الرَّبِّ ، وَلا شَيءَ فِي الوُجُودِ أَعظَمُ مِن المَوجُودِ ، وَلا مَوجُودَ فِي الحَقِيقَةِ سِواهُ، كانَ سَيِّدُنا العِيدَرُوسُ يَقُولُ : **أَجْمَعَ رِجالُ التَّصَوُّفِ أَنَّ أَكْثَفَ الحُجُبِ بَيْنَ العَبْدِ وَرَبِّهِ .. النَّفْسُ ، وَأَجْمَعُوا أَنَّ أَشَدَّ أَدْواءِ هَذِهِ النَّفْسِ .. مَرَضُ العُجْبِ** . وقالَ عن رَفضِ الجاهِ ـ يَعنِي رَفضَ المَنزِلَةِ عِندَ النّاسِ ـ الَّذِي رَفْضُهُ مِن أَصعَبِ الأَشياءِ عِندَهُم، **بِرَفْضِ الجاهِ .. يَحْصُلُ لَكَ عِنْدَ الله جاهٌ** ، وَما دُمتَ مُعَلَّقاً بِجاهٍ عِندَ الخَلقِ .. فَلا جاهَ لَكَ عِند الخالِقِ .

---

(١) كانَ ذَلِكَ فِي عَصرِ يَومِ الاثنَين ٦ مِن شَهرِ ذِي القِعدَةِ ١٤١٩هـ فِي مَسجِدِ العَيدَرُوسِ مَع طَلَبَةِ «المنهاجِ» .

فَلا تَسأَلِ المَنزِلَةَ فِي قُلُوبِ النّاسِ ، فَإِنَّ الخَلقَ مِن أَوَّلِهِم إِلى آخِرِهِم إِذا رَضِيَ عَنكَ الحَقُّ .. لَن يَضُرَّكَ غَضَبُ أَحَدٍ ، وَإِذا نَعَّمَكَ .. ما قَدرَ أَحَدٌ مِنهُم أَنْ يُعذِّبَكَ ، وَإِذا قَرَّبكَ .. ما قَدرَ أَحَدٌ مِنهُم أَنْ يُبعِدَكَ ، وَهُم أَيضاً مِن أَوَّلِهِم إِلَى آخِرِهِم لَو أَبعَدَكَ .. فَلا أَحَدٌ يُقَرِّبُكَ ، وَلَو سَخِطَ عَلَيكَ .. ما نَفَعَكَ رِضا أَحَدٍ مِنهُم .

وَلا تَطْلُبَنَّ الجاهَ يا صاحِ[1] إِنَّهُ شَهِيٌّ وَفِيهِ السُّمُّ مِنْ حَيْثُ لا تَدْرِي[2]

فَهَذِهِ الأَوصافُ الَّتِي ذَكَرناها .. انتَبِهوا مِنها ، وَتَحَقَّقُوا بِها حَتَّى تَتَهَيَّؤُوا لأَنْ يَنظُرَ إِلَيكُم حَمَلَةُ الرّايَةِ ، فَتَبْلُغُوا الغايَةَ .

واحفَظُوا الكَلامَ .. فَلَيسَ كَلاماً عادِيّاً ، هَذا كَلامٌ مُتَّصِلٌ بِوَحيِ رَبِّكُم ، الَّذِي أَوحَى بِهِ إِلى نَبِيِّكُم ، سَيَظهَرُ خَبَرُهُ فِي القِيامَةِ ، وَإِلا سَتمُرُّ الأَيّامُ عَلَى النّاسِ هَذا سَيَذهَبُ وَهَذا سَيَذهَبُ ، لَكِنَّ الخَبَرَ فِي القِيامَةِ .

والَّذِي يَأخُذُ بِقُوَّةٍ وَيَصدُقُ .. يَسْلُكُ مَعَ أَهلِ الرّاياتِ ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠]، عَسى اللهُ يُوَفِّقُنا وَإِيّاكُم لِلوَفاءِ ، حَتَّى نَمُوتَ مُوفِينَ بِالعُهُودِ ، نُحشَرَ مَعَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ ، نَدخُلَ مَعهُم جَنّاتِ الخُلُودِ ، مَعَ المُقَرَّبِينَ الشُّهُودِ ، آمِين اللَّهُمَّ آمِين .

---

(١) أي : يا صاحِبي .

(٢) البَيتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإمامِ الحَدّادِ مَطلَعُها :

إِذا شِئتَ أَنْ تَحيا سَعِيداً مَدَى العُمرِ وَتُجعَلَ بَعدَ المَوتِ فِي رَوضَةِ القَبرِ

وَقَد وَرَدَ البَيتُ المَذكُورُ عِندَ قَولِهِ :

وَإِيّاكَ والدُّنيا فَإِنَّ حَلالَها حِسابٌ وَفِي مَحظُورِها الهَتكُ لِلسَّترِ
وَلا تَكُ عَيّاباً وَلا تَكُ حاسِداً وَلا تَكُ ذا غِشٍّ وَلا تَكُ ذا غَدرِ

أُنظُر «الدُّرّ المَنظُوم» ص٨٩ .

مستحثّا الهمم والعزائم

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[1] ما أَعظَمَ هَذا الرَّبِّ ! وَما أَعظَمَ هَذا الخالِقَ ! إِذا أَنتُمُ اتَّصَلتُم بِهِ .. فَفِيكُمُ الأَمَلُ لِحَملِ الأَعمالِ الكَبيرَةِ العَزِيزَةِ ، الَّتِي وَرَّثَها فِينا وَتَرَكَها لَنا حَبِيبُهُ المُصْطَفَى ، وَحُفِظَتْ بِحَمدِ الله ، وَمَعَ حِفظِها فِي العُصُورِ الماضِيَةِ .. بَرَزَتْ بادِيَةً فِي عَصرِنا هَذا لِبُرُوزِ مَخفِيّاتٍ ، وَإِنْجازِ مَوعُوداتٍ ، وَتَحقِيقِ ما ذَكَرَهُ الله لِحَبِيبِهِ خَيرِ البَرِيّاتِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم .

بَعدَ ذَلِكَ كَيفَ يَرضَى الواحِدُ مِنكُم أَنْ يَتَخَلَّفَ أَو يَتَأَخَّرَ أَو يَتَقَهقَرَ ، لَو نَعلَمُ لَكُم شَيئاً خَيراً وَأَحسَنَ .. لَقُلنا لَكُم اذهَبُوا إِلَيه ، لَكِن هَذا هو مَولاكُم وَأَربابُكُم هُنا ، وَخَيرُكُم هُنا كَيفَ ما تَقطَعُونَ مِن أَجلِهِ عَلائِقَ الخَلقِ وَعَلائِقَ الكَونِ بِما فِيهِ ؟

إِذا كانَ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَى البارِي[2] .. يَزهَدُون فِيما يَظهَرُ لَهُم فِي عالَمِ الرُّوحِ وَفِي المَلَكُوتِ الأَعلَى ، وَيُقال لَهُم : لا تَلتَفِتُوا واجْعَلُوا قَصدَكُم واحِداً هو الواحِدُ ، فَكَيفَ وَنَحنُ لا نَزال نُخاطِبُ الأُمَّةَ فِي عَلائِقِ هَذا العالَمِ الأَسفَلِ ، وَفِي عَلائِقِ هَذا العالَمِ الأَنزَلِ، وَفِي عَلائِقِ هَذا العالَمِ الأَقَلِّ والأَذَلِّ ، وَنَقُول لَهُم : اقطَعُوا عَلائِقَكُم .. لا يُؤَخِّرُكُم هَذا الكَونُ الأَدنَى ، وَهَذا الكَونُ الحَقِيرُ ، وَهَذا الكَونُ القَصِيرُ ، وَهَذا الكَونُ القَلِيلُ .

أَنتُم ما عَرَفتُم لِـمَ تَشَوَّقَتْ قُلُوبُ أَهلِ الصِّدقِ بَينَكُم ؟ وَإِلَى ماذا اشتاقَتْ قُلُوبُ أَهلِ المَعرِفَةِ أَمامَكُم ، وَقَد مَضَوا قُرُوناً كَثِيرَةً ، وَقَرْنُنا يَحتاجُ إِلَى ذَوقٍ مِن ذاكَ الذَّوقِ، وَشَوقٍ مِن ذاكَ الشَّوقِ ، بِهِ تُصَفُّ الصُّفُوفُ فِي نُصرَةِ الحَبِيبِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم وَنُصرَةِ هَذا الشَّرعِ .

وَإِذا جاءَت هَذِهِ القُلُوبُ وَهَذِهِ الأَذواقُ .. والله ما أَهَمَّتنا مَظاهِرُ الكَفَرَةِ ، وَلا

---

(١) وَذَلِكَ فِي ٣٠ مِن شَهرِ مُحَرَّم ١٤٢٢ هـ .

(٢) وَهُم صَفوَةُ الخَلقِ مِن الأَنبِياءِ والأَولِياءِ والصِّدِّيقِين .

مادِّيّاتهم ، إنّما أَهَمَّنا إعراضُ قُلُوبِ المُؤمِنينَ عَن كُنُوزِهم ، أَهَمَّنا التَّوَلِّي وَإيثارُ غيرِ الله عَلَى الله ، الَّذِي ظَهَرَتْ مَظاهِرُه فِي التَّعامُلاتِ والأَخلاقِ والنَّظَراتِ والأَقوالِ والأَفعالِ ، وَعُصِيَ الله بِاللَّيلِ والنَّهارِ ، وَبِالسِّرِّ والجَهرِ ، فِي مَنازِلِ المُسلِمِينَ وَبُيُوتِهِم وَأَسواقِهِم ، وَتَجَرَّؤُوا إِلَى مَواطِنَ شَرِيفَةٍ وَمَنازِلَ عَزِيزَةٍ خالَفُوا اللهَ فِيها وَعَصَوا اللهَ فِيها ، فَيا مُنقِذُ .. أَنقِذْ .

هَؤُلاءِ تَعَبَّدَنا اللهُ بِالشَّفَقَةِ عَلَيهِم وَتَعَبَّدَنا بِالاهْتِمامِ بِأَمرِهِم ، وَلَولا ذَلِكَ ما كانَ مِنّا مَعنًى لِلتَّذكِيرِ وَلا للتَبصِيرِ وَلا لإِقامَةِ هَذِهِ الأُمُورِ ، وَلَكِن وَجَدناها أَمانَةَ الله، والعَهدَ الَّذِي عاهَدنا المَولَى عَلَيه تَعالَى فِي عُلاه ، وَمَضَى مَن مَضَى عَلَيهِ مِن القَومِ الكِرامِ فَرْدٌ(١) بَعدَ فَرْدٍ ، وقُطْبٌ(٢) بَعدَ قُطْبٍ ، وَهُمامٌ بَعدَ هُمام ، وَبَدَلٌ بَعدَ بَدَلٍ ، وَصالِحٌ بَعدَ صالِحٍ إِلَى مَن أَدرَكناهُم مِن مَشايِخِنا ، كُلُّهُم أَدَّوا حَقَّ الأَمانَةِ فِي البَلاغِ والإِنْذارِ ، إِذ تَعَبَّدَهُم بِذَلِك الجَبّارُ القَهّار .

واليَومَ تُؤَدَّى الأَمانَةُ إِلَيكُم لمن سَينتَهِضُ وَلَمَن سَيعزِمُ ، أَو سَيُقبِلُ أَو سَيَتَّصِلُ أَو سَيَرتَقِي أَو سَيَقرُبُ أَو سَيَفْهَمُ أَو سَيُدْرِكُ أَو سَيَتَهَيَّأُ لماذا؟ يَتَهَيَّأُ لِلِقاءِ الجَبّارِ، وَيَتَهَيَّأُ لأَنْ يَسمَعَ مِنهُ أَعذَبَ الكَلامِ ساعَةَ الحِمامِ ، فَيَحسُنُ لَهُ الخِتامُ ، وَيَسمَعُ مُخاطَبَةَ المَلِكِ العَلّامِ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٣٠].

تَلتَفِتُ رُوحُه مِن أَينَ جاءَت هَذِهِ البِشارةُ ؟ وَمِن أَينَ وَصَلَ هَذا الوَصلُ ؟ فَيَجِدُ

---

(١) **الفَرْدُ** : جَمعُهُ أَفرادٌ وَهُم رِجالٌ مِن الأَولِياءِ لا يَدخُلُونَ تَحتَ دائِرَةِ القُطبِ .

(٢) **القُطبُ الغَوثُ** : هُو الفَردُ الجامِعُ وَيُدعَى عِندَ القَومِ بِالخَلِيفَةِ الكامِلِ وَيُنْعَتُ بِصاحِبِ الصِّدِّيقِيَّةِ الكُبرَى والوِلايَةِ العُظمَى ، والقُطبانِيَّةُ بِمَعنَى السِّيادَةِ وَكَذا يُطلَقُ اسْمُ القُطبِ مَجازاً عَلَى مَن لَه سِيادَةٌ خاصَّةٌ عَلى أَهلِ مَقامٍ أَوحالٍ .

الحَبِيبَ يُرَحِّبُ بِواصِلٍ مِن أُمَّتِهِ ، صَدَقَ فِي نُصرَتِهِ ، وَصَدَقَ فِي اتِّباعِ سُنَّتِهِ ، وَصَدَقَ فِي رَحْمَةِ أُمَّتِه ، وَصَدَقَ فِي المَشْيِ عَلَى سِيرَتِه ، فَيُحسِنُ اسْتِقبالَه وَمُقابَلَتَهُ ، وَيُزَجُّ بِهِ هُناكَ إِلَى ما لا يُوصَفُ وَما لا يُكَيَّفُ ، يا إِخوانِي أُكَلِّمَكُم بِلِسانِ صِدْقٍ ، أُكَلِّمُكُم عَن لِسانِ الصّادِقِ .

هَذا المَصِيرُ أَمامَكُم ، أَما تَعشَقُون هَذِهِ البَشائِرَ ؟ وَهَذِهِ المُرافَقَةَ الكَرِيمَةَ ؟ فَلَئِن ضاعَ عَلَيَّ رُؤيَةُ وَجهِهِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم عِندَ مَماتِي .. فَإِلَى أَينَ أَذهَبُ ؟ وَما هوَ الحالُ لِي ؟ وَما أَفادَنِي ما أُوتِيتُ وَما أُعطِيتُ فِي هَذا العالَمِ كُلِّهِ وَلَو مَلَكتُ الدُّنيا مِن أَقصاها إِلَى أَقصاها ؟!

يا أَهلَ العُقُولِ .. يا أَهلَ الفُهُومِ .. يا أَهلَ الإِدراكِ لِلحَقائِقِ .. يا أَهلَ تَصدِيقِ الخالِقِ فِيما أَنزَلَه عَلَينا وَبلَّغَهُ إِلَينا خَيرُ الخَلائِقِ ، تَشَكَّكَ النّاسُ فِي هَذا الخَبَرِ فَآثَرُوا الفانِي ، تَشَكَّكُوا فِيه فَوَقَعُوا فِي شَبَكَةِ الفِتَنِ لِعَدُوِّهِم ، قُلُوبُنا عَلَيهُم تَبكِي ، وَأَكُفُّنا تَرتَفِعُ ، وَمَعَنا وَعدٌ مِن الله أَنْ يُظهِرَ فِي الأُمَّةِ دُخُولاً فِي مَيادِينِ القُربِ أَفْواجاً ، وَتَقوِيماً لِما اعْوَجَّ ، وَتَعدِيلاً لِما مالَ ، وَتَحوِيلاً لِلأَحوالِ إِلَى أَحسَنِها ، وَنَحنُ عَلَى يَقِينٍ بِما وَعَدَ ، لَكِنّا نُحِبُّ لِلْواحِدِ مِنكُم أَنْ يَسبِقَ ، وَأَنْ يَصْدُقَ فَيَعْتَلِيَ وَيَرْتَقِي .

معرفة عظمة الله تثمر معرفة حق الدعوة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: ما عَرَفَ حَقَّ الدَّعْوَةِ .. مَنْ لَمْ يَعرِفْ عَظَمَةَ المُعطِي ، إِلَى حَدٍّ يَستَشعِرُ أَنَّ المَطلُوبَ مِنه ارتِقاءٌ إِلَى مَراتِبَ ما لَها تَكيِيفٌ وَلا حَصرٌ وَلا حَدٌّ ، فَما عَرَفَ حَقَّ الدَّعوَةِ .. مَن قَنِعَ بِالقَلِيلِ فِي مَيادِينِها ، وَلا مَنِ ارتَضَى بِأَدنَى الدَّرَجاتِ فِي أَحوالِها .

مَنْ لَم يَعلَمْ أَنَّه يُمكِنُ أَنْ تُواجِهَهُ فِي النَّفسِ بِعَظِيمِ المِنَنِ مِن الله نَفِيسٌ .. فَلَيسَ عِندَه فِي فَهمِ الدَّعوَةِ حُسنُ تَأسِيسٍ ، والمِيدانُ ما أَنفَسَهُ وَما أَوسَعَه .

وَحَقِيقَةُ الدَّعوَةِ التِي يَترَتَّبُ عَلَيها الخَيرُ الأَكبَرُ للأُمَّةِ فِي هَذا الزَّمانِ ، مِن دُونِ تَحصِيلِ طَلَبٍ صادِقٍ فِي مُشابَهَةٍ تامَّةٍ للصَّحبِ الأَوائِلِ أَنفُسِهِم لا تَقُومُ ، إِنَّما تَقُومُ حَقائِقُ الدَّعوَةِ الَّتِي يَنتَفِعُ بِها العالَمُ فِي هَذا القَرنِ عَلَى مَظاهِرِ اصطِفاءاتِ الله لِقُلُوبٍ تَصدُقُ حَتَّى تَتَهَيَّأَ لإِرثِ الصَّحابَةِ فِي وِجهاتِهِم وَمَحَبّاتِهِم وَتَفانِيهِم وَتَضْحِياتِـهِم وَذِلَّتِهِم وَخَشيَتِهِم وَإِنابَتِهِم ، وَرَهبانِيَّةِ لَيلِهِم ، وَفُرسانِيَّةِ نَهارِهِم .

والعَينُ الَّتِي نَظَرَت إِلَيهِم ذاكَ الزَّمان .. هِي النّاظِرَةُ فِي هَذا القَرنِ أَيضاً ، والله ما نَقَصَ مِن نَظَرِها شَيءٌ ، لَكِنَّ النَّواقِصَ عِندَنا ، عِندَ أَهلِ هَذا الزَّمانِ وَأَهلِ هَذا القَرنِ، مَع يَقِينٍ أَنَّ الحَقَّ سَيَختارُ بِلا مِريَةٍ ، وَسَيَبرُزُ أَقوامٌ فِي هَذا القَرنِ يَصطَفِيهِم وَيَجتَبِيهِم وَيَرتَضِيهِم وَيُدنِيهِم وَيُصافِيهِم وَيُذِيقُهُم حَلاوَةَ جُودِه ، وَفَهمَ خِطابِهِ ، وَصِلاتٍ صافِيَةً قَوِيَّةً بِهِ وَبِنَبِيِّه لا تَـكادُ تُخَيَّلُ ، هَذا الصِّنفُ إِرادَةٌ مِن الحَقِّ تَعالَى سَتُظهِرُهُم .

والشَّأنُ أَنَّ الواحِدَ مِنّا لا يَتَخَلَّفْ وَلا يَرضَهْ .. يُمكِنُ قَولُ هَذا الكَلامِ بِكُلِّ طُمَأنِينَةٍ وَبِكُلِّ ثِقَةٍ ، مَعَ أَنَّ أَكثَرَ أَفكارِ المُسلِمِينَ لا زالَت فِي انْحِطاطٍ ، وَمَع أَنَّ عامَّةَ ما يَدُورُ بَينَهُم إِلَى الهُبُوطِ أَقرَبُ ، مَع هَذا كُلِّهِ فَيُمكِنُ أَنْ نَقُولَ هَذا الكَلامِ بِكُلِّ طُمَأنِينَةٍ ، وَبِكُلِّ ثِقَةٍ ، وبِكُلِّ يَقِينٍ ، وبِكُلِّ استِقرارٍ .

ضرورة المشابهة لأحوال الصحب الكرام

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ لابُدَّ أَنْ يَقُومَ فِينا سِرُّ المُشابَهَةِ لِحالاتِ وَأَحوالِ الصَّحبِ الكِرامِ ، فَإِنَّ أَهلَ نُصرَتِهِ فِي آخِرِ الزَّمانِ .. أَشبَهُ النّاسِ بِأَهلِ نُصرَتِهِ بِأَوَّلِ الزَّمانِ ، وَلِهَذا لابُدَّ أَنْ نُقِيمَ قَواعِدَ مِن سِرِّ المُشابَهَةِ بَينَنا وَبَينَ أُولَئِكَ الصَّحبِ ، وَلِذَلِكَ التَّعَمُّقُ فِي سِيَرِهِم وَأَحوالِهِم مَعَ المُصطَفَى صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم وَمَعَ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ والرِّسالَةِ يَجِبُ أَنْ نَـكُونَ عَلَى قِسطٍ وَنَصِيبٍ وافِرٍ مِنه ، بِحَيث نَتَأَمَّلُها تَماما لِتَذَوُّقِها وَمُزاوَلَتِها.

في التفاني لتبليغ أمر الخالق

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[1] عَليكُم بَذلُ غايَةِ جُهدِكُم فِي تَبليغِ الخَلقِ أمرَ الخالِقِ ، وَتَفانِيكُم فِي تَواضُعِكُم وَذِلَّتِكم لِلمُؤمِنِينَ ، واعتِقادِكُم أَنَّهُمْ خَيرٌ وَأَفضَلُ مِنكُم ، وَشُكرُ الله عَلَى نِعمَةِ الاتِّصالِ بِحِبالِ رَسُولِه وَمصطَفاه ، والوُقُوفِ عَلَى أَبوابِ الدُّخُولِ عَلَيه، وَتَرْجَمَةُ كُلِّ ذَلِك فِي مُواصَلَة السَّعيِ والعَمَلِ ، وَضَبطِ الخَلَلِ ؛ لأَنَّ النَتِيجَةَ تَكُونُ فِي الغالِبِ لِنَفعِ النّاسِ مُناسِبَةً لِنِيَّةِ الواصِل إِلَيهم عَنهُم ، والمُبَلِّغِ لهم ، مُناسَبَةَ هِمَّتِه ونِيَّتِه، إِنْ ضَعُفَتِ الهِمَّةُ والنِّيَّةُ .. ضَعُفَتِ الثَّمَرَةُ والنَتِيجَة .

لهذا كانَ أُناسٌ بِنَواياهُم وَهِمَمِهِم حَوَّلُوا بُلدانَهُم إِلى خَيرِ حالٍ ، وَوَصَلَ بِهِم قَومٌ كَثِيرٌ ، وَهَكَذا كانَ سَيِّدُنا عُمَرُ إِذا أَرسَلَ أَحداً يُصلِحُ بينَ مُتَنازِعَين ، فَرَجَعَ يَقُولُ لَهُ : ما رَضُوا أَو ما اصطَلَحُوا فَيَعلُوه بِالدِّرَّة[2] وَيَقُولُ لَه : أَما تَسمَعُ قَولَ الله ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ [النساء:٣٥] .

ما ينبغي أن يُبذل الجهد فيه للناس

وقال رضي الله عنه ونفعنا به ابذُلُوا جُهدَكُم فِي التَّقرِيبِ والتَّحبِيبِ ، والتَّأْلِيفِ والتَّعرِيفِ ، وَإِقامَةِ العَلائِقِ وَتَحدِيدِ المَقاصِدِ ، والأَدَبِ والتَّعاون التّامِّ ، والخُضُوعِ والخُشُوعِ ، وَإِيصالِ هَذِهِ الخَيراتِ إِلى مَن حَوالَيكُم ، بِلُطفٍ وَرَأفَةٍ وَحِكمَةٍ ، وَإِخراجِ كُلِّ اعتِمادٍ عَلَى غَيرِ الله مِن قُلُوبِكُم ، اِعتَمِدُوا عَلَيه وَحدَه ، لا نَحنُ وَلا بِجُهدِنا نُقَدِّمُ وَلا نُؤَخِّرُ، وَلا نَنْفَعُ وَلا نَضُرُّ ، بَل هوَ تَعالَى إِنْ شاءَ وَفَّقَ وَحَقَّق .

---

(١) يوم الأحد ٢ مِن شَهرِ شَوّال ١٤٢٠هـ .

(٢) بَعَثَ عمرُ رَضي الله عَنهُ حَكَمًا إِلَى زَوجَين فَعادَ وَلَم يُصلِح أَمرَهُما فَعَلاهُ بِالدِّرَّة وَقالَ : إِنَّ الله تَعالَى يَقُولُ : ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ فَعادَ الرَّجُلُ وَأَحسَنَ النِّيَّةَ وَتَلَطَّفَ بِهِما فَأَصلَحَ بَينَهُما . اُنظُر «إِحياء عُلُومِ الدِّين» .

إنَّ لِي فِي الله آمالاً طَوِيلَةْ وَظُنُوناً حَسَنَةْ فِيهِ جَمِيلَةْ
لَيْسَ لِي فِي نَيْلِ ما أَرْجُو وَسِيلَةْ غَيرُ طَه المُصْطَفى زَيْنِ الوُجُود[1]

أقسام العهد

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: تَجْدِيدُ العَهدِ وذِكرُ العَهدِ .. يَبعَثُ كَوامِنَ[2] فِي أَرواحِ أَربابِ الإِيمانِ ؛ لأَنَّ لِلعَهدِ مَعَهُم صَولَةً وَجَولَةً ، مِن قَبلِ أَنْ يَبرُزُوا إِلَى هَذا العالَمِ ، وَإِلَى هَذا الكَونِ ، كانَت بَينَهُم وَبَينَ الرَّبِّ الخالِقِ الواحِدِ الجَبّارِ الباقِي المُبدِي سُبحانَه وَتَعالَى، فَكُلُّ عَهدٍ إِنْ كانَ مُنْطَوِياً فِي ذَلِكَ العَهدِ .. فَهوَ عَهْدٌ مَحمُودٌ ، وَعَهدٌ مُبارَكٌ ، وَعَهدٌ طَيِّبٌ ، وَإِنْ لَم يَندَرِجْ وَينطَوِ فِي ذَلِكَ العَهدِ .. فَلا خَيرَ فِيهِ وَلا بَرَكَةَ وَلا نُورَ ، وَلا نَتِيجَةَ لَه وَلا ثَمَرَةَ تُحمَدُ قَط .

فالعُهُودُ المَحمُودَةُ الَّتِي انْدَرَجَتْ فِي ذَلِكُم العَهدِ .. بُعِثَ الأَنبِياءُ لِتَجْدِيدِها بَينَ الأُمَمِ ، فَكُلُّ نَبِيٍّ يَأتِي يُجَدِّدُ العَهْدَ الَّذِي تَمَّ بَينَ الخَلقِ وَبَينَ رَبِّهِم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ، وَأَنا وَإِيّاكُمْ كُنّا عِندَهُم ، وكُنّا سَمِعنا ذاكَ النِّداءَ وَإِنْ نَسِينا أَو تَناسَينا ، قُلنا لَه : بَلَى ، قُلتُم لِـمَن؟ هُو بِنَفسِهِ خاطَبَكُم ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾، كُنْتَ مَعَهُم فِي ذاكَ المَحضَرِ ، قُلنا لَهُ : بَلَى ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢].

جَدَّدَ الأَنبِياءُ عُهُودَ الخَلقِ مَعَ الخالِقِ ، فَجاءَ خاتَمُ الأَنبِياءِ ، فانْفَتَحَ بابٌ فِي التَّجدِيدِ

---

(١) البَيتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإِمامِ الحَدّادِ مَطلَعُها :

زارَنِي بَعدَ الجَفا ظَبيُ النُّجُودِ عَنْبَرِيُّ العُرْفِ وَرْدِيُّ الخُدُودِ

أُنظُر دِيوانَ «الدُّرّ المنظُوم» ص ١٧٩ .

(٢) **الكَوامِن** : المَقصُودُ بِها المَعانِي الَّتِي تَستَقِرّ فِي النَّفسِ .

كَبيرٌ ؛ لأَنَّهُ ما أَحَدٌ أَكرَمَ عَلَى اللهِ مِنه ، فَجَدَّد أَكرَمُ الخَلقِ العَهدَ بَينَ الخَلقِ والخالِقِ ، فَجَدَّدَ العَهدَ أكرمُ مَخلُوقٍ لأَكرَمِ خالِقٍ ، تَركَنا عَلَى مَحَجَّةٍ ، عَلَى ضَوءٍ ، عَلَى نُورٍ ، عَلَى ضِياءٍ ، عَلَى إشراقٍ ، عَلَى هِدايَةٍ ، عَلَى سَناءٍ ، عَلَى اتِّصالٍ ، عَلَى إدراكٍ ، عَلَى شُهُودٍ ، عَلَى مَعْرِفَةٍ ، عَلَى حَقِّ يَقِينٍ ، وَعَيْنِ يَقِينٍ ، وَعِلْمِ يَقِينٍ ، فَجَزاه اللهُ عَنّا أَفضَلَ ما جَزَى الأَنبياءَ والمُرسَلِينَ ، عَن أُمَـمِهِم أَجمَعِين .

بِهِمَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ .. صارَتِ العُهُودُ مُتَجَدِّدَةً فِي أُمَّتِهِ ، كُلٌّ عَلَى قَدْرِ وِراثَتِه ، كَأَنَّ الحَقَّ سُبحانَه وَتَعالَى أَنبَأَنا عَن عَظَمَةِ تَجدِيدِ حَبِيبِهِ لِعُهُودِهِ ، وَقالَ فِي صَرِيحِ كِتابِهِ مُـخاطِباً لَه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠]، ما أَعظَمَ يَدَ حَبِيبِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم ، ما أَعظَمَ مَنزِلَتَها عِندَ الرَّبِّ ، الصَّحابَةُ بايَعوا تِلكَ اليَدَ اللَّحمِيَّةَ لَكِن قالَ اللهُ هَذه صُورَتُها ، أَمّا المَعنَى فَقَد بايَعتُمُونِي ؛ لأَنَّ رِعايَتِي مَع هَذِهِ اليَدِ ؛ لأَنَّ عِنايَتِي مَع هَذِهِ اليَدِ ؛ لأَنَّ مَحَبَّتِي لِهَذِهِ اليَدِ ؛ لأَنَّ رِضايَ مَع تِلكَ اليَدِ ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]، فرِضوانُ اللهِ مَع تِلكَ اليَدِ الطّاهِرَةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠]، فَمَن أَرادَ أَنْ تَـكُونَ مَعه يَدُ اللهِ .. فَلْيَمُدَّ يَدَهُ لِيَدِ سَيِّدنا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم .

وَأَكْرَمَ اللهُ الأُمَّةَ بِهَذِهِ التَّجدِيداتِ لِلعُهُودِ ، عَلَى أَشْكالٍ وَمَعانٍ كَثِيرَةٍ ، مُختَلِفَةٍ وَمُتَنَوِّعَةٍ، وَمِن ذَلِكَ ما يَحْصُلُ لِلأُمَّةِ مِنْ تَجدِيدٍ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ ، عَلَى رَأْسِ كُلِّ قَرْنٍ ، فَتَحصُلُ مَعانٍ مِن التَّجدِيدِ كُبرَى وَقَوِيَّةٌ ، وَجَمَعَنا اللهُ وَإِيّاكُمْ عَلَى ظَهرِ الأَرضِ، وَأَرادَ لَنا أَنْ نَحيى فِي هَذا الوَقتِ والزَّمَنِ عَلَى رَأْسِ قَرْنٍ مِنَ القُرُونِ الهِجْرِيَّةِ القَرنِ الخامِسَ عَشَر، واجَهْنا القَرنَ بِما فِيه ، أَمّا فَضْلُ الحَقِّ وَعَمَلُه وَإِحسانُه لِلأُمَّةِ فِي التَّجدِيدِ .. فَلَن يَنقُصَ ، وَلَن يَتَخَلَّفَ ، وَلَن يَتَأَخَّرَ بِلا شَكٍّ وَلا رَيبٍ ، وَلَكِنْ نَصِيبُ

كُلِّ واحِدٍ مِنّا مِن هَذا النُّورِ وَمِن هَذا التَّجدِيدِ ما هو؟ وَما مِقدارُه؟ وَإلى أَين يَصِلُ؟

لا شَكَّ أَنَّكُم تَستَشعِرُونَ النِّعمَةَ مِن نَواحٍ كَثِيرَةٍ بَعدَ غِيابِ أُمورٍ كَثِيرَةٍ ، ظَهَرَتْ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ بَعضَ الشَّيءِ ، وَفُقِدَتْ أَشياءُ حُزِنَ عَلَى فَقدِها فَعادَت بِوَجهٍ أَكبرَ مِما كانَ، وَكانَت قُلُوبٌ مَوجُودَةً فِي البَلْدَةِ تَتَقَطَّعُ عَلَى هَذا الدِّينِ ، وَتَحرِصُ عَلَى إِقامَةِ العُهُودِ وَتَجدِيدِها ، فَما تَجِدُ لَها سَبِيلاً لأَنْ تَنطَلِقَ ، أَو لأَنْ تَتَحَرَّكَ ، أَو لأَنْ تَتَكَلَّمَ ، وَكانَ ما كانَ ، هَيَّأَ اللهُ لَكُم الفُرصَةَ فِي هذا الزَّمانِ ، وَفِي هَذا الوَقتِ لَو تُرِيدُ أَنْ تَمشِي مِن طَرَفِ اليَمَنِ إِلى طَرَفِه ، تُذَكِّرُ فِي كُلِّ قَريَةٍ .. لَنْ يُعَرِّضَكَ أَحَدٌ إِلى خَطَرٍ كَتَعذِيبٍ أَو قَتلٍ أَو نَحوِ ذَلِكَ ، هَذا الذِي عَمِلَه سُبحانَه لَكَ ، فَما الذِي عَمِلْتَه أَنتَ لَهُ ؟ وَهَيَّأَ لَكَ الفُرصَةَ والسَّبِيلَ ، وَمَدَّ لَكَ البِلادَ والبِساطَ ، لَيسَ اليَمنُ وَحدَها ، وَيَفتَحُ لَكَ غَيرَ اليَمَنِ ، وَسَيفْتَحُ لَكَ شَرقَ الأَرضِ وَغَربَها سُبحانَه وَتَعالَى ، فَقُل لِي أَنتَ ماذا تَعمَلُ لَه ؟

يَجِبُ أَنْ تَأخُذُوا نَصِيبَكُم مِن إِدراكِ : أَنتُم تَتَعامَلُونَ مَع مَن ؟ وَتَنطَلِقُونَ مِن أَيِّ مَيدانٍ ؟ وُجُودُ الحَلقاتِ لِلرِّجالِ وَلِلنِّساءِ ، وَمُتابَعَةُ أَبناءِ المَدارِسِ وَرَبطِهِمْ بِالمَساجِدِ، وَوُجُودُ المَجَلّاتِ الطَّيِّبَةِ والنَّشَراتِ الطَّيِّبَةِ ، والاعتِناءُ بِنَشرِ الأَشرِطَةِ الحَسَنَةِ ما بَينَ النّاسِ ، وَوُجُودُ تَشاوُرٍ وَتَعاوُنٍ بَينَكُم ، كُلُّ هَذِهِ مَظاهِرُ مِنَّةٍ مِن الحَقِّ سُبحانَه وَتَعالَى ، وَأَشائِرُ مُقَدِّماتٍ لِما خُبِّئَ لِهَذا القَرنِ ، هَذِهِ أَشائِرُ المُقَدِّماتِ ، تَأتِيكُم بَعدَها المُقَدِّماتُ ، وَيُواجِهُكُم بَعدَها ما أَبرَمَهُ الحَقُّ فِي قَضائِهِ الَّذِي لا يُرَدُّ .

تَحتاجُ هَذِهِ الأَشائِرُ لِلمُقَدِّماتِ مِنّا إِلى مُقابَلَةٍ لَها بِمَعنَى الشُّكرِ ، وَمَعانِي الشُّكرِ .. تَترَكَّزُ عَلَى قاعِدَةِ النَّظَرِ فِي هَذِهِ الأَشائِرِ ، كَيفَ نُقَوِّمُها ؟ كَيفَ نَرفَعُها ؟ كَيفَ نُعَدِّلُ المائِلَ مِنها ؟ كَيفَ نُوَسِّعُ قَواعِدَها ؟ كَيفَ نُثَبِّتُ دَعائِمَها ؟ نَظَرُنا فِي هَذِهِ الأُمُورِ هُوَ مَعنىً كَبِيرٌ وَقاعِدَةٌ لِلشُّكرِ .

شُكرُ اللهِ فِي مُقابَلةِ هَذِهِ الأَشائِرِ إنْ حَسُنَ مِنّا ، وَإنْ جاءَ عَلَى وَجهِه .. سَتَأتِي المُقَدِّماتُ عَلَى وَجهٍ عَظِيمٍ مِن وُجُوهِ إِحسانِهِ هُو ، إِذا قابَلْنا هَذِهِ الأَشائِر نَحن بِوُجُوهِ إِحسانٍ مِنّا .. يُقابِلُنا هُو بِالمُقَدِّماتِ بِوُجوهِ إِحْسانٍ مِنهُ ، وَما نِسبَةُ إِحسانِنا إِلَى إِحسانِه! لَسنا بِشَيءٍ ، وَإِحسانُنا فِي أَوامِرِهِ هَذِهِ وَتَعالِيمِهِ هُو إِحسانٌ منه أَيضاً ، فَإِنْ قَبِلْنا هَذا الإِحسانَ مِنه ، الَّذِي يُجرِيهِ فِي قَوالِبِ عَمَلِنا ، وَسَعيِنا بِتَفكِيرِنا وَتَواضُعِنا وَذِلَّتِنا ، وَطَلَبِنا لِلتَّطهِيرِ وَلِلتَّزكِيَةِ ، وانْفِتاحِ صُدُورِنا وانْشِراحِنا لِلإِخوانِ وَلِلنّاسِ ، وَتَحمُّلِنا لِلسِّبابِ والشَّتائِمِ والكَلامِ عَلَينا والانتِقادِ ، وَقابَلْنا المُنتَقِدَ بِالدُّعاءِ لَه وَبِالإِحسانِ إِلَيه، وَبِرِعايَةِ حَقِّهِ ، وَما إِلَى ذَلِكَ ، فَهَذا إِحسانٌ مِن اللهِ يُجرِيهِ فِي قَوالِبِنا ، نَحنُ إِنْ قَبِلنا مِنهُ هَذا الإِحسانَ .. فاجَأنا هُو بِإِحسانٍ مِن عِندِهِ آخر ، لَيسَ عَلَى مُستَوَى قَوالِبِنا ، وَلا يَجرِي بِأَيدِينا نَحنُ ، بَلْ يُجرِيهِ عَلَى يَدِهِ مُباشَرَةً ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧].

كَيفَ فَردٌ مِن العِبادِ يَكونُ فِي نُصرَتِهِ (الله) ! نُصرَتُك أَنتَ ما مَعناها ؟! هَذا الَّذِي يَكونُ فِي نُصرتِك أَحاطَ عِلماً بِمَعانِي نُصرَتِكَ مِن حَيث تَعلَمُ ، وَمِن حَيث لا تَعلَمُ، أَنتَ قَد تَتَصَوَّرُ أَنَّ نُصرَتَكَ تُيَسِّرُ لَكَ شَيئاً مِن الظَّواهِرِ أَو المَظاهِرِ ، أَو تُسَلِّمُكَ مِن العَذابِ فِي الآخِرَةِ - مَثَلاً يُدخِلُكَ الجَنَّةَ - وَأَنعِم بِهَذِهِ النُصراتِ الَّتِي تَتَصَوَّرُها، لَكِن فِي حَياتِكَ، وَفِي مُختَلفِ شُؤونِك ، وَعِندَ مَوتِك ، وَفِي بَرزَخِك ، وَفِي آخِرتِكَ ، وَبَعدَ دُخولِكَ الجَنَّة.. مَعانٍ مِن نُصرَتِك ، أَنتَ لا تَقرُبُ مِن فَهمِها ، فَضلاً عَن أَن تُحِيطَ بِها، هُو يَنصُرُكَ بِها ، فَأَنتَ لَو كُنتَ فِي نُصرَتِه تَنْصُرُ بِقَدْرِ طاقَتِك وَهِمَّتِك وَعَقلِكَ وَإِدراكِكَ وَوُسْعِكَ ، لَكِن لَمّا يَكُونُ هُوَ فِي نُصرَتِكَ ، فالآنَ هَذِهِ لَيسَت بِطاقَةِ بَشَرٍ ، وَلِهَذا تُدرِكُ الإِشارَةَ فِي قَولِ الحَبِيبِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم «وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر»(١).

---

(١) الحَدِيثُ : «قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَعدَدْتُ لِعِبادِيَ الصّالِحِين ما لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» رَواهُ البُخارِيّ وَمُسلِم .

مَعانِي النُّصرَةِ شَأْنُها أَكبَرُ مِن أَن نَتَخَيَّلَه أَو نَحصُرَه أَو نَقْصُرَهُ بِعُقُولِنا ، لَكِن لَو قَدَرْتَ أَنْ تَجعَلَ رَبَّ العَرشِ فِي نُصرَتِكَ .. فَما أَدرِي كَيفَ أَصِفُ سَعادَتَك ؟!

فَمَعانِي السَّعادَةِ الَّتِي عِندَكَ ما يُحاطُ بِها ؛ لأَنَّ الَّذِي فِي نُصرَتِك رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ، مُكَوِّنُ الأَكوانِ .

وَأَنت تَقدِرُ عَلَى ذَلِك ، بِصدقِكَ فِي مِثلِ ما تَجِدُ مِن مُلاحَظاتٍ تَقُومُ بِها فِي سَيرِك وَفِي عَمَلِكَ وَفِي واجِباتِكَ ، تَصْدُقُ فِيها فَبِذَلِك تَتَسَبَّبُ لأَنْ يَكونَ فِي نُصرَتِك رَبُّ السَّماواتِ والأَرَضِينَ ، وَرَبُّ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ ، فَما أَعظَمَ ما تُدعَى إِلَيهِ إِذا تَأَمَّلتَ وَعَقَلتَ ، وَإِذا تَدَبَّرتَ وَإِذا فَهِمتَ .

في التسابق في ميدان الدعوة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[1] الحَمدُ للهِ الَّذِي أَكرَمَنا وَإِيّاكُم بِالفِكرِ فِي هَذا المَيدانِ ، والانضِمامِ إِلَى هَذا المَيدانِ ، والدُّخولِ فِي هَذا المَيدانِ ، والاتِّصالِ بِأَهلِ هَذا المَيدانِ، وَلَم نَكُن لِذَلِكَ أَهلاً ، وَلَكِن هُو أَهلٌ بِأَن يُعطِيَ مَنْ لَيسَ بِأَهلٍ ، **إِنْ لَمْ نَكُنْ أَهْلاً لِرَحْمَتِكَ أَنْ نَبْلُغَها .. فَرَحْمَتُكَ أَهْلٌ أَنْ تَبْلُغَنا يا رَبَّ العالَمِينَ**[2] .

إِذا أَحسَنتُم الهِمَّةَ ، فالأُمَّةُ الآنَ فِي بِداياتٍ فِي جَوانِب ، ثُمَّ تَقَعُ نِهاياتٌ عَجِيباتٌ ، يَقُولُونَ: **مَن لَم يُجاهِدْ فِي البِداياتِ .. لَم يُشاهِدْ فِي النِّهاياتِ**[3] ، وَ: **مَن لَم تَكُنْ لَه بِدايَةٌ**

(١) لَيلَةَ الأَربعاءِ ٢٠ مِن شَهرِ رَبِيعِ الثّانِي ١٤١٩ هـ .

(٢) مِن دَعَواتِ الخَلِيفَةِ الرّاشِدِ عُمَرَ بنِ عَبدِ العَزِيزِ : **اللَّهُمَّ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَهلاً أَن أَبلُغَ رَحْمَتَكَ ، فَإِنَّ رَحْمَتَكَ أَهلٌ أَن تَبْلُغَنِي ، رَحْمَتُكَ وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ وَأَنا شَيْءٌ فَلْتَسَعْنِي رَحْمَتُكَ يا أَرْحَمَ الرّاحِمِين** .

(٣) وَفِي «الحِكَمِ العَطائِيَّة» (**مَنْ أَشْرَقَتْ بِدايَتُهُ .. أَشْرَقَتْ نِهايَتُه**) أَي: مَن عَمَّرَ أَوقاتَهُ فِي حالِ سُلُوكِهِ بِأَنواعِ الطّاعاتِ وَمُلازَمَةِ الأَورادِ والاهتِمامِ بِأَمرِ الدَّعوَةِ أَشرَقَتْ نِهايَتُهُ بِإِفاضَةِ الأَنوارِ والمَعارِفِ ، وَأَمّا مَنْ كانَ قَلِيلَ الاجتِهادِ فِي بِدايَتِهِ ، فَإِنَّهُ لا يَنالُ مَزِيدَ الإِشراقِ فِي النِّهايَةِ .

مُحرِقَةٌ .. لَم تَـكُن لَه نِهايَةٌ مُشرِقَةٌ .

فالأُمَّةُ الآنَ فِي بِداياتِ مَواعِيدَ مِن سَيِّدِ السّاداتِ وَخَيرِ البَرِيّاتِ ، النّاطِقِ بِأَصدَقِ الكَلِماتِ ، أَعظَم أَمِينٍ ائتَمَنَهُ اللهُ عَلَى أَسرارِ غَيبِهِ ، ما لَم يَأتَمِنْ غَيرَهُ سِواه ، وَعَدَ مَواعِيدَ، فَأُمَّتُهُ الآنَ فِي بِدايَةِ هَذِهِ المَواعِيد ، فَنُرِيدُ أَنْ تَتَعاوَنُوا حَتَّى تَـكُونَ بِدايَةٌ قَوِيمَةٌ سَلِيمَةٌ، إِذا تَعاوَنتُم عَلَيها هَكَذا ، سَتَـكُونُ نِهايَةٌ عَجِيبَةٌ عَظِيمَةٌ شَرِيفَةٌ كَبِيرَةٌ عَزِيزَةٌ .

والنِّـهاياتُ هَذِهِ الَّتِي نَذكُرُها مَن وَجَدَ نَصِيباً مِنها فَأَكثَـرَ ما تَكُونُ الغِبطَةُ بِها وَقتَ صَفِّ الصُّفُوفِ فِي المحشَرِ ؛ لأَنَّ بَعضَ الصُّفوفِ مَغبُوطَةٌ زِيادَةً ، وَمَرتَبَتُها فِي القُربِ تَختَلِفُ ، والرِّعايَةُ الَّتِي عَلَيها تَختَلِفُ ، فَبَعضُها مَنظُورَةٌ بِعَينِ وِدادٍ أَخَصَّ ، وَبَعضُها نُورُها شَدِيدُ الإِشـراقِ ، هِيَ مِئَةٌ وَعِشـرُونَ صَفّا[(١)] ، وَأَهلُ الصَّفِّ الواحِدِ.. يَتَفاوَتُونَ فِي المَراتِبِ تَفاوُتاً .

الخُلاصَةُ أَنَّ الحَقَّ تَعالَى أَكرَمَنا بِحَبِيبِه ، والصُّفُوفُ هَذِهِ كُلُّها بَعدَ ذَلِكَ إِنَّما تَتَشَرَّفُ بِالنِّسبَةِ إِلَيهِ ، وَتَتَسابَقُ إِلَى القُربِ مِنهُ ، لأَنَّه قائِدُها كُلِّها وَإِمامُها ، فَمَرجِعُها إِلَيهِ وَهوَ يَمشِي بِها إِلَى الجَنَّة ، وَرايَتُهُ تُظِلُّها كُلَّها ، هَذِهِ الصُّفُوفُ مِنها ما يَنبَهِرُ بَعضُهُم مِن بَعضٍ ، وَيَغبِطُ بَعضُهُم بَعضا لِما يَرَونَه مِن المَراتِبِ الَّتِي هَيَّأَها اللهُ لَهُم ، أَمّا أَهلُ الإِيمانِ مِن الأُمَمِ السّابِقَةِ فَيَقُولُونَ كَأَنَّ هَؤُلاءِ كُلَّهُم أَنبِياءُ حِينَما يُبصِرُونَ تِلكَ الرّاياتِ الكَبِيرَةَ تَمُرُّ بَينَهُم،فَعَسَى لَنا وَلَكم نَصِيبٌ وافِرٌ وَقِسمٌ كَبِـيرٌ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٨] ، وَجَعَلَنا مِن خَواصِّ صُفُوفِ الحَبِيبِ ... عَسَى يَتَحَنَّنُ عَلَينا .

---

(١) قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: «أَهْلُ الجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِئَةُ صَفٍّ.. ثَمانُونَ مِنها مِن هَذِهِ الأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِن سائِرِ الأُمَمِ..» رَواهُ التِّرمِذِي وابنُ ماجَه .

الحَمـدُ لله عَلَى ذَلِكَ ، والَّذِي بَعَـثَهُ بِالحَقِّ لا يُوجَدُ فِي الخَلْـقِ أَحسَنَ جَوابَاً مِنه ، سَيِّدُنا عَليّ بنُ أَبي طالِبٍ كان مِمَّن يَفهَمون هَذه الحَقائِق ، قال لهؤلاءِ الَّذين ما قَدَروا كَيف يَعمَلُون[١] ، حِينَما خَرَجُوا يُريدُون أَنْ يُسْلِمُوا ، فَجاؤوا إِلى سَيِّدِنا عَليٍّ فَقالَ لَهم : «أَقبِلُوا عَليهِ مِن خَلفِهِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم وَقُولُوا له : ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٩١]، فَقَد قالَها إِخوَة يُوسُفَ لِيُوسُفَ فَقالَ لَهُم : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف:٩٢]»، وَهوَ لا يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ أَحسَنَ جَواباً مِنه ، فَجاؤُوا إِلَى عِندِهِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّمَ فالتَفَتَ إِلَيهِم وَقالَ : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢][٢] .

وَهوَ ما يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ أَحسَنَ جَواباً مِنه ، لَيس تِلكَ اللَّيلَةَ فَقَط ، أَو تِلك السّاعَةَ الَّتي كَلَّمَهُمْ فِيها ، بَل هوَ الآنَ وَفِي هَذِهِ اللَّحظَةِ ما يُحِبُّ أَحَداً مِن الخَلقِ أَنْ يَكُونَ أَحسَنَ جَواباً مِنهُ أَبَداً .

مَنِ الَّذِي أَوجَدَهُ لَنا هَكَذا ؟ وَمَن الَّذِي حَلّاهُ بِهَذا الوَصفِ لَنا ؟ وَمَنِ الَّذِي ذَكَّرَنا بِهِ وَذكَّرَهُ بِنا ؟ مَن الَّذي جَعَلَهُ بِهَذا الوَصفِ وَهَذا الحالِ وَهَذا العَطفِ وَهَذا النَّوالِ؟

الحَمدُ لله عَلَى ذَلك ، وَإِذا حَمِدْنا اللهَ عَلَى ذَلك .. فَقَد حَمِدْناه عَلَى جَمِيعِ النِّعَمِ ، فَهِمتُم إِنْ شاءَ اللهُ ، أَكرَمَنا اللهُ بِنُورِ الفَهمِ ، وَأَخرَجَنا مِن ظُلُماتِ الوَهمِ .

---

(١) أَي: يَتَصرَّفُونَ .

(٢) قالَ عَليٌّ لأَبي سُفيانَ بنِ الحارِثِ بنِ عَبدِ المطلَّبِ : ائتِ رَسُولَ الله صَلىَّ الله عَلَيهِ وَسَلَّم مِن قِبَلِ وَجهِهِ فَقُل لَه ما قالَ إِخوَةُ يُوسُفَ لِيُوسُفَ : ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ فَإِنَّه لا يَرضَى أَن يَكُونَ أَحَدٌ أَحسَنَ مِنهُ قَولاً ، فَفَعَلَ ذَلِكَ أَبُو سُفيانَ، فَقالَ لَه رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ، اُنظُر «زاد المعادِ».

المواعيد التي وعد الحقّ بها أحبابه

وقال رضي الله عنه ونفعنا به (١) حيّاكُمُ الله ، خُذُوا الدُّرُوسَ ، زكُّوا بها النُّفُوسَ ، قوُّوا بها الأَساسَ ، تَطَهَّرُوا بها مِن الأَرجاسِ ، اُدخُلُوا بها فِي خِيارِ النّاسِ ، الَّذِينَ هُم فِي صِفاتِهِم ناسٌ.

هَذِهِ الشُّؤُونُ كُلُّها . . والاهتِمامُ بِالدَّعوَةِ إِلى اللهِ فِي القُرَى والأَماكِنِ الَّتِي أَنتُم فِيها مَسؤُوليَّةٌ عَلَينا ، وَمَحَلُّ نَظَرٍ مِن أَصحابِ الرِّسالَةِ هَذِهِ والدَّعوَةِ ، بِما فِيهِم كِبارُهُم مِن الأَئِمَّةِ ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]، هُم لَيسُوا مُقَصِّرِينَ فِي شَيءٍ ، التَّقصِيرُ مِن جِهَتِنا ، هُم ما واحِدٌ مِنهُم مُقَصِّر.. أَشهَدُ بِاللهِ ما واحِدٌ مِنهُم مُقَصِّر إلا ما كانَ مِنّا ، فَلا يَغِيبُ عَن أَذهانِكُم أَنَّها مُرتَبِطَةٌ بِسِلسِلاتِها إِلى أَصلِها ، وَهُم يَرقُبُونَ فِي هَذا الوادِي(٢) نَهضَةً فِي عَودَةِ الصِّفاتِ المَفقُودَةِ المحبُوبَةِ لله، هَذا طَلَبُهُم مَدُّ حِبالِ الارتِباطِ القَلبِيَّةِ بِالمَنهَجِ وَرِجالِهِ وَأَصلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، لِتَقُومَ قائِمَةُ الحَقِّ والخِلافَةِ عَن النُّبوةِ وَتَتَحَقّقَ كَما وُعِدُوا بِها .

والوَعدُ المتَجَدِّدُ مِن عَهدِه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، كُلَّما احتَلَّ مَكانَهُ فِي الخِلافَةِ عَنه خَلِيفَةٌ أُرسِلَ بِالوَعدِ نَفسِهِ ، وَأُلقِيَ إِلَيهِ وَهَكَذا ، وَكُلُّهُم مُرتَقِبُونَ وَعدَهُ ، وَلَو رَأَوا تَحقِيقَهُ فِينا لَسُرَّتْ قُلُوبُهُم ، وارتاحَ بالُهُم ، وانْتَعَشَتْ خَواطِرُهُم ، اللهُ يُحَقِّقُ رَجاءَهُم فِينا ، وَلا يُخَيِّبُهُم إِنْ شاءَ الله ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [لقمان:٩].

فالمواعِيدُ الَّتِي أُلقِيَتْ لِلنَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم فِي أُمَّتِهِ -يَعنِي فِي مُدَّةِ حَياتِهِم فِي

---

(١) يَومُ الأَحَدِ ٢ مِن شَهرِ شَوّال ١٤٢٠هـ.

(٢) أَي: وادِي ابنِ راشِد عَلى وَجهِ الخُصُوصِ ؛ لأَنَّه مَوطِنُهُم وَمِنهُ كانَتِ انطِلاقَتُهُم فِي خِدمَةِ هَذا الدِّينِ وَكَذَلِكَ هُم يَرقُبُونَ الانتِهاضَةَ فِي العالَمِ كُلِّه ؛ لأَنَّ دَعوَتَهُم عالَمِيَّةٌ فَقَد وَصَلَت آثارَهُم إِلَى أَصقاعِ العالَمِ وَخُصُوصاً جَنُوبِ شَرقِ آسيا والهِندِ وَأَفرِيقيا وَنَحوِها .

الدُّنيا- والمواعِيدُ الملقاةُ لَه فِي أَمرِ العُقبَى ، وَكلُّ تِلكَ الوُعُودِ مُلقاةٌ عَلَى خُلَفاءِ النُّبُوَّةِ عَلَى قَدرِ خِلافَتِهِم ، يُلقَى عَلَيهِم مِن مَعانيها وَتَراجِمِها ، لِكُلِّ واحِدٍ مِنهُم ما يَلتَصِقُ بِهِ ، وَما يَختَصُّ بِهِ مِن تِلكَ المواعِيدِ ، سَواءً كانَت فِي الدُّنيا أَو فِي الآخِرَةِ .

فَما أَوسَعَ وَأَعظَمَ ما وَعَدَ ، وَما أَعظَمَ وَأَوسَعَ ما خَبَّأَ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة:١٧] كَلامُ صِدقٍ ، وَهَذِهِ الاكتِشافاتُ الواسِعةُ والعَطاءاتُ الكَبِيرَةُ، فالحالُ فِيها أَيضاً ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ لا نَزالُ نَحنُ مُخَبَّئِينَ[1] لَهم أَشياءَ لا يَعرِفُ أَحدٌ عَنها شَيئاً ، حَتَّى هُمْ لا نَزالُ مُخَبِّئِينَ لَهم ما لَم يَعلَمُوا ، وَقَد طَرِبَتْ أَرواحُهم وَدَهِشَت عُقولُهُم وَلا خَيرَ فاتَهُم ، وَلا يَزالُ الحالُ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة:١٧] بِسَبَبِ أَنَّ الَّذِي أَخفَى لا يُحِيطُ بِعِلمِهِ مُحِيطٌ ، لِهَذا بَقَوا هُم هَكَذا أَمامَ عَطائِهِ .

وَلِذَلِكَ القُرآنُ يَتكلَّمُ عَنهُم ، وَهُم عَنه يَتَكَلَّمُونَ ، القُرآنُ يَتَحَدَّث فِيهِم وَهُم بِهِ يَتَحَدَّثُونَ ، والقُرآنُ كَما سَمِعتُم وَصفَه ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف:١٠٩].

في مظاهر عظمة الرسالة

وقَالَ رَضِيَ ٱللهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ : لَقَد جِئتُم فِي حِقبَةٍ مِن الزَّمَنِ ، يُرِيد الجَبّارُ فِيها أَنْ يُظْهِرَ بَعض عَظَمةِ النَّبيِّ المؤتَمَنِ ، وَعَظَمةِ رِسالتِهِ ، وَبَقائِها عَلَى مَمرِّ الدُّهُورِ والعُصُورِ ، وَأَنْ يُجَدِّدَ دِينَهُ عَلَى رَغمِ كُلِّ كَفُورٍ .

إِنْ تَحَدَّثَ النّاسُ عَن إِقبالٍ ، أَو ما يُسَمَّى بِصَحوَةٍ أَو رَجعَةٍ إِلى الدِّينِ ، أَو تَوجُّهٍ إِلى

(١) مُخَبِّـين : أي مُخفِين ، مِن الإخفاءِ .

الدِّينِ فِي مَشارِقِ الأَرضِ وَمَغارِبِها ، فَإِنَّما هُو مُؤَشِّرٌ لِذَوِي العُقُولِ ، أَنَّ رَبَّ الأَرضِ والسَّماءِ سَيُنجِزُ وَعدَهُ الَّذي بِه وَعَد ، وَسَيُحقِّقُ ما أَخبَرَ بِهِ نَبِيَّه محمَّد ، وَسَيَربَحُ الَّذِين وَفَّوا بِالبَيعَةِ ، وَقامُوا بِحَقِّ العَهد .

التهيؤ للوفاء بالعهود يظهر معاني نداء الأذان

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: يَجِبُ أَنْ تَأخُذُوا فِي بالِكُم بَعضَ المقصُودِ مِن مَهامِّكم فِي خِدمَةِ هَذا الدِّينِ وَهَذِهِ الدَّعوَةِ وَأَنْ تَتَهَيَّؤُوا مع مَن حَوالِيكم مِن كُلِّ مَن تَقدِرُون عَلَيهِ ، أَو تَقدِرُونَ عَلَى الإِفادَةِ أَو الاستِفادَةِ مِنهُ لأَحوالِ قُربٍ مِن الرَّبِّ والصِّلَةِ بِهِ ، تَحمِلُكُم عَلَى صِدقِ الوَفاءِ بِالعَهدِ بِبَذلِ الأَرواحِ والأَنفُسِ والأَموالِ فِي نُصرَةِ هَذا الدِّين.

لابُدَّ أَنْ نَتَهَيَّأَ لِلوفاءِ بِالعُهُودِ ، وَنُهَيِّيءَ مَن حَوالَينا ، وَنَطرُقَ أَبوابَ التَّقرُّبِ وَتزكِيَةِ النُّفُوسِ حَتَّى نَكُونَ عَلَى قَدَمٍ ثابِتٍ فِي الوَفاءِ بِعَهدِ الله ، بِأَن نَكُونَ مُستَعِدِّينَ لِبَذلِ الأَنفُسِ والأَرواحِ والأَموالِ فِي أَيِّ وَقتٍ.

وَلابُدَّ بعدَ ظَلامِ اللَّيلِ مِن نُورِ الفَجرِ ، والأُمَّةُ الآنَ فِي مِثلِ ظُهُورِ الفَجرِ الكاذِبِ يَختَفِي فَيظهرُ بَعدَهُ الفَجرُ الصّادِقُ وَهَذِهِ بداياتُهُ ، فَكاذِبُ الفَجرِ يَبدُو قَبلَ صادِقِهِ ، يَنتَشِرُ وَيقوى ، فَيُقال : طَلَعَتِ الشَّمسُ وَذَهَبَ اللَّيلُ .

بَعدَ ذَلك يَعرِفُ الكُلُّ مَعنَى : اللهُ أَكبَرُ ، وَمَعنَى : أَشهَدُ أَنَّ محمَّداً رَسُولُ الله ، وَمَعنَى : الصَّلاةُ خَيرٌ مِن النَّومِ ، وَمَعنَى : حَيَّ عَلَى الصَّلاةِ ، حَيَّ عَلَى الفَلاح .

رَبُّكُم يَختارُ مَن يُرِيدُ ، فَعَلَينا أَنْ نَتَعَرَّضَ لِفَضلِه ، وَنَعلَمَ أَنَّه سَيَختارُ جُنداً يَنسِبُهُم إِلَى نَفسِه وَيُضِيفُهُم إِلَى حَضرَتِه وَيَقُولُ عَنهُم ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ [الصافات:١٧٣] ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١] إِحاطَةً بِها ، بَل كُلُّ جُندِيٍّ مِن جُنُودِ الله صَحَّت لَه الجُندِيَّةُ فَلا يَعلَمُ فَضلَ الله عَلَيه إِلا الله ، ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم﴾ [السجدة:١٧]، لابُدَّ أَنْ يُحَقِّق

الوَعدُ ، ويُخذَلَ الوَغْدُ ، ويَنتَفِيَ البُعدُ ، ويَحِقَّ السَّعْدُ .

الرِّسالَةُ ما هِي هُزُؤٌ ولا سُخرِيَةٌ ، ولا هَزْلٌ ولا كَذِبٌ ، هَذِهِ رِسالَةُ مُحَمَّدٍ أَصدَقِ النّاسِ لَهجَةً ، ومَواعِيدُها حَقٌّ لا رَيبَ فِيها ، نَحنُ إِنْ شاءَ اللهُ خُدّامُها ، ورِجالُ التَّصدِيقِ بِها ، والعَمَلِ لَها ، والسَّيرِ فِي دَربِها ، والاستِضاءَةِ بِنُورِها ، وإِنْ ضَحِكَ مَن ضَحِكَ أَو سَخِرَ مَن سَخِرَ ، وقَد قالَ سَيِّدُنا نُوحٌ : ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود:٣٨]، وَ (عِندَ الصَّباحِ يَحمَدُ القَومُ السُّرَى)[1] ، وَ (عِندَ جُهَينَةَ الخَبَرُ اليَقِينُ)[2] ، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤]، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر:٦] .

ثمرة مقابلة الأرواح

وقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ونَفَعَنا بِهِ[3] النُّصرَةُ لِدِينِ مُحَمَّدٍ مِن خَزائِنِ جُودِ اللهِ وكَرَمِهِ ، تَحصُلُ فِيكُم وبِكُم وعَلَى أَيدِيكُم ، يَحصُلُ ذَلِكَ إِذا حَصَلَتْ مُقابَلَةُ الأَرواحِ ، لَو لَم تُقابِلْ أَرواحُ ساداتِنا الصَّحابَةِ حَبِيبَ الرَّحمَنِ .. ما جاءَتِ النُّصرَةُ عَلَى يَدِ أَحَدٍ مِنهُم لِلدِّينِ أَبَداً ، ولا قامُوا بِمَوقِفٍ حَمِيدٍ أَبَداً .

ولَكِن لَمّا قابَلَتْ أَرواحُهُم رُوحَهُ الشَّرِيفَةَ ، سُقِيَتْ مِن تِلكَ الرُّوحِ ، ولَمّا سُقِيَت كانُوا فِي جِهادِهِم وهُم فِي مُقابَلَةٍ مَعَه ، وكانُوا فِي أَذكارِهِم وهُم فِي مُقابَلَةٍ مَعَه .

---

(١) مِن قَولِ عَبدِ اللهِ بنِ رَواحَةَ :

عِندَ الصَّباحِ يَحمَدُ القَومُ السُّرَى ... وتَنْجَلِي عَنهُم غَياباتُ الكَرَى

(٢) رَواهُ الخَطِيبُ عَنِ ابنِ عُمَرَ .

(٣) بَعدَ صَلاةِ الفَجرِ أَثناءَ خِطابِهِ لِتَودِيعِ طَلَبَةِ الدَّورَةِ الرّابِعَةِ ١٤١٩هـ .

وَلما اشتَدَّ الحالُ عَلَيهِم فِي غَزوَةِ اليَمامَةِ ، جَعَلُوا شِعارَهُم «**وامُحَمَّداهْ * وامُحَمَّداهْ**»[١] وَكانَ صِغارُهم وَكِبارُهم يَتَمَثَّل لَه وَهوَ فِي الجِهادِ ، أَو فِي القِيامِ بِالغَزوَةِ سَيِّدُ الوُجُودِ وَلِقاؤُهُ والشَّوقُ إِلَيه ، فَكانَتِ المقابَلاتُ دائِماتٍ ، فَبِها قابَلَهم الحَقُّ تَعالَى بِما هُو أَهلُه، وَأَجرَى عَلَى أَيدِيهِم ما أَجرَى ، فَتَوَجَّهُوا بِهذِهِ المقابَلاتِ .

كانَ ابنُ عَبّاسٍ رَضِي الله عَنه يَقُولُ : (**أَكرَمُ النّاسِ عَلَيَّ جَلِيسِي ، لَو استَطَعتُ أَنْ لا يَقَعَ الذُّبابُ عَلَى وَجهِهِ ، لَفَعَلتُ**)[٢] .

لَو نَقدِرُ أَن نُوصِلَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ السَّفَرَ إِلَى أَماكِنِهِم وَمَنازِلِهم عَلَى رُؤُوسِنا لأَحبَبنا ذَلِكَ ، وَلَكِنْ إِذا تَقابَلَتِ الأَرواحُ مَعَ الأَرواحِ ، نَرجُو فِيما يَأتِي مِن أَعمارِهِم أَنْ يَطلَعَ[٣] فِي الصَّحائِفِ ما يُناسِبُ هَذِهِ المقابَلَةَ ، وَما يُناسِبُ هَذا الاستِقبالَ ، فَإِنَّ عَرضَها قَوِيٌّ فِي كُلِّ يَومٍ ، وَفِي كُلِّ أُسبُوعٍ عَلَى حَضرَةِ الدّاعِي الَّذِي دَعانا ، والهادِي الَّذِي هَدانا ، والرّاعِي الَّذِي رَعانا صَلى الله عَلَيهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِهِ وَسَلَّم ، وَفَوقَ ذَلِكَ كُلِّهِ رَبُّ العِزَّةِ والجَلالِ تَعالَى الَّذِي يَرقُبُ مِنّا النَّوايا والمقاصِدَ ، والإِراداتِ والحَرَكاتِ والسَّكَناتِ .

وَجِّهُوا هِمَمَكُم ، وَأَقبِلُوا بِكُلِّيّاتِكُم عَلَى رَبِّكُم سُبحانَهُ وَتَعالَى ، وَإِنْ شاءَ اللهُ تَعقُبُها اجتِماعاتٌ .

عامَّتُكُم[٤] سَتَحصُلُ لَهم اجتِماعاتٌ كَثِيرَةٌ فِي الدُّنيا عَلَى النُّصرَةِ لِلشَّرِيعَةِ إِنْ شاءَ

---

(١) أُنظُر «البِدايَة والنِّهايَة» لابنِ كَثِيرٍ ، والكامِل فِي التّارِيخ لابنِ الأَثِيرِ .

(٢) قالَ ابنُ عَبّاس : (**أَكرَمُ النّاسِ عَلَيَّ جَلِيسِي الَّذِي يَتَخَطَّى النّاسَ حَتَّى يَجلِسَ إِلَيَّ ، لَو استَطَعتُ أَن لا يَقَعَ الذُّبابُ عَلَى وَجهِهِ لَفَعَلتُ**) – وَفِي رِوايَةٍ – (**إِنَّ الذُّبابَ لَيَقَعُ عَلَيهِ فَيُؤذِينِي**) . أُنظُر «التِّبيان فِي آدابِ حَمَلَةِ القُرآنِ» لِلإِمامِ النَّوَوِيّ .

(٣) أَي : يَظهَرَ فِي الصَّحائِفِ أَو يُكتَبَ فِيه .

(٤) أَي : أَكثَرُكُم أَو أَغلَبُكُم .

اللهُ ، وَعلَى زِيادَةٍ فِي ظُهُورِ نُورِ هَذِه الشَّرِيعَةِ ، وَظُهُورِ شُعاعِها فِي الأَقطارِ، ثُمَّ بَعدَ ذَلِكَ الاجتِماعاتُ فِي البَرَازِخِ ، والاجتِماعاتُ فِي يَومِ القِيامَةِ ، والاجتِماعُ فِي دارِ الكَرامَةِ لِمن سَبقَتْ لَهم مِن اللهِ الحُسنَى ، جَعَلنا اللهُ وَإِيّاكُم مِنهُم .

وَهكَذا تَوجُّهُكُم يَتِمُّ وَأَنتُم مُحافِظُونَ عَلَى خِلعٍ حَصَّلَها الكَثِيرُ مِنكُم ، فِي اهتِمامِهِ أَو هَمِّهِ بِنَشرِ الخَيرِ أَو تَعَلُّقٍ بِالجَنابِ النَّبويِّ وَبِمُتابَعَتِهِ وَبِالقِيامِ بِسُنَّتِهِ وَبِآدابِهِ ، وَلا تَترُكُوا القُرآنَ وَتِلاوَتَهُ بِالتَّدَبُّرِ وَلَو قَلَّ ما تَقرَؤُهُ كُلَّ يَومٍ ، لَكِن بِالحِرصِ عَلَى التَّدَبُّرِ ، لا تَسمَحْ بِترَكِهِ ، ثُمَّ لا تَسمَحْ بِترَكِهِ ، ثُمَّ لا تَسمَحْ بِترَكِهِ أَبَداً .

اجعَلْ لَكَ نَصِيباً مِن تَأَمُّلِ القُرآنِ وَتَدَبُّرِهِ فِي كُلِّ يَومٍ ، وَفِي كُلِّ لَيلَةٍ ، كَذلِكَ ما قَبلَ الغُرُوبِ وَما بَعدَهُ إِلَى العِشاءِ وَما قُبَيلَ الفَجرِ وَما بَعدَه إِلَى الإِشراقِ ، حافِظْ عَلَيه بِجُهدِكَ ما استَطَعتَ .

كَما أَخَذْتَ الإِشارَةَ إِلَى أَنَّه رُبَّما تَجِدُ الَّذِي يَنتَقِدُ والَّذِي يُعارِضُ والَّذِي لا يَلتَفِتُ إِلَيكَ، والَّذِي يَستَهزِئُ بِكَ ، فاصبِرْ ، كَذَلِكَ تَجِدُ أَيضاً الَّذِي يَمدَحُكَ والَّذِي يَستَقبِلُكَ وَتَجِدُ الَّذِي يُقابِلُكَ بِالبَشاشَةِ ، وَتَجِدُ الَّذِي يَتَواضَعُ لَكَ فَلا تَغتَرَّ بِشَيءٍ مِن ذَلِكَ .

كَما قُلنا لَكَ لا تَلتَفِتْ إِلَى مَن يَسُبُّ ، لا تَلتَفِتْ إِلَى مَن يَمدَحُ ؛ لأَنَّ الأَمرَ حالٌ بَينَكَ وَبَينَ رَبِّكَ نُرِيدُهُ يَقُومُ وَيَصفُو حَتَّى يَرضَى عَنك ، وَمَدْحُ النّاسِ ظَنٌّ ، وَسَبُّ النّاسِ ظَنٌّ ، وَظُنُونُ الخَلقِ لا تُغنِي مِن الحَقِّ شَيئاً ، والمَسأَلَةُ حالُكَ أَنتَ مَعَ اللهِ تَعالى ، فَلا تَتَأَثَّرْ بِمَدحٍ ، وَلا تَتَأَثَّرْ بِذَمٍّ ، وَلا تُصَدِّقِ المَدّاحَ وَلا تُصَدِّقِ السَّبّابَ ، وَلا تَلتَفِتْ إِلَى كَلامِ أَحَدٍ مِنهُم ، واعلَمْ أَنَّ القَولَ قَولُ اللهِ تَعالَى : ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [الأنعام:٧٣].

فَلْيَرَ مِنكَ انْكِسارَ القَلبِ مَعَه دائِماً ، فَيَكونَ عِندَكَ جَلَّ جَلالُه ، «أَنا عِنْدَ المُنْكَسِرَةِ

قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي»[(١)].

وَكَثِيرٌ مِن الَّذِينَ حَضَرُوا هَذِه المحاضِرَ ، نَرجُو لَهم فِي لَحَظاتِ الوَفاةِ أَنْ تَبدُوَ لَهم صُورَةُ هَذِه المجامِعِ ، وَما فِيها مِن الأَرواحِ ، وَعِندَ ذَلِك تَكادُ أَنْ تَطِيرَ أَرواحُهُم شَوقاً إِلى الأَئِمَّةِ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ فِيها .

بَل يَبدُو لِكَثِيرٍ مِنهُم وَيَلتاحُ لَهم نُورُ الإِمامِ لِلكُلِّ ، والمقَدَّمِ عَلَى الكُلِّ ، فَيُتَوَفَّوْنَ عَلَى حالَةٍ مِن الشَّوقِ ، تُذَكِّرُ بِشَأنِ الصَّحابَةِ الَّذِينَ كانُوا يَمُوتُونَ عَلَى الشَّوقِ إِلَيه صَلى الله وَسَلَّم وَبارَكَ عَلَيهِ وَعَلَى آلِه .

فَحافِظُوا عَلَى عَلائِقِكُم ، وَحافِظُوا عَلَى ارتباطاتِكُم ، فَإِنَّها سَلاسِلُ مُؤَدِّيَةٌ إِلى النِّهاياتِ ، والمراتِبِ الرَّفِيعاتِ ، والمرافَقَةِ لِسَيِّدِ الكائِناتِ ، وَوَرَثَتِه القاداتِ ، ثَبَّتَنا اللهُ وَإِيّاكُم ، وَأَعانَنا اللهُ وَإِيّاكُم وَحَرَسَنا اللهُ وَإِيّاكُم .

الآنَ فِي ساعَةِ الوَداعِ[(٢)]، لاشَكَّ أَنَّ عَدَداً جَمّاً مِن الملائِكَةِ وَغَيرِهِم مِنَ الأَرواحِ مَعَكُم ، وَيَنظُرُونَ مَنظَرَكُم ، فِي خِتامِ هَذِهِ الأَيامِ واللَّيالِي ، وَلا نَزالُ فِي خِتامٍ بَعدَ خِتامٍ ، إِلى الخِتامِ الكَبِيرِ بَعدَ ذَلِك .

فاغتَنِمُوا هَذِهِ السّاعَةَ ، وَإِنْ شاءَ اللهُ تَقَعُ لِقاءاتٌ كَثِيرَةٌ ، فِي خَيراتٍ وَفِيرَةٍ ، وَكُلٌّ يَدعُو اللهَ تَعالَى لأَهلِ مَعرِفَتِه مِن أَجلِ الله ، وَلِلَّذِينَ صاحَبَهُم مِن أَجلِ الله تَعالى خاصَّةً ، وَلِلمُؤمِنِينَ والمؤمِناتِ ، والمسلِمِينَ والمسلِماتِ فِي المشارِقِ والمغارِبِ .

---

(١) قالَ الإِمامُ السَّخاوِيُّ فِي «المقاصِدِ الحَسَنَة» : ذكره في «البداية» للغزالي . اهـ . وَذَكَرَهُ الإِمامِ المناوِيّ فِي «فَيضِ القَدِيرِ شَرح الجامِعِ الصَّغِيرِ».

(٢) أَي: وَداعُ طَلَبَةِ الدَّورَةِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ عادَةً بَعدَ صَلاةِ الفَجرِ فِي مُصَلَّى أَهلِ الكِساءِ بِدارِ المصطَفَى .

اعلَمُوا أنه مُقبِلٌ عَلَيهِم خَيرٌ كَبِيرٌ ، مُقبِلٌ عَلَيهِم ما وَعَدَ بِه البَشِيرُ النَّذِيرُ ، والسِّراجُ المـنِيرُ ، لابُدَّ أَنْ يَتِمَّ ، لَكِن نَحنُ ما نُرِيدُكَ أَن تَكُونَ خارِجَ الدّائِرةِ وَلا خارِجَ الزُّمرَةِ وَلا خارِجَ الجَماعَةِ ، كُنْ مِنهُم وَأَلصِقْ نَفسَكَ بِهِم ، وَرَبُّكَ إِذا رَآك مُتَشَبِّثاً .. وَعِزَّتِهِ لَن يَترُكَكَ وَلَن يَرمِيَكَ ، إِلا إِذا أَنتَ رَضِيتَ بِالرَّمِيَةِ وَرَضِيتَ بِدَعوَةِ عَدُوِّهِ فَلا تَلُمْ إِلا نَفسَك .

وَإِلا فَمُقبِلٌ عَلَى الأُمَّةِ خَيرٌ كَبِيرٌ تَظهَرُ فِيهِ رايَةُ الحَبِيبِ فِي الشَّرقِ والغَربِ ، والجَنُوبِ والشَّمالِ ، وَيَهتِفُ الكَونُ بِـ«**لا إِله إِلا اللهُ * مُحمَّدٌ رَسُولُ الله**» ، وَيُحكَمُ بِاسمِهِ تَعالى وَبِاسمِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ، فَعَلَينا أَن نَترَقَّبَ عَطاءَ اللهِ تَعالَى ، وَنَتَهَيَّأَ لِلدُّخُولِ فِي دَوائِرِ المَخصُوصِينَ بِعِنايَةِ اللهِ والمَمنُوحِينَ مِنه اختِيارَهُ واصطِفاءَهُ واجتِباه .

صور الأعمال وروحها

وقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ[1] اللهُ رَبِّي وَرَبُّكُم أَرسَلَ حَبِيبَهُ مُحمَّداً ، وَكَلَّفَنا أَنْ نَخطُبَ وَنَجتَهِدَ وَنَنشُرَ وَنُبَلِّغَ وَنَدعُوَ ، وَكُلُّ ما يَكُونُ مِن الإِمامَةِ ، فِي دُخُولِ المِحرابِ ، والجُلُوسِ لِلتَّدرِيسِ ، وَإِلقاءِ الكَلِماتِ ، والتَّحضِيرِ لِلدُّرُوسِ ، فَهَذا كُلُّه صُوَرٌ لِلخَيرِ .. بِما فِيه السَّفَرُ .. بِما فِيهِ اللِّقاءُ بِالإِخوانِ .. بِما فِيه الكِتابَةُ ، هَذِه صُوَرُ الخَيرِ وَأَينَ رُوحُها ؟ رُوحُها لَيسَ إِلا بِرُوحِكَ ، فَإِنَّ الرُّوحَ لا يَحِلُّ إِلا فِي الرُّوحِ ، فالصُّورَةُ هَذِه إِذا كانَت بِرُوحِها ، اتَّصَلَتْ رُوحُك بِتِلكَ الرُّوحِ ، أَي بِرُوحِ الخَيرِ ، فَسَرَتِ السِّرايَةُ فِي أَرواحِ مَن حَوالَيك .

والرُّوحُ الَّتِي فِيكَ جَمعِيَّتُكَ عَلَى اللهِ ، وَأَدَبُك مَعَه ، وَصِدقُكَ وَإِخلاصُكَ لَه ، وَذِلَّتُك بَينَ يَدَيه ، وَتَفانِيكَ فِي مَحَبَّتِهِ ، وانطِواؤُكَ فِي أَحبابِه .

فَهَذِهِ الأَشياءُ رُوحٌ ، إِذا حَلَّت فِي رُوحِك.. تَكتَسِبُ مِنها الصُّوَرَ الخَيرِيَّة ،

(١) يومُ الأحَدِ ٢ مِن شَهرِ شَوّال ١٤٢٠هـ .

وَتكتَسِبُ أيضاً مِنها رُوحاً فَتُخاطِبها رُوحُكَ ، وَإلا بَقِيَتْ صُورَةً تُخاطِبُ الصُّوَرَ «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلى صُوَرِكُمْ»(١) ، وَأَنها بِلا نَظرَةٍ غَيرُ مُوصِلَةٍ فَما تَصِلُ إِلى مَكانٍ ، كَما عَمِلَ أُناسٌ أَعمالاً كَثِيرَةً ، وَصُوَراً كَثِيرَةً ، ذَهَبُوا وَذَهَبَتْ صُوَرُهم .

وَكَما اغتَرَّ الآنَ أُناسٌ بِكَثِيرٍ مِن الصُّورِ الخَيرِيَّةِ ، فَهُم فِي هَذِهِ الصُّوَرِ ، لَو انكشَفَ لَهم الحِجابُ عَن حَقِيقَةِ ما هُم فِيهِ لَبكَوا عَلَى أَنفُسهم فِي صُوَرِ الخَيرِ؛ لأَنَّ الحِجابَ فِيهِم ، والقَطِيعَةَ فِيهِم ، والبُعدَ فِيهِم ، والحِرمانَ فِيهِم ، والبُعدَ عَن الصّالِحِينَ فِيهِم، وَصُوَرَ الخَيرِ عِندَهُم ، لا حَولَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِالله ، هَذِهِ مُشكِلَةٌ أَكبَرُ، قالَ تَعالَى : ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية:٣] عَمِلَت وَلكِن جَنَت التَّعَبَ ، قامَتْ بِصُوَرٍ مِن الخَيرِ، يَعنِي صَلَواتٍ وَزَكَواتٍ وَمُحاضَراتٍ وَدُرُوساً ، والنَّتِيجَةُ نَصَبٌ ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ [الغاشية:٣-٥] و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية:٨-٩] رَضِيَتْ عَن تِلكَ الأَعمالِ والسَّعيِ الَّذِي قامَت بِهِ؛ لأَنَّه ما أَثمَرَ النَّصَبَ ، بَل أَثمَرَ مُرافَقَةً ، وَأَثمَرَ قُربَةً ، وَأَثمَرَ محبُوبِيَّةً ، وَأَثمَرَ نَجاةً، وَأَثمَرَ تَقرِيبا، وَأَثمَرَ تَنعِيما ، وَأَثمَرَ خُلُوداً فِي المجاوَرَةِ ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية:١١]؛ لأَنَّهُم أَعرَضُوا عَن اللَّغوِ فِي الدُّنيا ، فَجاؤُوا إِلى مَكانٍ لَيسَ فِيه لَغوٌ ، الَّذِين يُحِبّونَ اللَّغوَ فِي الدُّنيا ، لابُدَّ أَنْ يَأتُوا إِلى مَكانٍ كُلّه لَغوٌ ، وَكُلّه عَوِيلٌ(٢)، وَكلّه بُكاءٌ ، وَكُلّه فَوضى ، (**فالجَزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ**) .

---

(١) رَواهُ مُسلِم وابنُ ماجه عَن أَبِي هُرَيرَةَ قالَ : قالَ رَسُولُ الله صَلّىَ الله عَلَيهِ وَسَلَّم: «إِنَّ اللهَ لا يَنظرُ إِلى صُوَرِكُم وَأَموالِكُم ، وَلَكِن يَنظرُ إِلى قُلُوبِكُم وَأَعمالِكُم» .

(٢) أَي: نَحِيبٌ وَنُواحٌ .

حقيقة العلاج

وقال رضي الله عنه ونفعنا به إذا نَظَرنا لِلواقِعِ هَذا .. نَجِدُ حَقيقَةَ العِلاجِ والدَّواءِ والإِنْقاذِ ، مِن خِلالِ هَذا العَمَلِ الَّذي أَنْتُم فيهِ ، إِنْ تَمَّ للواحِدِ مِنكُم عَلَى الوَجهِ المطلُوبِ فَهُو واحِدٌ مِن أَهلِ الإِنْقاذِ ، وَأَهلِ المداواةِ وَأَهلِ العِلاجِ .

أَخذُ العِلمِ الشَّرِيفِ عَلَى وَجهِه وَعَلَى طَرِيقِهِ ، وَمن مَحلِّهِ بِالنِّيَّةِ الخَلصاءِ مَع نِيَّةِ العَمَلِ بِهِ ، والقِيامِ بِحَقِّ العَمَلِ ، والحِرصِ والهَمِّ الكَبِيرِ عَلَى تَبليغِهِ وَنَشرِه فِي النّاسِ ، فَتِلكَ هِي طَرِيقَةُ الأَنبياءِ والرُّسُلِ ، إِذا قامَتْ وَتَـمَّتْ .. تَمَّ العِلاجُ لِلأُمَّةِ ، وانكَشَفَت الغُمَّةُ ، وانْجَلَت الظُّلمَةُ ، وَتَفَرَّجَت الكُربَةُ ، وَصَلُحَ حالُ النّاسِ .

وَإِذا أَصَرُّوا عَلَى نَومِهِم ، وَأَصَرُّوا عَلَى غَفلَتِهِم وَأَصَرُّوا عَلَى إِهمالِهِم ، وَأَصَرُّوا عَلَى استِخفافِهِم بِأَمرِ الخالِقِ الحَقِّ الفاطِرِ .. فالخُسرانُ عَلَيهِم واقِعٌ لا مَحالَةَ ، ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

لابُدَّ أَنْ تَعرِفُوا عَظَمَةَ مُهِمَّتِكم ، وَعَظَمَةَ هَذا الشَّأنِ الَّذي أَنتم فِيهِ ، هَذا شَأنُ اتِّصالٍ بِنُبوَّةٍ .. بِرسالَةٍ .. بِوَحيٍ ، بِالإِلَهِ .. بِالخالِقِ .. بِالرَّحمَنِ .. بِالقادِرِ .. بِالقَوِيِّ .. بِالقَهّارِ .. بِالجَبّارِ .. بِالبارِئِ .. بِالَّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ ، وَسِرُّ اتِّصالٍ بِمُوجِبِ سَعادَةِ الأَبَدِ ، والخُلدِ فِي دارِ الكَرامَةِ ، كُلُّ ذَلِكَ أَمرٌ عَظِيمٌ .. عَظِيمٌ .. عَظِيم ، خَرَجَت عَظَمَتُه مِن صُدُورِ الغافِلِينَ ، وَعُقُولِ الَّذِين حُجِبُوا عَن حَقائِقِ الدِّينِ ، أَو التَهَوا[1] بِالتُّـرَّهاتِ والبَطالاتِ .

إِنْ شاءَ اللهُ يُوَفِّقُ اللهُ كُلَّ واحِدٍ مِنكُم ، حَتَّى يَعرِفَ واجِبَهُ وَمُهِمَّتَهُ ، وَيَكُونُ كُلُّ واحِدٍ مِنكُم مِمَّن تَقَرُّ بِهِم العَينُ ، وَمِمَّن يُعالِجُونَ وَيُداوُونَ ، وَيَكُونُونَ سَبَبا لإِنْقاذِ

(١) من اللهو .

الأُمَّةِ إِنْ شاءَ اللهُ ، إِنَّه وَقد أَكرَمَكَ بِالمجِيءِ إِلى هَذا المنزِلِ[١] أَو أَسمَعَك مِثلَ هَذا الحَدِيثِ ، فَقَد هَيَّأَ لَكَ السَّبِيلَ ، وَيَسَّرَ لَكَ الطَّرِيقَ ، وَذَلَّلَ لَكَ الصِّعابَ ، وَذَلَّلَ لَكَ العِقابَ[٢] ، وَفتَحَ لَكَ البابَ ، فَتكُونَ لَو رَضِيتَ بِأَنْ تَغفلَ أَو تُهمِلَ أَو تَترك أَو تُدبِرَ أَو تُخالِفَ حُجَّةٌ شَدِيدَةٌ عَلَيكَ ، بَعدَما قَرَّبَ وَيسَّرَ ورَتَّبَ وَحبَّبَ ، فَتُعرِضُ أَنتَ عَنه، وَتَغفَلُ وَترَضَى بِشَيءٍ مِن المخالَفاتِ أَو المعاصِي .

فِيكُم كَثِيرٌ يَسرِي نَظَرُ العِنايَةِ إِلَيهِم ، وَيَتَهَيَّئُونَ لِرِضوانِهِ الأَكبَرِ ، وَفِيكُم أُناسٌ يَتَقَلَّبُونَ بَينَ الدَّواعِي ، دَواعِي كَذا ، وَدَواعِي كَذا ، فَلا يَزالُ يَقُومُ وَيَقعُدُ ما عَرفَ يَمشِي صَحِيحْ ، وَإِلا فَوقَه[٣] أَدِلاَّءُ عَلى الطَّرِيقِ ، مادِّينَ أَيدِيهِم ، سَيُمسِكُونَ بِيَدِهِ وَسَيَمشُونَ بِهِ ، وَلَكِن إِذا ما انْتَهَضَ ماذا يَعمَلُونَ به ؟ كُلٌّ مِنكُم يَنتَبِه .

الآنَ أَتكَلَّمُ أَنا وَإِيّاكم فِي الدُّنيا فِي هَذا المبنَى المبارَكِ ، والحالُ مَشهُودٌ لأَهلِ السَّماءِ، وَخِيارِ أَهلِ الأَرضِ ، وَبَعدَ هَذا اليَومِ سَتَظهَرُ نَتائِجُ هَذا الكَلامِ وَعَواقِبُهُ وَثَمَراتُهُ، «وَكُلُّ النّاسِ يَغْدُو فَبائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها أَوْ مُوبِقُها»[٤] ، اللهُ يُكرِمُنا وَإِيّاكُم بِصِدقِ الإِقبالِ ، وَيُلحِقُنا بِحَبِيبِه مَولَى بِلالِ .

---

(١) إِشارَةٌ إِلَى دارِ المصطَفَى لِلدِّراساتِ الإِسلامِيَّةِ بِتَرِيم – حَضرَموت .

(٢) أَي: ذَلَّلَ لَكَ العَقَباتِ.

(٣) أَي: مَعَه .

(٤) عَنْ أَبِي مالِكٍ الحارِثِ بنِ عاصِمٍ الأَشعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم : «الطُّهُورُ شَطرُ الإِيمانِ ، والحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الْمِيزانَ ، وَسُبحانَ اللهِ والحَمدُ للهِ تَمْلآنِ ـ أَو تَمْلأُ ـ ما بَيْنَ السَّماواتِ والأَرْضِ ، والصَّلاةُ نُورٌ ، والصَّدَقَةُ بُرهانٌ ، والصَّبرُ ضِياءٌ ، والقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَو عَلَيكَ ، كُلُّ النّاسِ يَغدُو فَبائِعٌ نَفسَهُ فَمُعتِقُها أَو مُوبِقُها» . رَواهُ أَحمَدُ فِي مُسنَدِهِ وَمُسلِمٌ فِي صَحِيحِهِ والتِّرمِذِي .

إنْ شاءَ اللهُ لا يَرجِعُ أَحَدٌ مِنكُم خائِباً ، لَكِن ساعِدُوا عَلَى بُلُوغِ هَذا الأَرَبِ، والقِيامِ بِهَذا الأَمرِ الكَبِيرِ العَظِيمِ ، واصدُقُوا مَع الله ، وَهوَ أَقرَبُ إِلَى أَحَدِكم مِن حَبلِ الوَرِيدِ، كَما ذَكرَ ذَلِكَ فِي كِتابِهِ ، ما يَأتِي البُعدُ إِلا مِن جِهَةِ الإِنسانِ نَفسِهِ ، الله يُبارِكُ فِيكُم وَينظُرُ إِلَيكُم وَيُسعِدُكُم ، وَحَيثُما اتَّجهنا وَمَشَينا نَكُونُ فِي ذِكرٍ لَكُم وَلأَحوالِكُم ، نَسأَلُ الحَقَّ أَنْ يُوفِّرَ الحَظَّ لَنا وَلَكُم .

التّوكّل على الله

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنفعنا بِهِ يَجِبُ أَن تَقُومَ أُمُورُنا عَلَى أَساسِ التَّوَكلِ عَلَى الله ، بَعدَ أَنْ يَرتَفِعَ مَشهُودُ قِيامِ الأَعمالِ ، فَإِذا قُمتَ بِها صِرتَ مَشغُولاً بِالمعبُودِ فِي قالَبِ العِبادَةِ ، وَصِرتَ مَشغُولاً بِواحِدٍ هوَ «الله» ، وَماذا يَعمَلُ مَن كانَ شُغلَه «الله» ؟ هَذا الَّذِي نُرِيدُ أَن نَجتَمِعَ عَلَيهِ ، وَلا عَلَيكُم مِن قاصٍ وَدانٍ ، وَلا إِنسٍ وَلا جانٍّ .

منبّهاً إلى بعض الضّوابط في العمل الدّعويّ

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنفعنا بِهِ نَقلُ الأَخبارِ فِي كَثِيرٍ مِن الأَحيانِ يَكونُ بِدافِعٍ حَسَنٍ عِندَ الواحِدِ مِنّا، يَنقُلُ خَبَراً لَيسَ مَوكُولاً إِلَيهِ، وَينقُلُهُ بِحَسبِ ما فَهِمَهُ ، أَحياناً يَكُونُ المَوكُولُ إِلَيهِ عَدَّلَ فِيهِ ، أَو اتَّفقُوا عَلَى تَرتِيبٍ آخَرَ ، فَذاكَ يَنقُلُ الخَبَرَ الأَوَّلَ ، فَتحصُلُ رَبكَةٌ بَعدَ ذَلِكَ.. فَلِهَذا نَقول : مِما يَحتاجُ أَن يَتعلَّموه فِي هَذه الشُّؤونِ .. أَن يَتَقيَّدَ كلُّ واحِدٍ بِما أُوكِلَ إِليه ، وَما عَدا ذَلِكَ يَبقَى فِيهِ عَلَى سَبِيلِ الاحتِياطِ ، فَمُمكِنٌ أَن يَقُولَ : أَنا سَمِعتُ ذَلِكَ لَكِن يُمكِنُ أَن يَكُونَ فِيهِ تَعدِيلاً.. وَلا يُبَلِّغُ الأَخبارَ مَن عِندِهِ ما دامَ هُناكَ مِمَّن أُوكِلَ إِلَيهِ إِبلاغُها ، وَيَترُكُها تَأتِي عَن طَرِيقِهِ ، حَتَّى لا تَكُونَ هُناكَ أَخبارٌ مَتضارِبَةٌ مُتناوَلَةٌ مُتَقَلِّبَةٌ، فَتُربِكُ السَّيرَ نَفسَه فِي هَذا العَمَلِ .

إذا سَمِعتَ خَبَراً عَن مُهِمَّةِ شَخصٍ آخَرَ بِأَنَّ عَلَيهِ أَنْ يَقُومَ بِكَذا أَو كَذا مَثَلاً فَلا تَستَعجِلْ؛ لأَنَّه يَطرَأُ التَّعدِيلُ ، وَيَطرَأُ التَّرتِيبُ.. يَحصُلُ فِي نَواحٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ..

احتِفالاتٌ ، خَرجاتٌ ، زِياراتٌ ، جَلساتٌ فِي أَوقاتٍ ، فَتَحصُلُ رَبكاتٌ كَثِيرةٌ؛ بِسَبَبِ الاستِعجالِ بِالإخبارِ ، وَقَد تَأتِي مِن تَضيِيعِ الموكُولِ إِلَيهِ نَفسِهِ ، وَلَكِن فِي مِثلِ هَذِهِ الحالَةِ يَتَأَتَّى الخِطابُ وَيَتَأَتَّى التَّرتِيبُ مَعه..وَمَعَ ذَلِكَ يَنبَغِي أَن نَحتاطَ فِي مِثلِ هَذِهِ الأُمُورِ ؛ لأَنَّ النَّفسَ بِطَبِيعَتِها تُحِبُّ الإِعلامَ بِالخَبرِ ، فَأَحياناً يَعتَبِرُونَهُ مِن القَوادِحِ فِي الإِخلاصِ ، لَكِنَّ الطَّرِيقَ إِلى هَذا بِالملاحَظَةِ وَتَربِيَةِ النَّفسِ ، مِن دُونِ تَركِ الأَعمالِ .

يَجِبُ المواصَلةُ والسَّيرُ في العَمَلِ ، إلا أَنَّ عَلَى كُلِّ واحِدٍ مِنّا أَنْ يُلاحِظَ جانِبَ إِخلاصِهِ وَيَسأَلُ الله ذَلِكَ ، والحَقُّ يُعِينُه ، فَإِن خِفْتَ أَن يَضِيعَ الأَمرُ ، فَأَشِرْ إِلَيهِ مَع الاحتِياطِ ، لَكِن لا تَجعَلِ الأَمرَ مَجزُوماً بِهِ مِن عِندِكَ.. وَهَكَذا تَقَعُ فِي بَعضِ الأَحيانِ رَبْكَةٌ لِلَّذِينَ يَتَلَقَّونَ الأَخبارَ بِأَنفُسِهِم فِي أَمرٍ مُعَيَّنٍ ، يوماً يُكَلِّمُه هَذا ، وَيَوماً آخَرَ يُكَلِّمُه هَذا ، فَلا تَدرِي الآنَ تَأخُذُ بِكَلامِ مَن فِيهِم .

لَكِنْ مِن الجَمِيلِ لَـمّا يُعْرَفُ واحِدٌ مُعَيَّنٌ يَكونُ هو المسؤُولَ عَن مِثلِ هَذا ، بِحَيث يُقالُ لَنا : أَنَّه إِذا جاءَكَ الأَمرُ مِن فُلانٍ ، يَكُونُ هُوَ المقَرَّرَ والمتَّفَق عَلَيهِ .

الباب الثاني

عالميّة الدّعوة وقواعد السّعة، والاتّساع في الفهم والمعاملة والخطاب

الشّعور بوحدتنا مع الأمّة

قال رضي الله عنه ونفعنا به: لابُدَّ أن تَستَشعِرُوا وِحْدَتَكُم مع هَذِهِ الأُمَّةِ مِن حَيثُ وِحدَةِ نَبِيِّها وَكِتابِها والإلهِ الَّذي نَعبُدُهُ جَلَّ جَلالُه وَتَعالَى فِي عُلاه ، أَنتُم تَسْلُكُونَ فِي مَسالِك هُدِيتُم إِلَيها وارتَضَيتُمُوها مِن جُملَةِ مَسالِكِ هَذِهِ الأُمَّةِ ، لا يَتَأَتَّى فَصْلُها عَن الأُمَّةِ وَلا فَصلُ الأُمَّةِ عَنها ، فِي ضِمنِ هَذا .. لا تَزالُونَ فِي اتِّساعٍ فِي فَهمِ مُهِمّاتِكُمْ في المَسلَكِ الَّذي أَنتُم فِيهِ .

المَسْلَكُ الَّذي هُدِيتُم إِلَيهِ وَسِيقَ إِلَيكم ، المَسْنَدُ عَن الرِّجالِ الأَفاضِلِ الأَماجِدِ الأَكابِرِ مِن شُيُوخِنا ، فَشُيُوخِهِم إِلَى المُصطَفَى المجتَبَى صَلَّى الله عَلَيه وَآلِهِ وَصَحبِه وَسَلَّم .. وَرَّثَكُم أَوصافاً ، وَمِن نِعمَةِ الحَقِّ تَبارَكَ وَتَعالَى أَنَّ مَجْلَى الاتِّساع والعالمِيَّة فِي المَسلَكِ الَّذي وَرِثناه .. واضِحٌ وَقَوِيٌّ ؛ لِبُعْدِهِمْ عَنِ الرُّسُومِ والمظاهِرِ ، واهتِمامِهِم بِالعُلُومِ والجَواهِرِ .

وَهُمْ مُتَشارِكُونَ مَع أَهلِ الصِّدقِ فِي نَواحِي العَزمِ إِلى الحَقِّ تَبارَكَ وَتَعالَى وَتَطهِيرِ هَذِهِ النُّفُوسِ وَتَزكِيَتِها .

بيان ملامح عالميّة هذه الدّعوة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به (١) مَع التِفاتِ نَظَرِنا إِلَى أَنَّ دَعوَتَنا وَإِن انبَثَقَتْ بِحَمدِ الله مِن طَرِيقَةٍ مَخصُوصَةٍ ، مُنتَمِيَةٍ لأَئِمَّةٍ مَخصُوصِينَ بَل مِن خَواصِّ الأَئِمَّةِ عَلى مَدَى الأَزمانِ ، فَهِيَ أَيضاً وَإِنْ كانَتْ فِي قُطرٍ مَخصُوصٍ وَبَلَدٍ مَخصُوصٍ مُنتَمِيَةٍ إِلَى طَرِيقَةٍ مَخصُوصَةٍ ، فَهِي فِي الوَقتِ نَفسِه وَذاتِه .. عالَمِيَّةٌ واسِعَةٌ ، مُتَّسِعَةُ الآفاقِ ، مُوَجَّهَةٌ لِلصَّغيرِ والكَبيرِ ، والجاحِدِ والكافِرِ ، واليَهُودِيِّ والنَّصرانِيِّ والمَجُوسِيِّ ،

(١) فِي ١٤ مِن شَهرِ صَفَر ١٤١٨ هـ .

والفاسِقِ والمبتَدِعِ والزِّنديقِ ، والصّالحِ والوَلِيِّ ، مُوَجَّهَةٌ لَهم كُلُّهُم يَجِبُ أن نُدرِكَ وَنَستَشعِرَ هَذا .

مجَالُ دَعوَتِنا فِيه تَرقِيَةٌ لِصاحِبِ الوِلايةِ فِي وِلايَتِه ، وَصاحِبِ الصِّدِّيقِيَّة فِي صِدِّيقِيَّتِه ، مجَالُ دَعوَتِنا فِيهِ خِطابٌ لِصاحِبِ الزَّندَقةِ في زَندَقَتِه ، وَلِصاحِبِ اليَهُودِيَّة فِي يَهُودِيَّتِه.

فَهَذا يَجِبُ عَلَينا أَن نعرِفَه ، وَكَيفَ نَعْرِفُهُ ؟ إِحساسُنا بِهَذا يَحتاجُ مِنّا الآنَ فِي الواقِعِ والحاضِرِ إلى صِفاتٍ نَبدَأ نَبنِيها وَنُرَبِّيها فِي أَنفُسِنا ، لابدَّ لِلواحِدِ مِنّا أَن يَعلَمَ بِواجِبِه، وَيَعلَم بِشَخصِهِ وَبِذاتِه .

لَيسَ شَخصُك أَنت الَّذي سَيواجِه ، بَل ذاتُ الدَّعْوَةِ هِي الَّتِي سَتُواجِه ، وَذاتُ الدَّعوَةِ مُجَسَّدَةٌ فِي نُورانِيَّةٍ انبَعَثَتْ وَأَشارَ إِلَيها الحَقُّ بِقَولِه : ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥]، هَذِهِ الذّاتُ الدَّعْوِيّةُ العَظِيمَةُ .. هِي الَّتي سَتُخاطِبُ لَك العالَمَ.

أَنتَ مُنتَمٍ إِلَيها الآنَ انتِماءً وَثِيقاً ، لابُدَّ أَن تَعرِفَ هَذا ، إِذا عَرفتَ ذَلِكَ فَأَنتَ مُحتاجٌ إِلَى تَقوِياتٍ كَثِيرةٍ فِيما يَتَعَلَّقُ بِعالمِيَّةِ دَعوَتِكَ .

أَوَّلاً : مِن جِهَةِ النِّيةِ والهَمِّ : بِأَن يَكُونَ عِندَكَ نِيَّةٌ وَهَمٌّ لإِيصالِ حَقائِقِ هَذا الخَيرِ إِلَى جَمِيعِ المَشارِقِ والمغارِبِ ، وَمُختَلَفِ طَبَقاتِ النّاسِ وَأَصنافِهِم .

ثانِياً : مِن جِهَةِ أَلفاظِك : إِذا كُنتَ عالمـيّا .. فَأَنتَ صاحِبُ دَعوَةٍ تُخاطِبُ بِها النّاسَ كُلَّهُم ، فَيَجِبُ أَنْ تَتَوافَقَ الأَلفاظُ مِنك مَعَ القاعِدَةِ الكَبِيرَةِ الَّتِي تَنطَلِقُ مِنها ، تَضبطُ تَماماً ما يَصدُر مِن لِسانِكَ فِي الوَعْظِ ، فِي التَّذكِيرِ ، فِي المخاطَبَةِ الفَردِيَّةِ ، فِي المخاطَبَةِ الجَماعِيَّةِ ، فِي الجَلَساتِ العامَّةِ ، فِي الجَلَساتِ الخاصَّةِ .

فَما يُثِير النُّفُوسِ .. لا حاجَة لَكَ بِه ، وَما يُفَسَّرُ بِغَـيرِ تَفسِيرِه .. لا حاجَةَ لكَ بِه ، ما يُقْلِقُ أَرْبابَ التَّوَلُّعِ بِالسِّياسَةِ ، أَرْبابَ التَّوَلُّعِ بِالأموال ، أَربابَ التَّوَلُّعِ بِالجاهاتِ والمَناصِبِ الظَّاهِرِيَّةِ .. لا حاجَةَ لَك بِه ؛ لأَنَّ هَذا يُؤَثِّـرُ فِي تَعكِير سَيرِك فِي الدَّعوَةِ ، مِن دُونِ نَتِيجَةٍ وَلا فائِدَةٍ تَحصلُ مِنه قَطعاً .

أَنتَ فِي نَفسِ الوَقتِ لا تطارِدُ أَصحابَ الجاهاتِ عَلى جاهاتِهِم ، وَإِلا ما صَلحْتَ لِلدَّعوَةِ ، وَلا تُطارِدُ أَصحابَ الأَموالِ عَلى أَموالِهِم ، وَإِلا ما صَلحْتَ لِلدَّعوَةِ ، وَلا تُطارِدُ أَصحابَ السِّياسَةِ عَلَى سِياسَتِهِم وَإِلا ما صَلحتَ لِلدَّعوَة ، فلا تُطارِدْهُم عَلَى هَذِهِ الأَشياء ، بَلْ أَنتَ مُحتاجٌ إِلَى دَعوَتِهِم .

وَهَؤُلاءِ ما مُهِمَّتُهُم إِلا النَّظَـرُ إِلَى مَنْ يُكَدِّرُ عَلَيهِم صَفوَهُم ، أَو يُنازِعهُم عَلَى الجِيفَةِ[1] الَّتِي هُم عَلَيها ، طَمْئِنْهُم أَنَّك ما تُرِيدُ شَيئاً مِن جِيفَتِهِم هَذِهِ ، فَإذا كانَ الأَمر كَذَلِكَ فَلا تَتَلَفَّظْ بِلَفظٍ يُـثِيرُ هَذا أَو يُزعِجُ ذاكَ ، وَتَجعَلْهُ يُفكِّرُ كَيفَ يُعادِيك ، أَو يَتكَلَّمُ عَلَيكَ ، أَو يُوقِفُك مِن عَمَلِك هَذا ، بَل طَمْئِنْهُم أَنَّكَ ما تُرِيدُ شَيئاً مِن هَذِهِ الجِيفَةِ الَّتِي يَتَنافَسُون عَلَيها ، بَلْ قُلْ لَه : اشبَعْ مِنها وَخُـذْها . وَأَنا سَأقُـول لَكَ : لَو أَتيتَ بِها إِلَى عِندِي سَأُعِيدُها لَكَ ، فَضْلاً عَن أَنْ أُطارِدَكَ عَلَيها .

شُؤُونُ التَّسَلُّطِ عَلَى النّاسِ .. جِيفَةٌ فَـرَّ مِنها الأَكابِرُ مِن الصَّحابَةِ فِي حُكُومَةِ الخُلَفاءِ الرّاشِدِينَ ، فِي حُكُومَةِ أَبِي بَكرٍ والصَّحابَةُ يَفِرُّون مِن الإِماراتِ ، وَفِي حُكُومَةِ عُمَر والصَّحابَةِ يَفِرُّونَ مِن الإِماراتِ ؛ لأَنَّها جِيفَةٌ حَقّاً ، كَيفَ وَهِيَ فِي خِلافَةٍ راشِدَةٍ صالِـحَةٍ عَظِيمَةٍ قَوِيَّةٍ ، فَما يُوَلِّي أَحداً سَيِّدُنا عُمَرُ إِلّا بِالقُوَّة ، حَتَّى كانَ يَصِيحُ بَينَهم وَيَقُولُ : وَيحَكُم .. نَجَوتُم بِأَنفُسِكُم وَرَمَيتُمُوها عَلَى ظَهرِي ؟!

---

(١) كِنايَةٌ عَن الدُّنيا .

في معاني السّعة وأهمّيّتها في الفهم لشؤون الدّعوة والتّعامل مع الآخرين

وقال رضي الله عنه ونفعنا به اعلَمُوا أنَّ دائِرَةَ الدَّعوةِ إلى اللهِ وَنَشرِ تَعاليمِ دِينِه واسِعَةٌ ، لا يَثبُتُ فِيها إلا واسِع ، يَدفِن حُقُوقَ نَفسِه ، وَيَعتَنِي بِتَقويمِ أُسِّه ، وَيُواصِلُ السَّعيَ بِعَزمٍ جازِمٍ ، ويُعالِجُ المِعوجَّ بِرأيٍ حازِم .

يُقَدِّمُ الصبرَ في أُمُورِه ، وحُسن الظَّن بالخَلقِ ، ورَجاءَ الرَّحمَةِ لَهم ، والتَّجاوُزِ عَن مَساوِئِهم ، مَعَ مُقابَلَةِ الـمَلَلِ بِبَعثِ النَّشاطِ ، بِحَبلِ الارتِباطِ ، وَمُقابَلَةِ الكَسَلِ بِقَواعِدِ الانضِباطِ ، وَرَجاءِ مَدِّ البِساطِ .

فَلا يَضِيقُ لَه بحادِثَةٍ صَدرٌ ، وَلا يُقَدِّمُ لِنَفسِهِ فِي التَّراخِي عُذراً ، وَلا يَنخَدِع فِي التَّأخِـير بِغَدرٍ ، أَلا فَخُذُوا الأَمرَ بِجِدٍ ، وَقَلبٍ مُستَمِدٍّ ، إِلَى اللهِ مُستَنِدٌ ، وَعَلَيهِ فِي كُلِّ حالٍ مُعتَمِدٌ .

وَلا تَتَراخَوا عَن إِنكارِ المخالَفَةِ لِوقتِها ، وَإِصدار الملاحَظَةِ لِساعَتِها ، وَتَحابُّوا وارحَموا مَن ظَـهَرَ مِنه العَيبُ ، فَضلاً عَن مَستُورِ الجَيبِ(١) .

الدعوة موجهة لكل مؤمن

وقال رضي الله عنه ونفعنا به (٢) دَعوَتُكُم هَذِهِ عَظِيمَةٌ ، هِيَ دَعوةُ اللهِ الَّتي حَمَلَها حَبيبُه صَلىَّ الله عَلَيهِ وَسَلَّم مُوَجَّهَةً إِلى العالَمِ كُلِّه ، مَن فِي هَذا العالَمِ هَذِهِ الدَّعوةُ لَيسَت مُوَجَّهَةً إِلَيهِ مِن الله؟ كانَ سَيِّدُ الوُجُودِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم لَـمّا يَكتُبُ لِلمُلُوك الَّذِين هُم فِي ظاهِرِ الأَمرِ ، وَفِي حِسِّ الأَمرِ .. أَصحابُ القُوَى ، وأَصحابُ التَّصَـرُّفِ ، وَأَصحابُ النُّـفُوذِ ، يَقُولُ : «بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ .. من مُحَـمَّدٍ عَـبدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ ، سَلامٌ على من اتَّبَعَ الهُدَى أَمّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعايَةِ الإِسْلامِ ، أَسلِم

(١) كَتَبَ سَيِّدي الحَبيب هَذِهِ الوَصِيَّةَ فِي رِسالَةٍ إِلَى بَعضِ مُشرِفِي رِباطِ الشِّحر .

(٢) يوم الخَميس ١٨ مِن شَهرِ ذِي القِعدَةِ ١٤٢١هـ .

تَسْلَمْ يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّنَ»[١] .

نَحنُ الآنَ الحالُ مِنّا يَقُولُ لِهؤُلاءِ مُلُوكِ الأَرضِ : يا آلَ أُورُوبّا .. يا آلَ أَمرِيكا ، يا آلَ بِريطانيا ، يا آلَ الشَّرقِ .. يا آلَ الغربِ .. أَسلِمُوا .. تَسلَمُوا ، وَمَن تَوَلَّى مِنكُم فَعَلَيهِ الإِثمُ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

وَإِذا أَظهَرَ الله رايَةَ الدِّينِ وَبَعَثَ الخَلِيفَةَ لِلمُصطفَى صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم وَحكَّمَهُ فِي الأَرضِ ، خاطَبَهُم بِمِثلِ هَذا الخِطابِ .

وَإِذا قامَت الحُجَّةُ وَوُضِّحَتْ فَنَزَلَ ابنُ مَريَم ، فالخِطابُ بَعدَ ذَلِكَ سَيفٌ : ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة:٢١] ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [الصف:٩] ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨].. ثَبَّتَكم الله وَجعَلَكُمْ إِنْ شاءَ الله فِي حَظِيرَةِ سَيِّدِ الوُجُودِ ، وَفِي حُصُونِه الحَصِينَة .

ما تُقْلِقُكُم زَمْجَراتُ[٢] هَؤلاءِ ، وَلا ما يُثِيرُونَه فِي أَجهِزَةِ إِعلامِهِم وَصُحُفِهِم وَمَجلّاتِهِم فِي هَذِهِ الأَرضِ ، هُم أَحقَرُ مِن أَنْ يَتَطاوَلُوا عَلَى حِصنِ مُحَمَّدٍ ، هُم أَقَلّ مِن أَنْ يُمَكَّنُوا مِن شَرِيعَةِ الواحِدِ الأَحَدِ ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة:٢١] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ [المجادلة:٥].. فالأَمرُ لَيسَ ضَحِكاً وَلا

(١) رَواهُ البُخارِيّ .

(٢) كِنايَةٌ عَن كَثرَةِ كَلامِهِم ، وَخَوضِهِم فِي الباطِلِ .

هُزُؤاً وَلا لَعِباً ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة:٥].. الله يُثَبِّتُ أَقدامَكم ، وَينظرُ إِلَيكُم، وَيَزِيدُكُم إِيماناً وَيَقِيناً وَطُمَأنِينَةً .

أمور يحتاجها الدعاة مع الخلق

وقال رضي الله عنه ونفعنا به مِن أَهَمِّ الأَشياءِ الَّتِي يَـحتاجُها رِجالُ الدَّعـوَةِ فِي هَذا الـمَيدانِ ، فِي هَذا الزَّمانِ .. انبِساطُهُم مَع أَصنافِ الخَلقِ ، وَبَشاشَتُهُم فِي وُجُوهِ أَصنافِ الخَلق ، وَتَقدِيرُهُم واحترامهُم لأَصنافِ الخَلقِ ، وَتَواضُعُهم لله مَع أَصنافِ الخَلقِ .

قُولُوا لِمَن يَفْقَهُ مِن إِخوانِنا كلِّهِم : هَذا نَحتاج إِلَيهِ فِي هَذا الوَقتِ ، فِي هَذا الزَّمانِ، فِي هَذا المَيدانِ ، وَكلُّ عامِلٍ فِي هَذا الميدانِ يَحتاجُ إِلى نَصِيبٍ وافِرٍ مِن هَذا .

سِعَةٌ كامِلَةٌ ، واحتِمالٌ كامِلٌ ، وَبَشاشَةٌ كامِلَةٌ ، وَخِدمَةٌ واحتِرامٌ لِكلِّ صَغيرٍ وَكَبِيرٍ مِن المسلِمِين ، وَفِي ذَلِكَ خَيراتٌ كَبِيرَةٌ مَطوِيَّةٌ سَيظهِرُها الله .

ضبط المشاعر حول تعظيم الطريقة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به أَنتَ تَعرِفُ نَفسَك أَنَّك عَلَى طَرِيقَةٍ عَظِيمَةٍ وَجَلِيلَةٍ ، مِن أَعظَم طُرُقِ العالَمِ ، ضَعْ فِي بالِك أَنَّ أَهلَ كُلِّ طَرِيقَةٍ فِيهِم متكَلِّمون بِأَنَّ طَرِيقَتَهُم مِن أَعظَمِ طُرُقِ العالـمِ ، فَإِذا تَكَلَّمتَ أَنت عَن عَظَمَة طَرِيقَتِك فَلِيَكن كَلامُكَ مُتَّزِناً وَفِي مَحَلِّه؛ لأَنَّ اللِّسانَ الَّتِي تَكَلَّم بِها رِجالُ الصِّدقِ مِن أَئِمَّتِنا ، لَيسَ مُجَرَّدَ أَنّ الطَّرِيقَة كَذا وَوَصْفَها كَذا ، إِلا مَع خَواصِّهِم فَقَط ، لَكِنّ اللِّسانَ الَّتِي خاطَـبُوا بِها عامَّةِ النّاسِ لِسانُ أَفعالِهِم وَلِسانُ أَحوالِهِم ، وَهِي الَّتِي جَعَلَت النّاسَ يَقُولُونَ : أَنتُم أَعظَمُ . أَمّا هُم فَما قالُوا لِلنّاسِ : نَحنُ أَعظَم ، فَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ الَّتِي مَضَوا عَلَيها .

وَإِذا اشتَـبَه الأَمرُ عَلَى بَعضِ خَواصِّهِم وَأَتباعِهِم المنسُوبِين إِلَيهِم ، رُبَّما احتاجُوا مَعَه إِلى أَنْ يُصَرِّحُوا لَه بِاللَّفظِ ، وَيوَضِّحُوا لَه إِلى أَنْ يفهَمَ .

تَرَكْتُ نَحْتَ الْقَوافِي مِنْ مَعادِنِها   لأَنَّ لِي مَقْصِداً أَنْ تَفْهَـمَ الْبَقَرُ[1]

فَإِذا كَثُـرَ ضُعفاءُ الإِدراكِ فِي أَتباعِهِم .. عَمِلُوا مَعَهُم هَكَذا ، فَما يَعرِفُونَ ظُلمَ أَحَدٍ، وَلا انتِقاص مَن يَستَحِقّ الاحترام ، بَل لا يَشغلُونَ أَنْفُسَهُم بذمِّ مَنْ يَستَحِقُّ الذَّمَّ ، ما دامَ ما يَترَتَّبُ عَلى ذَمِّهِ مَنفَعَةٌ وَلا مَصلَحَةٌ ، وَيُعطُون كُلاً حَقَّه ، وَيَعرِفُونَ ما خَصَّهُم الله بِه وَما شَرَّفَهُم بِه .

ذَهَبَ مَـرَّةً الوالِدُ[2] مَع جَماعَةِ التَّبلِيغِ ، وَخَـرَجَ مَعَهُم هُناكَ فِي الهِندِ وَباكستانَ، وَلَمّا رَجِعَ كانَ يُذكِّر فِي بَعضِ المَجامِعِ ، حَتّى فِي زِيارَةِ هُودٍ فِي الاجتِماعِ الكَبِـيرِ ، اجتِماعٌ

---

(١) البَيتُ لِلحَبِيبِ العارِف بِالله عَبد الله بن حُسَين بن طاهِر قال ذَلِكَ لما سَمِعَ قائِلًا يَقُولُ :

عَلَيَّ نَحتُ القَوافِي مِن مَعادِنِها   وَما عَلَيَّ إِذا لَم تَفهَمِ البَقَرُ

فَقالَ هُوَ :

تَرَكتُ نَحتَ القَوافِي مِنْ مَعادِنِها   لأَنَّ لِي مَقصِداً أَن تَفهَمَ البَقَرُ

انظُر «تَذكِيرَ النّاس» ص ١٣ .

(٢) والِدُه هُوَ العارِفُ بِالله العالِمُ الجِهبِذُ الفَقِيهُ الحُجَّةُ الدّاعِي الشّاعِرُ والأَدِيبُ المُؤَرِّخُ والمُرَبِّي الحَبِيبُ مُحَمَّد بن سالِمِ بن حَفِيظ بن عَبدُ الله ابن الشَّيخ أَبِي بَكر بن سالِمٍ ، وُلِدَ سَنَةَ ١٣٣٢هـ بِقَرِيَةِ مِشطَة ، وَهِي ضاحِيَة مِن ضَواحِي تَرِيم .

تَلَقَّى بِداياتِ مَعارِفِه وَعُلُومِهِ عَلى نَظَرِ والِدِهِ المتَبَحِّر فِي شَتَّى العُلُوم والمعارِفِ ، وَأَخَذَ عَلَى أَيدِي شُيُوخِ ذَلِكَ العَصرِ وَمِنهُم الحَبِيب عَبد الله بن عُمَر الشّاطِرِي والحَبِيب عَبد الله بن عَيدَرُوس العَيدَرُوس والحَبِيب عَلوِي بن عَبد الله بن شِهاب وَغَيرِهِم ، حَمَلَ عَلى عاتِقِهِ رايَةَ الدَّعوَة إِلى الله فِي الوادِي وَخارِجَه ، كَما كانَ لَه باعٌ فِي التَّصنِيفِ المفِيدِ والتَّحقِيق السَّدِيدِ .

وَلَم يَزل مُستَمِرّا فِي مِحرابِ العِلمِ وَمِنبَرِ الدَّعوَة حَتَّى سنة ١٣٩٢هـ حيث اختَطَفَتهُ الفِئَةُ الباغِيَة مِن الحِزبِ الشُّيُوعِي الحاكِمِ فِي جَنُوبِ اليَمَن سابِقاً ، وَوَدَّعَ الدُّنيا وَقَد لَحِقَ بِرَكبِ الشُّهَداءِ ، وَجَدَّدَ مَعنَى استِشهادِ جَدِّهِ الحُسَين ، وَلا تَزال الأُمَّة فِي بَرَكاتِ هِمَّتِهِ وَنِيَّتِهِ وَحُرقَتِهِ عَلَى هَذا الدِّين ، وَهَذِهِ الدَّعوَةِ العَظِيمَة .

لِلطَّــرِيقَةِ وَلِرِجالِ الطَّرِيقَـةِ وَمَظـهَرٌ كُلُّه لِلطَّرِيقَةِ ، يَذْكُرُ ثَناءَه عَلى هَــؤلاءِ الجَماعَةِ بِما شاهَدَ وَرَأى عِندَهُم .

فِي نَفسِ الوَقتِ كان يَعرِفُ طَرِيقَتَه ما هِي ، هُو رَجع مِن هناك فَرحان بِما قامُوا بِه مِن عَمَلٍ ، لَكِن ما غَـيَّر ذَرَّة ، وَلا زَيَّد وَلا نَقَّص ذَرَّة مِن أَعمالِه فِي طَرِيقَتِهِ وَهَديِهِ ومَسعاه الَّذِي تَربَّى عَلَيهِ فِي البَلدَةِ قَبلَ ذَهابِه إِلى عِندهم ؛ لأَنَّه يَعرِف ما صِلَتُه .

كانَ يَرَى أَبناءَ المنتَمِين إِلى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فَـيُؤَنِّـبُهُم عَلى تَقصِيرِهِم يَقُولُ : **(رَأيتُ أُناساً جاؤُوا إِلَيَّ بِبَناتٍ ، وَجاؤُوا إِلَيَّ بِأَولادٍ فِي ثَمانِ سِنِينَ وَفي سَبعِ سِنِـينَ يَحفَظونَ القُرآنَ كُلَّه ، وَأَنتُم أَينَـكم ؟!)**.

وَيَقُولُ : **(رَأيتُ أُناساً ما يَرضَونَ أَن يُدخِلُوا أَولادَهُم المَدارِسَ العامَّة ، إِلا بَعدَ أَن يُفَرِّغُونَهم لِلعُلُومِ الدِّينِيَّة ، وَأَنتم إِذا عَمِلنا لَكُم مَعهَداً للدِّينِ ، إِنْ كانَ أَحَدٌ أَبلَهَ مِن عِيالِكُم أَو ما صَلَحَ لِلدُّنيا جِئتُم بِه لَنا)** . فَكانَ يُؤَنِّب جَماعَتَه وَأَهلَ طَرِيقَتِهِ بِما شاهَدَ فِي الطَّرِيقَةِ الأُخرَى ، وَعَلى هَذا فَهُمْ أَهْلُ إِنصافٍ يُنصِفُون النّاسَ وَيُعطُونَهُم حَقَّهُم.

وَمَن استَحَقَّ الثَّناءَ .. نُثنِي عَلَيه بِما هُو أَهلُه ، مِن دُونِ مُبالَغَةٍ وَلا مجازَفَةٍ ، فالاعتِدالُ فِي مِثلِ هَذا ضَرُورِيٌّ ، فَلا تَتَـكَلَّمْ مَعَهُم إِلا بِبَصِيرَةٍ ، تَكَلَّمْ بِلُطفٍ ، تَكَلَّم بِما يَسِعُ عُقُولَ الـمُتَـكَلَّم مَعَهُم والـمُتَحَدَّث مَعَهُم .

هِي الآن شُؤُونُ النُّبوَّةِ والرِّسالَةِ نَفسها ، عَرَف عَنها العارِفُونَ مَعارِفَ لَو قامُوا يَتكَلَّمون بِها فِي المجامِعِ العامَّةِ .. لَكانَت فِتنَةً عَلينا وَعَلَى النّاسِ ، ، فَلابُدَّ مِن ضَبطِ الأَلفاظ ، حَتَّى نَحنُ إِذا تَحدَّثنا عَن رِجالِنا ومَشايِخنا مَع أَصحابِ الطُّرُق ، ما يُفْهَمْ مِن كَلامِك أَنَّك تَجرحهُم أَو تَنـتَقِصُهُم ، أَنتَ محتاجٌ أَن تَذكُرَ المحاسِـنَ

الَّتِي عِندَهُم حَتَّى تَقْوَى فِيهِم ، وَلا يَحتاج مِنكَ أن تُحسِّسَهُم بِأَنَّهم أَقَلّ أَو أَنقَص فِي شَيءٍ مِن جَوانِبِ النَّقصِ أَو التَّقصِير الَّتِي عِندَهم إِن وُجِدَت إلا بِلِسان حالِك أَو فِعلِك ، فَنِعْمَ هَذِهِ اللِّسان دائِماً مَقبُولَة فِي القُلُوب .

وَشُؤُونُ ما يَتَعَلَّقُ بِسِياساتٍ وَدُوَلٍ وَنَفسِيّاتِ النّاسِ فَلابدَّ أَنْ نَعتَبِره[1] ؛ لَأَنَّ الدَّعوَةَ عِندَنا عالَمِيَّةٌ ، دَعوَةٌ كامِلَةٌ ، دَعوَةٌ شامِلَةٌ ، دَعوَةٌ عَظِيمَةٌ.

في معاني السّعة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[2] يَحتاجُ الَّذِينَ ارتَبَطُوا بِالدَّعوَةِ أَنْ يَأخُذُوا نَصِيبَهُم مِن سِرِّ السِّعَةِ فِي التَّعامُل ، والسِّعَةِ فِي النَّظَراتِ إِلَى النّاسِ ، وَمَعرِفَةِ الحُدُودِ وَمَعرِفَةِ الحِكَمِ فِي احتِياجاتِ النّاسِ إِلَى بَعضِهِم البَعض ، والتَّفصِيلِ والتَّفرِيقِ بَين العِزة بِالله والأَنَفَةِ مِن النَّفسِ ، وبَينَ الثِّقَةِ بِالحَقِّ والغُرُورِ ، يَجِبُ أَنْ يُفَرِّقُوا بَينَ ذَلِكَ، وَيَأخُذُوا نَصِيبَهُم مِن تَهذِيبِ النُّفُوسِ ، حَتَّى يُستَطاعُ الخَوضُ بِهِم فِي غِمارِ الفِئاتِ المختَلِفَةِ .

القاصِرُ فِي فِكرِهِ وَتَعامُلِهِ وَأُسلُوبِهِ وَمَشاعِرِهِ وَعَقِيدَتِهِ نَحوَ النّاسِ .. لا يَصلُحُ لِلإِفادَةِ والاستِفادَة ، وَلا يَصِلُ إِلَى الغايَةِ الَّتِي تُقْصَدُ مِن الدَّعوَةِ فِيهِم .

سُبحانَ الواسِع ، باعِثِ الواسِعِ إِلينا ، وَوَسِعَ بِرَحمَتِهِ وَرَأفَتِهِ الصَّغِيرَ والكَبِيرَ وَأَصنافَ الخَلائِقِ بِمُختَلَفِ عَقلِيّاتِهِم وَمَراتِبِهِم ، وَتَحَمَّلَ وَصَبَرَ وَكابَدَ وَراعَى وَتَلَطَّفَ وَرَأَف ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩] ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥] ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ

(١) أي: نَنظُرُ إِلَيهِ بِعَينِ الاعتِبارِ .

(٢) وَذَلِكَ لَيلَةَ الأَربعاءِ ١ مِن شَهرِ ذِي القِعدَةِ ١٤١٩ هـ .

ءَاثَـٰرِهِمۡ ﴾ [الكهف:٦] ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر:٨].

مِن الأَدواءِ الكَبيرةِ الَّتي قامَت بَينَ المُؤمِنينَ عَـدَمُ الانشِغالِ بِالأَليَقِ والأَحَقِّ ، كلَّما انشَغَلُوا بِغَـيرِ الأَليَقِ .. سَرَتْ إِلَيهِم أَنواعُ المعايِبِ ، وَكلَّما انشَغلوا بِغَيرِ الأَحَقِّ .. دَبَّ إِلَيهِم الباطِلُ ، فَـيَنبَغِي أَنْ نُـراعِيَ بَثَّ الانشِغالِ بِالأَليَقِ والأَحَقِّ .

النّاسُ مِنْ حَوالَينا ضَرَّهُم الانشِغالُ بِغَيرِ الأَليَقِ والأَحَقِّ ، وَمِنهُ تَدخُلُ عَلَيهِم مَداخِلُ الفِتَنِ والبِدَعِ والمخالفاتِ والأَفكارِ الغَريبَةِ ، وَلَو شُغِلُوا بِالأَحَقِّ فَلَن يَجِدُوا فَراغاً لِمثلِ ذَلِكَ ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ أَنَّ تَأْثِيرَ وَسائِلِ الإِعلامِ وَغيرِها فِي النّاسِ إِنَّما هُو فِي الغالِبِ عِبارةٌ عَن انشِغالٍ بِغَيرِ الأَحَقِّ وَبِغَيرِ الأَليَقِ ، وَمِنهُ يَنفُذُونَ وَبِهِ يُؤَثِّـرُون .

موضّحاً جانباً من معاني السّعة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[1] مِمّا يجِبُ أَنْ يَفقَهَهُ أَصحابُنا فِي السِّعَةِ أَنَّ كُلَّ ما يَرتَبِطُ بِالخَيرِ بِصِلةٍ يَجِبُ أَنْ لا يَظْهَرَ مِنهُم أَدنَى مُعارَضَةٍ لَه ، أَو تَحفُّظٍ عَنهُ ، بَلْ يَنتَهِجُونَ وَيَنتَظِمُونَ فِيما رُتِّبَ وَهُيِّئَ لَهم ، وَلا يُناقِضُ ذَلِكَ أَنْ يُثنُوا عَلَى أَيِّ خَيرٍ .

وَإِذا وَجَدُوا مُتَوجِّهين بِأَيِّ مَظْهَرٍ خَيرِيٍّ .. لا يَنبَغِي أَنْ يَشعُرُوا بِاشمِئزازِهِم مِنهُم وَلا أَن يَشعُـرُوا بِاستِنقاصِهِم أَقدارَ أَفكارِهِم أَو أَقـدارَ وَسائِلِهِم ، وَلا تُهْدَرُ جُهُودُهُم وَطاقاتُهُم ، حَيثُ إِنَّكَ سَتَجِدُ فِي الأَماكِنِ المختَلفَةِ قِيامَ عِدَّةِ أَعمالٍ، إِنَّما بِأُفُقِكَ الواسِعِ وَحُسْنِ النَّظَرِ فِي الأُمُورِ .. تَجعَلُ السَّيرَ نَفسُه يُؤَدِّي بِهِم بَعدَ ذَلِكَ إِلى كَثِيرٍ مِن الأَشياءِ الَّتِي تُحِبُّ أَن يَقتَنِعُوا بِها ، أَو تُحِبُّ أَنْ تَطرَحَها عَلَيهِم ، أَو تُحِبُّ أَنْ يَتَّصِفُوا بِها .

---

(١) وَذَلِكَ لَيلَةَ الأَربعاءِ مِن شَهرِ ذِي القِعدَةِ ١٤١٩ هـ .

وَلا تَستَعجِلْ الأَشياءَ ، قَد تَظُنّ أَنّها مِن حَيثُ الوَسائِلِ والأَساليبُ تُناقِضُ ما عِندَكَ أَو تُخالِفُه ، فَلا تَنزَعِجْ وَلا تَقلَقْ وَلا تُعانِدْ وَلا تُخالِفْ ، وَلا تَفتَحْ أَبوابَ تَشعُّباتٍ أَو تَحَزُّباتٍ ، بَلْ أَلِّفْ واجمَعْ واتَّسِعْ واستَوعِبْ واثْبُتْ عَلَى مَنهَجِك، وَكلُّ شَيءٍ سَيَأتِي إِنْ شاءَ الله ، فكَما أَنَّ هُناكَ بَعضَ الفَوائِدِ الباطِنَةِ فِي الارتِباطِ بقِيادَةِ المتوجِّهِ وَشَيخِهِ ، فهُناكَ آثارٌ أُخرَى إِذا وَصَلَ إِلَى نَغمَةٍ[1] أَو أُسلُوبٍ لا يُفْهَم مِنهُ الحَصْرُ أَو القَصْرُ لِلخَيراتِ أَو احتِقارٍ للغَيرِ .

فَمَنْ كانَ قَويَّ الصِّلةِ ، حَسَنَ الرّابِطَةِ ، تامَّ الانطِواءِ .. فَلا يُسْمَعُ مِنهُ كَثرَةَ كَلامٍ وَلا كَثرَةِ مَدحٍ ، مَع ثَباتِه عَلى القَدَمِ نَفسِهِ وَعَلى السُّلُوكِ ، فَهُناك فَرقٌ بَينَ ما يَعتَقِدُهُ الإِنسانُ وَيُكِنُّه فِي ضَميرِهِ مِنْ العَواطِفِ والمشاعِرِ وَبَينَ ما يَتَعامَلُ بِه مَع الخَلقِ ، وَلَولا ذَلِكَ لَتَعِبَ المقَرَّبُونَ والعارِفُونَ فِي مخاطَبَتِهِم مَعَ الخَلقِ ؛ لأَنَّهم سَيَتكَلَّمُونَ مَعَهُم مِنْ حَيث هُمْ ، وَمِن حَيث شُعُورِهِم ، وَمِن حَيث ما أَدرَكُوا ، فَإِذا كانَ الأَمرُ كَذَلِكَ لَنْ يَفهَمَ النّاسُ مَعنَى كَلامِهِم ، وَرُبَّما ما استَطَعنا الاستِفادَةَ مِنهُم .

لَكِنَّهُم مَع بُحُورِهِم الفَيّاضَةِ المتَلاطِمَةِ نَزَلُوا مَع النّاسِ ، وَخاطَبُوهُم مِنْ حَيث هُم ، وَأُوتِيَ كلُّ مِنهُم قُوَّةً عَلَى قَدْرِهِ فِي جَوامِعِ الكَلِمِ للتَّعبِيرِ عَنْ تِلكَ المعانِي، صَبُّوا المعارِفَ الباطِنَةَ فِي قَوالِبَ تَتَّفِقُ مَع مُستَوَى الأَحاسِيسِ والمشاعِرِ الَّتِي عِندَ النّاسِ ، وَهَكَذا يَنبَغِي أَنْ نَفْهَم .

---

(١) أَي: أُسلُوبٍ فِي الطَّرحِ والتَّوضِيح .

فيما يتعلّق بمعاني السّعة عند النّظر إلى مناهج الآخرين

وقال رضي الله عنه ونفعنا به يجبُ أنْ تعلَموا أنَّ مُهمَّةَ إكرامِ المسلِمينَ وَإقرارِ كلِّ خيرٍ وَهُدَى فِيهِم وَتَمجيدِه وَتشجيعِه .. مِن مُهمّاتِنا ، بِمَعنَى أنَّه فِيما وَفَّقنا الله إلَيهِ مِن هَذا المسلَكِ المحمُودِ المبارَكِ الموروثِ قاعِدَةٌ تَجعَلُنا مِن أشدِّ النّاسِ تَعظِيماً لِكلِّ مَسلكٍ حَسَنٍ يَكون تابِعاً لِعَرَبِيٍّ أو عَجَمِيٍّ أو أَسوَدَ أو أَبيَض مِن المسلِمينَ .

بِمَعنَى أَنَّنا إذا امتَلأنا بِمَحَبَّةِ هَذا المَنهَجِ وَرِجالِه فَلا يَعني ذَلِكَ انقِطاعَ استِمدادِنا وَتبرُّكِنا مِن رِجالِ الخَيرِ فِي العالَمِ ماضِيهِم وَحاضِريهِم ، ظاهِرِيهِم وَمَستُورِيهِم ، وَلا يَقطَعُنا ذَلِكَ عَن الثَّناءِ عَلى كُلٍّ بِما عُرِفَ مِن خَيرٍ فِيهِ وَبِما يَسْتَحِقُّه مِن مَجدِهِ وَفَضلِه .

وَإذا وَجَدْنا فِي مَسالِكَ أَهلِ الحَقِّ .. التَّركِيزَ عِند أَحدِهم عَلى مَسلكٍ أو شَخصِيَّةٍ يَنتمي إليها شاركناه فِي تَمجِيدِ تِلكَ الشَّخصِيةِ وَإقرارِ ذَلِكَ المَسلَكِ المقَرِّ بِنظَرِ الشَّرعِ، واتَّسَعْنا لَه وَلِغَيرِهِ بِالاستِعدادِ والتَّركِيزِ عَلَى المَقصُودِ والمضمُونِ والحَقِيقَةِ فِي المنهَجِ، بِصَرفِ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ عَن المسَمَّى والمظهَرِ والأَشخاصِ .

أَمرُ ارتِباطِ المُسلِمِ بِبعضِ رِجالِ المَعرِفَةِ .. لابُدَّ مِنهُ مِن غَيرِ شَكٍّ ، وَلكِنْ مَع تَوزُّعِ هَذا النُّورِ فِي الأَشخاصِ ، فالحالُ كَما قالَ الإمامُ مالِكٌ فِي العِلمِ الظّاهِرِ لما أَرادَ أبوجعفر المنصور أَنْ يَحمِلَ النّاسَ عَلَى ما فِي «المُوطَّأ» وَمَنعِهِم مِن الكُتُبِ الأُخرَى قالَ لَه : **(إِنْ تَفعَل تَكُنْ فِتنَة)** ، فَما كان مالكٌ يَعتَقِدُ النَّقصَ أَو الخَطأَ فِي كِتابِه أَو فِيما مالَ إِليهِ مِن اجتِهادٍ ، وَلَكِن مَعَ ذَلِكَ ما كان يَعتَقِدُ النَّقصَ والخَطأَ فِيما صَحَّ فِيه الرِّوايَةِ عِندَ غَيرِه ، فَلِذَلِكَ لَم يَرتَضِ لِلأَمِير أَن يَحمِلَ النّاسَ عَلى مُوطَّئِه وَقالَ : **(إِنْ تَفعَلْ .. تَكُنْ فِتنَةٌ ، لا تَفعَلْ يا أَمِيرَ المُؤمِنِينَ ، فَإِنَّ أَصحابَ رَسُولِ الله ﷺ تَفَرَّقُوا فِي الأَمصارِ فَأَخَذَ كُلّ قومٍ عَمَّن كانَ عِندَهُم وإِنَّما جَمَعتُ**

عِلمَ أَهلِ بَلَدِي) .

والمَعنَى أَنَّ عِلمِي هَذا الذِي اهتَدَيتُ إِلَيهِ مَربُـوطٌ بِالأَصلِ ، وَذاكَ الأَصلُ تَفَرَّعَ مِنه النُّورُ ، فَمَهما احتَقَرتُ أَيَّ فَرعٍ مِن فُروعِ ذَلِكَ النُّورِ .. فَقَد احتَقَرتُ أَصلِي الَّذِي قامَ عَلَيهِ نُورِي ، وَلأَجلِ ذَلِكَ أَنا أَرْعَى كُلَّ ما تَفَرَّعَ مِن الأَصلِ الَّذِي أَخَذتُ مِنه ، فَكَما أَنَّ مَجدِي وَشَرَفِي مِن هَذا الأَصلِ تَفَرَّعَ ، فالآخَرُ أَيضاً يَحمِلُ وِسامَ ذَلِكَ الشَّرَفِ وَوِسام ذَلِكَ الأَصلِ وَهَكَذا .

التخلق بالسعة

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ [1] اتِّساعُكُم الآنَ فِي شُؤونِ الأَحوالِ المحِيطَةِ بِكُم كلِّها ، ثمَّ شُؤُونِ الأُمَّةِ عَلَى وَجهِ العُمُوم .. مُرتَّبَةٌ[2] عَلَى أَشياءَ تَتَحَقَّقُ فِيكُم وَتَقُومُ بَينكُم .

وَلِهَذا تَسمَعُونَ مِنِّي كَلاماً كَثيراً ، إِن شاءَ الله تَنجَحونَ ؛ لأَنَّ كلَّ الَّذِي حَوالَيكُم يَطلُبُ السِّعَةِ مِنكُم ، مَظاهِرُ وَأَشياءُ وَأناسٌ ، وَكَذا أَخيارٌ وَأَشرارٌ وَصِغارٌ وَكِبارٌ ، وَداخِلٌ وَخارِجٌ ، كلُّه يَتَطَلَّبُ سِعةً مِنكُم.

إِذا لَم يتَحقَّقْ ذَلِكَ فِيكُم فَلَن تَستَوعِبوا استِقبالهم أَو التَّعامل مَعَهم ، فإِن شاء الله تُوَفَّقون وإِيّانا مَعَكُم .

(١) فِي لَيلَةِ السَّبتِ ١٧ مِن شَهرِ صَفَر ١٤١٩هـ .

(٢) أَي: قائِمَة .

أهمّيّة المخاطبة للنّاس بلسان الشّريعة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به مما يجبُ عليكُم ويَلزمُكم في هذا الطَّريقِ أن تعلَموا أنَّ دعوتكُم لِلخَلقِ إنّما تكُونُ بلِسانِ الشَّريعَةِ ، مِن حَيثُ وَصْلُهُم باللهِ عَن طَرِيقِ الأوامِرِ والنَّواهِي ، وتَعظِيمِ الحَقِّ ورَسُولِه والاستِعدادِ لِلدّارِ الآخِرَةِ .

لِذَلِكَ فلا تَدعُوهُم بِلسانِ انطِوائِكم في شَيخٍ أو انتِمائِكم لأَهلِ وِلايَة ، ولا طَرِيقَةٍ مِن طُرُقِ الصّالِحِينَ ، فهَذا الأَمرُ لا يَنبَغِي أَنْ يَظهَرَ مِنكُم فِي مَجامِعِ دَعوَتِكُم ، وتَوجِيهاتِكم لِلنّاسِ ، بَل نَحنُ مُطالَبون مِنْ قِبَلِ الحَقِّ بِبيانِ شَرِيعَتِهِ لِلخَلقِ ، ومخاطبَتِهِم عَلى قَدرِ عُقُولِهِم ، ولِهَذا كَثِيرٌ مِن شُؤونِ عِبادِ اللهِ الصّالِحِين وأَحوالِهِم وما إلى ذَلِكَ .. ما نُحِبُّ ذِكرَها فِي المَجالِسِ العامَّة ، ولا مخاطَبتهم بِها، مِن بابِ إنزالِ النّاسِ مَنازِلَهِم ، «أَتُحِبُّون أن يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُه ؟!»(١) ، هَذا الأَمرُ يَجِبُ أَنْ يَأْخُذَ مَأخَذَهُ مِن الدُّعاةِ والمُتَعَلِّقِينَ بِهَذا المَنْهَجِ ، يَعرِفُون واجِبَهم فِي خِطابِ الخَلقِ .

لأَنَّ حَقِيقَةَ الأَمرِ أَنَّنا لا نَدعُو إِلَى أَشخاصٍ ولا إِلَى جَماعَةٍ ، وإِنْ كانَ حَقِيقَةَ الأَمرِ أَيضاً أَنَّ مَنْ نَدعُو إِلى مَعرِفَتِهِم ومَحبَّتِهِم .. هُم أَبوابُ اللهِ تَعالَى ، وهُم مَظاهِرَ جُودِ اللهِ وكَرمِه ، فَهَذا مِمّا لا شَكَّ فِيهِ ، كَما لا تَتَأَتّى الدَّعوَةُ مَثَلاً إِلى اللهِ تَعالى مِن دُونِ إِثباتِ الرِّسالَةِ لِلرُّسُلِ ، فَهَل يَتَأَتّى إِثباتُ الرِّسالَةِ بِدُون إِثباتِ وِراثَةٍ ووِلايَة ؟!

مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ هُناكَ أُمُورٌ كُلِّفنا بِالاقتِداءِ بِها ، وأُمُورٌ كُلِّفنا بِالتَّصرِيحِ عَنها ، وأُمُورٌ كُلِّفنا بِإِخفائِها ، وأُمُورٌ كُلِّفنا بِجَعلِها خاصَّةً ، وأُمُورٌ كُلِّفنا بِجَعلِها عامَّةً ،

---

(١) قال عَلِيٌّ كرم الله وجهه: «حَدِّثُوا الناس بِما يَعرِفُونَ ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟!» رَواهُ البُخارِيّ.

وَأُمورٌ كُلِّفنا بِتَقدِيمِ غيرِها عَلَيها ، فَلابُدَّ أَنْ نَمشِي عَلَى حَسَبِ التَّكلِيفِ مِن الله تَعالَى ، والنُّفُوسُ لَها تَسَرُّعٌ أَحياناً إِلَى تَقدِيمِ غَيرِ الأَهَمِّ والأَفضَلِ .

مخاطباً القائمين بمجالات الخدمة لهذه الدّعوة

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ[١] لابُدَّ أَنَّ كلَّ واحِدٍ مِنكُم أَنْ يَقومَ فِي مَجالِه[٢] ، وَيَتَّسِعَ فِيهِ فِكرُهُ وَبالُه ، حَتَّى يَجرِيَ لَه سِلْسالُه ؛ لأَنَّ الشَّرِيعَةَ مُتَحَرِّكَةٌ وَكامِلَةٌ .

يَجِبُ التَّلَطُّفُ بِمَن نُوَجِّهُهُم ، حَتَّى نَقُودَهُم إِلَى هَذا الخَيرِ والهُدَى ، مِن غَيرِ ظُهُورِ نُفُوسٍ ، وَلا إِباءٍ وَلا حِقدٍ وَلا غَيرِه ، بَلْ يُقادُونَ بِما ذُكِرَ عَن الله وَعَن رَسُولِه وَعَن سادَتِنا الصَّحابَةِ ، وَهَذا كُلُّه يُرَبِّي أَصحابَنا عَلَى السِّعَةِ وَعَلَى الاعتِدالِ وعَلَى العالَمِيَّة ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَيهِ تَعامُلُكم الشَّخصِيُّ فِيمَن لَه ارتِباطٌ بِأَحَدٍ مِن القائِمِينَ بالدَّعوَةِ .

فَعَلَيكُم أَنْ تُخاطِبُوا النّاسَ بالاعتِدالِ فِي أُمُورِ الشَّرِيعَةِ لا حَصرَها ، فَهَذا المَنهَجُ لا يَعرِفُ الحَصرَ ، بَل يَهتَمُّ بإِيصالِ الخَيرِ للنّاسِ ، وَلا تُخاطِبُوا النّاسَ بِذَوقِ المخاطِبِ[٣] بِكَثرَةِ الثَّناءِ مَثَلاً عَلَى مَن حَلَّت المحَبَّةُ لَه فِي قَلبِه ، بَلْ خاطِبُوا النّاسَ بِما يَحتاجُونَ إِلَيهِ مِن أَنواعِ المخاطَباتِ حَتَّى لا يَشمَئِزُّوا ، وَلا يَحمِلُوا شَيئاً ، وَما المَقصُودُ مِنه مُجَرَّدُ البُعدِ عَن ذِكرِ الشَّخصِيَّةِ[٤] ، بَل المَقصُودُ .. قَواعِدُنا فِي أُسلُوبِ الخِطابِ .

وَلا تَستَعجِلُوا أَنْ تُذَوِّقوا النّاسَ شَيئاً ، وَلابُدَّ أَن تُفَرِّقوا بَينَ الخِطابِ العام

---

(١) لَيلَةَ الأَربعاءِ مِن شَهرِ جُمادَى الأَوَّلِ ١٤١٨هـ .

(٢) أَي : عَمَله الدَّعوِيّ الَّذِي كُلِّف بِه .

(٣) أَي : إِنَّ الَّذِي يُرِيدُ أَن يُخاطِبَ النّاسَ ، فَلا يُخاطِبهُم بِذَوقِهِ كَأَن يُخاطِبهُم بِمَعاني مَحَبَّتِهِ لِمَن أَحَبَّهُ أَو لِمَن انشَرَحَ قَلبُه لَه، بَل يُخاطِبهُم بِخِطاباتٍ عامَّة تَتَّسِعُ عُقُولُهم لها فَلا تُثِيرُ النُّفُوسَ وَلا الحَساسِيّاتِ وَنَحوِ ذَلِك .

(٤) أَي : ذِكر الشَّخصِيَّة الَّتِي تَعَلَّق قَلبُ المتَحَدِّثِ بِها .

والخِطابِ الخاصِّ ، والمجالسِ العامَّةِ والمجالِسِ الخاصَّةِ ، وَذلِكَ بِالتَعَوُّدِ عَلى ضَبطِ النَّفسِ فِي الكَلامِ الَّذِي تَقُولُه ، مَعَ التَّذَوُّق فِي باطِنِك ، بِحيثُ تَتكَلَّم بِما تَستَوعِبه عُقُولُ مَن تُخاطِبُهُم لا بِما تَتَذَوَّقه أَنت .

إعطاء كل ذي حق حقه

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعنَا بِهِ مِن التَّقصيرِ الَّذِي عِندَنا أَن يَكونَ أَحدٌ مِن حَوالَينا يَستَشعِر مِن خِلال أُسلوبِنا وَتَعامُلِنا مَعَه أَنَّنا قاصِرِين عَن استِشارَتِه أَو إِشراكه فِي الأَمر أَو أَنَّنا مُهمِّشِين لَه ، فَوُجُود هَذا الشُّعُور عِند الَّذِي حَوالَينا .. دَلِيلٌ عَلَى التَّقصِيرِ فِينا .

فَيَجِبُ وَنَحنُ مَع أَصحابِنا أَن يَستَشعِر كُلّ واحِدٍ أَنه صاحِبُ العَمَل وَصاحِبُ الرَّأي وَصاحِبُ الكَلمَة ، مَمزوج كلّ ذَلِكَ بِإِقامة قَواعد الخضُوع عِندنا وَعِندهم ، وَبِتعليم محبَّة رَأي الغَير والاستِسلام وانتِزاع حَظِّ النَّفس ، وَلَكنّ الَّذي يخاطِب بِه مَن يَتولَّى الأَمر[1] أَقوَى وَأَوسَع وَأَعمق مِن الَّذي يَتخاطَب بِه مَن يستَوعب أَو مَن يَكون فِي المناصِرين والجند[2] ، فَيَجب أَن تَقوم هَذِهِ القاعِدة عِندَنا .

الاتصال بأهل الخير والثناء عليهم

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعنَا بِهِ[3] يجبُ أَن تَكُونَ صِلتُنا بِالخَلق مِن أَجلِ الخالِق ، فَلأَجلِ ذَلِك كلُّ صاحِب خَير عَلى قَدر خَيريّته بَيننا وَبينه اتِّصال ، مِن الماضِين والحاضِرين ، وَمَن

---

(١) كَأن يَكُونَ مُشرفاً عَلَى عَمَلٍ مُعَيَّنٍ وَنَحوِ ذَلِكَ مِن أَعمالِ الدَّعوَةِ الواسِعَةِ بِتَخَصُّصاتِها المختَلفَة.

(٢) وَهُم أَغلَب النّاس مِمَّن لا يَكُونُون فِي المقَدّمَةِ لِنُصرةِ هَذِهِ الرِّسالَةِ وَإِنَّما هُم محِبُّونَ أَو مُشَجِّعون وَهُم عَلَى خَيرٍ كَبِيرٍ لما قَذَفَ الله فِي قُلُوبِهِم مِن محَبَّةِ هَذا الدِّين .

(٣) لَيلَة السَّبتِ ١٧ مِن شَهرِ صَفَر ١٤١٩هـ .

سيأتي إلى يوم القِيامة ، يجب أن ندرِك هَذا .

فَلأجل ذَلِكَ ، نَحنُ عَلى يَقينٍ أَنّه لا يمكِن جَمع النّاس كلّهم عَلى أُسلُوبٍ واحدٍ فِي نَشرِ الخَير ، وَلابدّ أن تبقى الأساليبُ متنوعةً ومتعددة ، فَصاحِب كلِّ أُسلُوب نُثْنِي عَلى ما فِي أُسلُوبه مِن خَير ، وَما كانَ مِن عِوَج إِن استَطعنا تَقويمه قوّمناه، وإلا تَركناه عَلى حاله ، وَلَم نَشتَغِل بِإهدارِ الوَقتِ ، وَلا بِإهدارِ الفِكرِ ، وَلا بِتَضييعِ الفُرصَة .

فَصارَ مِن قَواعِدِ مَنهَجِنا الثَّناءُ عَلَى مَن يَستَحِقُّ الثَّناء ، وَتَشجِيعُ كُلّ صاحِبِ خَيرٍ يَكُونُ مَن كان ، مَع ذَلِكَ لَنا أَرواح تَعرِفُ الصِّلَة بِرجالِ الخَيرِ ، مِن أَهلِ زَمانِنا ، عَلى وَجهِ أَخصِّ الأَخصّ .. شُيُوخنا ورِجال سَنَدِنا ، وَمَن تَلقَّينا عَنهُم.

وَلَكن هَذِهِ الصِّلة أَيضاً مِن قوّتها وعَظَمتِها تَعَلَّمنا مَعنى الصِّلة بِكلِّ صاحب خَير ، فَما نَعرف أَحد مِن شيوخِنا يَقول : إِنَّ اتِّصالكُم بِي مَعناهُ انقِطاعُكُم عَن خَلقِ الله ، ما نَعرِفُ هَذا، نَحنُ نَعرِفُ أَنَّ المُعَلِّم الأوَّل صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم كُلَّ مَن اتَّصَلَ به يَقُولُ لَهُ : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجُرات:١٠]، و «الدِّينُ النَّصِيحَة»(١)، «حَقُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ»(٢) يَربِطُهُم بِه ، فَكَذَلِكَ وَرَثَته .

إِذا أَدرَكتَ هَذا .. يُوجَد أَحياناً مِن أَهلِ الخَير مَن يُعارِضك ، مَن يَنتَقدك ، مَن يَقول : أَنت نِيَّتك كَذا ، وَأنت قَصدك كَذا ، وَأَنت عَلى غَير مَنهَج السَّلف ، كلّ هَذا ما يبعِدك عَن قاعدتك ، وَمِنْ أَنَّكَ مُتَّصِل بِأهلِ الخَير أبداً ، حَتى الذي اعتَرَض عليك ،

---

(١) رَواهُ أَحمد فِي مُسنَدِهِ وَمُسلِم فِي صَحِيحِهِ وَأَبُو داوُدَ والنَّسائِي عَن تَمِيمٍ الدّارِي ، وَرَواه التِّرمِذيّ عَن أَبِي هُرَيرَة .

(٢) متفق عليه .

حتى الذي انتَقَدك ، أَنت مِن حَيث يشعر أو لا يَشعر بَينك وَبَينه صِلة الإيمان، صِلة الدِّين ، صِلة الأَدَب ، صِلة الاحترام وَما إِلى ذَلِكَ .

أهمّيّة الصّلة وتوسيع العلاقة بالآخرين

وقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفعَنا بِهِ [1] فِقهُ المهمّة في الاتصالِ بالآخَرين والوصُول إِليهم وَإِيصالِ أَنواعِ التَّنبيهاتِ إِليهم .. هَذا أَمرٌ أَغفلَهُ بَعضُ المُهتَمِّينَ بِالدَّعوَةِ ؛ لانشِغالهِم بِخُصُوصِ إِخوانِهم أو بِخُصُوصِ أَنفُسِهم ، وَأَدّى ذَلِكَ إِلى إِهمالٍ كَثيرٍ فِي هَذا الجانِب أَوصَلَ إِلى بَعضِ إِساءةٍ مَع أَهلِ العَمَل فِي مَيدانِ الدَّعوَةِ ، وَتَسَبَّبَ فِي تَنفيرِ بَعضِ النّاس .

فَتجِده مُنشَغِلاً بِأَعمالٍ تَخُصّه أَو تَخُصُّ أَصحابه المنشَغِلِين مَعه فِي الدَّعوَة ، فَيلاقِي كَثيراً مِن النّاس فَما يُحِسُّون مِنه السَّلام الطَّيب والابتِسامة اللَّطيفة فَيمرّ عَليهم دُون مبالاة بِهم ، فيُسَبّب ذَلِكَ أَنواعاً مِن الإِساءات والتَّنفير .

الحَقُّ سبحانه وتَعالى ذَكر عَن عِبادِه حَتى مَع خِطابِهم للجاهِلين يَقولون سَلاماً ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]وَهي مِن أَول الأَوصافِ التي ذكرها ، فَلا بدّ أَنْ نَنتَبه مِن هَذا الجانِب .

واعلَمُوا أَنّ مِن واجِباتِكم الدُّخول فِي مُختَلفِ فِئاتِ النّاس وَأَصنافِهم ، وَهَذا يُيَسِّـر لكم فِقه التَّعامُل مَع أَهـلِ الـجَهالـة وَأَهلِ الضَّلالـة بَل أَربابِ الاعتِراضِ ، فَعَلى كُلِّ واحِدٍ مِنكُم أَن يَستَشعِرَ أَنَّ مُهِمَّتَهُ الدُّخول فِيهم ، فَما يَستَفِزُّه ما يَقُولُونه وَلا ما يعارِضونَه بِه ، وَكَثِيرٌ مِن أَربابِ الضَّلالَةِ وَصفُه الاستِفزاز ، فَلو وَجَدَ مِثل

(١) وَذَلِكَ فِي ٢١ مِن شَهرِ ذِي القِعدَةِ ١٤١٩هـ .

هَؤلاء الرِّجال فِي ثَباتـهم إن لَم يَستَفِدْ لَم يَستطِعْ أَن يَـهِدّ[1] ؛ بِسَبَبِ أَخلاقِهم وَقُوَّةِ صِلَتِهم بِخَلاقِهم جَلَّ جَلالُه .

فَيَجب أَنْ نَعرفَ أَنَّ مُهِمَّتَنا الدُّخولُ فِي فِئاتِ النّاسِ وَأَصنافِهم بِمَن فِيهم المصابُ بالاعتِراضِ والانتِقادِ والهَوَى ، وَما تَدرِي فَكَثِيرٌ مِن النّاسِ عَلَى وَجهِ الأَرضِ يُظهِر أَحَدهم مَظهَر المحارَبَةِ والكُفرِ ، وبَعدَ ذَلِكَ يَكُونُ مِن الأَنصار .

هُناك مَواقِف وَمَعارِك كان سَيِّدنا خالِد بن الوَلِيد يَعمَل فِيها مَع صُفُوفِ الكُفّار ، وَبَعدَ ذَلِكَ أَصبَحَ سَيفاً مِن سُيُوفِ الله ، يَنبَغِي أَن يُدرِك الدُّعاة هَذِهِ الحقائِق وَيُعامِلوا بِها الخالِقَ مُعامَلَةَ الأَدَب مَعَه فِي تَصرِيفِ شُؤُون الخَلق .

الأقربون أولى بالمعروف

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ[2] نَحنُ نخدِم العالَمَ مِن خلال خِدمتكم في أُسرِكُم وقُراكُم ؛ لأن هَذِهِ أجزاء من العالَم ، وكلُّ جزءٍ فِي العالمِ يَترَتَّب عَلى صَلاحِه شَيء يُؤثِّر عَلى العالم كلِّه ، هَكذا عَلَّمَتنا الشَّرِيعَة .

فَلا نَستَهِينُ بِالأُمور ، وَنَعرِف أَنَّها مُتَرابِطة ، إِلَى جانِبِ أَن هَذِهِ الدَّعوَة .. العالَم يَنتَظِرها ، منفَتِح لَها ، وَهِي صاحِبَة الزِّمام فِي هَذِهِ الأَيّام ، لكن بِماذا ؟.. بِقُلُوبٍ تَعرِف سِرَّها ، وَتَعرِف آدابها ، وَتَعرِف حَقَّها ، لا بَأس أَن تكلِّم النّاس .. لَكِن لا تَتطاوَل عَلَى أَحَد .

---

(١) أَي: يهدِم .

(٢) لَيلَةَ الأَربِعاءِ ١٤ مِن شَهرِ صَفَر ١٤١٨ هـ .

سر الاجتماع

وقال رضي الله عنه ونفعنا به [1] سُبحانَ رَبِّكُم الَّذِي جَمَعَكُم لِيُؤَلِّفَ ذاتَ بَينِكُم ، وَيُؤَلِّفَ كُلَّ مُقبلٍ فِي كلِّ نَفسٍ ، والأُمَّة مَخصُوصَة كَونها مَحل نَظرِه ، مَعاني مِننه وَإحسانه التي جلّت عن الحصر قَضَت حِكمته أن يبدِيها وَيرتِّبها ، بِجعله فِي الأَرض مُحمّداً[2] ، وَفِي السَّماءِ أَحمدَ .

كانَت هَذِهِ الأمّة واسِعةً سِعة أَسمائِه وَصِفاتِه ، فَسبحان المتجلِّي ، فَكَثِيراً ما يَقتَرن بِسَخِيِّ أَيادِيه .. مَعانِي عَطفِه وَتولِّيه ، وَتَعلَمُون كَيف تُقابلون المَنَّة فِيما تَصدقون بِه مِن خِدمَة الخالِق فِي نَفع الخَلِيقَة ، وَلَو عرفتُم اسمه (المصوّر) .. لعقلتم كثيراً من شؤون هَذِهِ الصُّوَر ، وَعرَفتُم أَنَّ أقربكم إِليه .. أَنفعكم لِخلقِه، طَلَبتُم تَسخِير ما أَتى مِن القُوى والآيات ، وَكلّها داخِلة فِي حَيِّز التَّصوِير ، ﴿ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٤] كلَّها مُرتَبطة بِهذا ، ثُمّ سَرت فِي كلِّ كائِن ، وَما شَيء فِي الكائنات إِلا وَهو متَّصل بهذا ، فـ ٱللَّهُ ﴿ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ – مما برَأ وَخلَق وَصوَّر ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ – فِي كُلِّ ما خلَق وَبرَأ وَصوَّر – ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كلِّ ما خلَق وَبرَأ ، وتَصوِير ما صَوَّرَ مِن تَرجمَة المعانِي عَلى قَدر الصَّفاء والاقتِداء .

وَنَعلَمُ أَنَّنا نَتَعامَلُ مَع مَن ؟ فِي مِثلِ تَقرِيبِ نِعالٍ وَكَنسٍ وَطَبخٍ وَتَغسِيلِ ثِيابٍ، نَتَعامَلُ مَعَ الله جَلَّ جَلالُه ، فَنَرجع نَعملها بِصدقٍ ، وَما نَعمَل مِنها شَيئاً وَنَحنُ مُشمَئِزُّون أَو مُستَهِينُونَ ، كَيفَ يَكُونُ صادِقاً .. مَن استَثقَلَ الخِدمَةَ لِأَحَدٍ مِن المؤمِنـِينَ .

---

(١) لَيلَةُ الأَربعاءِ مِن شَهرِ جُمادَى الأَوّلِ ١٤١٨هـ .

(٢) سُمِّيَ نَبِيُّنا صَلىَّ الله عَلَيهِ وَسَلَّم بهذا الاسم مَع أَنَّه لم يَكُن مَعرُوفاً أَو أَن ظُهُورَهُ بِإِلهامٍ مِن الله لِجَدِّهِ عَبدِالمطَّلب إِشارَةٌ إِلى كَثرَةِ خِصالِهِ المحمُودَةِ وَرَجاءَ أَن يَحمَدَهُ أَهلُ السَّماءِ والأَرضِ .

وَلا أَقرَب وَلا أَحسَن مِن حَبِيبي ، وَلا مَظهَر مِن مَظاهر الحَقِّ إلا وَجعَلَه الله مِرآته وَأَصلَه ، فَهو الجَمال وَهو الجَميل ، وَهو الجَلال وَهو الجَليل ، وَهو الكَمال ، كَمّله ثم كمّل به ، جمّله ثم جمّل به ، أجلّه وأجلّ به ، وقرّبه وقرّب به ، واختصّه واختصّ به ، وَأَعطاه وَأَعطَى بِه ، وَمَنحه وَمَنَح بِه ، وَهَكذا فِي كلِّ شَيء ، حَتَّى تَعلَم مَعنَى التَّأصِيل والتَّفرِيع ، وَتَحفَظ الفَرعَ والأَصل .

إِنَّـهُ سِـرٌّ شَريـفٌ — لَيْسَ لِلأَغيارِ يُذْكَر
إِنَّـهُ مَعنـىً لَطِيـفٌ — عَنْ جَمِيعِ النّاسِ يُسْتَرْ
غَـيْرَ عَـنْ عَبْـدٍ تَقِيٍّ — صُـوفيٍّ صافِـي مُحَرَّرْ
ذِي شَرِيعَـهْ وَحَقِيقَـهْ — جَمَـعَ الفَـرْعَ وَأَصْلَهْ
أَيْـنَ أَرْبـابُ المَثـاني — والعُـلُـومِ اللَّدُنِّـيَّـهْ
أَيْـنَ أَصْحـابُ المَعاني — والنُّفُـوسِ العُلْوِيَّـهْ
أَنـا أَدْعُـو مَـنْ دَعاني — هَكَذا حُكْمُ القَضِيَّهْ[1]

الدعوة بلسان الشريعة العامة

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِه: طَرِيقَـتُنا الَّتِي عَرفناها عَن أَسلافِنا .. أَنَّنا لا نَدعُو لِطَرِيقَة ، وَبِهَذا الأُسلُوب يَصِلُ الخَلقُ إِلَى اللهِ وَيَتَقارَبون ، فَيَجِب أَن تكون مخاطباتُكم بِلسانِ الشريعة ولسانِ الرحمة ولسانِ الإجلال والاحترام للمسلمين ، فالقاعدةُ العامة في أمر هَذِهِ الدعوة.. الرَّحمة والرِّفق واللِّين وَحُسن الخُلُق، وَذَلِكَ ناجِح وَنافِع لا بِنِسبَتِه إِلينا وَلكِنّ بِرَدِّه إِلى أَصلِه[2] لِنَنتَفِع نَحن بِه وَيَنفَع الله بِه غَيرنا .

(١) الأبياتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإمامِ الحَدّادِ حَرف اللاّم مَطلَعُها :

أنا مَشغُولٌ بِلَيلى — عَن جَميعِ الكَونِ جُملَه

(٢) أَي: نَظَرنا إِلَيها بِأَنهَّا أَخلاق النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، وَأَنهَّا مَظهَرُ رَحمَةِ الله بِنا وَمَظهَرُ

فإتقانُ الأمُورِ مِن جهةِ مَظهِرِها لا يُلهيكُم عَن إتقانِها مِن جِهَةِ جوهَرِها ، وإتقان مَظهَرِها وَجوهَرِها لا يَقطَعكم عَن المقصُود الأعظَم[1] .

في شأن الارتباط بالمشايخ والتعظيم لهم

وقال رضي الله عنه ونفعنا به كلُّ ما يُذْكَرُ في جانِبِ السُّلوكِ بِشأنِ الارتباطِ بِالمشايخ والتَّعظِيم لَهم وَما تَعلَّقَ بِذَلِكَ لَيس مَجالُهُ الدَّعوَةُ ، وَلَيسَت اللِّسانُ الَّتِي تُعبِّرُ عَنه لِسانَ الدَّعوَةِ، وَإنَّما هَذا مَحلُّهُ وَمَجالُهُ رَوابِطُ مَخصُوصَةٌ حاصِلَةٌ فِي جانِبٍ مِن جَوانِبِ هَذا الطَّرِيقِ وَجانِبٍ أيضاً مِن أَصنافِ النّاسِ.

والَّذِي يُوصِلُ إلَيه[2] عَلىَ الوَجهِ الأَمثَلِ لَيسَ الحَدِيثُ بِه أَو عَنه ، وَلَكِن ذاك الحَدِيثُ بِالأَصلِ[3] هوَ الَّذِي يُهيِّئُ الَّذِينَ يَصِلُونَ إلى هَذِهِ الثِّمارِ وَإلَى هَذِهِ النَّواحِي .

فالدَّعوَةُ إلى الارتباطِ بِالشُّيوخِ وَأَخْذِ طَرِيقَةٍ مَخصُوصَةٍ لا تَكُونُ إلا مِن خِلالِ تَحقُّقِنا نَحنُ بِذَلِك فَقَط فِي قُلُوبِنا .

اصطباغ الخطاب بالقرآن والسنة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به مَوضُوعُ الخِطاباتِ مَع النّاسِ يَجِبُ أَنْ يَترَكَّزَ وَيَتَعمَّقَ فِيها الخِطابُ القُرآنِي وَدَلالاتُهُ وَمَعانِيه ، والسُّنَّةُ النَّبوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ.. هِي الرّابِطَةُ العُظمَى فِي خِدمَةِ هَذا الأَصلِ .

اصطِفائِهِ جَلَّ جَلاله ، وَمَعنَى ذَلِكَ أَنَّنا نَنفِي شُهُودَ قِيامِها بِنا .

(١) وَهوَ الوُصُولُ إلَى مَرضاةِ الرَّبِّ سُبحانَه وَتَعالَى .

(٢) أي: الَّذِي يُوصِلُ النّاسِ إلَى جانِبِ الارتِباطِ بِالشُّيُوخِ والتَّعَلُّقِ بِهِم .

(٣) أَي: الحَدِيثُ عَن الحَقِّ وَرَسُولِه وَعَن القِيَمِ والأخلاقِ الفاضِلَة ، والمقصُودُ أَنَّ الَّذِي يُوصِلُ النّاسَ إلَى هَذِهِ الجَوانِبِ المُتَقَدِّمِ ذِكرُها هو الخِطاب بِلِسانِ الشَّرِيعَةِ .

فَنَحتاجُ الآن إلى أَنْ نَصبغَ أَفكارَنا وَأَعمالنا وانطِلاقاتِنا فِي الحياةِ بِالقُرآنِ ، بِحَيثُ نَنطَلِقُ على أساسِه وَعلى الارتباطِ بِه وَعلى الفِقهِ في مَعناه .

في بيان ما تُتَمَّمُ به أمورُ الدعوة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به [1] نُريدُ إتمامَ الأُمُورِ في مَجالِنا بِانضِباطٍ مِن جِهَةِ الوَلاءِ الخالِصِ لله تَعالَى بِالإيمانِ ، وَأَخذِ الأَمرِ عَن عَقيدَةٍ مَع التَّدَرُّجِ بِمَعنى العَقلِيَّةِ والحِكمَةِ وَشَيءٍ مِن الوُضوحِ أمامَ الرُّؤى المختَلِفةِ مِما عِندَنا مِن هَمٍّ بِجانِبِ الأَخلاقِ والسِّيَرِ والاتِّباعِ والعِلمِ ، فَهَذِهِ أُمورٌ نَحنُ ظاهِرُونَ بِها ، فَما هُناكَ داعِي لِكَثرَةِ الكَلامِ فِيما لا يُفِيد ، وَلا هُناكَ داعِي أَيضاً لاستِتارِ ما هو مَكشُوفٌ أَو إِخفاءِ ما هو ظاهِرٌ أَو إِنكارِ شَيءٍ مِمّا عِندَنا .

فَنُرِيدُ الأَمرَ يَنتَشِرُ بَينَنا عَلى أَساسِ عَقيدَةٍ وَإِيمانٍ ، وَهَؤلاءِ العامِلُونَ فِي هَذا المَيدانِ عَلى حَسبِ إِيمانِهِم وَعَقيدَتِهِم .. تَحصُلُ لَهمُ الخَيراتُ ، وَيَطلَعُونَ فِي الانتِخاباتِ السَّماوِيَّةِ ، وَيُرتَضَونَ مِن قِبَلِ الرَّبِّ ، فَيَكونُونَ فِي جُندِه ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣].

حين طلبت منه وصيّة للإخوان المرتبطين به في الخارج

وقال رضي الله عنه ونفعنا به يرتَفِعُونَ عَن مَضايِقِ الخِلافاتِ ، وَإِثارَةِ النَّفسِيّاتِ ، وَيَتَعالَونَ بِالمَنهَجِ السّامِي ، واستِيعابِ الجَمِيعِ ، مَع البَيانِ وَقتَ الحاجَةِ لِمَن يُرجَى انتِفاعُه بِه، وَأَنْ يَكُونُوا شَدِيدِي الحِرصِ عَلى أَذكارٍ لَهم فِي اليَومِ واللَّيلَةِ الوارِدَةِ ، كالَّتِي فِي «خُلاصَةِ المَدَدِ» .

---

(١) فِي ١٧ مِن شَهرِ جُمادَى الأَوَّل ١٤١٩ هـ .

وَيَتَجنَّبونَ الخَوضَ فِي الشُّؤونِ السِّياسِيَّةِ فِيما بَينَهُم ، وَفِي المَجالِسِ والمَواطِنِ المختَلِفَةِ، مَع تَحسُّسِهِم مِن واقِعِ المُسلِمِينَ ، وَما يُعايِشُونَه فِي البُلدانِ المختَلِفَةِ ، وَيَلتَفِتُ مِنهُم النَّظَرَ فِي السَّعيِ والحثِّ عَلَى حُضُورِ المناسَباتِ الدِّينِيَّةِ والَّتِي فِيها تَقوِيةُ الرَّوابِطِ .

والقاعِدَةُ العامَّةُ عِندَنا : مُتابَعَةُ مَن تَـيَسَّرُ إِجابَتُه وَيَقرُبُ تَأَثُّرُه ، مَع عَدَمِ قَطعِ المُستَطاعِ عَن الأَصنافِ المُختَلِفَةِ ، لَكِن يُقَدِّمُ الَّذِي تُرجَى ثَمَرَتُه وَيَقرُبُ انتِفاعُه فَيكُون العامِلُ مُستَمِرّاً عَلى بَذلِ الجُهدِ مُقدِّماً الأَولَى ، غَيرَ قاطِعِ النَّظر كلِّيَةً عَن أَيِّ تَحرُّكٍ دَعوِيٍّ يَتَمكَّنُ مِنه مَعَ أَيِّ صِنفٍ بِشَرطِ أَنْ لا يَشتَغِلَ بِالمهِم عَن الأَهَمِّ ، وَبالمعانِدِ عَن المستَفِيدِ ، وَبِالبَعِيدِ عَن القَرِيبِ .

في توسيع المدارك وتنمية القدرات

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ نَحتاجُ إِلى تَنمِيةِ القُدُراتِ عِندَنا ، والمعرِفَةِ والاطِّلاعِ والاتِّساعِ فِي جَوانِبِ التَّعامُلاتِ مَعَ النّاسِ وَكَيف تَكونُ ، فَلا مانِع أَن نَقرَأَ الكتُبَ فِي هَذا المَجالِ وَنَطَّلِعَ عَلى بَعضِ الأُمُورِ .

كُنّا نَقُولُ لِبَعضِ النّاسِ : اقـرَؤُوا وَلَو فِي كِتابٍ لِكاتِبٍ مَسِيحِيٍّ أَمرِيكِي لَكِن فِيه فَوائِد فِيما يَتَعلق بِالتَّعامُل مَع النّاس ، اسمُه «**كَيفَ تَكسِبُ الأَصدِقاءَ**» .

أَنا قَرَأتُه أَيّام كُنتُ فِي عُمان ، كُلّ الذِي فِيهِ صِرتُ أَضحَك عَلَيهِ فِي آخِرِه ؛ لأَنَّنِي وَجَدتُ كُلَّ نُقطَةٍ يَتَحَدَّثُ عَنها .. عِندَنا أَحسَن وأَوسَع كَلاماً عَنها فِي الشَّرِيعَة ، لَكنَّ العُقُولَ ما تَنتَبِه لِـمِثلِ هَذا ، بَل وَأَجِدُها فِي السُّنَّةِ عِندَنا كُلُّها أَعظَم مِما يَتَكلَّم هوَ فِيها ، لكِن مع ذَلِك بَهَرَ عُقُولاً كَثِيرَة ؛ لأَنَّه وضَّحَ لهُم بَعض أَشياء

واقِعِيَّةٍ عِندَهُم مِما يُمارِسُونها ، ما توضَّحت لهم ممّا عِندَنا مِن الأُصُولِ ، فيُمكِنُ الاستِعانَةُ بِهِ فِي تَفتِيحِ العَقلِ عَلَى بَعضِ الصِّفاتِ الَّتِي يَتِمُّ التَّعامُلُ بِها مَعَ النّاسِ.

القَصدُ أَن لا تَرضى أَنْ تَقِفَ فِي مَوقِفٍ واحِدٍ مَكانَكَ ، فَهِمْتَ فائِدَةً فِي كَيفِيَّةِ التَّعامُلِ.. ابحَث لَك عَن فائِدَةٍ ثانِيَةٍ ، وَسِّعْ آفاقَك فِي التَّعامُلِ مَعَ الخَلقِ ، وَسِّعْ آفاقَك فِي الفِكرِ ، وَسِّعْ آفاقَك فِي الفَهْمِ عَن بَعضِ ما يَجرِي أَو ما يَدُورُ حَولَك ، أَو ما يَحتاجُ إِلَيهِ النّاسِ ، فَلا تَغفَلْ عَن هَذِهِ النُّقطَة .

توكيل المسؤوليات للمتأهلين

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: يَجِبُ عَلَينا أَنْ نَبحَثَ عَن الـمُتَأَهِّل لأَيِّ أَمرٍ مِن الـمُتَعَلِّقِين بِالدَّعوَةِ وَنَضَعَه فِيهِ ، لا نَتَباطَأ وَلا نَتَأَخَّر ، هَذا مِما يَحصُل فِي سَيرِنا فِي الدَّعوَةِ، يَكُونُ الواحِدُ طالِباً أَو مُبتَدِئاً لَكِن بِسُرعَة هَيَّأَ الله لَه فَهماً ، أَو هَيَّأَ الله سُبحانَه وَتَعالَى لَه قُدرَةً ، لا تَجعَلْه فِي نَظَرِكَ طالِباً ومُبتَدِئاً .. أَوَّل سَنَة ، وَثانِي سَنَة .. ولا يَزالُ طالِباً وَمبتَدِئاً ، أَعطِهِ حَقَّه فِي المشارَكَةِ .. أَعطِهِ حَقَّه فِي القِيادَةِ .. أَعطِهِ حَقَّهُ فِي الحَرَكَةِ .. أَعطِهِ حَقَّهُ فِي القِيام ؛ لأَنَّ المَيدانَ عِندَنا واسِعٌ ، لَو أَدرَكتَه سَتُدرِك أَنَّك مُحتاجٌ إِلَى مَن يَنُوبُ عَنكَ فِي الأَعمالِ كُلِّها ؛ لأَنَّ وَراءَكَ أَعمالٌ أَوسَعُ مِما أَنتَ فِيهِ الآنَ .

فَلِهَذا أَنتَ مُحتاجٌ إِلَى أَنْ تَغتَنِم جَمِيعَ المواهِبِ الَّتِي عِندَك والتَّهَيُّؤاتِ الموجُودَة ، لا تَستَعجِلْ أَنْ تُوَلِّيَ أَحَداً أَمراً يُغَيِّرُهُ عَلَيك أَو يُفسِدُهُ ، اجعَلهُ تَحتَ النَّظَرِ دائِماً، لَكِن الَّذِي تَأَهَّل لَه ، لا تَتَراخَ عَنْه ، وَلا تُؤَخِّرهُ عَنهُ ، وَسَلِّمهُ لَه[1] ؛ لأَنَّكَ مُحتاجٌ

---

(١) أي: العَمَل الدَّعْوِيّ .

إِلَى أَنْ تَتَغَطَّى الأَعمالُ بِسُرعَةٍ .

فَلِهَذا نَحتاجُ إِلى جَميعِ الَّذِينَ هُم حَوالَينا ، كُلُّ مَن تَهيَّأَ لِلقِيامِ بِأَمرٍ .. نُوكِلهُ إِلَيهِ وَنُحَرِّكهُ فِيهِ ، هَذا أَساسٌ لِلتَوسِيعِ ، وَأَساسٌ لانتِشارِ النُّورِ ، وَأَساسٌ لِوُجُودِ النَّهضَةِ.

وَمَهما رَأَيتَ عِندَه دَواعِي الصِّدقِ والتَّواضُعِ .. فَلابُدَّ أَنْ تَطمَئِنَّ عَلَيهِ فِي نَواحٍ كَثِيرَةٍ ؛ لأَنَّ الرِّعايَةَ قائِمَةٌ لِكلِّ مُنتَمٍ لِهَذِهِ الدَّعوَةِ فَوقَ ما تَتَصَوَّرُ أَنت .

فَإِذا جَمَعَ بَينَ المحبَّةِ والتَّواضُعِ .. فاعلَم أَنَّ الرِّعايَةَ مَصبُوبَةٌ عَلَيهِ ، ضَعهُ واطمَئِن عَلَيهِ فِي هَذا المكانِ ؛ لأَنَّه يَرعاه مَن هُو فَوقَه ، وَلا تَقُل ماذا سَيفعَل هَذا ؟

وَهَكَذا نَحتاجُ إِلَى مِثلِ هَذا ، مَع النُّقطَةِ الَّتِي نَبَّهتُ عَلَيها أَوَّلاً والَّتِي هِي عَدَمُ الاستِعجالِ ، خاصَّةً بِما يَتَعَلَّقُ بِالَّذي ما عِندَه تَواضُعٌ ؛ لأَنَّه سَيُتعِبُ النّاسَ كَثِيرا، لا تُوَلِّه عَلى الخَلقِ ، وَلا تُوَلِّه عَلَى أَعمالٍ لَها سُلطَةٌ أَو قِيادَةٌ عَلى النّاسِ ، ما يَصلُح لَها، حَتَّى يَتَحقَّقَ بِالتَّواضُعِ أَوَّلاً ، فَإِنَّ المجالاتِ الَّتِي فِيها قِيادَةُ النّاسِ لا تَصلُحُ إِلّا لِلَّذِينَ هُم مِثلُ الأَرضِ ، يَمشِي عَلَيها البَرُّ والفاجِرُ.

أهميّة المراسلات

وقال رضي الله عنه ونفعنا به (١) عِندَكُم المراسَلاتُ الَّتِي دائمًا يَأتِي الكَلامُ عَنها تَختَلِفُ بِاختِلافِ المقاصِدِ مِنها والأَحوالِ ، وَحالِ المرسلِ والمُرسَلِ إِليهِ وَغَيرِه مِن المَطلوباتِ .

---

(١) فِي يومِ الجُمُعَةِ ١٦ مِن شَهرِ جُمادَى الأُوَّل ١٤٢٠هـ .

وَمَقصُودُ الرَّسائِلِ أَنْ تَهدِي إِلى سَبِيلٍ ، أَو تُقَوِّمَ معوَجّاً ، أَو تُعالِجَ فِكراً ، أَو تُقَوِّمَ صِلَةً ، أو تَفتَحَ باباً ، أَو تُزِيحَ إشكالاً ، الله يَجمَعُ القُلوبَ وَيُؤلِّفُ ذاتَ البَينِ .

الباب الثالث

الهمّة والعزيمة بداية الانطلاق لفقه الدّعوة والارتباط بالله

تعميق معاني الترقي والسمو

قال رضي الله عنه ونفعنا به [1] تحتاجونَ إلى تَعمِيقِ مَعنَى طَلَبِ التَرَقِّي في القُرْبِ مِن الرَّبِّ . نَقُولُ لَكَ : عِندَكَ أَوصافٌ حَسَنَةٌ ، عِندَكَ هِمَّةٌ طَيِّبَةٌ ، عِندَكَ نِيَّةٌ ، عِندَكَ أعمالٌ تَقُومُ بها ، يُوجَدُ فِيما يَكتَسِبُ الآدَمِيُّونَ مِن الصِّفاتِ والنِّيّاتِ والأَعمالِ هُوَ مِنَ الزَّكاةِ[2] والسُّمُو أعلَى مِمّا تُمارِس أنت .

الأَوْصافُ المحمُودَةُ الَّتِي عِندَك .. كُلُّ وَصْفٍ مِنها لَه مَرتَبَةُ كَمالٍ ، فَوقَ المستَوَى الَّذِي وَصلْتَ إِليهِ ، الفِكرُ الَّذِي عِندَك يَقبَلُ اتِّساعاً فَوقَ ما وَصَلْتَ إِليه ، الهِمَّةُ الَّتِي مَعَكَ تَقبَلُ قُوةً فَوقَ ما وَصلتَ إِلَيها ، فَيَجِبُ أَن يَكونَ عِندَكَ إِدراكٌ وَشُعُورٌ، وَصِدقُ طَلَبٍ فِي أَنْ تَكُونَ دائِماً فِي هِمَّةٍ أَقوَى ، فِي فِكرٍ أَوسَع ، فِي عَمَلٍ أَزكَى ، فِي وَصفٍ أَجمَل ، هَذا أَمرٌ يَجِبُ أَن تَطلُبَهُ .

إذا مَرَّت عَلَينا أَيّامُ الأَشائِرِ هَذِهِ ، وَأَقبَلنا عَلى المقَدِّماتِ ، والواحِدُ مِنّا إِنْ لَم يَذُقْ حَلاوَةَ صِلَةٍ بِالرَّبِّ ، كَيفَ نَتَصَوَّر تَهيُّؤَه لأَنْ يَكُونَ فِي صُفُوفِ أَربابِ القُربِ ، والَّذِي يَفُوتُه الرَّكْبُ فِي البِدايَةِ .. فَلَو جَرَى فِيما بَعدُ .. قَد يَصِلُ بَعدَ الكَدِّ إِلَى أَواخِرِ الرَّكبِ ، لَكِنَّ الَّذِي يُحسِنُ سَيرَهُ وَخُطاه فِي البِدايَةِ ، فَلا يَأتِي وَقتُ عَرضِ الرَّكبِ إِلا وَهوَ فِي الصُّفُوفِ الأَمامِيَّةِ ، فَلِهَذا نَحنُ نَحتاجُ أَنْ نَتَطَلَّبَ هَذِهِ المعانِي وَوَسائِلَها .

لابُدَّ مِن النَّظَرِ فِي بَعضِ الكُتُبِ المؤَلَّفَةِ فِي هَذا الشَّأنِ ، وَلا تَخلُو أَكثَرُ البُلدانِ مِن وُجُودِ رِجالِ التَّزكِيَةِ ، فَإِنْ تَيسَّر وَقَدرنا عَلَى أَنْ نَتَّصِلَ بِأَحَدٍ مِنهُم ، وَنَقرَأَ عِندَه فِي أَمثالِ كُتُبِ الإِمامِ الغَزالِي والإِمامِ الشَّعرانِي ، فَهِي مِن أَعجَبِ الكُتُبِ فِي تَحقِيقِ هَذِهِ

(١) فِي ١٧ مِن شَهرِ صَفَر ١٤١٩هـ .
(٢) أي: النُّمو والطَّهارة .

المَعانِي الَّتِي ذكَرناها ، هَذا الأَمرِ سَيُنتِجُ عِندَنا أُموراً مُتَعَدِّدَةً ، مِن جملَتِها أَنَّنا نَعرِفُ كَيفيَّةَ التَّعامُلِ مَعَ أَصنافِ النّاسِ ، وَمِن جُملَتِهم أَربابُ المخالَفَةِ فِي العَقِيدَةِ ، وَفِي أُصُولنا أُصُولِ أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ .

إِذا تَعلَّقتَ بِالأَمرِ الَّذِي ذَكرناه أَوَّلاً ، وَهُوَ مَسأَلَة قُربِكَ مِن الله ، وَأَدركتَ المَيدانَ الَّذِي تَنطَلِقُ مِنهُ الآنَ ، فِي عُلُوِّهِ وَسُمُوِّهِ وَرِفعَتِه واتِّصالِه بِالرَّبِّ وَبِنبيِّه صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، تَفهَمُ أَنَّه لَيسَ المَقصُودُ مجرَّدَ طائِفَةٍ مِن طَوائِفِ النّاسِ ، الرِّسالَةُ الَّتِي تحمِلُها رِسالةٌ إِلَى العالَمين ، رِسالَةٌ عالَمِيَّةٌ ، المَقصُودُ مِن استِقبالِها ، والعَمَلَ بِها ، والقِيامِ بِها .. أُمُورٌ عُلْوِيَّةٌ عَظِيمَةٌ كَبِيرَةٌ جَلِيلَةٌ .

في تزكية النفس

وقال رضي الله عنه ونفعنا به [(١)] نَحتاجُ إِلَى هِمَّةٍ كَبِيرَةٍ فِي التَّزكِيَةِ لِلنُّفُوسِ ، كَثِيرٌ مِنّا ما مَرُّوا عَلَى كِتابِ «**بِدايَةِ الهِدايَةِ**» بِتمَعُّنٍ ، وَبعضُهُم قَرَأَ كِتابَ «البِدايَةِ» ، تَمَعَّنَهُ وَلَكِن ما اهتمَّ بِكِتابِ «**الكَشْفِ والتَّبيِينِ عَن غُرُورِ الخَلقِ أَجمَعِين**» مَثَلاً ، أَو «**تَنبِيهِ المغتَرِّين**» لِلإِمامِ الشَّعرانِيِّ ، أَو رُبعِ المُهلِكاتِ مِن «**إِحياءِ عُلُومِ الدِّين**» ، نَحنُ عَلَى نَقصِ الشُّيُوخِ عِندَنا ، وَنَقصِ المُرَبِّين فِينا ، نَحتاجُ إِلَى تَأَمُّلِ هَذِهِ الأَشياءِ وَهِيَ أَساسٌ عِندَنا وَخاصَّةً لِلمُهتَمِّينَ بِالدَّعوَةِ والقائِمِينَ عَلَيها ، لِهَذا يَحصُلُ عِندَنا نَقْصٌ كَبِيرٌ فِيما يَتعَلَّقُ بِتزكِيَةِ النُّفُوسِ ، وَما أَحسَنَ مِن وُجُودِ شُيُوخِ أَهلِ الرُّسُوخِ ، نَعم وَلَكِن فِي الكُتُبِ هَذِهِ مَنفَعَةٌ كَبِيرَةٌ لَو قَرَأَها الإِنسانُ وَحدَه إِذا ما وَجَدَ الشَّيخُ الَّذِي يَقرَأُ عَلَيه .

فَنحتاجُ نَحنُ إِلَى صِدقٍ فِي دَفنِ هَذِهِ النَّفسِ .. فَإِنَّ الحَبَّةَ لا تُثمِر حَتَّى تُدفَن فِي

---

(١) فِي لَيلَةِ الجُمُعَةِ ١٤ مِن شَهرِ صَفَر ١٤١٨هـ .

الأَرضِ ، وَكُلَّما كانَ الدَّفنُ أَكثَر .. كانَت الشَّجَرَةُ أَقوَى ، والثَّمَرُ أَطيَبَ وَأَحْسَنَ، وَلهَذا يُقال : (ادفِنْ نَفسَك فِي أَرضِ الخُمُولِ)[1] اذهَب إِلى أَرضِ الخُمُولِ وادفِنْ نَفسَكَ فِي عُمقِها ، اسقِها بَعدَ ذَلِكَ وَستَطلَع شَجَرَةً مِن أَحسَنِ الشَّجَرِ ، شَجَرةٌ قَوِيَّةٌ وَهكَذا ، الَّذِينَ مَضَوا قَبلَنا مَضَوا عَلى هَذا الحالِ ، فَهَذِهِ الشُّؤُونُ تُرِيدُ مِنّا تَفانِياً فِي الحَقِّ سُبحانَه وَتَعالَى ، حَتَّى لا نَطلُبَ لأَنفُسِنا المَكانَةَ ؛ لأَنَّ حَقِيقَتَها ظُنُونٌ .. أَشَغَلَ الله بِها الخَلقَ .. وَما تَحتَها شَيءٌ .

في توسيع معنى الرّجاء في الله سبحانه وتعالى

وقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ نَحتاجُ نَحنُ وَإِيّاكُم إِلى عَظَمَةِ هِمَّةٍ ، لا تَظُنُّوا أَنَّ الخَزائِنَ نَقَصَ مِنها شَيءٌ ، وَلا أَنَّ المَواهِبَ عِندَ الله سُبحانَه وَتَعالَى شَحَّتْ ، فَذَلِكَ الظَّنُّ كُفرٌ وَجُحُودٌ.

خَزائِنُكَ بِالجُودِ لا تَنتَهِي لِكَثْرَةِ عَطاياكَ لِلرّاغِبِينْ[2]

---

(١) مِن حِكَمِ ابنِ عَطاءِ الله حَيثُ وَرَدَت بِلَفظِ : (ادفِن وُجُودَكَ فِي أَرضِ الخُمُولِ فَما نَبَتَ مِما لَم يُدفَن لا يَتِمُّ نِتاجُه) .

الخُمُولُ : هُوَ عَدَمُ طَلَبِ المَنزِلَةِ عِندَ النّاسِ ، قالَ الشّاعِر :

عِشْ خامِلَ الذِّكرِ بَينَ النّاسِ وارضَ بِهِ فَذاكَ أَسلَمُ لِلدُّنيا وَلِلدِّينِ
مَن عاشَرَ النّاسَ لَم تَسلَم دِيانَتُهُ وَلَم يَزَل بَينَ تَحرِيكٍ وَتَسكِينِ

وَقالَ بَعضُ الحُكَماءِ : الخُمُولُ نِعمَةٌ والنَّفسُ تَأباه ، والظُّهورُ نِقمَةٌ والنَّفسُ تَهواه .

انظُر شَرحَ الحِكَمِ لابنِ عَجِيبَة ص٢٧ .

(٢) البَيتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلحَبِيبِ أَبِي بَكرٍ العَدَنِي بن عَبدِ الله العَيدَرُوس مَطلَعُها :

بُرُوقُ الحِمَى أَبرِقِي يا بُرُوق عَسَى الله يَسقِي بِك المجدِبِين

انظُر الدِّيوان ص ٨٢ .

وَلا يَزالُ الحَقُّ يَنتَخِبُ ، وَلا يَزالُ الحَقُّ يَصطَفِي ، فَلابُدَّ أن تُقْبِلَ عَلى هَذا المجالِ بِهِمَّةٍ واسِعَةٍ ، واطلُبْ مَنازِلَ رافِعَةً ، واسلُكْ دَرَجاتٍ عُلا ، لا بِكَ وَلا بِنفسِك وَلا بِعَمَلِك ، اجتَهِدْ فِي الوَفاءِ بِالعَهدِ ، واعمَلْ كُلَّما استَطَعتَ ، واعلَمْ بِأَنَّك لا تَرتَقِي إلا بِهِ ، وَأنا وَأَنتَ عَبيدٌ ، ما فِي استِطاعَتِنا حَرامٌ عَلَينا نُؤَخِّرهُ ، اخرِجْ كُلَّما فِي وُسعِك ، وابْذِلْ كُلَّما عِندَكَ ، وَيُـرَقِّيكَ هُوَ جَلَّ جَلالُه ، ما تَرتَقِي بِعَمَلِك هَذا وَلا بِاجتِهادِكَ، إنْ تَرَقَّيتَ .. فَإِنَّما هُوَ رَقّاك ، وَإن ارتَفَعتَ .. فَإِنَّما هُوَ رَفَعَكَ ، مَع ذَلِكَ كُنْ طامِعاً فِيما عِندَهُ ، واعلَمْ أنَّ جُودَهُ وَكَرمَهُ فَيّاضٌ عَلَيك ، فَلابُدَّ أَنْ تَطرُقُوا هَذا البابَ ، ما وَصَلَ مَن وَصَلَ إلى اللهِ إلا بِحُسنِ الرَّجاءِ فِيهِ .

عِنْـدَ حُسْـنِ الرَّجـا فاحْطُـطْ هُنا   والـمَواهِـــبُ جَميعـــاً والمِـنَنْ

فَلابُدَّ أَن تَتَوَجَّهُوا بِهِمَّةٍ عَظِيمَةٍ ، لا يُصِبكُم يَأسٌ وَلا سَآمَةٌ وَلا قُـنُوطٌ قَطُّ ، واطلُبُوا مَنازِلَ النُّصرَةِ الكَبِيرَةِ ، أَنتُم فِي قَرنٍ لابُدَّ فِيهِ مِن تَجدِيدٍ ، اطلُبْ أَن يَجعَلَكَ اللهُ واحِداً مِن جُنُودِ التَّجدِيدِ وَما ذَلِكَ عَلى اللهِ بِعَزِيزٍ ، لَكِن أَنتَ لا تُناقِضْ هَذا بِقَصدِك وَلا بِفِعلِك ، وَأَمّا أَنا فَأَنصَحُكَ بِتَوسِيعِ الطَّمَعِ فِيهِ ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ الطّامِعِينَ، فاطمَع فِيهِ واطمَع فِي نَوالِهِ ، واطمَع فِيما عِندَه ، أَما الخَلقُ .. فَأَبْعِدِ الطَّمَعَ فِيهِم ؛ لأَنَّ الطَمَعَ فِيهِم ذُلٌّ ، لَكِن فِيهِ جَلَّ جَلالُه ، أَنا أَدُلُّك عَلى تَوسِيعِ رَجائِكَ فِيهِ ، وَعَلى طَمَعِكَ الواسِعِ فِي أَيادِيهِ ، وَعَظِيمِ فَضلِهِ وَجُودِهِ وَكَرمِهِ وَإِحسانِهِ ، وَلا مانِعَ مِن أَن يُثْبِتَكَ فِي دِيوانِ الرُّفَقاءِ ، فادخُل عَلَيهِ مِن هَذا الجانِبِ .

في التهيؤ للترقي والانتفاع

وقال رضي الله عنه ونفعنا به يَجِبُ أَنْ نَتَهَيَّأَ نَحنُ وَإِيّاكُم لِلارتِقاءِ ، الرِّضى بِأَنْ يَبقَى الإِنسانُ فِي مَقامٍ هُو فِيهِ .. عَجزٌ وَضَعْفٌ وَعَدمُ فقهٍ لِسِرِّ هَذِهِ الدَّعوةِ والشَّريعَةِ مِن أَصلِها ، ما جاءَنا النَّبيُّ صَلى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِه وَسَلَّم إِلا لِـيُرَقِّينا ، وَما بُعِثَ فِينا إِلا لَيرفَعنا، والرَّفعُ والتَّرقِيَةُ مُستَمِرَّةٌ دائِماً .

والمتَّصِلُونَ بِهَذِهِ الدَّعوَةِ يَجِبُ أَنْ يَتَهَيَّؤوا لِعِنايَةٍ خاصَّةٍ ، يَتَرقَّونَ بِها فِي صِفاتِهِم ، يَتَرقُّون بِها فِي أَفكارِهِـم ، يَتَرقَّونَ بِها فِي كَيفِيّاتِ مُعامَلاتِـهِم ، يَتَرقَّونَ دائِماً .

نَحنُ وَإِيّاكُم لابُدَّ أَنْ نَتَهيَّأَ لِهَذا الارتِقاءِ ، فِي كُلِّ وَقتٍ ، حَتَّى نَكونَ أَصفَى وَأَوفَى فِي كُلِّ زَمَنٍ مِن الَّذِي قَبلَهُ ، وَهَكذا لا نَزالُ فِي تَلَقِّي فائِضاتِ جُودِ الله .

في الاستزادة من الأوصاف الحسنة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به [1] اطلُبُوا الزِّيادَةَ دائِماً ، واطلُبُوا الارتِقاءَ والسَّعةَ فِي الفِكرِ ، والعَطاءَ والبَذلَ والتَّضحِيَةَ ، والفَهمَ والإِدراكَ والإِيمانَ واليَقِينَ والمَعرِفَةَ ، والارتِباطَ والاتِّصالَ والذَّوقَ والوِجدانَ ، اطلبُوا الزِّيادَةَ فِي هَذِهِ الأَشياءِ كلِّها ، اطلبُوا السَّعَةَ مِن أَبوابِها ، واجعَلُوا قَصدَكُم الحَـقَّ سُبحـانَه وَتَعالَى فِي كُلِّ شَأنٍ ، ما المَقصُـودُ غَيرُه؟! وَكُلُّ مَقصُودٍ غَيرُه ، يقرُب عَلَى الإِنسانِ ضُرُّه ، كلُّ مَن قَصَدَ غَيرَ الله وَصَلَه ضُرُّه ، فَهُو المَقصُودُ عَلى وَجهِ الحَـقِيقَةِ .

عَلِمْنا أَنَّهُ المَقصُودُ فِي كلِّ بَعثَةٍ مِن بَعثاتِ الرُّسُلِ ، ثُمَّ فِي بَعثَةِ خاتَمِ الرُّسُلِ ، وَما جاءَ الرُّسُلُ إِلا لِيُعَلِّمُونا أَنَّ المَقصُودَ هُوَ «الله» ، وَأَنَّ المعبُودَ هُوَ «الله» ، وَأَنَّ المرادَ وَجهُ الله ، كُلُّهُم بُعِثُوا بِهَذِهِ الحَقِيقَةِ ، إِلَى أَنْ جاءَ خاتَـمُهُم صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ،

---

(١) لَيلَةَ السَّبتِ ١٧ مِن شَهرِ صَفَر ١٤١٩هـ .

عَلَّمنا هَذا الأَمرَ، فَتَعَلَّمُوا الصِّدقَ مَعَه سُبحانَه وَتَعالَى ، والإِخلاصَ لَه ، واتَّصِلُوا بِهَذا الهَدْيِ المبارَكِ.

في معاني الإقبال والتسليم

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ[1] إلَى أَيِّ الرُّتَبِ وَصَلَتْ مَعاني إِقبالِكُم ؟ **وَإِنَّما الدَّعوَةُ إِلى الله : طَلَبُ إِقبالِ الخَلقِ عَلى خالِقِهِم** ، وَذَلِكَ راجِعٌ مِن طالِبِهِ إِلى جِهَتَيْنِ : مِن جِهَةِ الخَلقِ بِالبَيانِ واتِّخاذِ الوَسائِلِ ، وَمِن جِهَةِ الخالِقِ ـ وَهَذا وَحدَه أَصلٌ ـ ، مَعناهُ أَنْ تَكُونَ داعِياً إِلَيهِ ، وَتَطلُب مِنه أَنْ يَرتَضِيَكَ وَيَنتَخِبَكَ ، وَيَفتَحَ بِك وَيُوصِلَ خَيرَهُ عَلى يَدَيك، وَيُثبِتَ لَكَ الزُّلفى إِلَيهِ ، فَهَذا مَعنَى كَونِكَ داعِياً إِلَيهِ .

قَد عَرَفتُم الوَسائِلَ الَّتِي تَطلُبُونَ بِها الخَلقَ ، وَهِي مُنتَشِرَةٌ عِندَ المنتَمِينَ إِلى هَذا العَمَلِ ، عِندَهُم أَنواعٌ مِن الوَسائِلِ باذِلِينَ فِيها كَثِيراً مِن الجُهْدِ ، وَتَعِبُوا فِيها ، وَسائِلُ كَثِيرَةٌ وَلا تَزالُ أَبوابُها واسِعَةً ، لَكِن طَلَبكُم مِن الخالِقِ ، وَوَسائِلُكُم هَذِهِ الَّتِي ذَكَرناها ما يَتَأَتَّى فَصلُ أَحَدِها عَن الآخَرِ ، وَإِلا فَلَيْسَت دَعوةً أَصلاً ؛ لأَنَّها ما تَقُومُ إِلا بِكامِلِ هَذا المنهَجِ .

وَلِذَلِكَ نَحتاجُ إِلَى كَثِيرٍ مِن التَّفكِيرِ والتَّشمِيرِ ، فِي جانِبِ الفَهمِ عَن اللَّطِيفِ الخَبِيرِ ، وارتِقاءِ دَرَجاتِ القُربِ إِليهِ والتَّحبُّبِ لَدَيهِ ، والوُقُوفِ عَلى البابِ ، وَطَرقِ الأَبوابِ عَلى وَجهِها ، واختِيارِ الأَوسَعِ مِنها ، مِن أَجلِ أَنْ يَنتَبِهَ الدُّعاةُ إِلى قُوَّةِ الجُهدِ، فِي تَصفِيَةِ البَواطِنِ ، وَتَنقِيَةِ السَّرائِرِ ، وَتَقوِيمِ الصِّفاتِ فِيهِم ، بِحَيثُ يَطلُبُونَ الرُّقِيَّ بَعدَ ذَلِكَ فِي كُلِّ أَيامِهِم وَلَيالِيهِم بِحَيث لا يَغفَلُونَ عَنهُ فَيَأخُذُونَ عُدَّتَه ، وَهِي

---

(١) لَيلَة ١٧ مِن شَهرِ شَوّال ١٤١٩ هـ .

الانطواءُ فِي المشايِـخ ، وَتعَلُّمُ إنكارِ الذّاتِ الَّتِي تَتطَهَّر وَتتنَظَّف وَتتزَكّى وتُرْتَضى ، وَأنّه مِن دُونِ إنكارِها لا يَصِحُّ تَسليمُها ، ما دامَت ذاتُك مَعَك موجُودَةً ، فَإنْ كُنتَ تَعرِفُ أنْ تُطَهِّر .. طَهِّرْها ، لكِن إذا سَلَّمْتَها فالمسَلَّمَةُ إليهِ أولَى بِتَطهِيرِها وَتَنقِيَـتِها .

كالَّذِي يَقِفُ عَلَى الْـمُنَظِّفِ والمُغَسِّلِ ويَقولُ له : هَذِهِ ثِيابِي أُرِيد مِنكَ غَسْلَها ، وَيَمشِي بِها مَعَه ، أو يكونُ لابِسا لَها وَلا يُريدُ إخراجَها ، وَيَمرُّ كُلَّ يومٍ عَلَى المغَسِّلِ وَيَقُولُ لَه : غَسِّل ثِيابِي ، يَقُولُ لَه المغَسِّلُ : هَل أَنتَ تَستَهزِئ ؟! فَماذا الآنَ أَنتَ لابِس؟ إذا أَرَدتَ مِنِّي غَسْلَها بِصِدقٍ فَأعطِنِي مَلابِسَك ، فَمَعَنا المغاسِلُ الَّتِي تُنَظِّفُ.. سَنُنَظِّفُها لَك ، بَل وَسَنَكوِيها بَعدَ ذَلِك ، وَهَكَذا .

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ [1] يَنبَغِي أَنْ لا تَقِفُوا عَن تَحقِيقِ مَقاصِدِكُم ، وَإنجازِ مَطالِبِكُم فِي دَوامِ سَعيِكُم وَمُواصَلَةِ أعمالِكُم وَتواصُلِ سَيرِكُم ، وَهِي قاعِدَةُ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٧-٨] وَهِي قاعِدَةٌ مِن الرَّبِّ تَلَقّاها حَبِيبُه المقَرَّبُ فَوَجَبَ عَلى كُلِّ مُنتَمٍ لِدَعوَتِه أَنْ يَكونَ كَذَلِك .

مستحثًا منّا الهمّة والعزيمة

فَكَما أَنَّك لا تَستَطِيعُ إِيقافَ الوَقتِ فَينبَغِي أَنْ لا تُوقِفَ الاجتِهادَ مِنكَ وَمُواصَلَةَ الجُهدِ أَبداً ؛ لأَنَّ الوَقتَ ظَرفٌ لِلجُهدِ وَهوَ فُرصَتُك المتاحَةُ لَك فِي هَذِهِ الحَياة ، وَلأَجلِ هَذا يَنبَغِي أَنْ تَأخُذَ العِبرَةَ مِن عَدَمِ قُدرَتِك عَلَى إِيقافِ الوَقتِ وَلَو لَحظَةً وَهِي أَن لا تَترُكَ الاغتِنامَ وَلَو لَحظَةً ، وَلا أَن تُقَصِّرَ وَلَو فِي أَيِّ حَرَكَةٍ تَطلُب بِها رِضوانَه أَو سَكونٍ تَطلُب بِه رِضوانَه .

(١) فِي ١١ مِن شَهرِ رَبِيعٍ الثّانِي ١٤٢٠ هـ .

فَيَنبَغِي أَن تَسمُو بنَا الهِمَمُ ، وَأَن نَلقَى الله تَعالَى وَقَد عَرَفنا مِن عَظَمَتِه وَجَلالِه وَكِبريائِه ما نُقابِلُ بِه الهِمَمَ والعَزائِمَ ، فَإِنَّ الَّذِي يُقابِلُ اللهَ بِهِمَّةٍ ضَعِيفَةٍ وَرَجاءٍ قَلِيلٍ وَعَزِيمَةٍ ناقِصَةٍ فَهُو لَم يَعرِف عَظَمَةَ هَذا الرَّبِّ وَلَم يُدرِكْ فَضلَهُ وَإِحسانَهُ وامتِنانَهُ ، فَيُقابِلُه بِما لا يَنبَغِي لِلعَبدِ أَن يُقابِلَ الله بِه .

حَسبُكَ إِذا عَرَفْتَ مَنْ «هُو» أَن تَكونَ عَظِيمَ الرَّجاءِ فِيهِ ، واسعَ الأَملِ وَواسِعَ الطَّمعِ فِيما عِندَه تَبارَكَ وَتَعالى ، فَأَقَلُّ ما تَلقَى بِهِ اللهَ سُبحانَه وَتَعالى أَن تَلقاه وَقَد عَلِمَ مِن نِيَّتِك إِرادَةَ إِقامَةِ شَرعِه فِي جَمِيعِ أَرضِه ، وَنَشرِ سُنَّةِ نَبِيِّه فِي جَمِيعِ خَلقِه .

في كيفية تحقيق الأوصاف في الناس

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ والآن الَّذِي تَتَمَنَّونَ مِن الله تَعالَى تَحقِيقَهُ فِي العالَمِ .. حَقِّقُوه بَينَكُم ، وَعلَى قَدرِ صَبرِكُمْ وَتَحقِيقِه بَينكم .. لَكُم الضَّمانَة بِأَنَّه سَيُحَقِّقُهُ فِي العالَمِ .

نُرِيدُ لِلعالَمِ أُلفَةً .. حَقِّقُوها بَينكم ، نُرِيدُ لِلعالَمِ صَفاءً .. حَقِّقوه بَينكم ، نُرِيدُ للعالَمِ إِيثارَ الله عَلى ما سِواه .. حَقِّقوه بَينكم ، نُرِيدُ لِلعالَمِ تَعاوُناً يَنتَشِر بَينَهُم .. حَقِّقوه بَينكم ، نُرِيدُ لِلعالَمِ تَواضُعاً .. حَقِّقُوهُ بَينكم ، وَما تُحَقِّقونه بَينكم فالله تَعالى مُحقِّقٌ أَضعافَه فِي عالَمِكُم فِي أُمَّة نَبِيِّه ، لا بِنا ولا بِجُهدِنا وَلَكِن سَبقُ رَحمَتِه اقتَضَى ذَلِك، وَلِهَذا قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء:٨٤] والباقي لَيسَ عَلَيك ، سُبحانَ القَوِيِّ .

لابُدَّ أَنْ تَقوَى بَينكم الأَوصافُ الَّتِي نُرِيدُ نَشرَها فِي الأُمَّةِ حَتَّى تَكُونَ بَينَكُم فِي غايَةِ القُوَّةِ ، وَبَعدَ ذَلِكَ يَكُونُ نَشرُها قَرِيباً وَسَهلاً مِن الله ، نُرِيدُ الأُمَّةَ تُعَظِّمُ الدِّينَ..

انشُرُوهُ بَينكم ، نُرِيدُ الأُمَّةَ تَعشَقُ الصَّلَواتِ والأَورادَ والقُرآنَ.. حَقِّقُوهُ بَينكُم ، لابُدَّ مِن هَذا ، واعرِفُوا خُطاكُم كَيفَ تَمشُون ، امشُوا بِثَباتٍ وَطُمَأْنِينَةٍ ، وَهِمَّةٍ وَعَزِيمَةٍ ، وَعِنايَةُ الحَقِّ هِي الَّتِي تُصلِح الأُمُور .

الباب الرابع

الجدّية، ضوابطها وأهميّتها في حياة الدّاعي والسّالك، وأهميّة السّكينة والوقار

موضّحا معاني الجنديّة وصفات أصحابها

قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ لابُدَّ أَنْ تَتعَلَّمُوا مَعانِيَ الجِدِّ حَتَّى تَدخُلُوا فِي هَذا الأَمرِ بِجِدٍّ ، **الجُنْدِيَّة مَربُوطَةٌ بِالجِدِّيَّة ، وَحَيثُ لا جِدَّ لا جُنْد** ، وبَعدَ ذَلِكَ مَظاهِرُ الجِدِّ وَآثارُه تَتَلَخَّص فِي (**رُهبانٌ بِاللَّيلِ.. فُرسانٌ بِالنَّهارِ..**) ، الجِدُّ لَه مَعانٍ ، وَتَقتَضِي أَنَّ صاحِبَ كلِّ مَنْزِلَةٍ أَو مَرتَبَةٍ فِي وَصفٍ أَو عَمَلٍ يَرتَفِع إِلى أَعلَى ، وَيَرتَقِي فِيهِ .

فالرِّضى بِمَنزِلَةٍ أَو حالَةٍ .. ينافِي الجِدَّ ، وَلِهَذا نَحتاجُ إِلَى تَوسِيعِ النِّطاقِ مَعَ أَهلِ كلِّ مُستَوى ، يَنبَغِي أَنْ يَرتَفِعُوا فِي مُستَواهُم ، فالجَـدُّ فِي الجِدِّ ، وُجُودُ الجِدِّيَّة باطِناً بِتَعظِيمِ الأَمرِ ، وَظاهِراً بِمُواصَلةِ الوَسائِل ، وَمتابَعةِ السَّيرِ ، يَنعَكِسُ عَلى المخاطَبِينَ، وَيَنعَكِسُ عَلى المعارِضِينَ والمعْتَرِضِينَ ، فَبِالقِيامِ بِوَصفِ الجِدِّيَّة .. تَذُوبُ جِبالٌ مِن الاعتِراض ، كَما أَنَّها أَيضاً يَنبَنِي عَلَيها حُسنُ النَّظَرِ فِي الأُمُورِ ، وَعَدَمَ الاقتِصارِ عَلَى الأُسلُوبِ الواحِدِ ، أَو الوَسِيلَةِ الواحِدَةِ .

بَعضُ النّاسِ يَظنُّ أَنَّ الجِدَّ عِندَه أُسلُوبٌ واحِدٌ يُرِيدُ أَن يَفرِضَه عَلَى الخَلقِ كُلِّهِم ، هَذا لَيسَ بِجِدّ ، هَذا اسمُه «**كَدٌّ بِلا قاعِدَة**» ، لابُدَّ أَنْ تُراعِي اختِلافَ الأَشخاصِ ، اختِلافَ النّاسِ ، اختِلافَ الوَسائِلِ ، اختِلافَ الخِطابِ مَعَهُم ، اختِلافَ المكانَةِ لَهم، اختِلافَ الوَصفِ لَهم ، لَكِن يَكُونُ فِيها كُلِّها وَإِنْ تَعَدَّدَت واختَلَفَت هَذِهِ الوَسائِلُ رابِطَةٌ مِن عَدمِ التَضَعضُعِ والتَّـزَعزُعِ والتَّقَهقُرِ أَبداً .

بَعضُ النّاسِ يَظنُّ أَنَّ الجِدَّ مَعناه أَنْ يَتَشَبَّثَ بِأُسلُوبٍ مُعيَّنٍ لا يَتكَلَّمُ إِلا بِه ، والثّانِي يَظُنّ أَنَّ استِخدامَ الوَسائِلِ بِالحِكمَةِ .. مَعناهُ إِهمالُ الأُمُورِ والتَّراخِي فِيها ، وَكِلاهُما خاطِئان ، لَيسَ الجِدُّ هَكَذا ، الجِدُّ يُشبِهُ التَّجوِيدَ، وَهوَ إِعطاءُ الحَرفِ حَقَّه وَمُستَحقَه، لا تجعَل لَه مخـرَجاً آخر ، وَلا تَتنَطَّعْ فِيهِ فَتكُونَ قَد غـيَّرتَه بَعدَ ذَلِكَ ، وَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ

مِن أَحَدِنا إذا عَمِلَ عَمَلاً أَنْ يُتقِنَه .

لابُدَّ أَنْ يَظهَرَ الفَرقُ فِي كَيفِيَّةِ سَيرِكُم ، بَل فِي نَبراتِ أَصواتِكُم ، بَلْ فِي حَرَكاتِ جَوارِحِكُم ، بَينَ هَذِهِ الفَترَةِ الَّتِي أُحَدِّثُكم عَنها ، وَبَينَ أَيّامِكُم الماضِيَةِ ، إذا ما حَدَث فِيكُم هَذا ، ما نَنتَظِرُ المُرتَجى مِن حُدُوثِ الأَمرِ عَلَى أَيدِيكُم فِي غَيرِكُم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] .

فَبِدايَةُ تَغَيُّراتِ العالَمِ مِن عِندِ أَنفُسِنا ، كَم لَك سَنَواتٍ وَأَنتَ مُتَّصِلٌ بِهَذا الخَيرِ ، وَصَلتَ مَعَه إِلَى أَين ؟ وَوَصَلتَ إِلَى أَيِّ رُتبَةٍ مِن حَيثُ استِعدادُك لِلنَّقدِ ، استِقبالُك لِلاعتِراضِ ، فَرَحُكَ بِالنُّصحِ ، سُرعَةُ تَدارُكِكَ لِلأَخطاءِ ، مُعالَجَةُ واقِعِك ، كُلُّ هَذِهِ الأُمُورِ ، تَقتَضِي هَذِهِ المَرحَلَةِ ارتِقاءً فِيها ، تَحَقُّقاً بِها ، واعتِلاءً فِي دَرَجاتِها ، لَك سَنَةٌ ، سَنَتان ، ثَلاثُ سَنَواتٍ ؟ هُناكَ كَشّافَةٌ تُبَصِّرُك بِمَوقِعِ الاختِلاطِ ، لا يَزالُ الأَمرُ مَخلُوطاً عَلَيك ، اختَلَطَ جِدُّه بِنِسبَةِ الأَمرِ إِلَى نَفسِه ، يَختَلِطُ جِدُّه بِانتِقاصِ الغَيرِ ، إِقدامُهُ وَعَزمُهُ بِعَصَبِيَّتِهِ ، يَختَلِطُ عَلَيه تَأَنِّيهِ وَوَقارُهُ بِكَسَلِهِ وَتَقَهقُرِه ، كَم سَنَواتٍ وَما أَخَذْتَ لَك كَشّافَةً تُوَضِّحُ لَك هَذا الأَمرَ ؟

فَرقٌ بَينَ الكَسَلِ والتَأَنِّي ، فَرقٌ بَينَ الجِدِّ وَنِسبَةِ الأَمرِ إِلَى النَّفسِ ، فَرقٌ بَينَ الجِدِّ والتَعَجْرُفِ فِي شَيءٍ مِن المَواقِفِ ، والبَعضُ يَأتِي مَثَلاً فِي سَبِيلٍ يُحَقِّقُ هَدَفاً مُعَيَّناً فَيُفَسِّرُ الجِدَّ فِيهِ بِأَن يَكُونَ سَيِّءَ الرَّدِّ عَلَى مَن يَعتَرِضُهُ ، أَو يَكُونَ سَرِيعَ الانفِعالِ لِما يُصادِفُهُ مِن مَقاطِعَ فِي الطَّرِيقِ ، لَيسَ هَذا بِجِدٍّ .. بَلْ هَذا اسمُهُ ضَعفٌ ، بَعضُهُ عَجَلَةٌ[١] وَيَظُنُّه الإِنسانُ جِدّاً ، وأَكثَرُ ما يَكُونُ ذَلِكَ بِاختِلاطِ حَظِّ النُّفُوسِ فِي طَلَبِ القُدُّوسِ ، والعِنايَةُ حاصِلَةٌ لَكِن تُرِيدُ وِجهَةٌ مِنّا .

---

(١) عَجَلَة : مِن الاستِعجالِ .

الجدية في شؤون الدعوة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: يَنبَغِي أَنْ نَأخُذَ شُؤونَنا بِجِدِّيَّةٍ ، وَهَذِهِ الجِدِّيةُ سَتُثمِرُ لَنا الوَسائِلَ والأساليبَ الَّتِي نَجلِبُ بِها النَّاسَ ، والَّتِي تُقَرِّبُهُم وَتُحَبِّبُهُم ؛ لأَنَّ الخالِقَ الَّذِي خَلَقَهم رَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ رِضاه وقُربَه ، يَقُولُ حَبِيبُه صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم : «والله لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً واحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمُرِ النَّعَمْ»[1] خُذها بِيَمِينٍ مِن عِندِه صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم ، ويقول «خَيرٌ لَكَ مما طَلَعَت عَلَيهِ الشمْسُ»[2] .

لِهَذا عارٌ[3] عَلى مُنتَمٍ إِلَيهِ ، مُنتَسِبٍ لِدِينِه وَدَعوَتِه ، يَمرُّ عَلَيه أُسبُوعٌ ، أَو شهرٌ ، أو سَنَةٌ وَلا أَحَدَ يَهتَدِي عَلَى يَدِهِ ، فَأَنتَ مُهِمَّتُكَ فِي الحَياةِ ماذا ؟ وَظِيفَتُكَ ماذا ؟ ما تتحَرَّكُ ؟ ما تَعمَلُ ؟ مَهما تَحَرَّكْتَ وَعَمِلْتَ وَأَخلَصْتَ ، لابُدَّ وَخاصَّةً فِي الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ يَهدِي الله عَلَى يَدَيكَ أُناساً كَثِيرِينَ ، وَخاصَّةً فِي هَذا الزَّمَنِ ، الَّذِي هُوَ مَطلَعُ القَرنِ الخامِسِ عَشَر الهِجرِيِّ .

وَكُلَّ قَرْنٍ يُجَدِّدُ اللهُ فِيهِ دِينَه ، هَذا عَلَى مَدَى التَّارِيخ ، كُلَّما تَمرُّ فَتْرَةٌ وَنَوْمَةٌ وَرَقْدَةٌ وَغَفْلَةٌ ، يَأتِي اللهُ بِحرَكةٍ وَقَوْمَةٍ ، حَتَّى يَعلَمَ النَّاسُ أَنَّ الحَرَكَةَ رِعايَتُها فوقِيَّةٌ ، جَمِيعُ القُوَى الأَرضِيَّة تَمشِي لإِخمادِها وَهِي تَظهَر ، جَمِيعُ القُوَى الأَرضِيَّة تَمشِي لإِطفائِها وَهِي تَزِيدُ ، هَكَذا عَلى مَدَى القُرُونِ .

العِداءُ لَها مِن أَيّامٍ كان بَنُو قَينقاع وبَنو النَّضِيرِ وَبَنُو قُرَيظَةَ يُعادُونَ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم فِي المَدِينَة ، وَلا يَزالُونَ يُفَكِّرُونَ فِي عِدائِهِ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

(١) مُتَّفَق عَلَيه مِن حَدِيثِ سَهل بن سَعدٍ أَنَّه قال ذَلك لِسَيِّدِنا عَلِيٍّ فِي غَزوَةِ خَيبر.

(٢) رَواهُ الحاكِم مِن حَدِيثِ أَبِي رافِع حِينَما بَعثَ النَّبِي ﷺ عَلِيّاً كَرَّم الله وَجهَه إِلَى اليَمَنِ.

(٣) أي: خِزيٌ وَذُلٌّ .

مكانة المنتمي لطريقة الدعوة

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ أَصحابُ الأَحزابِ الأَرضِيَّةِ ، كَيفَ يَجعَلُونَ مَنزِلَةَ المَوظَّفِ أَو العُضوِ العامِلِ باجتِهادٍ وبإِخلاصٍ وَبِقُوَّةٍ وَمُواظَبَةٍ ، يَرفَعُونَ دَرَجَتَهُ ، وَيَتَركَّزُ عَلَيهِ أَمرُهُم ، وَيَكونُ مَرمُوقاً بَينَهُم ، وَيُعطُونَه مكافآتٍ ، هَكَذا عادَتهُم ، كُلَّما شَعرَ هُوَ أَنَّ الدّائِرةَ الَّتِي يَشتَغِلُ فِيها أَو الحِزبَ الَّذِي يَنتَمِي إِلَيهِ قَوِيٌّ وَمُتَمكِّنٌ فِي الدَّولَةِ وَلَه مُستَقبَلٌ ، تَكُونَ حَرَكَتُهُ فِيهِ نَشِيطَةٌ وَبِقُوَّةٍ ، لَكِن أَصحابَ الطَّرِيقِ هَذا .. الدَّولَةُ لَهم فِي القِيامَةِ ، وَلِهَذا ما هُناكَ عَظَمَةٌ عِندَ أَيِّ حِزبٍ وَلا عِندَ أَيِّ اتِّـجاهٍ مِثل العَظَمَةِ عِندَ أَهلِ هَذا الاتِّجاهِ الشَّرِيفِ ؛ لأَنَّ القائِدَ لِحِزبِهِم عِندَما يَسكُتُ حَمَلَةُ العَرشِ وَجِبرِيلُ وَمِيكائِيلُ والأَنبِياءُ كُلُّهُم .. هُوَ يَتَـكلَّمُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ، وَلِهَذا ما هُناكَ حِزبٌ يَتَأَتَّى تَمثِيلُهُم بِهِ ؛ لأَنَّ هَذا القائِدَ شَأنُهُ شَأنٌ رَوحانِيٌّ سَماوِيٌّ .

يَجِبُ عَلى المنتَمِي لِلطَّرِيقَةِ هَذِهِ أَنْ يَعرِفَ صِلَتَه ، وَأَنْ يَعرِفَ العَظَمَةَ الَّتِي يَنتَمِي إِلَيها ، مِن هُنا يَنبَغِي أَنْ يَكُونَ مِن أَسبَقِ النّاسِ بِالمواظَـبَةِ إِلَى الالتِزامِ بِالوَقتِ ، إِلَى بَذلِ الجُهدِ ، إِلَى الاهتِمامِ بِالأَمرِ ، وَتَقدِيمِهِ[1] عَلَى أَيِّ مَقصَدٍ آخرَ أَو أَيِّ شُغلٍ ، أَو أَيِّ عَمَلٍ آخَرَ حَسبَ الاستِطاعَةِ .

يَجِبُ عَلَى الواحِدِ مِنّا أَنْ يَستَشعِرَ أَنَّه مُنتَمٍ لِدَولَةٍ عَظِيمَةٍ ، دَولَةِ المصطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم ، وَإِلَى شَأنٍ فَخِيمٍ عَظِيمٍ جِدّاً ، مِن هُنا نَحتاجُ إِلَى أَن نَقتَلِعَ جَمِيعَ جَوانِبِ الإِهمالِ ، والتَّأَخُّرِ ، والتَّراخِي ، والتَّكاسُلِ ، عَلَينا فَقَط أَن نَعرِفَ أَنَّنا مُنتَمُونَ إِلَى مَنْ ؟! إِذا عَرَفنا هَذِهِ العَظَمَةَ فَيَجِبُ أَنْ تُقتَلَعَ جَوانِبُ الإِهمالِ مِنْ جُذُورِها فَلا نَحتاجُ إِلَى كَلامٍ فِيها ، وَلا إِلَى تَردِيدٍ ، وَلا إِلَى حَثٍّ ، أَنتَ تَعرِفُ

---

(١) أَي: تَقدِيمُ أَمرِ اهتِمامِهِ بِشُؤُونِ الدَّعوَةِ .

وَضعُكَ إِلَى أَينَ ؟ وانتِماؤُكَ إِلَى أَينَ ؟ النّاسُ يَخسَرُونَ وَيَتعَبُونَ وَيَسهَرُونَ وَيَجتَهِدُونَ وَيَكِدُّونَ مِن أَجلِ تَحقِيقِهِم لِرِباطٍ أَرضِيٍّ ، مادِّيٍّ ، قاصِرٍ ، مُنْتَهٍ ، رُبَّما يُورِثُ خِزْيا، أَو يُورِثُ مَشَقَّةً فِي الآخِرَةِ ، وَأَنتَ تَرتَبِطُ بِشَأنٍ عُلْوِيٍّ ، سَماوِيٍّ ، رَبّانِيٍّ ، إِلَهِيٍّ ، عَظِيمٍ، واسِعٍ .

فَلِهَذا يَجِبُ أَنْ تَقتَلِعَ جَمِيعَ جُذُورِ التَأَخُّرِ والتَّكاسُلِ والإِهمالِ لِلأُمُورِ ؛ لأَنَّه أَعظَمَ ما تُباشِرُهُ أَو تَقُومُ بِهِ فِي حَياتِكَ ، أَو المَقصُودُ مِن خَلقِكَ ، وَخَلقِ السَّماءِ مِن فَوقِكَ، وَخَلْقِ الأَرضِ لَكَ وَبَسْطِها ، وَإِرْساءِ الجِبالِ عَلَيها ، كُلُّ المَقصُودِ مِن ذَلِكَ هَذِهِ العِبادَةُ المُتَمَثِّلَةُ فِي عَمُودِها ، **وَعَمُودُ العِبادَةِ** : الدَّعوَةُ إِلَى الله سُبحانَه وَتَعالَى بِالصِّدقِ والإِخلاصِ مَع الله ؛ لأَنه لَولاها لَمَا قامَت عِبادَةٌ .

لَو لَم يَقُمْ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم بِالدَّعوَةِ هَل سَيَعرِفُ سَيِّدُنا أَبوبَكرٍ كَيفَ يَعبُدُ الله ؟ وَهَل سَيَعرِف سَيِّدُنا عَلِيٌّ كَيفَ يَعبُدُ الله ؟ وَكَذَلِكَ خَدِيجَةُ بِنتُ خُوَيلِد ، وَبِلالُ بنُ أَبِي رَباحٍ والسّابِقُونَ إِلَى الإِسلامِ ، كُلُّهُم ما عَرِفُوا العِبادَةَ إِلا بِواسِطَةِ الدَّعوَةِ ، وَهَكذا كُلُّ واحِدٍ مِنكُم يَكون سَبَباً لِجَلبِ مَنْ وَراءَه ، وَجَذْبِه إِلَى الخَيرِ .

كَذَلِكَ عَلَى الواحِدِ مِنْكُم لَمّا يَحضُرُ جَلْسَةً مِن جَلَساتِ الدَّعوَةِ أَو التَّفكِيرِ ، يَحضُر بِفِكرِهِ ، وَعَقلِهِ ، وَهَمِّهِ ، وَوِجْهَتِهِ ؛ لأَنَّها وَظِيفَتُهُ السّامِيَةُ العالِيَةُ الكَبِيرةُ ، الَّتِي يُبْنَى عَلَيها مُستَقبَلُه الأَبَدِيُّ الخالِدُ ، الكَبِيرُ الطَّوِيلُ الدّائِمُ ، أَنتَ مُسْتَقْبِلٌ حَياةً لَيسَ لَها نِهايَةٌ ، بِحَيثُ يَكونُ فِي بالِ الواحِدِ مِنكُم أَنَّنا فِي هَذِهِ الوِجْهَةِ والعَمَلِ مُتَرَفِّعُونَ عَن جَمِيعِ الانْتِساباتِ والاتِّجاهاتِ والوَلاءاتِ لِغَيرِ الرَّبِّ سُبحانَه وَتَعالَى ، وَمِنْ أَجلِهِ فَقَط نُوالِي رُسُلَه ، وَأَنبِياءَه وَمَلائِكَتَه وَكُتُبَه ، وَنُوالِي أَولِياءَه ، إِذا كانَ الأَمرُ

كَذلِكَ وَصدَقْنا فِيهِ فَسَعادةُ الدُّنيا والآخرَةِ كُلِّها مَصْبُوبةٌ عَلَينا ، مَهما صَدَقْنا فِي هَذا، وَتوَجَّهْنا إلَيْهِ بِوجْهَةٍ صادِقَةٍ .

فيما يتعلّق بشأن بعض الملاحظات التي لاحظها سيّدي أثناء القيام بالخدمة لهذه الدّعوة مع العاملين في دار المصطفى

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنفعنا بِهِ[1] ماذا عِنْدَكُم ؟ يَجِبُ إِعادةُ النَّظرِ فِي صِلَتِكُم بِالعَمَلِ ، وَيحصُلُ كَثِيراً مِنَ التَّرتِيبِ لا يقامُ بِه :

* تَفْرِيغُ جَماعاتٍ ما تَسْتَقِرُّ فِي عَمَلِها .
* يَحصُلُ تَغيُّبُ الأفرادِ فِي وقْتِ طَلَبِ حُضُورِهِم .
* يَحصُلُ تكاسُلُ جماعاتٍ وأفرادٍ بالقِيامِ بأَعْمالِهِم .
* يَحصُلُ أخذُ الواحِدِ منّا لأَعْمالٍ ما يُطِيقُها فلا يَقْدِرُ أَنْ يُتْقِنُ هنا ولا هُناك .
* يَحصُلُ أداءُ بعضِ الأَعْمالِ بلا إتْقانٍ ولا إحْسانٍ .
* يَحصُلُ تَوَقُّفٌ فِي تَوسِيعِ بَعضِ آفاقِ الفَهْمِ أَو التَّعامُلِ أَو الفِكْرِ أَو الذَّوْقِ .
* يَحصُلُ إذا وُجِّهَ بَعضُهُم إِلَى مُلاحَظَةِ قَلْبِه وَنفْسِهِ وَسُلُوكِهِ .. أَهمَلَ أَعْمالَهُ ، وَإِذا وُجِّهَ إلى القِيامِ بِالعَمَلِ .. أَهمَلَ قَلْبَه .
* يَحصُلُ نَقْصٌ فِي بعضِ شُؤُونِ التَّآخِي وَبَعضِ شُؤُونِ التَّعامُلِ لا يُتَدارَكُ[2] .

فَهَذِهِ الأَشْياءُ تَحتاجُ مِنكم إِلَى إعادَةِ النَّظَرِ فِي عَمَلِكُم وَفِي صِلَتِكُم بِالعَمَلِ .

فالحاصِلُ أَنَّ المتَعَلِّقاتِ بِشَأنِ عَمَلِكُم تَأْخُذُ فِي الاتِّساعِ بِشَكلٍ غَرِيبٍ ، عَلَى مُستَوَى

---

(١) لَيلَةَ السَّبتِ ١٨ من شَهرِ رَبيعِ الثّاني ١٤٢٠ هـ .
(٢) أي: لا يُصَحَّحُ ولا يُعالَجُ .

العالَمِ ، فالنَّقصُ فِي الاسْتِيعابِ والفَهْمِ والانْتِظامِ والإِحسانِ والتَّرابُطِ والتَّداخُلِ والرُّقِيِّ المعنَوِيِّ ، يُسَبِّبُ كَثِيراً مِن الإِشْكالِ عَلَى الأَفْرادِ أَنفُسِهِم .

أَمّا شُؤُونُ العَمَلِ .. ما هِي بِنا وَلا بِكُم قائِمَةٌ ، كانَ بَعضُهُم يَقُولُ لِلعَمِّ مُحَمَّدِ الهَدّارِ[1] رحمهُ اللهُ : «سأَذْهَبُ وأَتْرُكُ الرِّباطَ[2]» . فيَقُولُ لَه : «الرِّباطُ لَمْ يَقُم بِي ولا بِكْ» ، فَقَد تَقَوَّمَ أساسُه وانْتَهَتِ المَسْأَلَةُ وَلَيستْ مُنْتَظِرَةً لأَحَدٍ ، رِعايَةُ الأَحَدِ تَكْفِيها، وَكَذَلِكَ شَأْنُ هَذا العَمَلِ .

فَلابُدَّ مِن إِعادَةِ النَّظَرِ مِن حَيث إِدْراكِكُم أَنَّ الذي عِنْدَه ضَعْفٌ أو نَقْصٌ يَكْتَفِي المشارَكَةِ المسْتَطاعَةِ مِن بَعِيدٍ ، وَلا يَدْخُلُ إِلَى مَحَلِّ الخُصُوصِ والخُصُوصِيّاتِ ، وَإِنْ يُرِدْ تَرْكَها عَلَى ضُعْفٍ وَهَجرٍ فَلَيسَ هَذا الأَمرُ بِصَحِيحٍ ، أَمّا إذا أَرادَ الدُّخُولَ فِي مَحَلِّ مَخْصُوصٍ فَلابدَّ مِن خُصُوصِيَّةٍ ، والمسلِمُونَ تَسَعُهُم دائِرَةُ كُلٍّ فِي مَجالِهِ وَمِن مَحَلِّه ، وَيُؤَدِّي مُستَطاعَهُ .

وَلَكِنَّ شَأنَ الانْتِماءِ لِهَذِهِ الدَّعوَةِ المحَمَّدِيَّةِ وَهَذا العَمَلِ شَأْنٌ راقٍ جِدّاً ، شَأْنُ تَفانٍ ، شَأْنُ اتِّصالٍ بِالوَفاءِ بالعَهْدِ الرَّبانِيِّ نَفْسِهِ ، أَمّا كُلَّ يَوْمٍ يُقَدِّمُ أَعْذاراً ، كُلَّ يوم

---

(١) الحَبِيبُ مُحَمَّد بن عَبد الله الهَدّار : وُلِدَ سَنَة ١٣٤٠هـ بِقَريَة عَزَّة إحدَى قُرَى البَيضاءِ بِاليَمَنِ، رَحَلَ إِلَى تَرِيم بِحَضرَمَوت لِتَلَقِّي العِلمِ الشَّرِيفِ فِي رِباطِ تَرِيم حَتَّى وَفاةِ الحَبِيب عَبدِالله بن عُمَرَ الشّاطِرِي سَنَة ١٣٦١هـ، فعادَ إِلَى بَلَدِهِ داعِياً ثُمَّ سافَرَ إِلَى الصُّومال حَتَّى سَنَة ١٣٨٠هـ، واستَقَرَّ بِالبَيضاء وَبَنَى رِباطَه المشهُور بِها ، وَلا يَزال عَلَى هَذا الحال حَتَّى تَوَفّاه الله تَعالَى بِمَكَّة المكَرَّمَة سَنَة ١٤١٨هـ . انظُر «جَني القِطافِ» ص٤٠٩ .

(٢) رِباطُ الهَدّار بِمَدِينَةِ البَيضاء ، أَسَّسَه الحَبِيبُ محمَّد الهَدّار سَنَة ١٣٨٠هـ حَيثُ استَقَرَّ بِه المقام بِالبَيضاء ، وَقَد أُقِيمَ عَلَى غِرارِ رِباطِ تَرِيم المشهُور ، واستَمَدَّ مِنه المنهاجَ وَطَرِيقَةَ التَّدرِيسِ .

يُبْدِي اعْتِذاراً ، يَطلُبُونَ مِنهُ الحُضُورَ فَيَغِيبُ ، يَطلُبُونَ مِنهُ القِيامَ بِالعَمَلِ فَيَقُولُ: ما قَدِرتُ ، أَو نَسِيتُ ، فَهَذا التَّصرُّفُ لا يَلِيقُ بِالمَخصُوصِينَ ، فَلِماذا تَضَعُ نَفسَك مَع المَخصُوصِين ؟ كُنْ مَع العَوامِ وَأَنتَ فِي مَحَلِّكَ تُؤَدِّي واجِبَك ، وَأَمّا أَنْ تَصطَفَّ فِي صَفِّ الجندِيَّةِ الخاصَّةِ ، فَهَذا مَعناه : تَفانٍ وَإِتقانٌ إِلى النِّهايةِ ، هَذا مَعناه بَيعَةٌ مَع الله وَرَسولِه ، فَلا يَبقى مِن مالِكَ شَيءٌ لَك ، وَلا مِن نَفسِكَ شَيءٌ لَك .

فَلِهَذا يَجِبُ أَن نَأخُذَ الأُمُورَ بِحَقِّها ، نُرِيدُ مِنكُم مُساعَدةً عَلى إِقامَةِ هَذِهِ الأُمُورِ ، فالأَمرُ عِندَنا مَمزُوجٌ ، مِن إِتقانِ عَمَلٍ ، وَصَفاءِ باطِنٍ ، لا ذا يَغلِبُ عَلى ذا، ولا ذا يَغلِبُ على ذا ، كلٌّ يَجرِي مَجراه ، زِيادَةٌ فِي المَعرِفَةِ بِالله ، والفَهمِ عَنِ الله ، وَزِيادَةٌ فِي الإِحسانِ والإِتقانِ والتَّرتِيبِ ، كُلٌّ يُقَوِّي بَعضُهُ بَعضاً .

وَيَنبَغِي أَن يَنتَهِضَ الواحِدُ مِنّا لِتَدارُكِ النَّواقِصِ مِن جَوانِبِ احتِياجاتِهِ إِلَى كَثِيرٍ مِن التَّنبِيهاتِ فِي السُّلُوكِ ، أَو فِي السَّيرِ ، أَو مِن جانِبِ احتِياجاتِهِ إِلى كَثِيرٍ مِن تَوسِعَةِ الأُفُقِ فِي مَجالِ عَمَلِهِ ، وَمَظاهِرِ تَعامُلِه .

والدَّعوَةُ كَما عَلِمتُمُوها جاءَتْ مِن الحَقِّ تَعالَى عَلى يَدِ رَسولِهِ مُوَجَّهةً لِلعالَمِ ، يَقُولُ الحَبِيبُ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّم «**بُعِثْتُ إِلى النّاسِ كافَّةً**»[1] ، وَتَعلَمون أَنَّ النّاسَ عُقُولُهم مُختَلِفةٌ ، وَأَخلاقُهُم مختَلِفَةٌ ، وَمَسالِكُهُم مختَلفَةٌ ، وَطَبائِعُهُم مختَلفَةٌ ، وَأَفهامُهم مختَلَفةٌ .

فَلابُدَّ أَنَّ المتَصَدِّرِينَ لهَذا العَمَلِ يَستَوعِبُونَ الأَخلاقَ المختَلَفةَ ، والطَّبائِعَ المختَلَفَة، والعُقُولَ المختَلفَةَ ، فَعِندَهُم ما يُعالِجُونَ بِهِ الكلَّ وَما يداوونَ به الكُلَّ وما يَنفَعُونَ بِهِ

---

(١) رَواه الإِمامُ أَحمَد فِي مُسنَدِهِ عَن ابنِ عَبّاس .

الكُلَّ ، فِي محافظةٍ عَلى أَدَبِهم مَع الحَقِّ تَعالَى ، وَقِيامِ العِمادِ وَهوَ إِفرادُ القَصدِ لِلحَقِّ، وَإِخلاصُ النِّيةِ لله تَعالَى ، وَشُربِ الوَلَعِ بِالقُربِ مِن حَضرتِهِ ، وابتغاءِ مرضاتِهِ بالتَّفاني وَلَو بِبَذلِ أَرواحٍ إِلَى رُوحِه ، لا بَذلِ رُوحِهِ وَحدَها لَو مَلَكَ غَيرَها .

الخُلاصَةُ أَنَّ هَذا المجالَ مَجالُ إِحسانٍ وَمَجالُ مجاهَدَةٍ ، فَلا يَنبَغِي أَنْ تَأخُذَهُ بِطَبِيعَةِ نَفسِك ، وَلا بِتَثاقُلِك وَلا بِكَسَلِك ، وَلا تَظُنَّه أَمراً عادِيّاً ، فَهَذا مِما يَنبَغي أَن نَتَنَبَّه له الآن .

والأَمرُ عِندَنا إِذا واجَهَ هَذِهِ الدَّعوةَ شَيءٌ ، فالحالُ كَما قال سَيِّدُنا أَبو بَكرٍ : (**لَو لَم أَجِدْ إِلا الشَّجَرَ والحَجَرَ لجاهَدتُهم بِه**)[١] ، المسأَلَةُ كلُّها دائِرَةٌ عَلى عُبُودِيَّةٍ ، وامتِثالِ أَمرٍ ، صاحِبُ الأَمرِ أَعلَمُ بالنَّتائِجِ والعَواقِبِ وَإِلَيه المَصِيرُ ، لَكِنْ قالَ لَهم : إِن أَنتُمُ امتَثَلْتُم واستَجَبْتُم ، وَإِلا فَلو ما مَعِي إِلا الشجَرَ والحجَرَ ، سَأُقاتِلُ بِهما ، وأَمّا أَنْ يَنقُصَ الدِّينُ وأَنا حَيٌّ ، فهَذا الذي لا أَقبَلُهُ ، وَلا أَلقَى اللهَ سُبحانَهُ وَتَعالَى بِهَذا الوَجهِ، فَهَكَذا شَأنُ هَذِهِ الدَّعوةِ ، فالله يُعِينُنا وَيَنتَخِبُنا إِن شاءَ اللهُ .

قُلتُ لَكم قَبلَ مُدَّةٍ أَنَّ الانتِخاباتِ السَّماوِيَّةَ حامِيَةٌ ، سَتَتَمَخَّضُ عَنها نَتائِجُ لَيسَت بِبَعِيدَةٍ ، وَفِيها السّابِقُ واللّاحِقُ والماحِقُ ، فَنَسأَلُ اللهَ التَّوفِيقَ .

فَلابُدَّ أَن يَرتَفِعَ هَذا التَّضَعْضُعُ[٢] مِن أَصلِهِ ، حَتَّى لا يَبقَى مَجالٌ مِن المَجالاتِ فِيه

---

(١) أَخرَجه الخَطِيبُ بِلَفظِ (**والله لَو مَنَعوني عِقالًا مما كانوا يَعطون رَسولَ الله صَلّىَ الله عَلَيهِ وَسَلَّم ثُمَّ أقبَلَ مَعَهُم الشَّجَرُ والمَدَرُ والجِنُّ والإِنسُ لَجاهَدتُهم**) ، وَأَخرَجَ البُخارِيّ وَمُسلِم بِلَفظِ (**والله لَو مَنَعُونِي عِقالاً مِما كانُوا يُعطُونَ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم لأُقاتِلَنَّهُم عَلَيهِ**) ، انظر «كنز العمال» .

(٢) أَي: الضَّعف .

مَسحَةٌ مِن تَكاسُلٍ ولا تَخاذُلٍ وَلا تَغافُلٍ وَلا تَشاغُلٍ وَلا إِهمالٍ .

عِندَكُم مَجالاتٌ كَثيرَةٌ وَكلُّ مَجالٍ لَه اتِّصالٌ بِنَـواحٍ كَثِيرَةٍ ، واتِّصالٌ بِأَعمالِ بَعضِ إِخوانِكُم فِي مَناطِقَ مُختَلِفَةٍ ، فَعلَينا أَن نَقُومَ بِها وَعلَى ما يُناسِبُها مِن الهِمَّةِ والنِّـيَّةِ ، وَحُسنِ النَّظَرِ الَّذِي يُسأَلُ مِن اللهِ تَعالَى فِيما يرضِيه عَنَّا ، وَأَن نَختارَ ما هو الخَيرُ عِندَه، وَنُقَدِّمَ ما هُو الأَهَمُّ ، وَما هُو أَحَبُّ إِلَيهِ وَإِلَى رَسُولِه وَما هُو أَرضَى لَه.

أهمية السَّكِينة في حياة الداعي

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ [1] لابُدَّ أَنْ يَنتَشِرَ مَعنَى السَّكِينَةِ والطُّمَأنِينَةِ فِي المنشَغِلِيَن بِالدَّعوَةِ إِلى الله من أَصحابِنا خُصُوصاً ، وَكُلِّ عامِلٍ عُمُوماً ، قَبلَ مُدَّةٍ تَكلمْنا على الوَقارِ بأَنَّ له ارتِباطاً بِالمرحَلَةِ الَّتِي تُقبِلُ عَلَينا ، وَلابُدَّ أَن يَكونَ العامِلُ فِي العَمَلِ مُتَمَكِّناً بِطُمَأنِينَةٍ قَوية ، أَصلُها[2] مِن اليَقِينِ ، يَكون ذَلِك بِصَفاءٍ مِن المعامَلاتِ ، وشاشَةٍ مِن المشاهداتِ ، وعَدمِ استعجالاتٍ للنَتائج .

هَذِهِ الأمُورُ مترابطَةٌ ، تَقوَّى مِنها الفَرضُ بالسُّنَّةِ ، والسُّنةُ بالفَرْضِ ، وَيَأتِي الكُلُّ بِالبَعضِ، والبَعضُ بِالكلِّ ، وصَفاءُ القَلبِ تَحقُّق بالعُبودِيَّةِ للَّربِّ ، وَقَد خَلقَ الخَلْقَ لِيَرْبَحُوا عَلَيهِ .

فالرَّبّانِيُّ تَنْمَحِي مادَّةُ البُغْضِ مِنه ، فَما يَعْرِفُ الحِقْدَ عَلَى أَحَدٍ ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم : «**اللهُمَّ اهْدِ قَومِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُون**»[3] ، هَذا إِمامُنا هَكَذا ، وَلَنا

---

(١) مَساء الثُّلاثاء ٢٤ مِن شَهرِ جمادى الأوَّل ١٤١٩ هـ .

(٢) أَي: الطُّمَأنِينَة .

(٣) رَواهُ ابنُ أَبِي شَيبَةَ وَأَحمد فِي الزُّهدِ وَأَبو نُعَيمٍ . انظُر «الدُّر المنثور» لِلسِّيُوطِي .

الفَخْرُ الأكْبَرُ بالائْتِمامِ بِهِ .

إنْ قَبِلَ مِنّا مُهِمَّةَ السَّيرِ فِي الدَّعْوةِ .. سَيقْوى الرَّبْطُ بالإمامِ[1] ، وَلَه مَراتبُ ، وَمَراتبُ القُرْبِ لا تَتناهَى غاياتُها ، وَلا تَتفانَى نِهاياتُها ؛ لأَنَّ الحضْرَةَ مَجْلَى الحَضْرَةِ، وصارَتِ الحضْرَةُ الأحْمَدِيَّةُ مَجْلَى الحَضْرةِ الأحَدِيَّةِ ، فانْتَفتِ النِّهايَةُ وامْتَنَعتِ الغايةُ بسرِّ الإرادَةِ الأزَلِيَّةِ ، والإمدادِ بالصِّفاتِ والطُّمأنينة .

لأَجلِ ذلِكَ لابدَّ مِن جِدِّيَّةِ التَّفْكيرِ ، فِي تَقْرِيبِ الخَلْقِ مَع تَوسِيعِ الرَّحْمَةِ فِي بَواطِنِكُم أَنْتُم ، حَتَّى يَأْخُذَ التَّمكُنُ لإخوانِنا بالطَّمَأنِينَةِ المسْتَقاةِ مِن اليَقِينِ ، وَهو الَّذِي أَحْبَبْنا التَّوصُّلَ إليهِ عَن طَرِيقِ الوَقارِ ، حَتَّى لا تَكْثُرَ الغَيْبَةُ عَن الحَقِّ ، فَما أَعْظَمَ المتَكلِّمَ ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:٧].. تَعْلَمُ أَنْتَ مع مَن ؟! وَفِي حَضْرةِ مَن ؟!

لهذا طُلِبَتِ المُلاحَظَةُ مِنكُم سابِقاً عَلَى المنْتَسِبين لِلدَّعْوَةِ ، مِن جانِبِ الوَقارِ والجِدِّيَّةِ، وإنْهاءِ مَظاهِرِ الهزْلِ والعَبَثِ ، وَمَظاهِرِ التَّهاوُنِ والاسْتِخْفافِ ، والخِفَّةِ في حَرَكاتِ الإنسانِ وَخِطاباتِه وَكَلامِه مَع الخاصَّةِ والعامَّةِ في مُخْتلفِ الأَماكِنِ ، حَتى يَكونَ مُؤثِّراً وَشاهِداً فِي وُجُودِ مَشْهَدِ حُضُورٍ مَع الحَقِّ ، وَرَقابَةٍ له فِي الباطِنِ يَتوصَّلُ بِذَلِكَ إذا تَمَّ لَه نَصِيبٌ مِنَ اليَقِينِ ، فَيَنْعَكِسُ إلَى جانِبِ الطُّمأنينة ، وَإبْعادِ الرِّفْعةِ والمنْزلةِ عِنْد الخَلْقِ ، فيبدأُ يَعْرِفُ أَنَّ الخَلْقَ خَلْقٌ ، والخالِقَ خالِقٌ ، فَلا يَخْلِطُ ، حَتَّى كَثيرٌ مِن أَرْبابِ المجاهَدَةِ لا يَتَخَلَّصونَ مِن هَذا الخَلْطِ إلا بِعِنايـةٍ مِن اللهُ ، فَما سِواهُ العَدَمُ ، وكلُّ العَدَمِ قد عُدِمَ .

---

(١) وَهوَ الحَبِيبُ المصطَفَى صَلى الله عَليه وَآله وَصَحبِه وَسَلَّم إمام الأنبياءِ والمرسَلِين .

أهميّة التّحلّي بالسّكينة والوقار في شؤوننا المختلفة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: مُعاناةُ النَّقصِ فِي الوَقارِ لا زالَتْ مُنْتَشِرةً ، وَتَرْجِعُ بَعضُها إلى الاعْتِيادِ لِـمَسْكِ يدٍ أو شَدٍّ في الكلامِ[1] ، أو كُثْرٍ فِي المِزاحِ ، وَإِذا انتَشَرَ مِن واحِدٍ إلى واحِدٍ يَبقَى كالمُعتادِ بَينَهُم ، وَلَكِن **لا نُقِـرُّ المعتادَ المانِعَ لِلإمدادِ** .

وُجودُ الوَقارِ والسَّكِينَةِ .. لسانُ حالِ الدَّعوَةِ ، وَكانَت هَذِهِ اللِّسانُ كَثيرةَ النُّطقِ بَينَ رِجالِنا الأَوائِلِ ، فكانَ كُلُّ ناظِرٍ إِلَيهِم يَتَأَثَّرُ حَتَّى الجَمادُ ، فَهَذا الأَمرُ نُرِيدُ انتباهاً مِنه ؛ لأَنَّه قاعِدَةٌ لِلإمدادِ ، وَلابُدَّ لِكُلِّ واحِدٍ أَنْ يَلبَسَ هَذا اللِّباسَ ، وَهوَ لِباسُ أَهلِ الدِّعوَةِ ، إِنَّما يَكونُ المِزاحُ فِي وَقتِهِ ، وَعَلى وَجهِهِ .

فَينبَغِي الحَدُّ عَنِ الابتِذالِ وَكَثرَةِ الهَزلِ ، تَتَّخِذُونَ وَسائِلَ فِي هَذا المَجالِ ، لِنَشرِ ثَوبِ الوَقارِ بَين الطُّلابِ ، بِحَيثُ يَبقى راسِخاً فِيهِم حيثُما كانُوا .

فيما يتعلق بشأن السّكينة والوقار

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[2] نُرِيد مِنكُم خاصَّةً فِي هَذِهِ المَرحَلَةِ بَعدَ فَتحِ مِثلِ هَذِهِ الأبوابِ.. أَنْ تَتَّصِفُوا بِشَيءٍ مِن انتِشارِ الوَقارِ بَينكُم ، حَتَّى يَأخُذَ بِمَجالِهِ وَطَرِيقِهِ فِي الانتِشارِ ، وَمِن جُمْلَةِ الأَسبابِ الَّتي يَحصلُ بِها ضَعفٌ فِي الصُّورةِ ، وَنَقصٌ بِسَبَبِها فِي حِيازَةِ المَدلولاتِ الواسِعةِ .. زِيادةُ المِزاحِ ، والأَخذُ بأكثَرَ مِن حَجمِه ، وَقِلَّةُ الجِدِّ .

فَنُرِيدُ أَنْ تَنتَظِمَ شُؤُونُ مزاحِكم وَمُباسَطَتِكم ، فِيما بَينكم وَعِندَ قِيامِكُم بِأَعمالِكُم ، فَهَذا الأَمرُ استَشْرَى[3] فِي كَثِيرٍ مِن المشتَغِلِين بِالدَّعوَةِ ، تَعَوَّدُوا كَثرةَ الضَّحِكِ وَكَثرة

(١) أي: رَفع صَوتٍ يُخِلُّ بِالمُرُوءَةِ والأَدَبِ .
(٢) لَيلَةُ السَّبتِ ١٧ مِن شَهرِ صَفَر ١٤١٩هـ .
(٣) أي : انتَشَرَ .

المِزاحِ ، **والجِدُّ إِذا اختَلَطَ بِالهَـزلِ صارَ هَزلاً** ، فلا يُقْبَلُ صاحِبُه ، فَلِهَذا يُرِيدُ منّا حُسنَ مِقياسٍ .

فيما يتعلّق بصدق الوجهة التي تظهر من خلال الثّبات ومظاهر السّكينة والوقار

وقال رضي الله عنه ونفعنا به(١) الأعمارُ فِي حَياتِنا قَلِيلَةٌ أَمامَ الأَعمالِ المطلُوبَةِ والواجِبَةِ فِيها، إِلاّ أَنَّ القَليلَ إِذا بارَكَ فِيهِ الرَّحمنُ عادَ كثيراً ، اللهُ يباركُ لنا وَلَكُم فِي الأَوقاتِ والسّاعاتِ.

وَإِنَّما تَحصُلُ البَركَةُ لِمَن يَهتمُّ بِالوَقتِ وَبِمُرُورِهِ ، وَمَن لَمْ يَهتَم بمُرورِ الأوقاتِ وَلا يَطلُبُ البَركَةَ فِيها وَلا يَهتمُّ بِفَواتِها وَضياعِها .. صاحبُ غَفلةٍ وجَهالةٍ ، اللهُ يُبارِكُ لَنا وَلَكُم فِي الأَوقاتِ والأَعمارِ إِن شاءَ اللهُ .

مُواصَلةُ العَـمَلِ هِي الحالَةُ الجَمِيلَةُ عَلى وَجهِ الإِتقانِ وَتَقدِيمِ الأَهَمِّ عَلَى المهِمِّ، وَليسَ الفِقهُ أَنْ تُفَرِّقَ بَينَ الخَيرِ والشَّرِّ ، وَلكنْ أن تُمَيِّزَ بَينَ خَيرِ الخَيرينِ وَشَرِّ الشرَّينِ.

وانطِلاقُكُم فِي العَمَلِ مَعَ تَحقُّقِكُم بِصدقِ الإِقبالِ ، وَطَلبِكُم لِلتَّخلِّي فِيه عَن المَذمُوماتِ فِي الأَوصافِ عَلامَةُ صِحةِ القَصدِ ، والسَّعةُ والقوَّةُ فِي تَآخِيكُم الصّادقِ وَمحَبتِكُم الأَكِيدَةِ المتَخَلِّلةِ لِلباطِنِ والأَعضاءِ كُلُّها آيةُ النُّجْحِ .

وَلَيسَ مِن قاطِعٍ يَقطَعُ بَينَ الإنسانِ وَأَخِيهِ إِلا تَموِيهُ الخَيالاتِ الَّتِي تُوقِعُهُ فِي طَلَبِ ما حَذَّره الرَّبُّ مِن طَلبِهِ ، مِن قَصدِ الجاهاتِ وَطَلبِ الحقُوقِ مِن الغَيرِ ، وَطَلبِ المَنزِلةِ بالدِّينِ فِي قُلوبِ الخَلقِ وَما إِلى ذَلِكَ ، أَو تَمَـنِّيهِ بِما لَيسَ مِن شَأنِه ، أَو تَلَبُّسُ عَليه الشَّرَّ فِي مَعرِضِ الخَيرِ ، وَغَير ذَلِكَ مِن الخَيالاتِ الَّتي تَمنعُ ، وَإِلا إِذا تَخَلَّصَ

---

(١) في ١٦ مِن شَهرِ جمادى الأول ١٤٢٠ هـ .

الإِنسانُ مِن هَذِهِ الأَوهامِ والخَيالاتِ .. ثَبتَ الأُنْسُ بَينَه وَبَين أَصنافِ الكائِناتِ ، وَربَّما ظَهرَتْ لَه بَعضُ الآياتِ فِي ذَلِكَ .

كَما قِيلَ لما رَأَوا السِّباعَ حَولَهم مُتَأدباتٍ : أَصلَحْتُمُ الظّاهِرَ فخِفتُم مِن السِّباعِ وَأَصلَحْنا الباطنَ فَخافت منّا السِّباعُ إِلى غَيرِ ذَلِكَ ، وَسَأَلُوا الآخَرَ: حِينَما أَدخلوا عَليك السَّبُعَ ليفترِسَكَ وَقد أَجاعوه فجاءَ وتأدَّبَ بَينَ يَدَيك وَقَبَّلَ رِجلَيك وَجَلَسَ حارساً لَكَ ، ولما رَأَوْا هَذِهِ الكَرامةَ أَجَلُّوه وأَبعَدُوا عنه السَّبُعَ وأَطلَقُوه ، قالوا له : اللَّحظةُ التي دَخَلَ عليكَ السَّبُعُ فيها ليفترِسَكَ وهو جائعٌ فِي ماذا كُنتَ تُفكِّرُ ؟ قالَ: كُنتُ أُفكِّرُ تِلكَ السّاعةِ فِي تَحقِيقِ مَسأَلَةِ حُكمِ سُؤْرِ السِّباعِ عِندَ الفُقَهاءِ(١) . أَرَأَيتَ كَيفَ هَذا الثَّباتُ ؟

وَلَمَا سَقَطَت الحيَّةُ فِي مَجلسِ سيِّدِنا عَبدِ القادرِ الجيلاني فَفَزِعَ بَعضُ الجُلاَّسِ وَقامُوا مِن المَجلِسِ وَهو يَتكلمُ فِي القَدَرِ ، فاستَمرَّ وَلَم يَقطَعْ دَرسَهُ وَلَم يَتَغيَّرْ وَلَم يتكدَّرْ وَلَم يَتَأَثَّرْ ، حَتَّى دَنَتْ مِنه ، ثُمَّ الْتَوتْ بِرَقَبَتِه وَهُو مُستَمِرٌ فِي حَدِيثِه لَم يَنزَعِجْ وَلَم يَرْتَجّ ، حتّى تَمَّ الأُنسُ لَه وخَرجَتِ الحيَّةُ وَمَضَت فِي شَأنِها وَهو فِي دَرسِهِ لَم يَقطَعْهُ ، وَإِنَّما هَذِهِ أَمثِلَةٌ .

وَنَحنُ نَشكُو مِن الَّذِينَ تَعلَّقُوا بِهَذا الدَّربِ الصّالحِ وَلا زالتْ عِندَهم أَنواعٌ منَوَّعةٌ مِن التَّأَثُّراتِ والانزِعاجاتِ بِأَصنافٍ مما يَعرِضُ لَهم أَو يَطرَأُ حَوالَيهم ، وَهَذِهِ الانزِعاجاتُ والتَّغَيُّراتُ والتَّأَثُّراتُ عَلامَةُ ضَعفٍ فِي الوِجهَةِ ، وَنَقصٍ فِي صِدقِ

---

(١) حَدَثَت هَذِهِ القِصَّة لِلشَّيخ أَبِي الحَسَن بُنانُ بن مُحمَّد الزّاهِد عِندَما ذَهَبَ إِلى السُّلطانِ الجائِر محمَّد بن طُولُون يُنكِر عَليه طَيشَه وَجَورَه ، فَأُدخِل عَلَيهِ الأَسَد لِيَفتَرِسَه . أُنظُر «الحِليَة» لأَبِي نُعَيم ، وَ «تارِيخ بَغداد» .

القَصدِ ، وَفَقدٍ فِي مَعانِي الثَّباتِ .

وَهِي مُترابِطَةٌ بَين شُؤُونِ الظّاهِرِ والباطِنِ ، **وَكُلَّما ثَبتَ الإِيمانُ بِرَبِّكم والصِّدقُ مَعَه.. فَلَن تَنزَعِجَ البَواطِـنُ لِما يَسكُنُ فِيها مِن طَلَبِ قُربِه وَرِضاه والأُنسِ بِه جَلَّ جَلالُهُ** ، ما يُزعِجُهُ عَن ذَلِكَ شَيءٌ مِن الكائنات بِأسرِها بِجَميعِ أَوجُهِها وَتَقلُّبِها وَمِن جَميعِ الجَوانِبِ .

فَلابُدَّ أن نَأخذَ نَصِيبُنا مِن هَذا الثَّباتِ الَّذِي هوَ مُرتَبِطٌ بَين الظّاهِرِ والباطِنِ ، أمّا شُؤُونُ الزَّخارِفِ وَحَدِيثِ النّاسِ فِي إِجلالِ ما لَيسَ بِجَلِيلٍ ، وَإِسقاطِ ما هُوَ عِندَ الحَقِّ عَظِيمٌ وَما إِلَى ذَلِكَ ، والاعتِباراتُ الَّتِي يَعتَبِرُونَها عَلى غَيرِ مِيزانِ الشَّرعِ الشَّرِيفِ كلُّ هَذِهِ ظَواهِرُ تَغُشُّ كَثِيراً مِن النّاسِ .

وَمِن ذَلِكَ أَيضاً الإِسراعُ إِلَى إِظهارِ الحَرَكَةِ وَإِظهارِ الوَجدِ أَو التَّأَثُّرِ وَما إِلَى ذَلِكَ ، وَسُرعَةُ الاستِثارَةِ عِندَ وُجُودِ مُقتَضاها مِن الكَلِماتِ النّابِيَةِ والأَلفاظِ الجارِحَةِ الَّتِي تُحرِّكُهُ بِسُرعَةٍ فَيَتَأثرُ بها ، فَهَل هَذا ثابِتٌ ؟! وَهَل هَذا صادِقٌ ؟! وهَل هَذا راسِخٌ ؟! والعَجِيبُ أَنَّ بَعضَ الدَّواعِي البَسِيطَةِ تُؤَثِّرُ عَلَيهِ بِسُرعَةٍ ، حَتى يَصِلَ البَعضُ إِلَى أَن أقَلَّ داعٍ يُضيِّعُ عَلَيهِ الوَقارَ فِي أَدنَى لَحظَةٍ ، فأَوَّلُ ما يُلاقِي صاحِبَهُ .. يُرِيدُ أَن يَمزَحَ مَعه ، فهل هَذا ثَباتٌ ؟! هَل هَذا صِدقٌ فِي الوِجهَة ؟! فَحُرِمَ كَـثِيرٌ مِنهُم التَّرَقِّي بِسَبَبِ ذَلِكَ .

أَمّا الصّادِقونَ مَع الحَقِّ فِي هَذِهِ الوِجهاتِ ، فَما تُزعِجُهم مُشاهَداتٌ شَرِيفَةٌ ، وَمَحاسِنُ بَدِيعَةٌ ، وانكِشافُ عَوالِمَ بعد عوالِمَ لأصنافٍ من العَجائِبِ ما تُؤَثِّرُ عَلَيه ، وَهَؤلاءِ يَتَأَثَّرونَ مِن كلِّ حَرَكَةٍ ، وَأَحدُهُم لا يَزالُ فِي الحِجابِ وَيُرِيدُ أَن يُحِسَّ بِكلِّ شَيءٍ ، وَكلُّ شَيءٍ يُؤَثِّرُ عَلَيه فِي الظّاهِرِ ، فَفِي العالِمِ المحسُوسِ عِندَنا ما يَحدثُ شَيءٌ

غَريبٌ إلا وَمِن عادةِ النَّفسِ أَن تَتشوَّفَ إِلَيهِ بِسرعةٍ ، يَلتَفِتُ إِلَيهِ أَحياناً وَهوَ فِي دَرسٍ أَو فِي ذِكرٍ ، مَتَى سَتَتَوجَّهُ أَنت ؟! وَبعضُهُم دائماً يجِدُ فِي نَفسِه خِفَّةً فما تَأَصَّلَتْ فِيه صِفَةُ الوَقارِ ، له سَنَواتٌ ولا يَزالُ مُضيِّعاً نَصيبَهُ من الوَقارِ .

اللهُ يَفتَحُ لنا أَبوابَ التَّثبيتِ ، وَيرزقُنا الثَّباتَ وَأَصحابَنا وَأَحبابَنا وأَهلَ الوُجهَةِ فِي هَذا السَّبيلِ ، التَّنبُّهُ مِن هَذِهِ الصِّفاتِ يهَيِّئُكُمْ لِمواكَبَةِ سَيرِ الدَّعوةِ وانتشارِها فِي البَرِيّات .

وَهَذا يُعْتَبَرُ مِنّا أَدنَى التَّعَرُّضِ ، وَإِلا فالأُمورُ كلُّها قائمةٌ بِاللهِ والسَّببُ القَويُّ في كلِّ هَذا نورُ نَبيِّهِ سَيِّدِنا محمَّدِ بن عَبدِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم وَما سِوَى ذَلِكَ مَظاهِرُ.

لِـذاتِي بِـذاتِي لا لَكُـمْ أَنـا ظاهِـرٌ ... وَمـا هَـذِهِ الأَكْـوانُ إِلاّ مَظاهِـرُ

تَرسِيخُ جانِبِ الاعتِرافِ لله .. الاعترافُ لله مَعناهُ عَقيدةٌ لَيسَ مجرَّدَ قَولٍ ، الاعتِرافُ لله تعالى الذي كانَ في بَواطِنِ السّائِرينَ فِي هَذا الدَّربِ يَحتاجُ مِنّا إِلى اهتِمامٍ بِه.

أنا أَتعجَّبُ كَيفَ نَقدِرُ عَلَى هَذا الاعتِرافِ ، اُنْظُرْ لَمِن فَوقَ والَّذِي فَوقَه وَمَن فَوقَهم إِلى أَقرَبِ دَرَجاتِ القُربِ مِن الرَّبِّ ، إِلى الأَزكَى والأَطهَرِ والأَصدَقِ والأَقرَبِ يقول: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي»[1] إذاً فَنحنُ كيفَ نَعترِفُ .

فَتَشَـبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُـوا مِثْلَهُـمْ ... إِنَّ التَّشَـبُّهَ بالكِـرامِ فَـلاحُ[2]

---

(١) رَواه البُخارِيُّ مِن حَدِيثِ شَدّادِ بنِ أَوسٍ .

(٢) البَيتُ لِشهابِ الدِّين السَّهرَوَرْدِي مِن رِجالِ التَّصوُّفِ ، مِن قَصِيدَةٍ مَطلَعُها :

أَبَداً تَحِنُّ إِلَيكُم الأَرواحُ ... وَوِصالُكُم رَيحانُها والرّاحُ

ما حَقِيقَةُ الاعتِرافِ هَذا إلا مَع الطُّهرِ الأَطهَرِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، إِنَّما هُم دَرَجاتٌ عِندَ الله عَلى حَسَبِ قُربِهِم ، الله يجمَعُنا وَإيّاكم عَلى هَذِهِ الخَيرات .

مشيراً إلى بعض قواعد هذا المسلك

وقال رضي الله عنه ونفعنا به [1] **طَرِيقَتُنا** .. عَزمٌ في حَزمٍ ، وَفَهمٌ مَعَ كَتْمٍ ، وَرَبطٌ مَع ضَبطٍ ، وَخِدمَةٌ فِي هِمَّةٍ ، وَطَلَبٌ مَع أَدَبٍ ، مَع اعتِناءٍ بِتَرسِيخ الجِدِّ فِي التَّرقِّي ، مَع الاتِّزانِ فِي شُؤونِ السُّلوكِ والعِلمِ والتَّفَكُّرِ في خِدمةِ الدَّعوة .

القصد أن تواصلوا الأعمال بقوة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به جَمِيعُ قَواعِدِ الضَّبطِ والانضِباطِ والوَسَطِيَّةِ والجِدِّيَّةِ وَحُسْنِ النَّظَرِ فِي الأُمُورِ مَوجُودَةٌ فِي التَّوجِيهاتِ الفَوقِيَّة .

فالقَصدُ مِمّا نَطرَحُهُ عَلَيكم أَن تُواصِلُوا الأَعمالَ بِقُوَّةٍ ، ولا تَعبَؤُوا بِشَيءٍ ، فالكَسولُ.. جَهولٌ ، والمتَشَوِّفُ إلى مَظاهِرِ النَّصرِ .. غَفُولٌ ، والَّذِي يُرِيدُ قَطفَ الثَّمَرِ قَبلَ وَقتِهِ .. عَجُولٌ ، والَّذِي يطوِّلُ الشُّقةَ والمسافَةَ .. مَلولٌ، والَّذِي لا يُبالي بالظمأِ ولا الجوعِ .. عَقُولٌ ، والعَقُول يُوشِكُ أَنْ يَنالَ الوُصُولَ ، والواصِلُ شَأنُ فَضلِهِ وَمَجدِه يَعرُضُ وَيَطُول .

ثمرة الإقدام مع الاستسلام

وقال رضي الله عنه ونفعنا به [2] **لابُدَّ مِن إِقدامٍ واستِسلامٍ** ، فَصاحِبُ الإِقدامِ بِلا استِسلامٍ أَمرُه إِلى انهِدامٍ ، وصاحِبُ الاستِسلامِ بِلا إِقدامٍ يُفَوِّتُ المرامَ ، فلابُدَّ من استسلامٍ

(١) أَيّامِ الحَجِّ المبارَكَةِ عام ١٤١٩هـ .

(٢) عام ١٤٢٢هـ .

وإقدام ، بحيثُ تعملُ وتجتهدُ وتبذلُ وتفكِّرُ وتَضَعُ الرَّأيَ ، وأَنتَ مُستَسلِمٌ راضٍ مطمَئِنٌّ مُنقادٌ ، فَهُناك النُّجحُ .

في تنزيل الموعظة على أرض الواقع

وقالَ رَضِيَ اللهُ عنهُ ونفعنا به [١] كَثِيرٌ مِن الكَلامِ الَّذي نَقولُه يَفْقَهُ أَصحابُنا أَوَّلَ مَعناه وَيُسلِّمُونَ به وَيَقبَلُونَه قَبولَ تَسليمٍ ، وَلَكن ما يُنزِلُونَهُ عَلَى واقِعِهِم وَلا عَلَى أَحوالِهِم وَأَذواقِهِم وَشُعُورِهِم ، يَقولُ أَحَدُهُم هذا كَلامٌ طَيِّبٌ وَصَحِيحٌ ، وَلَكِن هَل يَصبغُ بِهِ واقِعَهُ؟ لا . هَل يُحَكِّمُهُ فِي أَحوالِهِ ؟ لا . هَل يُوجِّهُ بِهِ مُعامَلاتِه ؟ لا . هَل يَجعَلُه واقِعاً فِي واقِعِه؟ لا . الكَلامُ عِندَه صَحِيحٌ وَمُسَلَّمٌ بِه ، فَيَكونُ مِثلَ الَّذِي يُرَتِّبُ الدَّواءَ وَلا يَستَعمِلُهُ، وَيَكِيلُ الخَمرَ وَلا يَشرَبُه وَيرِيدُ أن يسكَرَ بِه.

وَلَـوْ كِلْتَ أَلْفَيْ رَطْـلِ خَمْرٍ لَمْ تَكُنْ … لِتَصِـيرَ نَشْـوانـاً إذا لَمْ تَشْـرَبِ

في فهم بعض قواعد العمل الدّعويّ

وقالَ رَضِيَ اللهُ عنهُ ونفعنا به [٢] أَصلُكُم فِي تَلَقِّي الدَّعوَةِ أَهلُ وُجهَةٍ واحِدَةٍ ، وَمَقصَدٍ واحِدٍ ، وانفَتَحَ لَكم بابٌ مِن فَسِيحِ مَيدانِ الحَضرَةِ واحدٌ أَيضاً .

فَكانَ مُقتَضَى ذَلِكَ اتِّحادُ القُلوبِ اتِّحاداً نَعرِفُ فِيهِ كَيفَ نَنطَلِقُ بِمَصلَحَةِ الدَّعوَةِ مِن حَيثُ أَنَّها دَعوَةٌ ، مَتجنِّبِينَ التَّكاسُلَ عَن كلِّ ما نقدِرُ عَليه فِي تَصوُّرِ أَنَّ هَذا الأَمْرَ فَوق مَسؤولِيَّتِنا أَو تَكلِيفِنا أَو أَنَّه يهمُّ أَفراداً مِنّا فَقَط ، وَمُتَجَنِّبِينَ كَذَلِكَ الاستِعجالَ فِي قَطعِ الأُمُورِ والبَتِّ فِيها مِن دُونِ الإِشعارِ والحِرصِ عَلَى الاستِشارَةِ .

(١) لَيلَةُ الأَربعاء ١٧ مِن شَهرِ رَجَب ١٤٢٠ هـ .
(٢) وَذَلِكَ فِي لَيلَةِ الجُمُعَة ٢٤ مِن شَهرِ شَعبانَ ١٤٢٢ هـ .

هُناكَ أَحوالٌ تَحتاجُ إِلى القَطعِ فِيها فَيجِبُ البَتُّ فِيها مُباشَرَةً ثمّ عَرضُ الأَمرِ[1] ، وَهناك أَحوالٌ لا داعِي للبَتِّ فِيها والاستِعجالِ وَهِي الأَحوالُ المُشكِلَةُ التي لا يُعْرَفُ ما عاقِبَتُها[2] .

فَعِندَنا سِرُّ اجتِماعٍ فِي الأَعمالِ لا انفِصالَ لَه عَن حُسنِ البَـذلِ فِي مُختَلَفِ الأَحوالِ ، وَهوَ ما جَمعَ صاحِبُ الدَّعوةِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم عليه أَصحابَه ، فرأيناهم مَع قوّةِ تَرابُطِهِم احتراماً وتَوقيراً ومحبةً وتَشاوراً واسِعي الانطلاقاتِ فيما يحيطُ بهم ، كلٌّ في مكانِهِ وحالِهِ وشأنِهِ حَتَّى إذا أشكَلَ عَلَيهِم أَمرٌ .. رَفعُوه .

لَم يُؤدِّ بِهِمُ التَّرابُطُ إِلَى تَقَيُّدٍ ، وَلَم تَحُلَّ[3] الانطِلاقَةُ حَقِيقَةَ قُيُودِهِم بِسرِّ الاجتِماعِ ، فَخَفِيَ وَجهُ العِلاقةِ بَـين سِرِّ انطِلاقَتِهِم القَوِيَّةِ ، وتَرابُطِهِم القَوِيِّ أيضاً.

وَلَكِن إِذا عَرفْتَ المَقصُودَ وَقامَتْ مَعانِي **(أَنا خادِمٌ)** وَدُفِنَتْ معاني **(أنا فُلانٌ)** الخَفاءُ فِي هَذِهِ العِلاقَةِ يَنكشفُ ويَتَّضِحُ ، فَبِكُلِّ وُضُوحٍ تَستَطِيعُ عَلَى قُوَّةِ الانطِلاقِ واستِنفادِ الجُهدِ ، وَأَنتَ مُرتَبِطٌ وَمشاوِرٌ وَمتَنازِلٌ عَن رَأيِكَ وَقتَ أَن يَقولَ الأَكثَرُ مِن إِخوانِك بِخِلافِه ، وَمَعَ ذَلِكَ أَنتَ كَثِيرُ الاقـتِراحِ .. كَثِيرُ الانطِلاقِ .. كَـثِيرُ العَمَلِ .

فَقَد يَحصُلُ مِن خَفاءِ هَذِهِ المَسألةِ أَحياناً أَخذُهُم لِبَعضِ التَّرتِيباتِ والتَّوجِيهاتِ مِنّا، فَهُمْ ما بَين مُقتَصِرٍ عَلَى فَهمٍ فَهِمَهُ مِن النَّصِّ وَكَأَنَّها آيةٌ نَزَلَتْ عَلَيه ، فَيَنفَصِلُ بِذَلِكَ عَن مَقْصُودِ العِبارةِ أَو المرادِ مِنها وَيَنحَصِرُ بها ، وما بَينَ من يُفسِّرُ التوجِيهاتِ

---

(١) وَهِيَ الأَحوالُ الَّتِي وُضِعَتْ قاعِدَتُها وَأَصلُها وَكانَ البِناءُ عَلَى هَذِهِ القاعِدَةِ واضِحاً لَيسَ بِمُشكِلٍ.

(٢) فَيُستَحسَنُ فِي مِثلِ هَذِهِ الحالَةِ التَّأنِّي وعدمُ الاستعجالِ في الفصلِ فيها إذ ربما يترتبُ على ذلك ضررٌ .

(٣) أي: تُطلِق .

بِأَنَّها ربَّما كذا أو معناها كذا فيتفلَّتُ منها[1] وكِلا طَرَفِي الْأُمُورِ ذَمِيمٌ .

فَلابُدَّ مِن سُرعَةِ الحَلِّ لِهَذِهِ الأَشياءِ وَمَرجِعُها إِلَى هَذِهِ النُّفوسِ ، لأَننا نَحتاجُ إِلَى أَن نواجِهَ مجتَمَعاتِنا والعالَمَ بِوجُوهٍ ما يَألَفُها النّاسُ[2] ، رُبَّما هِي فِي اعتِباراتِهِم وَنَظَراتِهِم غَرِيبَة .

هُناكَ عَوائِقُ قائِمَةٌ الآنَ بِسَبَبِ أَنَّ هُناكَ عَدَداً مِن المنتَمِين لهَذِهِ الدَّعوَةِ تَصَوَّرَ النّاسُ بِسَبَبِ بَعضِ أَلفاظِهِم وَتَصرُّفاتِهِم عَن هَذِهِ الدَّعوَةِ .. أَنَّها مَجالُ ظُهورٍ أَو مبالغَةٍ فِي تكرِيمِ أَحَدٍ وتَعظِيمِه عَلَى الآخَرِين ، أَو هِي مَحلُّ مفاضَلَةٍ بَينَ النّاسِ ، وَمَحلُّ تَفرِيقٍ فِي الإِحسانِ والأَخلاقِ ، أَو مَحلُّ تَطاولٍ عَلَى المَقاماتِ وَخَوضِ الصِّغارِ فيها ، كلُّ هَذِهِ التَّصوُّراتِ شَكَّلَتْ فِي الواقِعِ المَوجُودِ الآن عَوائِقَ لِلدَّعوةِ، وَهَذِهِ التَّصَوُّراتُ لَم تَأتِ لِلنّاسِ مِن فَراغٍ وَإِنَّما جاءَتْ مِن عدَمِ ضَبطِ بَعضِ الكَلِماتِ ، وَعَدَمِ ضَبطِ التَّصَرّفاتِ، فَنَحتاجُ نَحن إِلَى تَبيُّنِ وَجهِ دَعوَتِنا ، وَنَحتاجُ إِلَى انطِلاقاتٍ تَكون مِن بَينِنا تُحسِنُ التَّرجمَةَ عَن هَذا الوَجه .

وَجهُ دَعوَتِنا تَخلِيصُ الأَنفسِ مِن شَوائِبِها ، وَإِفرادُ القَصدِ لِلحقِّ ، فَهَذِهِ مِن شَأنِها سُقوطُ الاعتِباراتِ الَّتي بَينَ النّاس كلِّها .

فَنَحتاجُ إِلَى أَن نرسِّخَ فِي بَواطِنِنا أَنَّه لَيسَ لَنا قَصدٌ أَن يقدِّمَنا أَحَدٌ فِي مَحفَلٍ أَو فِي

(١) قالَ سَيِّدِي : رُبَّما ساعَدَ الشَّيطانُ صاحِبَها حَتى يَقُولَ لَه : إِنَّما صَدَرَ هَذا التَّوجِيهُ مِنهُم لأَنهَّم لا يَعرِفُونَ حَقِيقَتَك أَو لأَنَّه رُبَّما أَثَّرَ عَلَيهِم فُلانٌ أَو نُقِلَ إِلَيهِم كَلامٌ مُعَيَّنٌ ، فَإِذا كانَ قادَتُك وَشُيُوخُكَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ اذهَبْ وابحَثْ لَك عَن شُيُوخٍ وَقادَةٍ .

(٢) أَي: ما يَعتادُها النّاسُ، فَتعظِيمٌ لِلفاني عِندَنا احتِقارُهُ وَإِيثارٌ لِلباطِلِ عِندَنا رَفضُهُ والحِلمُ عَلى مَن آذَى عِندَنا إِحسانٌ ، وَبُغْضُ مَن سَبَّ عِندَنا مَحبَّةٌ ، واستِثقالُ مَن مَكَرَ عِندَنا رَحمَتُهُ ، وَسُوءُ ظَنٍّ بِمَن عَصَى عِندَنا حُسنُ ظَنٍّ بِهِ .

مجلسٍ ، وَلا أن يَمدَحنا أَحَدٌ ، وَلا أن يُعطِيَنا شَيئاً، بَل شِعارُنا هُو شِعارُ الأَنبياءِ قَبلَنا ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٠٩].

حِينَئِذٍ لا تَلتَفِتُ مِنكم الأَنظارُ إِلى ما يَبدو مِن النّاسِ ، أَو يَبرزُ مِن ذَمٍّ أَو انتِقادٍ أَو نَحوِ ذَلِكَ عَلى أَحدٍ مِنّا ، فَدَعوَتُنا أَصلاً ما قامَت لهذا حَتّى نُنازِعَ النّاسَ عَلَيهِ أَو نَستَثِيرَ النُّفوسَ أَو نُقِيمَ الحَواجِزَ فَنُضعِفَ بِذَلِكَ عَمَلَ الدَّعوَةِ ، بَل قُل كَلامَكَ لِيصدِّقَهُ اللهُ لا لِيصَدِّقَهُ النّاسُ ، نَحنُ فِي حِرصِنا عَلى تَقرِيبِ النّاسِ إِنَّما نَعبُدُ اللهَ لا نَعبُد النّاسَ .

وَعَلامَةُ أَنَّنا نَتلطَّفُ وَنَترَفَّقُ بِهِم مِن أَجلِه جَلَّ جَلالُه أَنَّه لَو عُصِيَ لَغَضِبنا وَلَم نُجامِلْ أَحَداً ، وَلَو تَخالَفَ أَمرٌ مَع أَمرِهِ وَشَرِيعَتِهِ سبحانَهُ لَم نُراعِ فِي ذَلِكَ صَغِيراً وَلا كَبِيراً ، وَلَقَد قالَ صاحِبُ الدَّعوَةِ ضارِباً لَنا أَعظَمَ الأَمثِلَةِ فِي ذَلِكَ حِينَما تَشفَّعوا إِليه فِي أَن يَترُكَ إِقامَةَ الحَدِّ عَلَى المَرأَةِ المَخزُومِيَّةِ قالَ : «إِنَّما أَهلَكَ الّذِينَ قَبلَكُم أَنَّهُم كانُوا إذا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ –أَعاذَها اللهُ مِن ذَلِكَ فَهوَ يَعلَمُ طُهرَها– لَقَطَعْتُ يَدَها»[1] وَفِي ذَلِكَ غايَةٌ ؛ لأَنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ما يُحِبُّ أَحَداً فِي الخَلقِ كَحُبِّه لِفاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنها .

فَلابُدَّ أَنْ تُقِيمُوا أَنفُسَكُم عَلَى طَرَفٍ مِما نَسعَى عَلَى تَحقِيقِهِ فِينا وَهوَ أَن يُزَجَّ بِنا إِلَى ساحاتٍ مِن الصِّدقِ والوضُوحِ فِي رُؤيَةِ الوَجهِ الَّذِي نَدعو إِليه ، فَمَجلاهُ فِي العالَمِ الجِسمانِي وَجهُ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ «فَقَد كانَ أَحسَنَ النّاسِ خُلُقاً وخَلْقاً»[2] ، وَمجلاهُ فِي العالم

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيه .

(٢) قِطعَةٌ مِن مَولِدِ الحَبِيبِ عَلِيِّ بنِ مُحَمَّدِ بنِ حُسَينٍ الحَبَشِي المسَمَّى بِـ«سِمطِ الدُّرَر» .

الرَّوحاني روحُ سَيِّدِنا محمَّدٍ .

إذا أَنتَ تَدعُو إِلى الوَجهِ الأَتمِّ الأَجمَلِ الأَكمَلِ الأَحسَنِ الأَضْوأ فَيَجِبُ أَن تكونَ التَّرجمةُ مناسبةً لِنَضارَةِ هَذا الوَجهِ وَوَضاءَتِهِ وَنورانِيّتِه والحَقِّ الَّذِي فِيهِ .

في شأن مراعاة حاجة الأمّة الملحّة لمهمّات الدّين

وقالَ رضيَ اللهُ عنهُ ونفعَنا بِه[1] هؤلاءِ إذا حَقَّقُوا «المختَصَرَ»[2] كَفَى ، اترُكُوهُم يَذهَبُون ويُنقِذُون النَاسَ ، وَيَأخُذُونَ مَع المختَصَرِ قَواعِدَ الدَّعوَةِ ، والتَعَوُّدَ عَلَى الإِلقاءِ ، وَأَساليبَ التَّعامُلِ مَع النَّاسِ ، كَثِيرٌ مِن المناطِقِ الآنَ مُحتاجَةٌ إِلى مِثلِ هَذا .

لا يُمكِنُ أَن نَنتَظِرَ أُناساً يَتَخَرَّجُونَ مِمن قَرَؤُوا كُتُباً كَبِيرَةً ، هَؤُلاءِ لَهم شَأنُهُم وَلَهم مَجالُهُمْ ، لَكِنِ الآنَ البِساطُ بِساطُ حاجَةٍ مُلِحَّةٍ ، واضطِرارٍ وَشِدَّةٍ .

أَصحابُ العِلمِ مِثلُ أَصحابِ المالِ، تَجِدُ بَعضَهُم عِندَهُ مالٌ قَلِيلٌ ، وَصَدَقاتُهُ كَثِيرَةٌ، وَلَه مَشارِيعُ مُتَعَدِّدَةٌ ويُجرِي اللهُ عَلَى يَدَيهِ خَيراتٍ كَثِيرَةً ، وَبَعضُهُمْ عِندَهُ أَموالٌ كَثِيرَةٌ لَكِن ما يُنفِقُ مِنها ، حَتَّى إذا دَخَلَ فِي مَشرُوعٍ خَيرِيٍّ لا يُكمِلُهُ وَهَكَذا.

السَّيِّدُ حُسَينُ بنُ سَهلٍ[3] كَم عَمِلَ مَشارِيعَ ، وكَم أَنفَقَ نَفَقاتٍ فِي زَمَنِه ، الَّذِينَ

---

(١) أَثناء خِطابه لِمَن حَضرَ الدَّورَةَ الأَربَعِينِيَّةَ مِن المغتَـربين ١٤١٩هـ .

(٢) أي: كِتابُ «المختَصَرَ اللَّطِيفِ» فِي الفِقهِ الشّافِعِي للشَّيخ عَبدِ الله بن عَبدِ الرَّحمنِ بافَضل .

(٣) هُو الحَبِيبُ ذُو النِّياتِ الصالحةِ والمَتاجِرِ الرّابِحَةِ المشارِكُ فِي العُلُومِ والأعمالِ الصّالحةِ حُسينُ بنُ عَبدُ الرَّحمَن بنُ محمَّد بنُ عَبد الله بنُ أَحمَد بنُ سَهل ، وُلِدَ بِتَرِيم فاتِحَةَ رَجب سَنَة ١٢١٣ هـ ، تَبادَلَ الأَخذَ والإلباسَ مِن الحَبِيبِ صالِح بن عَبدِ الله العَطّاس بِالشِّحرِ ، شَيخُ فَتحِهِ الحَبِيبُ عَبد الله بن حُسينُ بن طاهر ، أَخَذَ مِنه وَلازَمه وتأدَّبَ به ، وَصارَ مِن أَهلِ التَّحصِيلِ لِلعِلم والجِدِّ فِي العِبادَةِ حَتَّى أَنَّه نَسَخَ كِتابَ «الإِحياءِ» كامِلاً بِخَطِّ يَدِه ، كانَ سَخاؤُهُ فِطرِيّاً وَلَه فِي كَرَمِهِ نَوادِرُ يَضِيقُ عَنها القِرطاسُ وَلا تَقبَلُها عُقُولُ النّاسِ ، مِنها أَنَّه

عِندَهُم رُؤُوسُ أَموالٍ أَضعافُ الَّتي عِندَهُ ما عَملوا حَتى عُشرِ الَّذي عَمِلَه ، وَكَذَلِكَ أَهلُ العِلمِ ، والتَّوفيقُ عَزِيزٌ .

تَعَسَّرَ عَلَى خادِمِهِ إِنضاجُ شَيءٍ مِن طَعامِ أَضيافِهِ لِعَدَمِ وُجُودِ الحَطَبِ مَع ضِيقِ الوَقتِ فَأَمرَهُ أَن يُتِمَّ إِنضاجَهُ بِالدُّخُونِ أَي عُود البُخُورِ ، تُوُفِّي رَضِي الله عَنهُ بِالشِّحرِ لَيلَةِ الثُّلاثاءِ ٢٨ مِن شَهرِ شَعبان ١٢٧٤هـ ، وَقَبرُه بِقُبَّةِ السَّيِدِ عَبدِ الله باهارُون فِي خارِجِ سُورِها الشَّمالِي الغَربِي.

الباب الخامس

المحبّة في الله
آدابها وآثارها على الدّعوة والدّعاة

إن صحت المحبة صحت المسامحة

قال رضي الله عنه ونفعنا به إنْ صدَقْنا فِي مَعنَى كَلِمَةِ «الإخوانِ» ، فإنّها مِن النَّعِيم ، وَذاقَها مَن لَه مِرآةٌ مجْلُوَّةٌ ، وتمّت الدّلالةُ على أقربِ الأبوابِ ، وَأوثق الحِبال بتوسيعِ تحابُبِنا مِن أجلِه.

إنْ صَحَّتِ المَحبةُ لأحدٍ .. صَحَّتِ المسامحَةُ مِنكَ لِكلِّ مَن تَعلَّق بِمَن سامحتَهُ ، إلَى حَدٍّ بَعيدٍ ، بِحيثُ لَو قابلَكَ كَلبٌ مِن بَلَدِه وآذاك تَكونُ مُسامحاً له ؛ لأنّك قد سامحْتَ ذاك ، فأنتَ إذا تُريدُ مُسامحةً كَبيرةً ، فالحقُّ سُبحانه إذا سامحَ العَبدَ المسامحَةَ الكُبرى.. سامَحَ كلَّ مِن اتَّصلَ به من قَريبٍ أو بَعيدٍ ، **(ومِن أجلِ عَينٍ تُكرَمُ ألفُ عَينٍ)** فما يَقدِرُ الأعادِي أن يَضعُوا فِي طَريقِكَ شَيئاً ، ولا يَستَطيعونَ أن يَقطَعُوكَ إذا حَصلَ مِنكَ ذَلكَ ،**(لَو قابَلْتَ المعامَلةَ بِالصَّفا .. كانَ ذَلكَ لَكَ أسعَدَ وأوفى)** .

جميعُ تَعاليمِهِ وَشُؤونِ دَعوَتِه ، قُولوا لَها : حيّا وَمَرحَبا ، يَقُل هُو لَكُم : حيّا وَمَرحَبا، وَبَعد ذَلكَ إذا حَيّاكم هُوَ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم يُحَيِّيكُم مَولاكُم اللهُ .

رعاية حق الأخوة في الله

وقال رضي الله عنه ونفعنا به يَنبَغِي أَن تُؤكِّدُوا تآخِيكم فِي الله تَعالَى .. تتآخَونَ فِي الله .. ترتبطُون بِسلسِلَةِ شُيُوخِنا ، بَعدَ ذَلِك عَلَيكُم رِعايَةُ حَقِّها ، حَتَّى نَجتَمِعَ نَحنُ وَإيّاكم وَإيّاهُم. عِندكُم استِعدادٌ ؟ مَن يُرِيدُ الارتِباطَ بِالكِبار هَؤلاءِ ؟ **فَمَعنَى الارتباطِ بِهِم سَعيٌ فِي دَربِهِم ، وَثَباتٌ عَلَى مَنهجتِهِم ، وَوَفاءٌ بِعُهُودِهِم ، والصّادِقُ يُعِينُه اللهُ .**

إن شاءَ اللهُ نَطرُقُ بابَ الارتِباطِ بِهَذِهِ السِّلسِلَةِ وَأُولَئِكَ المَشايِخ ، وَذاكَ الحيدِ الشّامِخ ، والقَدَمِ الرّاسِخ ، فَمَن أَحبَّ ذَلِكَ مِنكُم ، وَعزَمَ عَلَى أَن يُصغِيَ لَه باطِنَهُ ، وَأَن يجتَهِدَ بِما يَستَطِيعهُ ، فَيُمكِنُ لَه أَن يَدخُلَ فِي ذَلِكَ الارتِباطِ .

التآخي سلّم لتقريب الخلق

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[١] قوُّوا التَّآخي بينكُم ، وتحابُّوا مِن أجلِ الله .. تدُومُ مَودَّتُكم ، حتَّى تكُونُوا أعواناً عَلى طاعةِ الله ، ويَتحقَّق عَلى أيدِيكم نَصْرٌ لِلشَّريعةِ ، فمَهما أرَدتُم أنَّ النَّفعَ يَكثُرُ والخَيرَ يَكثرُ .. تحـابُّوا أكثرَ ، وتَآخَوا أكثرَ ، وتَوادُّوا في الله حـتَّى ينالَكُم وُدُّ الله .

ولما عَلِمنا أنَّ أحبَّ الأعمالِ إلَى الله ورَسُولِهِ هُو تقرِيبُ الخَلقِ إلَيهِ جَلَّ جَلالُه ، وهِدايَةُ العِبادِ إلى سَبيلِهِ حتَّى قالَ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسلَّم لِسيِّدِنا عَليٍّ : «فَوالله لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بكَ رَجُلاً واحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم»[٢] ، وفي رِوايَةٍ «خَيْرٌ لك مما طَلَعَت عَلَيهِ الشَّمسُ»[٣] فلِهذا نَحنُ نَجعَلُ جُلَّ جُهدِنا في تَقرِيبِ الخَلقِ وهِدايَتِهم.

أوحَى اللهُ إلى داودَ: (يا داودُ مَن رَدَّ لِي آبِقاً كَتَبتُهُ عِندِي جِهبِذا)[٤] مَن رَدَّ لي آبقاً يَعنِي هارِباً ، العَبدُ الآبِقُ الَّذِي هَرَبَ عَن طاعَةِ سَيِّدِهِ وخَرجَ عَنهُ ، فمَن رَدَّ لي آبقاً كَتبتُه جِهبذاً أي: رَئيساً، فابذُلُوا جُهدَكُم فِي رَدِّ الآبِقِينَ إلى الله .

نَحنُ مِن الآبِقينَ ، لَكِن نَحنُ اتَّصَلنا بالمنِيبينَ والطائِعِينَ ، ونَتَشَبَّهُ ونَقتَدِي بِهِم ، فَنَرجِعُ ونَصدُقُ فِي رَجْعتِنا[٥] إلى الله ويقبلُنا .

كَم مِن آبِقٍ وَقفَ عَلَى بابِهِ فَفُتِحَ لَه ، جاءَ فِي الأَثَرِ: إنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَادَى دَاوُدَ:

---

(١) يومَ الخَمِيس ١٨ مِن شَهرِ ذِي القِعدَةِ ١٤٢١هـ .

(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيه .

(٣) رَواهُ الحاكِم .

(٤) ذَكَرَهُ الغَزالِيُّ فِي «إحياءِ عُلُومِ الدِّينِ» بِلَفظِ: يا داوُد ؛ مَن رَدَّ إلَيَّ هارِباً .. كَتَبتُهُ جِهبِذاً ، وَمَن كَتَبتُه جِهبِذاً .. لَم أُعَذِّبهُ أَبَداً .

(٥) أي: تَوبَتِنا .

يا دَاوُد .. لَو يَعلَم المُدبِرُونَ عَنّي شَوقِي لِعودَتِهِم وَمَحَبَّتي لِتوبَتِهم ورَغبَتي في إنَابَتِهم لَطَارُوا شَوقاً إليّ ، هَذِه رَغبَتِي بِالمدبِرينَ عَنّي .. فَكَيف تَكُونُ مَحَبَّتي لِلمُقبِلِينَ عَلَيّ .

مَعَكُم رَبٌّ عَظِيمٌ كَرِيمٌ ، أَرسَلَ إِلَيكُم حَبِيبَهُ الكَرِيمَ ، وَجَعَلَ بَينَكُم وَبَينَه سَنَداً حَشِيما فَخِيما ، فِي سِلسِلَةِ أَخذنا أَخذاً خاصّاً عَن خالِصِ الأَقطاب كلّ واحِدٍ مِنهُم قُطبُ زَمانِه عَن قُطبٍ عَن قُطبٍ عَن قُطبٍ إِلَى الحُسَينِ بنِ عَليٍّ وَأَخِيهِ الحَسَنِ عَن أَبِيهِما وَأُمِّهِما ، عَن حَبِيبِ الرَّحمَنِ ، سَيِّدِ الأَكوانِ ، عَظِيمِ الشّانِ ، مَن أَنزَلَ اللهُ عَلَيهِ القُرآنَ ، مَن مُدَّ لَكُم بِهِ هَذا السِّماطُ ، وَأَعطاكُم بِهِ هَذا الارتِباط ، وَوَفَّقَكُم بِهِ لِهَذا الانضِباطِ ، هادِيكُم إِلَى السَّبِيلِ ، فاتِحٌ لَكُم أَبوابَ العطاءِ الجزيل .

مُحَمَّدٌ الرَّحِيمُ بِكُم ، مُحَمَّدٌ الشَّفِيقُ عَلَيكُم ، مُحَمَّدٌ الَّذِي يُحِبُّكُم أَكثَرَ مِمّا تُحِبُّونَ أَنفُسَكُم ، وَيرحَمُكُم أَكثَرَ مِما يَرحَمُكُم آباؤُكُم وَأُمَّهاتُكُم ، مُحَمَّدٌ الَّذِي بَلَّغَكُم الرِّسالَةَ، مُحَمَّدٌ الَّذِي أَدَّى إِلَيكُم الأَمانَةَ ، مُحَمَّدٌ الَّذِي باتَ اللَّيالِي يَطرُقُ لَكُم أَبوابَ الفَضلِ والعَطاءِ مِن الله ، يَتَضَرَّعُ فِي شُؤُونِكُم فِي الدُّنيا والآخِرَةِ ، مُحَمَّدٌ الَّذِي لا تَقدِرُونَ عَلَى جَزائِهِ ، مُحَمَّدٌ الَّذِي تَوَّجَنا اللهُ بِهِ بِتاجِ الشَّرفِ والفَخرِ عَلى جَمِيعِ الأُمَم ، مُحَمَّدٌ الَّذِي يَنتَظِرُ مِنكُم فِي وَقتِكُم وَزَمَنِكُم هَذا نُصرَةَ شَرِيعَتِهِ ، وَخِدمَةَ دَعوَتِهِ ، وَقُرَّةَ عَينِهِ ، الله يَجعَلُكُم قُرةَ عَينِهِ ، وَيُقِرُّ عَينَهُ بِجَمِيعِ أَقوالِكُم وَأَفعالِكُم وَأَحوالِكُم .

فَأَنتُم يَنبَغِي مِن بَعدِ السّاعَةِ تَضبِطُونَ أَقوالَكُم ، وَما يَدورُ بَينَكُم ، وَتَعتَدِلُونَ فِي شُؤونِكم ، بِحَيثُ يَكونُ المِزاحُ عَلى وَجهِهِ فِي وَقتِه ، والجِدِّيَّةُ والوَقارُ هو الغالبُ عَلى مَن يَنتَمِي لِلدعوةِ ، أَمّا تركُ بشاشَةِ الوجهِ وطلاقتِهِ فهو خُلُقٌ منبوذٌ من الصَّغيرِ والكَبِـيرِ ، وَكانَ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِه وَسَلَّم يَحذَرُ النّاسَ وَيَحتَرِسُ مِنهُم دُونَ أَن يَطوِيَ عَن أَحِدٍ بِشرَهُ وَبَشاشَتَهُ ، يَقُولُ بَعضُ أَصحابِهِ «ما حَجَبَنِي النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم

مُنذُ أَسلَمتُ وَلا رَآني إلا تَبَسَّمَ فِي وَجهِي»(١) .. اللهمَّ صلِّ عَلَيه .

وَأَنتُم مَهما تَوَجَّهتُم وَصَدَقتُم يَبتَسِمُ فِي وُجوهِكُم ابتِسامَةَ رِضاً لَكم ، وَرِضاهُ تَرجَمَةُ رِضوانِ الله الأَكبَرِ ، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢] فاثْبُتوا ، وَنَصِيبُكُم مِن الأَورادِ وَتَدَبُّرِ القُرآنِ حافِظوا عَليه ، ولا تُصَلُّوا إلاّ جَماعَةً ، واحرِصُوا على الرَّواتِبِ، قَبليَّةِ الظّهرِ وَبَعديَّةِ الظُّهرِ وَسُنَّةِ العَصرِ ، وبعديَّةِ المغربِ والعِشاءِ والوِترِ والضُّحَى ، وَلا تَتركُوا الاستغفارَ(٢) قَبلَ غُرُوبِ الشَّمسِ فِي أَيِّ مَكانٍ .

واحمَدُوا اللهَ عَلى ما آتاكم ، واعرِفُوا عَظَمَةَ سَنَدِكُم وَرِجالِكُم ، وَتَخاطَبُوا مَعَ النّاسِ عَلى قَدرِ عُقُولِهِم ، واصبِرُوا .

يـا صابـراً أَبـشِرْ وَبَـشِّرْ مَـنْ صَبر ... بالنَّـصْرِ والفَـرَجِ القَرِيـبِ وَبالظَّفَرْ

نـالَ الصَّبـورُ بِصَـبْرِهِ مـا يَرْتَجِـي ... وَصَفَتْ لَهُ الأَوْقاتُ مِنْ بَعْدِ الكَدَرْ(٣)

فيما يتعلّق بشأن التّسامح بين الإخوان مخاطبا بعض طلاّبه

وقال رضي الله عنه ونفعنا به(٤) «ما مِن صاحِبٍ يَصحَبُ صاحِباً ولو ساعةً من نَهارٍ .. إلا سُئِلَ عَن صُحبَتِهِ هَل أَقامَ مِنها حَقَّ الله تَعالى أَم أَضاعَه»(٥) ؟ ، لَنا مُدّةٌ مَتَصاحِبون أَنا وَإيّاكم ، أَمّا جَوانبُ التَّقصِيرِ فِي حُقُوقِ بَعضِنا البَعضِ يَنبَغي أَن نمدَّ لَها بِساطَ

(١) رَواهُ البُخاري وَمُسلِم عن جَريرِ بن عَبدِالله البَجَلي.

(٢) وَذَلِكَ سَبعَةٌ وَعِشرونَ مَرَّةً كَما وَرَدَ فِي الحَديثِ النَّبَوِي: «مَن استَغفَرَ لِلمُؤمِنين والمؤمِناتِ كُلّ يَومٍ سَبعاً وَعِشرين مَرَّةً كانَ مِن الَّذِينَ يُستَجابُ لَهم وَيُرزَق بِهِم أَهلُ الأَرضِ» رَواهُ الطَّبَرانِيّ.

(٣) البَيتانِ لِلإمامِ الحَدّادِ ، انظُر «الدُّرّ المنظُوم» حَرف الرّاء المهمَلَة ص١٤٩ .

(٤) لَيلَةَ الأَحَد ١٠ مِن شَهرِ ذِي القِعدَةِ ١٤١٩هـ .

(٥) أَخرَجَه ابنُ جَريرٍ الطَّبَريّ . انظُر «كَشفَ الخَفاء» .

السَّماحِ والعَفوِ في تحمُّلِ بَعضِنا البَعضِ ، وَأَمّا واجِباتُ الأَمائِنِ في شأنِ هذهِ الأمةِ وفي شأنِ هذه الرسالةِ فلا يجوزُ لأحدٍ مِنّا التقصيرُ في أمرٍ يقدِرُ أن يَقومَ به أو يَقدرَ أن يتهيَّأَ له ، لأنَّ هذه مسامحتُها ما هي بيدنا ، فهذه أَمائِنُ الجبالُ أَشفَقَتْ مِنها فَما قَدَرَتْ عَلَيها ، والسَّماواتُ والأَرضُ أشفَقْنَ مِنها وَكنّا نَحنُ مَحلاً لحملِها والمخاطَبُونَ بالقِيامِ بِشَأنِها ، فَهَذا لا نَقدِرُ أَن نُسامِحَ فِيهِ .

أَمّا فِيما بَينَنا البَين فَحَقُّكُم فِي السَّماحِ لِهَذا المتكلِّمِ فِيكُم ، تَصفَحُونَ وَتُسامِحُونَ .. يُثيبُكُم اللهُ وَيُؤجِرُكم اللهُ ، وَأَمّا ما بَينَكم وَبَينَه جَلَّ جَلالَه فَفِي مِثلِ هَذِهِ السّاعةِ مَدَّ يَدَه(١)، بَقِيَ حُقوقُ القومِ الآخرينَ وحقوقُ الأمانةِ في هذه الرسالةِ الكبيرةِ العَظيمةِ، فما أنتم بها صانعُون ، هذا الذي ما يَقدِرُ أَحدٌ أن يسامِحَ فيه من كلِّ من اتَّصلَ بأدنى مَعنىً من مَعاني هذا الاتِّصالِ ، وَسَوفَ يَسأَلُونَه عَنها عَسَى تكونُ لنا مُقابلةٌ حَسَنَةٌ إن شاءَ اللهُ .

وقال رضي الله عنه ونفعنا به ما يَستَغني بَعضُكُم عَن بَعضٍ لا فِي الظّاهِرِ وَلا فِي الباطِنِ ، لا مِن قَريبٍ ولا مِن بَعيدٍ ، أَنتُم سَتعرِفُونَ بَعضَ هَذا الكَلامِ حَتَّى بَعدَ الموتِ ، لِهَذا يَجِبُ أَن تَأخُذُوا حَقَّ التَّرابُطِ مِن الآن ، مَهما طَرَأَ عَلَى بالِكُم وأَنفسِكُم ، لا تَسمحُوا له بتركِ القاعدةِ والأصلِ أبداً ، وبعدَ ذلك هذه كلُّها مِنَنٌ من الله انساقتْ إليكم ، فأَحسِنُوا التعامل فيها، **القاعدةُ عندنا : عملٌ وجدٌّ واجتهادٌ بروحٍ** ، فكلٌّ إن شاءَ اللهُ يبذلُ منّا جُهْدَهُ . في واجبات الأخوّة في الله

وَلا أَنا وَلا أَحدٌ مِنكُم يَستَطيعُ أَن يغطِّيَ الحاجاتِ ، وَلا يَقومُ بِكلِّ الواجباتِ،

(١) مِن واقِعِ حَديثٍ رَواهُ مُسلِمٌ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبسُطُ يدَهُ بِاللَّيلِ لِيَتوبَ مُسيءُ النَّهارِ وَيَبسُطُ يَدَهُ بِالنَّهارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ حَتَّى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها» .

وَكلِّ الإِمكانيّاتِ ، بَل اللهُ سبحانَهُ وَتعَالى رَبطَ هَذا الكَونَ كلَّه بِبَعضِه البَعض ، وَرَتَّبَ أُمُوراً عَلَى أُمُورٍ ، يَهدِي مَن يَشاءُ ، وَبعدَ ذَلِكَ مَنِ الَّذِي يَكسَبُ الرِّضوانَ الأَكبرَ؟ مَن يَقومُ بِواجِبه وَيُؤدِّي حَقَّه فِي هَذا المجالِ ؟ وَذَلِكُم تَربِيَةُ الأَنبياءِ والمرسَلِينَ صَلَواتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيهِم .

فيما يتعلّق بحقوق الأخوّة في الله

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنفَعَنا بِهِ[(١)] تَواصَوا فِيما بَينِكُم ، واجعَلوا بِساطَ الثِّقةِ فِي بَعضِكُم البَعض ، والأَمانَةُ مِن شَأنِ كُلٍّ يَكُونُ جَنبَ صاحِبِه ، وَلا يُخَيَّلُ عِندَ الواحِدِ مِنكُم ، أَنَّ هَذا صاحِبي أُداريه فقَط ، فَهَذِهِ مُعامَلَةُ العَوام .

لَكِنَّ الَّذِينَ لَهم هِمَّةٌ أَو سَيرٌ أَو مَشيٌ وَلَهم مَشرَبٌ واحِدٌ ، وَلَهم مَشايخُ اجتَمَعُوا عَلَيهِم وَيَرجِعُونَ إِلَيهِم ، فَما بَينَهُم هَذا الكَلامُ ، ما يَصلُحُ إِلا ما كان زادَ عِندِي يَأخُذُهُ أَخِي ، وَما زادَ عِندَه يَعطِينِي مِنه ، وَأَخُوكَ هَذا رُبَّما تَكُونُ فِيهِ أُمُورٌ مَطوِيَّةٌ ، وَأَنتَ لَم تَدرِ بِها الآنَ ، لَكِن يُمكِنُ بَعدَ ذَلِكَ إِذا انتَبَهْتَ تَظهَرُ لَك ، فَلَو قابَلْتَها مِن البِدايَةِ بِالظَّنِّ الزّينِ ، والاستِقبالِ الحسَنِ ، حَتَّى لَو ما فَهِمتَ الَّذِي فِيها ، يَكونُ نَفعُها غَيرَ ما لَو عَلِمْتَ بِها بَعدَ ذَلِكَ ، يَقُولُ فِي نَفسِهِ : قَد كانَت تِلكَ الكَلِمَةِ مَعناها كَذا وَكَذا لَكِن أَنا ما تنبَّهتُ لَها ، **الحاصِلُ**: أَنَّك تَجِدُ بَعضَ الشَيءِ ، لَكِن فَرقٌ بَينَ ذَلِك وَبَينَ ما لَو كانَ مِن البِدايَةِ استَقْبَلْتَها بِالاستِقبالِ الحَسَنِ ، فَتَكونُ المَنفَعةُ مِنها أَكبرَ ، وَفائِدتُها عَلَيكَ أَكثرَ وَهَكَذا .

فالبِساطُ[(٢)] الَّذِي مَضى عَلَيهِ قَبلَنا رِجالُ الحَقِيقَةِ ما تَغلِبُهُم النُّفُوسُ وَلا غَيرُها ،

---

(١) فِي ٣ مِن شَهرِ رَبيعِ الأَوَّل ١٤١٩هـ .

(٢) كِنايَةٌ عَن المَنهَجِ الَّذِي سَلَكَه أُولَئِكَ الأَئِمَّةُ الأَخيارُ رِضوانُ الله عَلَيهِم أَجمَعِين .

يَصدُقُونَ مَع القُدُّوسِ سُبحانَه وَتعالَى ، وَلا شَيءَ يَقطَعُهم وَلا يَمنَعُهُم ، مُوَفَّقِين إنْ شاءَ الله .

فيما يتعلق بشؤون المحبّة والأخوّة الصّادقة

وقالَ رَضِيَ اللهُ عنهُ ونفعَنا بِهِ[1] فُرصَةٌ لِتَجدِيدِ الأُخُوَّةِ فِي الله إذا أَردْتُمُوها ، وَتَتَهَيَّؤونَ لِدَرَجاتِها وَمَراتِبِها ، يَحمِلُ كُلُّ واحِدٍ مِنكُم نَفسَهُ عَلَى كَمالِ النّصْحِ لِأخيه ، والسّعيِ بِما قدرَ في مَصالِحِه، وَيُسقِطُ حُقوقَهُ مِن أَخِيه ، فَلا يُطالِبُهُ بِحقٍّ ، بَل ما يَرى أَنَّ لَه حَقاً ، ولا يَشْهَدُ أنَّ له حقاً ، بَل يَتَقلَّدُ المِنّةَ من أخيه ، فما يدري كيف يَقومُ بِشكرِ نعمتِهِ عَليه ، هَكذا إِن أَرَدتُموها على هَذا الوَجهِ ، فَسَتَنفَعُ أَصحابَها كَثيراً ، وَتَربطُهم وَتَجمَعُهم عَلَى المَنهَجِ الذي دَرَجُوا عَليه هَؤلاء ، وهؤلاءِ لِسانُ حالِ الحَبيبِ فِيهم تَقولُ: أَنا هُم ، وهُم أَنا . وَقَد عَلِمتُم منزلةَ الحَبيبِ عند ربِّه ، وَهؤلاءِ مَنزلَتُهُم عند الحَبيبِ هكذا .

فَتَعاوَنُوا عَلَى المَنهَجِ الذي دَرجُوا عَلَيهِ هَؤلاءِ ما استطعْتُم ، وَتَعلَمُونَ أَنَّنا وَإِيّاكُم خُدّامٌ ، تَعاوَنُوا عَلَى الخِدمَةِ ، والأيّامُ الَّتي نَقضِيها عَلى ظَهرِ الأَرضِ مَعلُومةٌ ، الآنَ كُلُّ الأَشياءِ تَتَهيَّأُ ، لَكِنِ الآنَ يُهِمُّنا أَنتُم ، إِن شاءَ اللهُ نَعرِفُ وَإِيّاكُم قَدرَ النِّعمَةِ، وَقَدرَ المُنعِمِ ، وَنَقُومُ بِواجِبِ الشُّكرِ ، فَلا نَنقَطِعَ وَلا نَتَأَخَّر ؛ لأَنَّ الَّذِي يُعَوِّقُ أَو يُؤَخِّرُ الإنسانَ شَيء ما يُذْكَر .. وَهْمٌ أَو خَيالٌ يَحمِلُ بِهِ شَيئاً وَهوَ فِي غِنًى عَنه .

فَلابُدَّ مِن تَآخٍ صادِقٍ ، وتَآلُفٍ صادِقٍ ، واشهَدُوا المِنَّةَ لِمن أَجرَى اللهُ المِنَّةَ عَلَى أَيدِيهِم، سَيِّدُ الأَكوانِ أَوَّلُهم ، وَعِترَتُهُ الطّاهِرةُ وأَوْلياءُ أُمَّتِهِ ، والصَّحابَةُ مِن المهاجِرينَ والأَنصارِ وَمُتَّبِعِي آثارِهِم ، هَؤُلاءِ كُلُّهُم أَجرَى اللهُ المِنَّةَ عَلى أَيدِيهِم لَنا ، وَهَؤُلاءِ أَيضاً

(١) لما اجتَمَعَ مَع بَعضِ طَلَبَتِهِ لَيلاً عِندَ الإمامِ محمَّد بن عَلي مَولَى الصَّومعَة وَذلِك لَيلَةَ السَّبتِ ٣ مِن شَهرِ رَبيع الأَوَّل ١٤١٩هـ .

عَلَى وَجهِ الخُصُوصِ[1] ، وَكُلُّ أَخٍ لَكَ فِي الله ، مَن الَّذِي أَجرَى نِعمَةَ الْأُخُوَّةِ لَكَ بِه ؟! اللهُ أَجراها عَلى يَدِ أَخِيكَ هَذا ، لَو لَمْ يَكنْ هُو أَخاكَ فِي الله كَيفَ تُحَصِّلُها[2] .

أُرِيدُ مِنكُم تَجاوُزاً لِهَذِهِ المَرحَلةِ ، وَأَنا مِن أَوَّل أَصِيحُ بِأَشياءَ جَمّ عَلَيكُم أُكَلِّمُكُم، كَم سَمِعتُم مِثلَ هَذا الكَلام ؟ كَم سَمِعتُم مِن كَلامٍ فِي التَّداخُلِ .. فِي التَّمازُجِ والتَّآخي؟ أَنا لِي مدَّةٌ أَصِيحُ عَليكم وَرِجالي كلُّهُم يَصِيحُون !!

تَهيَّؤوا لِلأَدَبِ الجَمِّ مَع الله ، والأَدَبِ الجمِّ مَع خَلقِ الله ، حَتى نَصلُحَ وَإيّاكم لِنَفعِ الأمّةِ ، وَلِخدمةِ الأمَّةِ ، الخِدمَةُ هَذه مَنزلَةٌ شَرِيفَةٌ ، ما يَنزلُ فِيها كلُّ أَحَدٍ .

الأُمَّةُ الآنَ عَلى مَشارِفِ هِدايَةٍ وَنُورٍ ، وَرَجعاتٍ عَجِيباتٍ ، وَظُهُورِ آياتٍ ، وَلا يَزالُ باقِي مِن أَثرِ سُكْرِ الكفرِ وزَمجرَتِه فِي عالمِ الظّاهِرِ دُخاناتٌ ، والرِّيحُ سَتَهبُّ وَستَرفعُها ، لَكِن قَبلَها نُرِيدُ الرِّيحَ تَهبُّ عَلَينا ، فَترفعُ هَذا الغُبارَ كُلَّه ، وَنَصِيرُ مَحضَ عَبيدٍ[3] ، نَصدُقُ مَع رَبِّنا سُبحانه وَتعالى ، وَنَقتدي بِالحَبيبِ فِي أَحوالِنا وَشؤونِنا عَلى تَآخٍ وَتَحابُبٍ صادِقٍ .

أَنا وَأنت ما نَصلُحُ لهذا المنهج ، كانَ الإِمامُ الحَدّادُ يَقُولُ : **(مَن جاءَنا يَطلبُ الطَّرِيقةَ الخاصَّةَ امتَحنّاه واختَبَرناه)** ، وَنَحنُ لَم يَمتَحِنّا أَو يَختَبِرْنا أَحدٌ .. إِنَ شاءَ اللهُ نُقبلُ هَكَذا ، وَنَصدُقُ وَنَتوجَّهُ إِلى الله .

ما نَحن حَق شَيء ، لَكِن لابدَّ أَن تَفهَمُوا الإِشارَةَ ، وَتُجَدِّدُوا الهِمَمَ والعَزائمَ ، فالأَبوابُ مَفتُوحَةٌ ، والعَطايا مَمنُوحَةٌ ، والخَيراتُ كَبِيرةٌ ، وَلا تَبقَ مَحجُوباً بِرُؤيَةِ

---

(١) أَي: مِن أَمثالِ سَيِّدِنا مُحمَّد بن عَلِي مَولَى الصَّومَعَة وَغَيرِهِم مِن رِجالِ السَّنَدِ المخصُوصِ .

(٢) أَي: تَجِدُها .

(٣) أَي: نَكُونُ عَبِيداً خالِصِين لله .

نَفسِك وَلا عَمَلِكَ ، وَلا مَحجُوباً بِقولِ أَنا أَو أَنت[١] ، وَلا تَستَحلِ بُعداً ، وَلا تَستَحلِ غَفلَةً ، صِلَتُكَ بِرَبِّكَ أَلَذُّ لَكَ ، وَعِلاقَـتُكَ بِربِّكَ أَحلَى مِن كلِّ شَيءٍ ، فَلا تُؤثِرْ أَيَّ شَيءٍ عَلَيه.

والدَّليلُ نِعمَ الدَّليلُ ، والقائِدُ نِعمَ القائِدُ ، والسُّلالَةُ نِعمَ السُّلالَةُ ، هَذِه السِّلسِلَةُ التي بَيننا وَبَينه ، رَبكم ما خلَقَ مِثلَهُم فِي الوُجودِ ، قال سَيدُنا الحَبيبُ أَحمدُ بنُ حَسَن[٢]: هَذا لَيسَ استِخفافاً بِحَقِّ أَحَدٍ ، وَلا إِنكاراً لِفَضلِ أَحَدٍ ، أَهلُ الفَضلِ فِي الأُمَّةِ والأَولِياءُ كَثـيرٌ .

فُقْنـا عَـلَى العُشّـاقِ بِكُـلِّ مَشْـهَد   مَـنْ مِثْلُنـا
وَلَوْ يَطُولُ مَنْ طالَ أَو جَدَّ مَنْ جَدْ   مـا نالَنـا

الحِكمَةُ والحَقِيقَةُ...

إِنَّ الكَرِيـمَ الفَـرْدَ الْحَـقَّ الأَوْحَـدْ   قَـدْ خَصَّنـا

الحَمدُ لله الَّذي جَعَلَ لَكم وُصلَةً إِلَيهِم ، وَباباً إِليهِم ، وَحَبلاً إِليهِم ، هَذِه مِنَنٌ ما هِي رَخِيصَةٌ وَلا هِي قَليلَةٌ يا إِخوان ، اعرِفُوا قَدرَها ، فَصُفُوفُهُم فِي القِيامَةِ خَيرُ

---

(١) أَي: بِقَولِ أَنا عَمِلتُ كَذا ، وَأَنا قُمتُ بِكَذا .

(٢) أَي: سَيِّدنا إِمامُ العِرفانِ وَطَودُ الإِيقانِ الحَبِيبُ أَحمدُ بنُ حَسَن بن عَبدِالله بن عَلِيِّ بن عَبدِالله بنِ مُحمَّد بنِ محسن ابنِ الإِمام الحُسَينِ ابنِ الإِمام عُمَرَ بن عَبدِ الرَّحمنِ العَطّاس ، وُلِدَ رَضِي الله عَنهُ بِبَلدَةِ «حُرَيضَة» فِي يَومِ الثُّلاثاءِ التّاسِع مِن شَهرِ رَمَضانَ سَنَةَ ١٢٥٧هـ ، وَتَوَلَّى تَربِيَتَهُ جَدُّهُ الحَبِيبُ عَبدُ الله ابنُ عَلِي العَطّاس ، وَقَد عاشَ مُنذُ طُفُولَتِهِ ضَرِيراً ، وَلَكِنَّ الله عَوَّضَهُ بِنُورِ البَصِيرَةِ ، وَمَنَحَهُ فَهماً وَعِلماً ، وَوَهَبَهُ مِن لَدُنهُ مَواهِبَ جَمَّةً ، وَكانَ سَرِيعَ الحِفظِ ، حَتَّى إِنَّه يَحفَظُ المُتونَ مِن مَرَّةٍ واحِدَةٍ ، وَكانَ صاحِبَ ذَوقٍ فِي فَهمِ القُرآنِ ، وَلَه رِحلاتٌ عَدِيدَةٌ إِلى مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ والدِّيارِ المِصرِيَّةِ وَوادِي دُوعَن بِحَضرَموتَ وانتَقَلَ إِلى جِوارِ رَبِّهِ قَبلَ فَجرِ يَومَ الاثنَينِ السّادِس مِن شَهرِ رَجَب سَنَةَ ١٣٣٤هـ ، عَلَيهِ رَحمَةُ الله وَنَفَعَنا بِهِ وَبِعُلُومِهِ فِي الدّارَينِ .

الصُّفوفِ ، لا يَرضَى أَحدٌ مِنكم أَن يَتَخلَّفَ عَنهُم ، الله يُثَـبِّتُكم .

لا تُهمِلُوا تَآخِيكُم ، لحَظةٌ مباركةٌ إِن شاءَ اللهُ ، يا إِخوةَ الصِّدقِ ، الحَقُّ ما يَرى إِلا القُلوبَ ، الآن نَحنُ نحرِّكُ هَذه اللِّسانَ ، وَنَقومُ بِبَعضِ هَذه المَظاهِرِ ، مِن أَجلِ تَكونُ ترجماناً عَن القَلبِ ، وَتَعَرُّضاً لنَفحةِ الرَّبِّ سبحانَهُ وتعالى .

حول كيفية تحصيل الإيمان الكامل

وقال رضي الله عنه ونفعنا به اعلمُوا أَنَّكُم مَسؤُولُونَ عَنِ ارتقاءِ مَراتِبَ عَليّةٍ عِندَ الرَّبِّ تَعالَى، بِحسنِ النِّـيَّةِ ، وَصَفاءِ الطَّوِيَّةِ ، وَنَظَرِكُم فِي أَحوالِ دَعوَتِكُم وَتَعلِيمِكم عَلى وَجهٍ يَقتَضِي الصِّدقَ مَع الحَقِّ تَبارك وَتَعالى ، مُتَرجماً فِي الصِّدقِ مَع أَنفُسِكم ، والصِّدقِ مَع أَقرانِكم ، والصِّدقِ مَع التَّوجِيهاتِ والتَّعلِيماتِ والتَّرتِيباتِ التي تُلقى إِليكم .

فَيُثمِرُ كُلُّ ذَلِك بَينكُم تَرابُطاً بِالله تَعالَى ، حَتَّى يَكُونَ كُلُّ واحِدٍ مِنكُم مُحِبّاً لِأَخِيهِ، إِن لَم يَزِدْ عَلى نَفسِه ، فَمِثلَ نِفسِه عَلى الأَقَلِّ ، وَتَحقِيقُ هَذا لَيسَ بِمجرّدِ فِكرَةٍ وَلا خَطرَةٍ تَخطُرُ عَلى بالك ، وَلَكِنَّهُ وَصفٌ شَرِيفٌ عِندَ الرَّبِّ تَبارَك وَتَعالَى، وُصِفَ بِهِ أَصحابُ الحَبِيبِ مُحمَّدٍ صَلَّى الله وَسَلَّمَ وَبارَكَ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ ، وَوُصِفَ بِه الأَخيارُ والأَطهارُ والأَبرارُ ، ما تَتَحَصَّلُ[1] عَلَيهِ بِمُجرَّدِ فِكرةٍ وَلا خَطرةٍ وَلَكِن تَتَحقَّقُ بِهِ بَعدَ طولِ اجتِهادٍ ، بِالتَّحقُّقِ والطَّلبِ مِن الرَّبِّ تَبارك وَتَعالى ، وَمجاهَدةٍ لِهذه النَّفس، حَتى تُحِبَّ لإِخوانِك ما تحبُّ لنفسِك ، وَحِينئذٍ أَنت مُبَشَّرٌ بالإِيمانِ الكامِلِ، فَإِذا بُشِّرتَ بِالإِيمانِ الكامِلِ ، فَأَبشِرْ أَنَّ الله يُمِدُّكَ أَيُّها المؤمِنَ بِما اقتَضَتْهُ

(١) أي: تَتَحقَّق بِهِ .

صِلةُ المؤمِنِ بالمؤمِنِ ، فَأَنتَ أَصبَحْتَ عَلَى حالٍ مِن الإيمان ، شَهِدَ لَك بِهِ سَيِّدُ الأكوانِ ، حامِلُ الإيمانِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِه وَصَحبِهِ وَسَلَّم ، وَقال لَك : «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(١) .

وَحِينئِذٍ تَحصُلُ الأُخُوَّةُ القَوِيّةُ بَينكُم ، حَتَّى إِنَّ الواحِدَ مِنكُم يُحِبُّ أَنْ يُؤثِر أَخاه بالمَصلَحةِ ، وَأَن يُقَدِّمَهُ عَلَيْهِ ، ويَفْرَحُ إِذا ظَهَرتْ عَلَيهِ عَلامَةٌ مِن عَلاماتِ التَّقدُّمِ .. مِن عَلاماتِ الارتِقاءِ .. مِن عَلاماتِ الاعتِلاءِ .. وَهَكَذا هَكذا .

في نشر الرحمة بين المسلمين

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ اجتَهِدُوا في رَحمَةِ إِخوانِكم ، وَمَحَبَّتِهِم ، وَاللُّطفِ بِهِم ، وَالعَطفِ عَلَيهِم ، وَستَجِدُونَ شَيئاً كَبِيراً .. وَأَنتَ مِن أَينَ سَتَأتِي بِرَحمَةٍ أَو عَطفٍ ؟ إِلا إِنِ استَخدَمتَ ما أَعطاكَ مِنه فَيُعطِيكَ ما عِندَه ، فَأَنتَ تَبذُلُ عَطفاً مَبذُولاً إِلَيكَ ، فَتُعطَى عَطفاً مَبذُولاً مِنهُ ، وَتَبْذُلُ رَحمَةً مَبذُولَةً إِلَيكَ ، فَتُعطَى رَحمةً مَبذُولةً مِنه ، ثمَّ تَتَّسِعُ الدّائِرَةُ هَذِهِ ، وَيَعظُمُ لِلإِنسانِ العَطاءُ مِنها ، فَلا يَتَصَوَّرُها بِإفهامٍ ، وَلا تحاطُ بِأَفهامٍ .

في ما يحجز الداعية عن الانتفاع

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ يَجِبُ أَن تَعرِفُوا أَنَّ المَقصُودَ مِن اجتِماعِنا هُو نَشرُ الأُلْفَةِ بَينَ الأُمَّةِ ، حَتى تُحسِنُوا التَّعامُلَ مَعَ مَخلُوقاتِ الله كُلِّها ، فالتَّحَقُّقُ بِالسَّبقِ فِي النَّفعِ ، وَحُسنِ الصُّحبَةِ ، يَكُونُ بِهَمٍّ صادِقٍ ، وَتَداخُلٍ كامِلٍ ، وَالتَّحَقُّقِ بِحَقائِقِ الانتِفاعِ ، وَتَعاوُنٍ كامِلٍ فِي قِيامِ الأَعمالِ .

وَحواجِزُ الانتِفاعِ كَثِيرَةٌ ، مِنها استِثقالُكَ لِأَخِيكَ ، وَقِصَرُ النَّظَرِ مِنك ، والاعتِقادُ

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيه .

بِخَيْرِيَّتك على الغيرِ ، وَعَدمُ الانشراحِ ، وَعَدمُ الانبساطِ لِتَقدِيمِ النَّصيحةِ لِأخِيك ، فَهذِه إِذا ذَهَبَتْ وَقامَ حُسنُ الظَّنِّ ، ارتَفعَتِ الحَواجِزُ ، وَتَمَّ الانتِفاعُ .

بأهل الألفة والمحبة يتحقق النصر

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: نحنُ فِي انتظارِ أَربابِ الأُلفَةِ ، مَتى ما وُجِدُوا ، ثِقتُنا أَنَّ النَّصرَ بِهِم يكونُ ، لأنَّ اللهَ أَيَّدَ نَبيَّه بِهِم فِي القَرنِ الأَولِ ، وَسَيُؤَيِّدُهُ بِهِم فِي القَرن الخامِس عَشَر ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣]، فَلابُدَّ مِن صِدقِ الأُخُوَّةِ بينكُم، صِدقِ الأُلفَةِ ، صِدقِ المَحبَّة ، صِدقِ التَّـقارُبِ، صِدقِ التَّآلُفِ، صِدقِ التَّفادِي ، صِدقُ المَحبَّةِ بَينَنا يَقتَضِي أَن نَفدِيَ بَعضُنا البَعضَ بِأَرواحِنا، فَضلاً عَن أَشباحِنا .

في المجاهدة وتصفية الباطن

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: اجتَهِدُوا فِي سُرُورِ قَلبِهِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِه وَصَحبِهِ وَسَلَّم بِما أَمكَنَ، وَأَحسَنُ ما يُحِبُّهُ صَفاءُ البَواطِنِ ، وَأَداءُ الأَمائِنِ ، والخُرُوجُ عَن مَواطِنِ «أَنا» **فَما ذاقَ الهَنا مَن فِيه رَكزَةُ «أَنا»** حَتَّى يَخرجَ إِلَى حَظائِرِ «هو» ، فَيَرى إِخوانهُ مَوضِعَ «أَنا» ولا يَطلُبُ لنَفسه مَكانَةً ، فتكونَ مَكيدةً ، والانطِواءُ بالمحبَّةِ فِي الإِخوانِ ، مِن أَقوَى الأُسُسِ لِلدُّخولِ فِي المَيدانِ ، واعتِلاءِ الشَّأنِ .

فَتَعرِفُ ما بَقِيَ مِن عُيُوبِ نَفسِك ، مِن خِلالِ ما يَبقَى مِن نَظراتِك إِلَى إِخوانِك بِالاستِثقالِ والاشْمِئزازِ وَسُوءِ الظَّنِّ ، فَما بَقِيَ مِنْ هَذِهِ الأَشياءِ عِندَك فَهوَ ما بَقِيَ مِن عُيُوبِ نَفسِك ، **فَإِذا كانَتِ النَّفسُ حَيَّةً .. فَهِي حَيَّةٌ** [(١)] .

---

(١) حَيَّة : الأولَى مِن الحَياةِ ، والثانية هي الثُّعبان أَو الأَفعَى .

الباب السادس

أُسس وقواعد احترام الخاصّ والعامّ
وقاعدةٌ في التّعامل مع المستقبليّات والمرائي

في معاني الاحترام

قال رضي الله عنه ونفعنا به [1] نحنُ دائمًا نتكلَّمُ مع أصحابنا أنَّ مُهمَّتَهُم احترامُ المسلمِ مِن حيثُ هو مُسلمٌ ، فيجبُ أنْ يَشعُرَ كلُّ من لَقِيَهُم أو جَلَسَ معهم وَلو لحظةً بِأنَّهم يحترِمُونَه ، فكَيفَ بعدَ ذلِكَ يَنشأُ شُعُورٌ عِندَ الآخرين أنَّ هَؤلاءِ ما يَعرِفُون أَحداً وَما يَتنازَلون مَع أَحَدٍ .

فَلابُدَّ أنْ يَأخُذَ الإِنسانُ مِن ذَلِكَ زاداً مِن واجِبِ تَعامُلِهِ الدّائِم مَهما انشَغَلَ بِأَيِّ مجالٍ ، يَكُونُ أحياناً إِذا انشغَلَ أَحدُنا بِمَجالٍ .. أَهمَلَ أشياءَ كَثِيرَةً مُهمَّةً له ، بَل هِي مِن عَينِ انشِغالِهِ بِهَذا المَجال .

وَمِن أظهَرِها مَسأَلَةُ العِلاقَةِ بِالنّاسِ والصِّلَةِ بهم ، كانَ الواجِبُ أن يَمشِيَ مَعَهُم عَلَى سُلُوكٍ وَعلى شُعُورٍ مِنهُم بِأَنَّه يُعَظِّمهم وَيحتَرِمُهُم مِن أَجلِ الله ، فَيَغفَلُ هُو عَن ذَلِكَ ، وَيَظُنُّ أَنَّ فِي انشِغالِه بِهَذا المجالِ كَفّارَةٌ لَه عَن الانشِغالِ بِكُلِّ شَيءٍ ، فَيَظُنُّ أَن لا بَأسَ عَلَيهِ فِي ذَلِكَ .

بَعضُ المهامِ عُدَّةٌ لَكَ وَزادٌ فَما تفارِقُك وَأنت مُنشَغِلٌ فِي أَيِّ مجالٍ كان ، فَهِي أَشياءُ ضَرُوريَّةٌ وَأَساسِيَّةٌ يَحتاجُ إِليها كلُّ مجالٍ ، وَهِيَ أُمُورٌ مترابِطَةٌ مَع بَعضِها البَعضِ ، تَحصُلُ تَرَسُّباتٌ أَحياناً فِي الفِكرِ وَفِي المَدارِكِ الذَّوقِيَّةِ فَتَحدُثُ مِثلُ هَذِهِ الأَشياءِ ، فَتَحتاجُ إِلى تَدارُكٍ .

كَثيرٌ مِن المهْتَمِّين بِالدَّعوةِ إِذا انشَغَلَ بِشيءٍ مِن مجالِ الأَعمالِ كلُّ التَوجِيهاتِ ما يهتَمُّ بِها وَلا يسمَعُها صَحِيحاً ، بَل وَيَرى أَنَّه قد أَدَّى الواجِبَ ، وَيَرى أَنَّ هَذِهِ التَّوجِيهاتِ والتَّنبِيهاتِ لِغَيرِه ، فَتَحصُلُ عِندَه تَرَسُّباتٌ كَثِيرةٌ ؛ لأَنَّه ظَنَّ أَنَّه لَيسَ بِمُحتاجٍ ، بَل

---

(١) وَذَلِكَ يوم السَّبتِ ١٨ مِن شَهرِ رَبيعٍ الثّاني ١٤٢٠هـ .

كُلٌّ مِنكُم يَحتاجُ إلى أن يَسمَعَ كَثِيراً وَيفكِّرَ وَينظُرَ وَيَتَأمَّلَ .

وَهَذِهِ التَّوجِيهاتُ فِيها حَلٌّ لِكَثِيرٍ مِن الغَوامِضِ والمشْكِلاتِ لآخِرِكم كَما هِي لأَوَّلِكُم، بَلِ الكَلِمةُ الواحِدَةُ أَحياناً فِيها حَلٌّ لِلَّذِي لَه عَشرُ سِنِينَ أَو عِشرُونَ سَنَةً ، أَو لِلَّذي لَه يَومٌ واحِدٌ ، كَلِمَةٌ واحِدَةٌ فِيها فائِدَةٌ مناسِبةٌ لِحالِ كلِّ واحِدٍ مِنْكُم ، فَإذا تُرِكتْ وَأُهمِلَتْ .. ما نَفعتْ وما أَثَّرت .

بَل إنَّ عامَّةَ ما يُشتكى مِنهُ أَو يُلاحظُ مَوجُودٌ في هَذِهِ التَّوجِيهاتِ عِلاجُهُ الكامِلُ ، لَكِن ما يُعْمَلُ بِها أَحياناً ، فَتَكونُونَ مِثلَ الَّذِي يَملأُ الثَّلاجةَ بِالأَدوِيةِ وَلا يَستَعمِلُها وَيَنتَظِرُ فائِدَتَها ، فَهَذِهِ الأَدوِيةُ لا تَظهرُ فائِدتُها إلا بِالاستِعمالِ فَكَذَلِكَ حالُ هَذِهِ التَّوجِيهاتِ.

ضوابط في الاحترام الخاص

وقال رضي الله عنه ونفعنا به [1] قَواعِدُ الاحتِرامِ العامِّ نُرِيدُها تَقوى بَينَنا لِعامَّةِ المُؤمِنِينَ وَلِخَواصِّهِم ، وَلأَخَصِّ الخواصِّ ، أَي الَّذِينَ شارَكُونا بِالهَمِّ فِي هَذا العَمَلِ نَفسِهِ ، وَهَذا السَّيرِ وَهَذا السُّلُوكِ ، فَنَتَعامَلُ مَعَ اللهِ فِيهِم ، وَهوَ يَرقُبُ ذَلِكَ سُبحانَهُ وَتَعالَى وَيُثِيبُ عَلَيهِ .

ثُمَّ أَنتُم بَعضُكُم البَعضُ ، مِن الجَمِيلِ والطَيِّبِ بَينكُم .. أَن تَكُونُوا فِي نَقاءٍ وَصراحَةٍ وَوُضُوحٍ ، بِاعتِبارِكُم شَيئاً واحِداً ، ما يَحتاجُ أَحدٌ يَدخُلُ بَينكم أَبَداً ، وَلا شَيءَ مِما يَخصُّ العَلائقَ [2] يَنزِلُ إلى الغَيرِ أَبداً ، بَل كلُّ واحِدٍ مِنكُم لَو طَرَأَ عَلَيهِ شيَءٌ، كَما أَخبَرَ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم أَنَّه إذا أَحَسَّ أَحَدٌ فِي نفسِه بمحبةٍ لأَخِيهِ يُخبِرُهُ بِها ، وَمِن بابِ أَولَى إذا أَحَسَّ بِشَيءٍ مِن جانِبِهِ ، يَقُولُ لَه : أَشْكَلَ عَلَيَّ تَصَرُّفُك الفُلاني ،

---

(١) لَيلَة السَّبت ١٧ مِن شَهرِ صَفَر ١٤١٩هـ .

(٢) أي: مّما يَخصُّ عِلاقَتكُم مَع بَعضِكُم البَعضَ وَقَد جَمَعَكم اللهُ عَلى شَرَفِ الخِدمَةِ فِي هَذا المَيدانِ.

وَأمرُك الفُلانِي ، تَعالَ يا أَخِي ماذا تَرى ؟ وَما إِلَى ذَلِكَ ، وَأَهْدِ إِلَيَّ عُيُوبِي لَو رَأَيتَها ، فَأَنا أَحَقُّ النّاسِ بِالنَّصِيحَةِ مِنك ، وَهَكَذا .

اللهُ جَلَّ جلالُهُ يُحِبُّ لَكُم هَذا ، وَبَعدَ ذَلِكَ ماذا ؟ فَما أَحَبَّهُ اللهُ فَهو لَنا مَحبُوبٌ إِن شاءَ اللهُ ؛ لأَنَّنا عَبِيدُهُ سُبحانه وَتَعالَى .

في شأن قواعد الاحترام والأدب مع الخلق

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ (1) أَربابُ المعارِفِ أَكثَرُ احتِراماً لِلخَلْقِ مِن غَيرِهم ، تَأتي أَنتَ الَّذي ما تساوي شَيئاً ، تَجِدُهُم يَأنسونَ بك ، وَيَحترمُونَكَ ويُقَدِّمونَك ، ويَطلُبونَ الدُّعاءَ مِنك ، هَذا مِن قُوَّةِ مَعرِفَتِهم ، وَمِن رُسُوخِ إِدراكِهم وَفَهمِهِم عَن اللهِ تَعالَى .

هَذِهِ النِّسَبُ مُبْثَّةٌ فِي الكائِنات ابْتِثاثَ العُمُوم ، مِن جِهَةِ أَنَّها صِنعَةُ اللهِ تَعالَى ، وَمِن جِهَةِ أَنَّها دالَّةٌ عَلَيهِ ، وَمِن جِهَةِ أَنَّها ناطِقَةٌ بِاسْمِهِ ، وَمِن جِهَةِ أَنَّها مُسَبِّحَةٌ لَه ، وَمِن جِهَةِ أَنَّ لَه حِكَماً فِي إِبداعِها وَخَلقِها .

ما رَأيُكَ أَنْ تَتَعامَلَ مَع شَيءٍ فِيهِ حِكمَةُ اللهِ ! وَفِيهِ إِرادَةُ اللهِ ! وَفِيهِ الدَّلالَةُ عَلَى اللهِ! وَفِيهِ الذِّكرُ لله ! وَفِيهِ التَّسبيحُ بِحَمدِ اللهِ .

وَهَذِهِ النِّسَبُ عامَّةٌ فِي الكائِناتِ كُلِّها ، اقتَضَت أَنْ يُوجَدَ عِندَنا احتِرامٌ لِلكائِناتِ مِن هَذا الوَجْهِ ، عَلَى الوَجْهِ الذي قُيِّدَ بِالشَّرعِ .

أَمّا المؤمِنُونَ والمسلِمُونَ فَأَمْرُهُم آخَرُ ، فَلِهَذا تَدْخُلُ فِي مَيدانٍ غَيرِ هَذا الميدانِ ، لِذَلِك قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب:٦]، وَلِهَذا قِيلَ : (**لَو**

---

(١) لَيلَة السَّبتِ ١٧ مِن شَهرِ صَفَر ١٤١٩هـ .

كُشِفَ نُورُ العَبدِ العاصِي لطَبَّق ما بَينَ السَّماءِ والأَرضِ)[1] ، إِذا أَرَدْتَ أَن تَتَعامَلَ مَع المؤمِنِينَ ، فادخُلْ فِي هَذا المَيدانِ. فَكَيفَ إِذا جِئنا إِلَى مَن لَه نِسبةٌ خاصةٌ بَعدَ ذَلِكَ مِن جِهةِ الشَّرعِ ، وَعِندكُم نِسْبَةُ الوالِدِيَّة ، كَما هِي لِلوالِدَينِ ، حَتى جاءَ الكِتابُ بِرَبطِ الشُّكرِ بِالشُّكرِ ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان:١٤]، بَعدَ ذَلِكَ نِسبةُ الرَّحِمِ لِكَونِها مُعَلَّقَةً بِالعَرشِ ، وَأَعلَى مِن هَذِهِ الشَّجَنَةِ ـ أَي شَجَنَةِ الرَّحِمِ والوصلَةِ ـ شَجَنَةُ الأُخُوَّةِ فِيه ، والاجتِماعِ عَلى كَأسِها .

وَلِهَذا يَنبغِي أَن نَترَبى وَنُربِّيَ مَن حَوالينا عَلى تَأكِيدِ مَعانِي الاحتِرامِ لِلخَلقِ ، نَكُونُ بِذَلِكَ قَد قَرَعْنا باباً مِن أَبوابِ تَوحِيدِ رَبِّنا ، وَعَرفنا شَيئاً مِما يَنبَغِي لَنا، فَإِنَّه لا تَرجَمَةَ لِخُضُوعِنا لَه ، إِلا رِعايَةَ حَقِّ خلقِهِ ، وَإِلا كَيفَ نَترجِمُها ؟ أَين بِرهانُها؟ تَرجَمَتُها كَيف تَتعامَلُ مَع خَلقِهِ ، وَلِهَذا جاءَ فِي سِيرَةِ المقتَدَى لَنا : «يَحْسَبُ جَلِيسُهُ أَنَّهُ أَحَبُّ الخَلْقِ إِلَيْهِ»[2] ، وَمَعنَى ذَلِكَ : أَنَّه يَقُولُ لَنا: احتَرِمُوا الخَلقَ .

إِذاً فَأَنتُم مِنَ الآن عَلى وَجهِ الخُصُوصِ ، خُصُوصاً بَعدَ اتِّصالِكُم بِأَهلِ العِلمِ والمَعرِفَةِ بِالله ، لابدَّ عَلَيكُم أَنْ تَعرِفُوا ارتِباطَ احْتِرامِ بَعضِكم البَعضِ بِتوحِيدِ رَبِّكم، نَقصُهُ نَقْصٌ فِي التوحِيدِ بِلا شكٍّ ، وَقَد يَدِقُّ عَلى الإِنسانِ وَيَخفَى ، لَم يَكنِ الشِّركُ الأَصغَرُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ أَخفَى مِن دَبِيبِ النَّملِ إِلا لِهَذِهِ المعانِي ، ما يَأتِي الإِنسانُ عَلَيه إِلاَّ بِصُعُوبَة .

وَلِهذا يَقُولُ الحَبِيبُ أَحمَدُ بنُ حَسَنٍ العَطّاس: **الإِشراكاتُ أَقسامٌ**: إِشراكُ الهَوَى وَإِشراكُ العَقلِ وَإِشراكُ الاستِحسانِ، وَكلُّها تَدخُلُ عَلَى الإِنسانِ فِي التَّوحِيدِ المطلُوبِ الكامل.

---

(١) قالَه أَبُو الحَسَنِ الشّاذِلِّي : **(لَو كُشِفَ عَن نُورِ المؤمِنِ العاصِي لطَبَّقَ ما بَين السَّماءِ والأرضِ ، فَما ظَنُّك بِنُورِ المؤمِنِ المطِيعِ ؟)** وَرَدَت فِي شَرحِ الحِكَمِ العَطائِيَّةِ لِلشَّرنُوبِي .

(٢) رَواهُ الطَّبَرانِيّ فِي «الكَبِير» بِلَفظِ : **وَيُعْطِي كُلّ جُلسائِهِ بِنَصِيبِهِ ، لا يَحسَبُ جَلِيسُهُ أَن أَحَداً أَكرَمُ عَلَيهِ مِنهُ مِمن جالسه** .

واحترامُكُم أَنتم ، خاصَّةً لِبعضِكُمُ البَعض الاحترامَ القَلبي ، يَعنِي الَّذِي يَطَّلِعُ عَلَيهِ الحَقُّ وَيرتَضِيه ، وَتَوَسُّعُكم فِيهِ ، أَسبابٌ تُوصِلُكُم إِلى المعارفِ بِاللهِ ، وَمِن أَسبابِ إِدْراكِكُم للحَقِيقَةِ ، وَمِن أَسبابِ سِعَةِ فَهمِكم للمنهج ، وَمِن أَسبابِ قُوَّةِ استِمساكِكُم بِالعُروَةِ الوَثِيقَةِ ، وَمِن أَسبابِ سِعَةِ تبصرِكم بِحسنِ النظرِ فِي الأُمُورِ .

ضوابط الاحترام العام

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[1] لا يَصلُحُ دائِمًا لِلدَّعوَةِ إِلا مَن يَحترِمُ المدْعُوِّين ، فَمَن يَظْهَرْ عَلَيهِ احتِقارٌ لأَحَدٍ ، يَكنْ إِبعادُه أَكثَرَ مِن تَقرِيبه ، وَتَنْفِيرُه أَكثَرَ مِن تَبشِيرِه ، وَقَطعُه أَكثَرَ مِن وَصْلِه ؛ لأَنَّهُ بِهذا الأُسلُوبِ يُنَفِّرُ وَيُبعِّدُ ، وَلِهَذا كانَ شاعِرُهُم يَقُولُ :

مَـنْ وَقَّـرَ النَّـاسَ وَقَّـرُوهُ ... وَفـازَ بالعَقْـلِ والرِّئاسَـهْ
وَمُزْدَرِيهِـمْ لَـوْ كانَ مِسْـكاً ... لَقِيـلَ فِي أَصْلِـهِ نَجاسَـهْ

مُزْدَرِيهِم حَتى لَو كانَ مِسْكاً خالِصاً سَيتكَلّمونَ عَلَيه ، سَيقولُون : دَمُ الغزالِ هَذا نَجِسٌ ، تَقُول لَهم : انظُروا رائِحَتَه طَيِّبَةً ! لَكِن لَمّا أَحسُّوا مِنهُ الازدِراءَ لَهم ، تَكَلَّمُوا عَلَيه .

فَلِهَذا يَجِبُ عَلَينا أَن نَبدَأَ النّاسَ بِالمَحَبَّةِ والمَوَدَّةِ والرَّحمَةِ والرَّأفَةِ ، وَكَذَلِكَ جاءَكُم صاحِبُ حِراءَ كُلُّه رَحمَةٌ ، كُلُّه شَفَقَةٌ ، كُلُّه تَواضُعٌ ، كُلُّه أَدَبٌ ، لِهَذا وَجَدْتُم الأَوائِلَ الَّذِينَ حَوالَيهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم أَكثَرُهُم مِن مُستَضعَفِي مَكَة ، مِن المَوالِي والعَبِيدِ والأَرِقّاءِ ، وَلَمّا جاءَ فَتحُ مَكَّةَ ما طَلَّعَ[2] فوقَ الكَعبَةِ إِلا بِلالٌ ، قالَ لَه صَلى اللهُ عَليه وَآلِه وَسَلَّم : اِطلَع وَأَذِّن فِي النّاسِ ، فَطَلَعَ سَيِّدُنا بِلالٌ وَأَذَّنَ فِي ذَلِكَ المَكان[3] .

(١) فِي شَهرِ صَفَر ١٤١٩هـ .
(٢) **الطُّلُوعُ** : بِمَعنَى الصُّعُود .
(٣) قالَ ابنُ عباسٍ : **لما كانَ يومُ فتحِ مَكَّةَ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم بِلالًا حَتَّى عَلا عَلَى ظَهرِ الكَعبَةِ فأَذَّن** . انظُر تَفسِيرَ القُرطُبِيِّ .

مخاطباً جميع إخواننا المنتمين لهذه الدّعوة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به إلى المنتَمِينَ لِهَذا المنْهَجِ المباركِ الواسعِ المَورُوثِ عَن سَيِّدِ الوُجُودِ وَوَرَثَـتِه الأكرَمِينَ عَلَيهِم صَلَوات الله وَتَسلِيماتُه فِي كُلِّ وَقتٍ وَحِينٍ .

فِيما يَتعَلَّقُ بِشُؤُونِ مُعامَلاتِكُم أَو صِفاتِكُم قَد عَلِمتُم أَنَّ أَمرَنا قائِمٌ عَلَى تَصْفِيَةِ الصِّفاتِ؛ لِنَنالَ بِها التَّهيُّؤَ لمصافاةِ الحَقِّ الَّذِي يُحِبُّ أَهلَ الصِّفاتِ الطَّيِّباتِ الحَسَناتِ المبارَكاتِ.

فَمِنَ القَواعِدِ المهمَّةِ فِي أَمرِ هَذِهِ الدَّعوَةِ لِكلِّ مُنتَمٍ إِلَيها ، أَن يُقَوِّمَ وَيُثَبِّتَ وَيُرَسِّخَ معانِيَ الاحترامِ ، لأهلِ الإِسلامِ عامَّةً ، ثم للخَواصِّ خاصَّةً حَتّى يَصِيرَ ذَلِكَ دَيْدَناً له ، ظاهِراً عَلَيهِ فِي جَمِيعِ أَحوالِه ، عِندَ المقابَلَةِ ، عِندَ المساءَلَةِ ، وَفِي المعامَلَةِ .

فَلابُدَّ لِكُلِّ مُنتَمٍ لِهَذِهِ الدَّعوَةِ المبارَكَةِ أَن يُوَطِّنَ قلبَهُ عَلى وَلاءِ أَهلِ الإِيمانِ وَمَحبَّةِ أَهلِ لا إِلَه إِلا الله عامَّةً ، وَخاصَّتِهِم خاصَّةً .

ثُمَّ لِيَعلَمْ كُلُّ مُنتَمٍ لِهَذا المنهَجِ المبارَكِ .. أَنَّ مِن واجِبنا .. إِقامَةَ الاحتِرامِ القَلبِيِّ الَّذِي تَظهَرُ مِنه الظَّواهِرُ فِي أَجسادِنا وَعلَى تَقاسِيمِ وُجُوهِنا ، وَعلَى مَلامِحِنا عِندَ المقابَلَةِ ، وَعِندَ الحَدِيثِ وَعند المساءَلَةِ ، وَفي المعامَلَةِ ، فَيَجبُ عَلينا أَنْ نُقِيمَ قاعِدَةَ الاحتِرامِ بِحَيث نُدِينُ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالَى بِإِكرامِ أَهلِ الإِسلامِ .

ثُمَّ لِيَشعُرْ كُلُّ مُسلِمٍ لَقِيَنا أَو جَلَسَ مَعَنا أَو حَدَّثَنا أَنَّنا نَنطَوِي عَلَى مَحبَّتِهِ وَعَلى إِجلالِهِ لأَجْلِ الله تَبارَكَ وَتَعالَى وَلِدِينِ الله جَلَّ وَعَلا ، وَعَلى خِدمَتِهِ واحتِرامِهِ ، فَلابُدَّ أَنْ يَقُومَ هَذا بِقُوَّةٍ وَيُلاحِظُوا أَنفُسَهُم .

كَثِيرٌ مِنهُم يَعلَمُونَ أَنَّ مِن واجِبِهِم احتِرامَ المُؤمِنِينَ ، وَلَكِن تَغِيبُ عَنهُم نقاطٌ خَفِيفَةٌ عِندَ المقابَلةِ وَعِندَ المعامَلَةِ يَترَتبُ عَلَيها أَمْرٌ كَبِيرٌ فِي تَأخِيرِ مُداواةِ النُّفُوسِ ، وَقَد يَترَتَّبُ عَليها إِثارَةُ مَرَضٍ مِن الأَمراضِ فِي النُّفُوسِ ، وَقَد يَترَتَّب عَلَيها عَرقَلَةُ سَيرِ الدَّعوَةِ إِلَى الله تَبارَكَ وَتَعالَى .

فَمِن الواجبِ أنْ يَعلَمُوا أنَّ منهج رِجالِنا وَأَئِمَّتِنا قائِمٌ عَلى احتِرام جَميعِ الطُّرُقِ المنتَسِبَةِ لأَهلِ الهُدَى والحَقِّ عَلَى اختِلافِ مَشارِبِها وَهَيئاتِها وَظَواهِرِ صِفاتِها، مَع عِلمِهم أَنَّهم اتَّفَقُوا فِي القَصدِ والمَرامِ ، اتَّحَدُوا فِيهِ اتِّحاداً تامّاً ، قالَ سَيِّدُنا الإمامُ عَبدُالرَّحمن بن عَبدِ الله بِلفَقِيه[1] :

فَهُمْ كَذا الرُّسُلُ بَنُو عَلاَّتِ　　طَرِيقُهُمْ واحِدَةٌ بالذّاتِ
تَعَدَّدَتْ بِالرَّسْمِ والهَيْئاتِ　　فِي كُلِّ تَفْصِيلٍ بلا انْفِصالِ
وانْشَعَبُوا فِي شُعَبِ الإِيمانِ[2]　　بِضْعًا وَسَبْعِينَ بِبادِي الشّانِ
وَكُلُّها قاضٍ لِذِي الإِحْسانِ　　إِلى حُصُولِ الكُلِّ باتِّصالِ
إِذْ حَقَّقُوا مَناهِجَ الإِسْلامِ　　فافْتَرَقُوا فِي ظاهِرِ الأَحْكامِ
واتَّفَقُوا فِي القَصْدِ والمَرامِ　　وَقَصْدِ وَجْهِ الله ذِي الجَلالِ[3]

إذا عَلمنا ذَلِكَ فيجبُ أَن يَشعرَ أَهلُ الاتّجاهاتِ الطَّيبةِ وأَهلُ الطُّرقِ مِن كلِّ فردٍ منّا لَقِيَهم أو جالَسَهُم أننا نُقَدِّرُ ونَحترمُ طرُقَهُم وأئمّتَهُم .

---

(١) هُوَ الإِمامُ عَبدُ الرَّحمن بنُ عَبد الله بنِ أَحمد بنِ عَبد الله بنِ أَحمد بنِ عَبد الرَّحمنِ ابنِ الفَقِيهِ محمَّد بنِ عَبدالرَّحمنِ الأَسقَع ابنِ عَبد الله بنِ أَحمد بنِ عَلِي بنِ محمَّد بنِ أَحمد ابنِ الفَقِيه المقَدَّم ، وُلِدَ بِتَرِيم سَنَة ١١١٠هـ وتُوفِّي بها سَنَة ١١٧٣هـ ، حَفِظَ القُرآنَ فِي صِغَرِه ، كانَ يَصِفُهُ الإِمامُ الحَدّادُ بِأَنَّه عَلاّمَةُ الدُّنيا ، بَل كانَ يَهتِفُ بِأَعلَى صَوتِهِ عِندَما يَدخُلُ تَرِيمَ وَيَقُولُ : أَينَ النّاسُ مِن عَبدِ الرَّحمنِ بنِ عَبدِ الله بِلفَقِيه ؟ .. هَلّا وَقَفُوا عَلَى بابِه كَما يُوقَفُ عَلَى بابِ الإِمامِ مالِك بِالمدِينَة.

(٢) فِي «عِقدِ اليَواقِيتِ الجَوهَرِيَّة» ١/ ٣٣ وَرَدَت بِلَفظ : تَفَرَّقُوا فِي شُعَبِ الإِسلام .

(٣) الأَبيات مِن مَنظُومَةٍ طَوِيلَةٍ لِلإِمام عَبدِ الرَّحمنِ بن عَبدِ الله بِلفَقِيه تُسَمَّى «رَشَفاتِ أَهلِ الكَمالِ وَنَسَماتِ أَهلِ الوِصالِ» مَطلَعُها :

إِخوانُنا بِالمسجِدِ الحَرامِ　　مِنّا إِلَيكُم أَكمَلُ السَّلامِ
وَحَمدُ رَبٍّ عَمَّ بِالإِنعامِ　　وَمَنَّ بِالتَّفضِيلِ والإِفضالِ

وَنَبعُدُ عَن أَنْ نَتَصورَ وَقَد أَكرَمنا الله تَعالى بمَنهَجٍ كَبيرٍ شامِلٍ عَظِيمٍ، أَنّه يَجِبُ عَلى جَميعِ الخَلق أَن يَكونوا عَلى نَفسِ هَذا المَشرَبِ وَهَذا المَنهَجِ ، نُبْعِدُ هَذا التَّصورَ من عقولِنا ، وَنُبْعِدُهُ من أذهاننا ، فما هي سنة الله تعالى في هَذِهِ الأُمَّةِ مِن حِينِ أَن بُعِثَ المصطَفَى صَلَّى الله وَسَلَّم وَبارَكَ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَكانَت اختِلافاتُ مَفاهِيمِ الصَّحابَةِ فِي النُّصُوصِ ، واختِلافُ أَحوالِهِم فِي دَرَجاتِ الإِنابَةِ، والقِيامِ بِالأَعمالِ تُمَثِّلُ هَذِهِ الطُّرُقَ الحَقَّةَ الَّتِي قامَت مِن بَعدِهم إِلى يَومِنا هَذا .

فَحِينَئِذٍ نَعلمُ أَنَّ كلَّ مَن هَداهُ الله تَبارَكَ وَتَعالَى إِلَى مَنحَى مِن هَذِهِ المَناحِي يُقَرِّبُه إِلَيهِ، أَو يُطَهِّرُ بِه نَفسَهُ أَو يُزكِّيها لا ينكِرُهُ الشَّرعُ فَلا سَبِيلَ لِلإِنكارِ عَلَيهِ ، بَل يَجِبُ عَلَينا تَشجِيعُه وَتَأيِيدُه والمعاوَنَةُ لَه بِما استَطَعنا وَبِما قَدِرنا .

وَمِن الأَخطاءِ الَّتِي تَقَعُ عِندَنا كَما تَقعُ عِندَ الَّذينَ لَم يَتَمَكَّنُوا مِن أَتْباعِ الطُّرُقِ المختَلِفَةِ أَنْ يَتَصَوَّروا أَنَّ مَن لَم يُعظِّمْ شَيخَهُم فَهو فاسِقٌ أَو ساقِطٌ أَو ناقِصٌ عَلى الإِطلاقِ ، وَأَنَّ مَن لَم يَتَّصِلْ بِمَشربِهِ المخصُوصِ فَلا سَبِيلَ لَه إِلى المَجالِ الواسِعِ ، وَلا إِلى المقامِ الرّافِعِ ، كُلُّ تِلكَ أَخطاءٌ وَتَصَوُّراتٌ إِلى الضَّلالِ أَقرَبُ مِنها إِلى الهُدَى .

فَيَجِبُ أَنْ يَتَنَزَّهَ عَنها أَبناءُ هَذِهِ الدَّعوَةِ وَأَبناءُ هَذا المنهَجِ وَيَرتَفِعوا عَنها ، وَيَعلَمُوا سِعَةَ رَحمَةِ الله وَسِعَةَ الخَيرِ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ وانتِشارَهُ فِيها ، وَيُبادِلُوا كلَّ مُتَوجِّهٍ إِلى الخَيرِ بِتَشجِيعِهِ والقِيامِ مَعَه ، مَع الاستِمرارِ فِي إِرشادِ الإِخوانِ والأَصحابِ إِلى ما هَدانا الحَقُّ تَعالى أَنَّه الأَولَى أَو الأَفضَلُ فِيما تَهيَّأَتْ لِذَلِكَ النُّفُوسُ واسْتَعَدَّتْ لَه عُقُولُ مَن حَوالَينا .

فَلا نَزالُ عَلى حُسنِ دِيانَةٍ لِلحَقِّ تَبارَك وَتَعالى بِالأَدَبِ مَع شَرعِه وَأَهلِ شَرعِهِ وسِعَةِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي بُعِثَ بِها النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ صَلَّى الله عَلَيهِ وَعَلى آلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم ، لا نَحصُرُها وَلا نَقصُرُها وَلا نُصغِّرُها ، بَل نَعلَمُ أَنَّها الواسِعَةُ الَّتِي تَسَعُ الخَلائِقَ عَلى اختِلافِ

مَشارِبِهِم ، ما دامَ أَنَّه زَمَّهُم بزِمامِ الانتِماءِ إِلى شَرعِ الله والقِيامِ بِأمرِ الله ، وتَحقِيقِ شَهادةِ أَلّا إِلَه إِلا الله وَأَنَّ محمَّداً رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم .

ثُمَّ أَمرٌ آخَرُ يَبدُو وَيَبدُرُ وَيَصدُرُ عِندَ المُلاقاةِ مِن مُصافَحَةٍ أَو هَيئَةِ جُلُوسٍ ، فَيَحصُلُ مِن كَثيرٍ مِن الَّذِينَ لَهم شُيُوخٌ يُحِبُّونَهُم أَو يُعظِّمُونَهُم ، وَتَعظِيمُ الشُّيُوخِ وَمَحبَّتُهُم مِن جُملةِ قَواعِدِ الشَّريعَةِ الَّتِي لا يُنكِرُها أَحَدٌ ، لَكِن أَنْ يَصدُرَ عَلى وَجهِ الإِعراضِ عَمَّن يُستَحَبُّ الإِقبالُ عَليهِ .. فَلا ، أَو يَصدُرَ عَلى وَجهٍ يُشعِرُ بِالالتِفاتِ إِلى الشَّيخِ ، ثُمَّ الإِعـراضِ عَن غَيره فِيما هوَ حَقٌّ لَه مِن حُسنِ المُقابلةِ أَو الاستقبالِ أَو المواجَهَةِ .. فَلا .

فَمِن جُملَةِ ما يَصدُرُ مِن الأَخطاءِ الشّائِعَةِ .. أَنْ يُقْبلُوا عَلى مَن يَعرفونَهُ مِن رِجالِ دَعوَتِهِم فِي المَجامِعِ وَغَيرِها بِالمصافَحَةِ ، ثُمَّ يَكُونُ إِلى جانِبِهِم أَحَدٌ مِن أَهْلِ كِبَرِ السِّنِّ أَو مِن أَهلِ العِلمِ أَو مِمن يُستَحَبُّ الإِقبالُ عَلَيهِ فَيُعرِضُون عَنه إِعراضا ، وَيَتَولَّوْنَ عَنه وَكَأَنَّهُ لا يُوجَدُ بَينَهُم إِنسانٌ مِن أَهلِ الدِّينِ والإِسلامِ والإِيمانِ ، فَيَجِبُ عَلَيهِم أَن يَبُشُّوا فِي وَجهِهِ ، وَأَن يَقُومُوا بِمُصافَحَتِهِ وَأَنْ يُقْبِلُوا عَلَيهِ ، فَيَجِبُ أَن نَنتَبِه لِذَلِكَ .

إِذا صافَحْتَ الشَّيخَ الَّذِي تَعرِفُهُ أَو الرَّجُلَ الَّذِي بَينَكَ وَبَينَه أُلفَةٌ وَمَحبَّةٌ فِي الله تَعالَى فَلا تَغفَلْ عَمَّن بِجانِبِهِ وَعَمَّن هوَ مَوجُودٌ فِي المجلِسِ مِن كلِّ مَن هوَ أَكبَرُ مِنكَ سِنّا أَو أَكثَرُ مِنكَ عِلماً عَلَى وَجهِ الخُصُوصِ ، أَو ظاهِراً بِخَيرٍ وَصَلاحٍ .

وَعَلى وَجهِ العُمُوم كُلُّ مَن تَأَتَّى لَكَ فِي المجلِسِ وَلَو كانَ أَصغَرَ مِنك مصافَحَتُهُ أَو احتِرامُهُ فاحرِصْ عَلى ذَلِكَ ، واحذَرْ مِن هَذِهِ الإِعراضاتِ عَمَّن تُصادِفُهُ فِي مَجلسٍ أَو فِي طَريقٍ تَمشِي فِيهِ عِندَ المصافَحَةِ والمكالَمَةِ ، فَيَنبَغِي أَنْ توجِّهَ إِلَيهِ الحَدِيثَ لِلسُّؤالِ عَن حالِهِ ولِطَلَبِ الدُّعاءِ مِنه .

كَذَلِكَ فَلا تَغفَلْ عَن كَبيرِ سِنٍّ عِندَكَ أَو كَثيرِ علمٍ أَو صاحِبِ مَظهَرِ خَيرٍ وَتَقوى،

وَأن تَطلُبَ مِنهُ الدُّعاءَ ، وَتَطلُبَ مِنهُ التَّوجُّهَ إِلَى اللهِ فِي شَأنِكَ ، وَأن تحترِمَهُ بِقَلبِكَ قَبلَ جَوارِحِكَ ، وَأن تُواليَهُ مِن أَجلِ رَبِّك سُبحانَه وَتَعالَى الَّذي فَرَضَ عَلَيكَ مُوالاةَ المؤمِنينَ بِنَصِّ كِتابِهِ الطّاهِرِ .

وَما منهجُنا إلا حِفظُ آدابِ الكِتابِ وَإِقامتُها وإِحياؤُها عَلَى وَجهِها ، لا تَضييعُها أَو إِهمالُها ، فَمِن جُملَةِ آدابِ الكِتابِ: مُوالاةُ المؤمِنِينَ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٥-٥٦] ، وإنَّ مِن قَواعِدِ مَنهَجِنا عِند إِمامِهِ الأَكبَرِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم: «لَيسَ مِنّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبيرَنا ، وَيَرْحَمْ صَغيرَنا ، وَيَعْرِفْ لِعالِمِنا حَقَّهُ»(١) وكَفَى بِه مِن أَدَبٍ عَظِيمٍ جاءَ عَن صاحِبِ الخُلقِ العَظِيمِ .

تَوقِيرُ الكَبيرِ هِي مَسأَلَةٌ تَحُلُّ كَثِيراً مِن إِشكالاتِ المنهجِ ، فَما يَبقى أَكبرُ مِنكَ وَلا أَصغرُ مِنكَ إِلا وَلَه حَقٌّ عَلَيكَ ، لهَذا التَّوقيرُ وَلهَذا الرَّحمَةُ(٢) ، إِذا فَجَميعُ مَن تُلاقِيهم يَشعُرُونَ بِأَنَّ لَكَ مَعَهم يَداً بيضاءَ لِلكَبيرِ بِالتَّوقيرِ ، وَلِلصَّغيرِ بِالرَّحمَةِ ، ثمَّ أَن تَعرِفَ لِعالِمِنا حَقَّه ، مِن كُلِّ صاحِبِ عِلمٍ مُنتَمٍ لهَذِهِ الشَّرِيعَةِ .

كَذَلِكَ إِذا قامُوا فِي خُطبَةٍ(٣) أَو نَحوِها فَأَشارُوا إِلَى مَن فِي المَجلِسِ(٤) فَلا يَنبَغِي أَن

---

(١) رَواهُ التِرمِذيّ عَن ابنِ عَمرو ، وَأَبي يَعلَى عَن أَنَس ، والعَسكَرِيّ عَن عُبادَةَ بنِ الصّامِت وَرَفَعُوه، وَرَواه أَحمدُ والتِّرمِذيّ عَن عُبادَةَ بنِ الصّامِتِ بِلَفظِ: «لَيسَ مِنّا مَن لَم يُجِل كَبيرنا وَيرحَم صَغيرنا وَيَعرِف لِعالِمِنا حَقَّه».

(٢) أَي: لِلكَبيرِ التَّوقِيرُ ، وَلِلصَّغيرِ الرَّحمَةُ .

(٣) أَي: قامُوا فِي مجلِسٍ لِلحَدِيثِ أَو التَّكَلُّمِ .

(٤) أَي: ذَكَرُوا فِي كَلامِهِم بَعضَ مَن فِي المَجلِسِ مِن أَهلِ العِلمِ والصَّلاحِ وَنَحوِهم مِمَّن بَينَنا وَبَينَهم صِلَةٌ وَرابِطَةٌ .

تَقتَصِرَ الإِشارَةُ عَلى واحِدٍ أَو اثنَينِ مِمَّن لَهم بِهِمْ صِدقُ وَلاءٍ وَمَعَهُم صافِي صَفاءٍ ، بَل يَنبَغِي أَن يُشِيرُوا إِلَى كُلِّ كَبِيرٍ وَكُلِّ صاحِبِ عِلمٍ فِي المجلِسِ ، وَيَذْكُرُهُ بِاسمِهِ ، فإِمّا أَن يُورِدُوا الكَلامَ عامّا لِجَميعِ الكِبارِ الَّذِينَ فِي المجلِسِ ، أَو يَنصُّوا عَلى أَسماءَ مُتعَدِّدَةٍ، بِحَيث أَن يَتَناوَلُوا كلَّ مَن شَمِلَتْهُ دائرةُ كِبَرِ السِّنِّ أَو كَثرةِ العِلمِ مِمن يَنبَغِي أَلّا يُغْفَلَ عَن ذِكرِه فِي المجلِس ، وَلَو كان غَرِيباً أَو جاءَ مِن بَعِيدٍ أَو لا يَعرِفُونَه مِن سابِقٍ ، فَيَنبَغِي التَّنَبُّهُ لِهَذِهِ الأُمُورِ وَأَخذُها بِعَينِ الاعتِبارِ .

ثانياً : مِن المهامِّ القَوِّيةِ لِلمنهج عِندَنا أَنْ تُـنَزَّلَ الأَشياءُ مَنازِلَها ، وَخُصُوصاً بِما يَتَعَلَّقُ بِجانِبِ المستقبَلياتِ وَجانِبِ المَرائِي .

جانِبُ المستَقبَلِيّاتِ وَمِن أَعظَمِها ما يُتَحَدَّثُ عَنهُ مِن ظُهُورِ سَيِّدِنا الإِمامِ المَهدِيِّ وَنُزُولِ سَيِّدِنا عِيسَى بنِ مَريَم إِلَى الأَرضِ ، هَذا أَمرٌ قَد جاءَ وَصَحَّ فِي الأَحادِيثِ المتَواتِرَةِ؛ وَلَكِن ما واجِبُنا نَحوُه ؟ وَماذا نَحتاجُ إِلَيهِ مِن ذِكرِهِ ؟ إِنَّما نَذكُرُ ما وَرَدَ فِي الحَدِيثِ والآثارِ إِذا جاءَ ذَلِكَ عَرَضاً ، وَأَمّا أَن نَجعَلَ هِمَّتَنا وَنُهْمَتَنا فِي تَتَبُّعِ هَذِهِ الأَخبارِ أَو التَّحَدُّثِ عَنها بِشَيءٍ مِمّا يَخُصُّ أَصحابَهُ أَو بِمَدارِكَ دَقِيقَةٍ أَو بِمَفاهِيمَ خاصَّةٍ أَو بِاطِّلاعاتٍ أَو بِمَراءٍ أَو بِشُؤُونٍ تَخصُّ بَعضَ الأَشخاصِ ، فَلا يَنْبَغِي قَطعاً وَلا يَحسُنُ أَبداً.

وَلا يَنبَغِي مِن المنتَمِي لِهَذا المنهَجِ أَنْ يَذكُرَ تِلكَ الأَشياءَ عَلى هَذا النَّحوِ ، لأَيِّ أَحَدٍ كان فَهِي لَيسَتْ مُهِمَّتَهُم وَلا واجِبَهُم وَلا تَتَعَلَّقُ بِما يَعنِيهِم الآن، إِنَّما واجِبُهُم نصرةُ الحَقِّ تعالى ورسولِهِ والوفاءُ بعهدِ الله تعالى في تقويم صِفاتِهِم وَتَهذِيبِ أَخلاقِهِم وَدَعوَةِ مَن حَوالِيهِم ، فَأَيُّ شيءٍ يُشْغِلُهُم عَن ذَلِكَ فهو بخسٌ لهم وهو نقصٌ عليهم، وعادةُ النُّفوسِ أن تتولَّعَ وتتعلَّقَ بِالحَدِيثِ عَن هَذِهِ المستَقبَلِيّاتِ والأُمُورِ الخاصَّةِ مِن الغَيبِيّات.

وَلا نَسمَحُ لِأحَدٍ مِن المنتَمِينَ لِمَنهَجِنا أَن يَكونَ مُتَوَلِّعاً بِمشاهَداتِ أَشخاصٍ أَو معايَناتِهِم أَو مَرائِيهِم ، فَلا نَحتاجُ إِلى نَشْرِ ذَلِكَ وَلا إِلَى الخَبَرِ عَن ذَلِكَ، وَلا يهمُّنا ذَلِكَ ، وَإِنَّما يهمُّنا إِقامةُ أَمرِ الله تبارَكَ وَتَعالَى فِينا .

وَنَحنُ نكونُ أَنصارَ الله وَرَسُولِهِ مَهما اجتَهدنا عَلى إِقامةِ الشَّرعِ فِي أَنفُسِنا وَفِي أَولادِنا وَفِي أَهلينا وَفِي أَصحابِنا وَفِي مجالِسِنا وَفِي أَخلاقِنا ، هَذا الَّذي نَحتاجُ إِليه، والأُمورُ المستَقبَلياتُ أَمرُها إِلَى الله ، يَنزِلُ سَيِّدُنا عِيسَى بنُ مَريمَ عَلى نَبِيِّنا وَعَلَيهِ أَفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ مَتى شاء؛ وَإِذا نَزَلَ فَنَحـنُ أَنصارُهُ وَأَتباعُـه بلا شَكٍّ ، وَيَظْهَرُ عَبدُه المهدِيُّ خَليفَةُ سَيِّدِ الوُجُودِ مَتَى شاء ، وَإِذا ظَهَرَ في زَمانِنا وَأَدرَكْناهُ في أَعمارِنا فَنَحنُ إِنْ شاءَ الله مُـثَـبَّـتُون عَلَى نُصرَته والقِيام مَعَه امتِثالاً لِأَمرِ الله بلا شَكٍّ؛ وَلَكِن لا تَعَلُّقَ لِقُلوبِنا بِمَتَى وَلا كَيفَ ، هَذا الأَمرُ لِلحَقِّ تبارَكَ وَتَعالَى يَقضِي فِيهِ ما شاءَ ، وَلَيسَ خُلفاءُ المصطَفى صَلَّى الله عَلَيه وَآله وَصَحبِه وَسَلَّم مِن أَهلِ الظَّاهِرِ والباطِنِ بِمَن فِيهِم المهدِيّ مُحتاجِينَ إِلَى مَن يَتَعَلَّقُ بِالمستَقبَلِيّاتِ ، وَلا مَن يُضَيِّعُ نَفسَه فِي تَتَبُّعِ رُؤيا فُلانٍ وَخَبَرِ فُلانٍ مِن هُنا وَهُناك، وَلَكِنَّهُم مُحتاجُون إِلى الصّادِقِينَ مِن أَربابِ الجِهادِ والاجتِهادِ ، والاهتِمامِ بِتَطهِيرِ النَّفسِ وَتَزكِيتِها والإِقبالِ الصّادِقِ عَلى الله تَبارَكَ وَتَعالَى، فَهُم فِي كُلِّ زَمانٍ أَنصارُ خُلَفاءِ المصطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيه وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم، وَهُم أَحبابُه فِي كُلِّ وَقتٍ وَفِي كُلِّ عَصرٍ فِي أَيِّ حالٍ مِن الأَحوالِ، أَهلُ هَذا الوَصفِ هُم أَنصارُ خُلَفاءِ حَبِيبِ الرَّحمَنِ بِما فِيهِم سَيِّدنا المَهدِيّ وَمَن قَبله وَمَن بَعدَه.

فَجَمِيعُ الخُـلَفاءِ إِنَّما أَنصارُهُم أَهلُ الصِّدقِ وأَهلُ الوَفاءِ ، وَأَهلُ الطَّهارةِ وأَهلُ الصَّفاءِ ، وَأَهلُ القِيامِ بِأَمرِ الله ، وَأَهلُ التَّضحِيةِ وَأَهلُ البَذلِ بِالمالِ وَبِالنَّفسِ والنَّفيسِ وَبِكُلِّ ما وَجَدُوا فِي سَبِيلِ إِعلاءِ كَلمةِ الله ، هُم أَنصارُهُمْ فِي أَيِّ وَقتٍ كانُوا ، وَهُم أَحبابُهُمْ وَهُم القَرِيبُونَ مِنهُم ، لا مَن يَتَعلَّقُ بِالمَرائِي ، وَلا مَن يَتَعلَّقُ

بمشاهَداتِ بَعضِ الأَشخاصِ ، بِما فِيها مِما يَحتَمِلُ الحَقِيقَةَ والتَّحقِيقَ عِندَ أَهلِهِ ، وَبِما يَحتَمِلُ التَّطاولَ والتَّجرؤَ عَلَى النُّطقِ والادِّعاءِ مِن المدَّعِينَ .

فَأَمثالُ ما يُذْكَرُ عَن المَرائِي وَغَيرِها هُوَ عُرضَةٌ لِكَلامِ أَهلِ الحَقِيقَةِ ، وَعُرضَةٌ لِكَلامِ أَهلِ الشُّبَهِ والتَّلفِيقِ والكَذِبِ ، فَلأَجلِ ذَلِكَ لا التِفاتَ إِلى هَذا الأَمرِ .

عَلَى أَنَّ المَرائيَ لا نُنزِلُ قَدرَها عمّا جَعلَهُ لَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم ، وَإِنَّما المقصُودُ مِن كلِّ رُؤيَةٍ صالِحَةٍ حَملُ النَّفسِ عَلى سِعةِ الرَّجاءِ فِي اللهِ وَعَلَى صِدقِ الإِقبالِ عَلى اللهِ ، أَو التَّنبِيهِ عَلى الابتِعادِ عَن شَيءٍ مِما يَكرَهُهُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَى.

إِذاً فَهَذِهِ مَقاصِدُ المَرائِي الصّالحَةِ ، وَهِي جُزءٌ مِن سِتةٍ وَأَربَعِينَ جُزءاً مِن النُّـبُوةِ ، وَلَكِن لا نُعَلِّقُ قُلُوبَنا وَقُلُوبَ مَن حَوالَينا بِمُجَرَّدِ المَرائِي ، وَإِذا جاءَتِ الرُّؤيا الحَسَنَةُ قَبِلناها بِما يُناسِبُها ، ثمَّ نُقِيمُ المِيزانَ .

والمِيزانُ : أَنَّ نُصُوصَ الشَّرعِ الشَّرِيفِ بِما جاءَ فِي الكِتابِ وَبِما جاءَ فِي السُّنَّةِ مِن تَوجِيهاتٍ وَتَعلِيماتٍ وَأَقوالِ أَئِمَّةِ المنهجِ لا يُقَدَّمُ عَلَيهِ رُؤيا وَلا مُكاشَفَةٌ وَلا مُشاهَدَةٌ وَلا أَيُّ شَيءٍ مِمّا يَحصُلُ لِلنّاسِ.

بَل يَجِبُ أَن يَكُونَ الانقِيادُ والاتِّباعُ لِلنُّصُوصِ الواضِحَةِ الصَّرِيحَةِ كِتاباً وَسُنَّةً وَأَثراً عَن رِجالِ المنهجِ وَأَئِمَّتِهِ مِن العِبادِ الصّالِحِينَ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنهُم وأَرضاهُم ، وَكَما حرَّرُوا لَنا ذَلِكَ فِي كُتُبِهِم وَفِي قَصائِدِهِم فَلا نُقدِّمُ على ما دَعَوْا إِلَيهِ رُؤيا أَحَدٍ وَلا مُكاشَفَةَ أَحَدٍ ، وَلا مُشاهَدةَ أَحَدٍ وَلا ما يَحصُلُ لأَحَدٍ مِن صَغِيرٍ أَو كَبِير .

بَل نَكُونُ مُلتَزِمِينَ بِالانتِهاجِ فِي النَّهجِ ، والامتِثالِ لِلأَمرِ والاجتِنابِ لِلزَّجرِ، لَنا فِي ذَلِكَ جُهدٌ ، وَما مُهِمّةُ المرائِي والمشاهَداتِ إِلا تَثبِيتُنا وَتَقوِيَتُنا عَلَى امتِثالِ الأَمرِ واجتِنابِ النَّهي ، وتَطمِينُ قُلُوبِنا لإِقبالِنا الصّادِقِ عَلى مَولانا تَبارَكَ وَتَعالَى.. فَهَذا

مَنهَجُنا مَع المرائِي وَمَع المَشاهَداتِ وَما إِلَى ذَلِكَ .

ثالثاً : فِيما يَتعَلَّقُ بِشَأنِ اللِّباسِ .. فَلا نُحَرِّمُ عَلَى أَصحابِنا لِباساً لَم يُحَرَّم فِي الشَّرعِ ، وَنَقبَلُ مِن كلِّ صاحِبِ لِباسٍ يُقرِّه الشَّرعُ المَصُونُ ، إِنَّما كَذَلِكَ لا نَعذرُ أَهلَ القُدوَةِ وَأَهلَ الإِقبالِ عَن اختِيارِ الأَفضَلِ والأَولَى وَخُصُوصاً فِي المناسَباتِ .

وَمما يَحصُلُ فِي هَذا الجانِبِ مَسأَلَةُ العِمامَةِ فَيتعلَّقُ بِها كَثِيرٌ مِن أَهلِ هَذا المَنهَجِ فَنَقُولُ: لا تَستَعمِلِ العِمامَةَ إِلا بَعدَ البُلُوغِ ، فَلا يَستَعمِلُ العِمامَةَ إِلا مَن قَد بَلَغَ ، وَبَعدَ البُلوغِ يَستَعمِلُ العِمامَةَ لِلجُمُعَةِ والمناسَباتِ الكَبِيرةِ فقَط ، وَلا تَزيدُ عَلى خَمسةِ أَذرعٍ.

إِنَّما المَقصُودُ مِن العِمامَةِ اِتِّباعُ المصطَفى محمَّدٍ صَلَّى الله وَسَلَّم وَبارَك عَليه وَعَلى آلِه وَصَحبِه وَإِظهارُ شِعارِ هَذِهِ السُّنَّةِ العَظِيمَةِ ، ثَمّ إِذا تَزَوَّجَ فَـيُمكِنُ استِعمالُ العِمامَةِ فِي كَثيرٍ مِن أَوقاتِهِ ، وَلِعامَّةِ المناسَباتِ ، عَلى أَن لا تَزِيدَ عَن خَمسةِ أَذرعٍ ، حَتى إِذا تَخَرَّجَ فِي العُلُومِ فَلا تَزيدُ عَن سَبعةِ أَذرعٍ ، حَتى يُجاوزَ الأَربعين مِنْ عُمُرِه، فَلا تَزِيدُ بَعد ذَلِكَ عَن عَشرةِ أَذرُعٍ ؛ لأَنَّها غايَةُ ما وَرَدَ مِن عِمامَةِ النَّبيِّ محمَّدٍ صَلى الله وَسَلَّم وَبارَكَ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ ، فَبِمِثلِ هَذا يَنبَغِي أَن نَنتبِهَ وَأَن نُنَبِّهَ مَن حَوالَينا .

ثمَّ يَكونُ انتِباهُنا الأَشَدُّ مِن أَلبِسةِ نِسائِنا وَخُصُوصاً المَلابِسِ الَّتي يَخرجْنَ بِها إِلَى الشَّوارِعِ وَغيرِها ، فتَكُونُ عَلى الحِشمَةِ الكامِلةِ التّامَة ، ثُمَّ لأَلبِسَتِهِنَّ فِي وَسَطِ البُيُوتِ أَيضاً، فَنُرَغِّبُهُنَّ فِي ما كانَ أَقربَ لِلحِشمةِ والحَياءِ واتباعِ الصُّلَحاءِ .

وَفَّقَنا اللهُ وَأَحبابَنا وَأَصحابَنا وَأَتباعَنا ، وَرزَقَنا صِدقَ الإِقبالِ وَأَصلحَ لَنا كلَّ حالٍ، إِنَّه أَكرَمُ الأَكرَمِينَ وَربُّ العالَمِينَ وَمُجِيبُ دَعوَةِ الدّاعِينَ ، والحَمد لله ربِّ العالَمين ، جَعَلنا الله وَإِيّاهم مِن أَهلِ الفَتحِ وَأَهلِ المَنحِ وَأَهلِ النُّجحِ وَأَهلِ الفَوزِ والسَّعادَةِ فِي الدّارَين .

في شأن معاني الاحترام

وقال رضي الله عنه ونفعنا به (١) مما يلزمنا التنبيه عليه أنَّ بيوت الدُّعاةِ وأربطةَ المسلمين ومدارسهم ومعاهدهم يجب أن يشعرَ المسلمُ فيها بعزَّتِهِ ، ويشعرَ المسلمُ فيها بكرامتِه، ويشعرَ المسلمُ فيها باحترامِهِ ، فيقومُ أهلُها فيها باستقبالِهم وخدمتِهم والإحسانِ إليهم والسَّعي في قضاءِ حوائجِهم وما إلى ذلك.

فكثيرٌ من المتعلِّقينَ بالدَّعوةِ وإن كانوا لا يخطُرُ على بالِهم احتقارُ النّاسِ ، ولا يترَكَّزُ في بواطنِهم نسبةُ الغيرِ إلى التَّقصيرِ ، لكن من خلالِ اهتمامِه وحركتِهِ للعملِ يغفلُ عن ابتسامةٍ ، ويغفلُ عن سؤالٍ عن حالٍ ، ويغفلُ عن تقديمٍ في مشيٍ ، أو عن إيثارٍ في شيءٍ من الطَّعامِ ، أو يغفلُ عن تقديمِ الكأسِ إذا دار .

وهذهِ الغفلةُ عن هذهِ الأشياءِ البسيطةِ توجدُ جبالاً من الأوهامِ فيظُنُّونَ بكَ الظُّنُونَ ، كأن يظنُّوا أنَّكَ شامخٌ بنفسِكَ أو مُغتَرٌّ بدعوتِك وما إلى ذلكَ ، وبهذا تعرفُ عظمةَ الآدابِ النّبويّةِ الّتي إذا غفلْتَ عنها تقومُ عليكَ جبالٌ من القواطعِ والحواجزِ والعوائقِ في دعوتِك الّتي إذا بحثْتَ عن أسبابها(٢) لن تجدَها إلا من جهتِك كما قالَ الله تعالى ﴿أَوَلَمَّا أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران:١٦٥]، فيجبُ علينا أن ننتبهَ لمثلِ هذا .

ترجمة التواضع باب لتقريب الناس

وقال رضي الله عنه ونفعنا به (٣) فيما يصدرُ من حروفِ ألسُنِ أهلِ الأحوالِ لها إلماحاتٌ ، فالذَّوقُ لأهلِهِ ، وما تُعطى وتُرزقُ وتطَّلعُ عليهِ وتذوقه إلا وصِرْتَ طالباً للمزيدِ ، وهكذا

---

(١) وذلكَ يومُ الجُمُعةِ ٢٦ من شهرِ شوّال ١٤١٩هـ .

(٢) أي: إذا بحثْتَ عن أسبابِ القواطعِ والحواجزِ والعوائقِ .

(٣) ليلةَ الجُمُعةِ في مُصلّىّ أهلِ الكساءِ بدارِ المصطفى ٦ من شهرِ جُمادى الآخر ١٤٢١هـ .

شَدِيدُ الحِرصِ عَلَى مَنهَجِ الرُّشدِ والهُدى ، يَنبَغِي عَلَيكَ أَن تَتَفَقَّدَ صِفاتِك وَخِلالَك دائِماً وأَبَدًا ، فيما خَفِيَ وفيما بدا ، يتَّسِعُ قَبولُكَ للنُّصحِ مِن أَكابِرِ القَومِ وأَصاغِرِهم ، وتَنتَشِرُ حَقائِقُ استِفادتِك مِن كَونِ ربِّك ، حَتَّى مِمّا تشاهِدُهُ مِن أَحوالِ الكَفرة ، قَد ضَرَبَ الله لَنا بِهِم أَمثالاً كثيرةً ، مَن كان عَلَى هَذا الحالِ قَوِيَ وَرَسَخَ تَواضُعُه ، لابُدَّ مِن تَدارُكِ الخَلَلِ ، مَن عَلِمَ نَفاسَةَ[1] هَذِهِ البِضاعَةِ ، اسْتَحْقَرَ جَمِيعَ البَذلِ ، لابُدَّ مِن حُسنِ التَّداخُلِ والتَّواصُلِ وَجَمِيلِ التَّعامُل ، لابُدَّ مِن بَذْلِ الوُسْعِ وَغايَةِ الطّاقَةِ ، لابُدَّ مِن إِحكامِ القَواعِدِ والالتِزامِ بِالأُصُولِ والأُسُسِ ، لابُدَّ مِن تَقوِيَةِ حُسنِ الظَّنِّ .

وَمَع تَعَدُّدِ الصِّفاتِ المطلُوبَةِ مِنكُم نُوجزُ الكَلامَ فِي التَّنبِيهِ عَلَى أَمرٍ واحِدٍ؛ وَهوَ تَرجَمَتُكُم لِحَقِيقَةِ التَّواضُعِ والإِنصاتِ ، والذِّلَّةِ لِلجَبّارِ ، والرَّحمَةِ لِخلقِهِ ، المتَرَتِّبُ عَلَيها انفِتاحُ أَبوابِ التَّقرِيبِ والتَّحبِيبِ والجَمعِ .

نَقائِصُ عِندَ كلِّ فَردٍ مِنّا فِي تَرجمَةِ انكِسارِ قَلبِهِ مِن أَجلِ الله ، أَو التَّحَقُّقِ بِذَلِكَ ، أَو فِي طَلَبِ التَّحَقُّقِ بِذَلِك ، يَغِيبُ عَنه فِي كَثِـيرٍ مِن أَحوالِه وَأَعمالِه كَمَظهَرِ العَطفِ واللُّطفِ والرَّحمَةِ والشَّفَقَةِ والاستِيعابِ والحَنان ، هَذا الخُلُق يَجبُ أَن يَتَجسَّدَ فِيكُم تَماما حَتَّى يَشعُرَ بِه كلُّ مَنْ مَرَّ بِكم فِي طَرِيقِه ، فَكَيفَ بِمَن سَلَّمَ عَلَيكُم ، وَكَيفَ بِمَن كَلَّمَكُم ، وَكَيفَ بِمَن جَلَسَ مَعَكُم ، وَكَيفَ بِمَن اسْتَعانَ بِكُم فِي حاجَة ، هَل تَفقَهُونَ؟

نَحنُ الَّذِينَ أَدرَكُوا أَنَّ الشَّرَفَ فِي الخِدمَةِ .. فَنَحنُ الخُدّامُ ، أَنَكُونُ خُدّاماً صادِقِينَ ثُمَّ لا يَشْعُرُ المسلِمُونَ بِخِدمَتِنا لَهم ؟! لا يَشْعُرُ أَهلُ الدِّينِ بِمَنفَعَتِنا لَهم ؟! لا يَشعُرُ أَهلُ الملَّةِ بِتَواضُعِنا لَهم ؟! أَنَكُونُ خُدّاماً صادِقِينَ إِذا أَحدَثنا ما يَسرِي فِي النُّفُوسِ مِنْ أَنَّ هَؤلاءِ رَأَوْا أَنفُسَهُم خيراً مِنّا ؟ فَكَيفَ يَسرِي هَذا الشُّعُورُ إِلَى قَلبِ مُسلِمٍ مِن واحِدٍ مُنتَمٍ إِلَى هَذا المَيدانِ وَهَذِهِ الدَّعوَةِ ، هَذا ما لا يَكُونُ ، أَهل بُلْدانِنا وَأَهلُ

---

(١) النَّفيس : أي الجَوهَر الغالِي .

زَمَنِنا يَجِبُ أَن يَشرَبُوا مِن تَعامُلِنا كَأْسَ الإِحسانِ إِلَى المُسِيءِ ، والعَفوِ عِندَ المَقدِرةِ ، والتَّجاوزِ عن المخطئ .

تَفَقَّدْ نفسَكَ ، إِنْ كانَ يَحومُ فِي قَلبِكَ أَنَّ لَكَ الأَفضَلِيَّةَ والأَسبَقِيَّةَ والخَيرِيَّةَ عَلَى الغَيرِ فاعلَمْ أَنَّكَ لَمْ تَأخُذْ أَوّلَ خُطُواتِ السَّيرِ ، وَأَولَ حَقِيقَةِ الاتِّصالِ بِهَذا النُّورِ ، هَذا النُّورُ نُورُ سُجُودٍ ، والسُّجُودُ مَظهَرُ ذِلَّةٍ للمَعبُودِ ، فَلا تُسْتَسْقَى حَقِيقَةُ العِزَّةِ والشَّرفِ إلا بِهِ .

فَلابُدَّ أَنْ نُوطِّنَ قُلُوبَنا عَلَى أَنَّنا خَدَمَةُ أَهلِ هَذا الكَونِ ، وَيَطَّلعُ اللهُ مِن قُلُوبِنا أَنَّنا نَعتَقِدُ إِمكانِيَّةَ أَن يَشفَعَ فِي أَحَدِنا يومَ القِيامةِ مَن هوَ الآنَ كافرٌ ، يُسْلِمُ فَيعلو شَأنُه عِندَ الحقِّ فيكونُ سَبَباً لِخَلاصِك فِي القِيامة ، يمكنُ ذَلِكَ .

مَنِ الَّذي أَبْعَدَ إِمكانِيَّةَ هَذا ؟! ما يُبعِدُهُ إِلا عَدُوُّكَ الَّذي أَبَى السُّجُودَ لأَبِيكَ ، وَيُرِيدُ أَن تَتَّصِلَ بِحَبلِهِ أَيضاً ، وَتَقربُ مِن مَسلَكِهِ ، وَيُبَعِّدَ عَنْكَ هَذا ، فَقُل لَه : لا بُعْدَ ، إِذا كانَ هَذا اعتِقادُنا مَع الكافِرِ فَكَيف مَع المسلِمِ العاصِي ؟ إِذاً فَكَيفَ يَكُونُ أَدَبُنا مَعَ القائِمينَ بِالطّاعةِ والخَيرِ ؟ إِذا رَسَخَ فِينا الأَدَبُ النَّبويُّ حَتَّى تَوقَّعْنا حُصُولَ هَذِهِ الشَّفاعَةِ مِن ذَلِكَ الكافِرِ فَكَيفَ أَدَبُنا إِذاً مَع المُؤمِنِ الصّادِقِ؟

نَتوقَّعُ هذا وَنَعلَمُ إِمكانَهُ ، مَع تَمامِ مَعنَى العِزَّةِ عَلَى الكافِرِينَ ، فَكَما أَنِّي أُقِيمُ الحدَّ عَلَى مَن ثَبتَ عَلَيهِ ذَلِكَ تَطهِيراً وَمساعَدَةً وَتَعرُّضاً بِسَبَبِهِ لِفَضلِ الله ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَباً لِخَيرِ المجتَمَعِ ، فَكَذَلِكَ نَحمِلُ رايَةَ الجِهادِ عَلَى الكُفّارِ امتِثالاً لأَمرِ الجبّارِ وَصِدقاً فِي مَحَبتِهِ وَمَحبةِ رَسولِهِ ، إِسلامُهم أَحبُّ إِلَيْنا مِنْ أَنْ نَغنَمَ مِنْ أَموالِهم أَو نَجتاحَ دِيارَهُم، فَإِسلامُ الواحِدِ مِنهُم أَحَبُّ إِلى قُلُوبِنا مِن مِلءِ الدُّنيا بِما فِيها .

هَذِهِ آدابُ النُّبُوَّةِ الَّتي حَمَلَها الصَّحبُ الَّذِينَ تَعَلَّمُوا الإِحسانَ إِلَى الأَسرَى المشرِكِين،

فَكَيف إِحسانُهُمْ لِلمُؤمنينَ؟! إنّه كانَت لَتَقعُ فِي يَدِ أَحَدِهِم الكِسْرَةُ والتمرةُ، فيَكتَفِي بِالتَّمرَةِ وَيَدفَعُ الكِسْرَةَ لِعزَّتِها وقلَّتِها ، وَلِكَونِها تُحصَّلُ نادِراً وَيحبُّها النّاسُ ، فَيدفَعُها لِلأَسِيرِ المشرِكِ ، بَعدَ أَنْ سَمِعُوا نَبِيَّهم يُوصِيهِم بِالإِحسانِ إِلَى الأَسرَى .

إِذا عَلِمتُم ذَلِكَ فَإِنَّ هَذا المنهَجَ إِذا قامَ فِيكُم ، كَسِبْتُم رِضوانَ رَبِّكُم ، وَقَربتُم مِن سُرورِ قَلبِهِ الشَّرِيفِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، حِينَئِذٍ يَنهالُ عَلَيكُم الخَيرُ وبِكُم .

نَحنُ مِنْ هَذِهِ الانطِلاقَةِ نَكتسبُ ثَباتَنا وَقوّةُ يَقِينِنا ، وَإِلاّ فَفِي الأَرضِ معارِضُونَ وَمنتقِدونَ وَمخالِفونَ مِن أَخيارٍ وَأشرارٍ ، صالحِينَ وَفاسِقِينَ ، مُسلِمينَ وَكُفّارٍ ، أَنتَ إِنْ كنتَ فِي شَكٍّ مِن هَذا المَسلَكِ والمَنهجِ ، فاتبِعْ مَنْ شئتَ ، والسّاحَةُ عَنْكَ غنيَّةٌ ، وَإِن كنتَ عَلى يَقينٍ أَنَّهُ الهُدَى وَمِيراثُ النُّبُوَّةِ ، وَأَنَّه حَقِيقَةُ تَرجمةِ العَهدِ مَع الرَّبِّ ، فَلا تَتَأَثَّرْ مِن كَلامِ أَحَدٍ يَكُونُ مَن كانَ .

المنهج عِندَنا جَلِيٌّ ، والحُجَّةُ عِندنا واضِحةٌ لا تَقبَلُ الشَكَّ وَلا الارتِيابَ ، وَلَسنا بِمكلَّفينَ بِتَقلِيبِ القُلوبِ ، بَل نَحن عاملون لِمرضاةِ مُقلِّبِ القُلوبِ ، تَرى نَحنُ نعارِضُهُ كَيفَ يُقلِّبُها؟! أو نَحنُ نَعصِيهِ بِأَن نَفرَحَ بِما لَمْ يَشرَعْ لَنا الفَرحُ بِهِ مِن تَقليبِ القُلوبِ فِي السُّوءِ أَو المعصِيَةِ؟! أَو أَنْ نَحْزَنَ بِما أُمِرْنا أن نفرَحَ به من تقليبِ القلوبِ في الخيرِ والطاعة؟!

فَلأَجْلِ ذَلِكَ عِندَنا لأَهلِ الإِسلام معَ تَخالفِهِم الكَبِيرِ .. مَحبّةٌ عَلَى قَدرِ إِسلامِهِم وَما عِندَهُم مِن إِيمانٍ ، وَفَرحٌ بِما لَدَيهم مِن الخَيرِ ، إِن كانَ ذَرَّةً فَذَرَّةٌ أَو ذَرَّتينِ فَذَرَّتانِ، أَو حَبَّةً فَحَبَّةٌ ، أَو حَبَّتين فَعِندنا فَرحُ حَبَّتان .

ما عَلَينا مِن البَيانِ نؤدِّيه ، وَما عَلينا مِن الإِحسانِ نُؤديه ، وَما عَلَينا مِن الثَّباتِ وَعَدَمِ المبالاةِ بِما يَقُولون نَقومُ به ، وَما عَلينا لأَجْلِ رَبِّنا مِن رَحمتِهم نَقومُ بِه ، إِذاً فَلا

تَأَخُّرَ عِندَنا فِي عَزمٍ وَلا فِي عَمَلٍ ، وَلا فِي قَولِ قائلٍ عَلَى ظَهرِ الأَرضِ .

والمهِمَّةُ توجَّهت علينا بِمواصَلةِ العَمَلِ والسُّرعةِ فِيه والجِدِّ ، والمشي الحَثِيثِ ، فالقِيامُ بِهِ عَلَى قاعِدةِ اللُّطفِ والعَطفِ والرَّحمَةِ والبَيانِ واختيارِ الأنسَبِ ، والتَّرفُّعِ عَن جَميعِ سُوءِ الظُّنُونِ ، والسِّبابِ والشَّتائمِ ، وَشُغلِ أَنفُسِنا بِما يَعودُ بِنفعِ الكلِّ وَمَصلَحَةِ الكُلِّ ، وَتَوسِيعِ نِطاقِ الدَّعوةِ بَدَلَ الاشتِغالِ بِالرَّدِّ عَلَى ذا وَذاك والمخاصَمَةِ مَع ذا وَذاك .

يَغلُبُ عَلَينا مَعَ الكُلِّ تَواضُعٌ وَذِلَّةٌ وانكِسارٌ ، وَبيانٌ كُلَّما حانَت لَه فُرصَةٌ أَو انفَتَحَ لَه بابٌ ، مَع يَقظَةٍ وَنَباهَةٍ ، فَلا نَفتحُ بِه الأَبوابَ لِلإِضرارِ وَلا لِلإِدخالِ بِغَيرِ مُوجِبٍ، وَلِغيرِ ما ضَرورةٍ ، لَسنا مِثل هَذا ، وَلا نَدعُو لِهَذا ، وَلا نُحِبُّ هَذا ، إِنَّما نُحِبُّ المقابَلَةَ بِالخُلُقِ النَّبويِّ إِحساناً وَتَواضُعاً وَثَباتاً وَبياناً .

كُلُّ مَنْ لا يُقبِلُ قَد عَلِمْنا أَنَّه فِي هَذِهِ الحالَةِ وَفِي هَذِهِ السّاعةِ إِرادةُ مقلِّبِ قَلبِهِ فِيه غَيرُ ما أردْنا ، فما نحنُ بآلهةٍ مع الله نَقولُ : سَخِّرْ إِرادتَنا واترُكْ إِرادتَك ، بَل نعذُرُ ذَلِكَ الإِنسانَ بِذَلِكَ ، وَنَترقَّبُ لَه مِن مقلِّبِ القُلوبِ عَطفَةً وَرَحمَةً توقِفُهُ عَلى الهُدَى والصَّوابِ ، وإِذا تَيقَّنّا لَه سَيِّئةً .. فَلا نَنسَى لَه حَسَنَةً نَعرِفُها ، وَإِذا تَيقّنا لَه مَذَمَّةً .. فلا نُنْكِرُ فيه مَحْمَدَةً ندريها ، وَإِذا تَيقَّنّا فِيهِ مَعايبَ .. فَلا نَتَغافلُ عَن مَناقبَ تَحلَّى بها، وشُغْلُنا فِي الحَديثِ عَن المَناقِب والفضائلِ وَذكرِ المحاسِنِ هوَ الأَصلُ فِي مَنهَجِنا ، وَأَمّا الأَصلُ في تِلك الرَّذائلِ والمساوِئِ والعيوبِ السُّكوتُ عنها .

وبكلِّ هَذا تَتيَقَّنونَ عَلى أَنَّ العامِلَ بِهَذِهِ القاعِدَةِ والقائِمَ عَلى هَذا الأَساسِ تَؤولُ إِليه الأُمورُ لأَنَّه الصالحُ للخلافةِ ، حينئذٍ تُنتَزَعُ مِن قُلُوبِنا هَيبةُ قُوى الكُفرِ ، وَجَميعُ ما يَحذَرُ مِنه أَهلُ الأَرضِ ، صالِحِهِم وَفاسِدِهِم ، لأَمرٍ واحدٍ أَننا أَلقَينا الهَوَى تَبَعَ

أَصلحِ الصّالحين .

فَإِنْ صَحَّ هَذا فلا خَوْفٌ من صالحٍ ولا مِن طالحٍ ، فَلو اجتمَعَ أهلُ الولايةِ في الأرضِ في مقابَلةِ سُنةٍ لِسَيِّدِنا مُحمَّدٍ فَـيُنكِرُونَها أو يُغَـيِّـرُونَهَا لَرَجِعُوا مُنهَزِمينَ أمامَ نُورِ تِلكَ السُّنةِ النَّبويَّةِ ، لَكن حاشا للأَولياءِ أَن يَقِفوا ضِدَّ السّنَنِ ، وَلو اجتمَعَ على تِلكَ السُّنةِ شِرارُ أَهلِ الأَرضِ وَكفّارُهم لِيُغَـيِّروها وَيفتِكُوا بِصاحِبِها ، لَكانَت غَيْـرَةُ الحَقِ حائِلَةً بَينَهم وَبينَ ذَلِكَ ، وَمُوقِعةً النَّكالَ بِهِم ، إِذاً فَلابُدَّ أَنْ نُدرِكَ هَذِهِ المدارِكَ، فَهَذا الأَمرُ الأَوَّلُ .

من كلامه في مصلّى أهل الكساء بدار المصطفى بعد ختم القرآن

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنفعَنا بِهِ [1] مِن آكَدِ وَأَقوى ما يَنبغِي أَن يُسْتَجْلى [2] فِينا خُلقُ التَّواضُعِ، خُلُقُ الرَّحمَةِ ، خُلُقُ اللُّطفِ ، خُلُقُ الذِّلةِ مِن أَجلِ الله تَعالى ، يَنبَغي أَن يَفِيضَ هَذا فِينا ، حَتَّى يَسْتَجْلِي ذَلِكَ كُلُّ مَن مَرَّ بِنا وَرَآنا مِن بَعِيدٍ ، فَضلا عَمَّنْ كَلَّمَنا ، فَضلاً عَمَّنْ استَعانَ بِنا فِي حاجَةٍ ، فَضلاً عَمَّنْ جَلَسَ مَعَنا لابُدَّ أَنْ يستَجلِيَ فِينا صِفةَ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، وَتَفِيضَ فِينا فائِضةُ الرَّحمةِ لِخَلْقِ الله ، وَتَعظِيمِ المؤمِنين ، والتَّواضعِ والذِّلةِ لهم .

فَلابُدَّ أَنْ يَترَسَّخَ فِينا هَذا الوَصفُ ، بِحَيثُ يَشْعُرُ كلُّ مُؤمِنٍ لَقِينا بِأَنَّ قلوبَنا تُكِنُّ له المحبَّةَ والتَّقدِيرَ ، وَتأَمَّلْ هَذا الوَصفَ فِيك ، وَلابدَّ أَن يَزدادَ قوّةً عَلى ممرِّ الأَيامِ ، وَإِلا كُنتَ صُورةً يُستَجلَى فِيها والعِياذُ بِالله الإِعراضُ عن المسلمينَ ، والترفُّعُ والتكبُّرُ عَلَيهِم .

فَهَذِهِ لَيسَت أَوصافَ سَيِّدِنا ، لَيسَت خِلالَ قائِدِنا ، لَيسَت نُعُوتَ قُدوَتِنا وَأُسوَتِنا،

---

(١) في ١٢ مِن شَهرِ جمُادَى الآخِر ١٤١٩ هـ .

(٢) أَي: يُدْرَك ويُلْحَظ .

كُلُّ واحِدٍ مِنكُم لابُدَّ أَن يَرسَخَ فِيهِ هَذا الوَصفُ ، وَصفُ الذِّلَّةِ عَلى المؤمِنِينَ ، والتَّواضُعِ لِلصَّغِيرِ والكَبِيرِ مِن أَجلِ الله ، والحِرصِ عَلى أَن نَكُونَ خُدّاماً ، فَفِي ذَلِكَ فَوزُنا وَعِزُّنا .

نَكُونُ خُدّاماً لأَهلِ الدِّينِ ، نَكُونُ خُدّاماً لهَذِهِ المِلَّةِ ، نَكُونُ خُدّاماً لِلمُسلِمِينَ ، وَخُصُوصاً مَن لا يُؤبَهُ لَه .

قاصِرُ النَّظَرِ مِنكُم قد يَجِدُ أَحياناً إِذا جاءَ صاحِبُ مَعرِفَةٍ بَينَ النّاسِ بِشَيءٍ مِن المنزِلَةِ والمكانَةِ يَنظُرُ إِليهِ بِشَيءٍ مِن التَّعظِيمِ ، أَمّا إِذا أَتَى مَن لا يُؤبَهُ لَه ، فَلا يَلْتَفِتُ إِلَيهِ ، وَلا يُوَسِّعُ لَه فِي المجلِسِ ، وَلا يُقَدِّمُهُ ، فَهَذا مِن الحِرمانِ وَمِن النُّقصانِ وَمِن الخُسرانِ ، وَإِذا قَصُرَ نَظَرُكَ عَلَى أَهلِ الهيئاتِ أَو المعرُوفِينَ أَو المشهُورِينَ بَينَ النّاسِ ، فَأَنتَ صاحِبُ حِسٍّ لا مَعنَىً ، وَصاحِبُ شَكلٍ لا عَقلٍ ، فَأَصحابُ الدُّنيا وَأَصحابُ الحِسِّ دُونَ أَصحابِ الآخِرةِ ، وَدُونَ أَصحابِ المعنَى .

أَصحابُ الأَشْكالِ هُم الَّذين يُمَجِّدونَ وَيُعَظِّمونَ وَيَنتَبِهونَ لِأَصحابِ الرُّتَبِ والظُّهورِ والشُّهرةِ وَلا يَلتَفِتونَ إِلى الضُّعفاءِ مِمن مَظهَرُهُم مَظهرُ المَسكَنَةِ مِمَّن لا يُؤبَهُ لَهم ، وَعَزِيزُ الجَواهِرِ فِي أَهلِ المسكَنَةِ ، وَواسِعُ الإِمدادِ فِي أَهلِ الذِّلَّةِ بَينَ المؤمِنِينَ والخُمُولِ مِمن لا يُؤبَه لهم .

فَأَينَ صِحَّةُ مُعامَلَتِك مَع الله تَعالى إِذا لَم تُقبِلْ عَلَى الضَّعِيفِ والمنكَسِرِ والفَقِيرِ والخامِلِ وَصاحِبِ الذِّلَّةِ بِحُسنِ ظَنٍ وَتَواضُعٍ وَأَدَبٍ وَإِرادَةِ خَيرٍ ؟ أَين صِحَّةُ مُعامَلَتِكَ مَع الله ؟ هَل شَرَعَ اللهُ لَنا التَّواضُعَ لِـمَن أَظهَرَهُ وَأَشهَرَهُ فَقَط ؟ أَو جاءَ شَرعُه لَنا بِحُسنِ الظَّنِّ فِيمَن صَغُرَ أَو كَبُرَ مِن أَهلِ المِلَّة والإِسلامِ كُلِّهِم ؟

فَلِماذا أَنتَ تُخالِفُ شَرعَه ؟ وَتَقْصُرُ حُسنَ ظَنِّكَ عَلَى ظاهِرٍ أَو مَشهُورٍ ، أَين حُسنُ

ظَنِّكَ بِهَذا الفَقِيرِ ، وَهَذا الضَّعِيفِ والمِسكِينِ ، أَما شَرَعَ اللهُ لَكَ حُسنَ الظنِّ بِهِ ؟ أَما أَحَبَّ اللهُ مِنكَ احترامَهُ ؟ أَما أَحَبَّ اللهُ مِنكَ إِكرامَه ؟

كانَ سَيِّدُ الوُجُودِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم حَبِيبُ الرَّحمنِ يَبدَأُ مَن لَقِيَهُ بِالسَّلامِ، مِن كُلِّ صَغِيرٍ أَو كَبِيرٍ ، وَأَبيَضَ وَأَسوَدَ ، وَأَحمرَ وَأَصفرَ ، حَتَّى صِبيانِ المسلِمِينَ وَفُقَراءِ المسلِمِينَ ، بَل كانَ يُحِبُّ الفُقَراءَ وَيَجلِسُ مَعَهُم صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلى آلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ ، بَل كانَتِ الجارِيَةُ مِن جَوارِي المدِينَةِ لَتَأخُذُ بِيَدِهِ فَتَذهَبُ بِهِ حَيثُ شاءَتْ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام ، أَرَأَيتَ هَذِهِ الأَخلاقَ وَالشَّمائِلَ ، وَأَنتَ مَن قُدوَتُكَ؟! فَفِي غالِبِ صَلواتِنا ما نصَلِّي إِلا وَيَرِدُ إِلَى المُصَلى[1] أَحَدٌ مِن أَهلِ الخُمُولِ ، أَو مِن أَهلِ الحالِ مَعَ اللهِ ، مِنْ أَهلِ بُطُونِ السِّرِّ ، وَلَيسَ لَكَ حِسٌّ وَلا التِفاتٌ إِلَيهِم ، لَكِن إِن جاءَ رِجالٌ مِن أَهلِ الظّاهِرِ ، نَظَرْتَ إِليهِم ، أَينَ آدابُكَ ؟! أَينَ أَخلاقُكَ النبويةُ؟! لماذا لا تكونُ عَلى امتِلاءٍ وحُسنِ ظَنٍ دائمٍ ؟!

وابدَأْ إِذا شاهَدْتَ أَحداً دَنا مِنكَ فافسَحْ لَه فِي المَجلِسِ ، مَع البَشاشَةِ فِي الوَجهِ ، واللِّينِ فِي القَولِ ، والحُسنِ في الظَّنِّ ، والإِكبارِ فِي النَّظَرِ ، والحِرصِ عَلى الخِدمَة .

فَأَينَ تُرِيدُونَنا نُشاهِدُ هَذِهِ الأَخلاقَ ، نُسافِرُ إِلى أَينَ حَتَّى نَجِدَها ؟ إِنْ ماتَتْ هَذِهِ فِي الأُمَّةِ ماتَت حَقائِقُ الدِّينِ بَينَهُم ، وَماتَتْ حَقائِقُ الصِّلَةِ بِصاحِبِ الأَخلاقِ هَذِهِ ، وَإِذا ماتَتْ حَقائِقُ الدِّينِ وَحَقائِقُ الصِّلَةِ بِصاحِبِ الأَخلاقِ ، صارَ النّاسُ صُورِيِّينَ فَأَينَ يَحْصُلُ لَهُم النَّظَرُ مِن الله ، «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلى صُوَرِكُمْ»[2] .

يَجِبُ عَلى الواحِدِ مِنكُم أَن يَحرِصَ عَلَيها ، فَيَكونُ مَظهَرُهُ مَظهَرَ لُطفٍ ، وَمَظهَرَ

(١) أي: مُصَلىَّ أَهلِ الكساءِ بِدارِ المصطفَى .

(٢) رَواهُ مُسلِم وابنُ ماجه عَن أَبِي هُرَيرَة .

رَحمةٍ ، وَمظهَرَ حُسنِ ظَنٍّ ، وَمَظهَرَ تَواضُعٍ ، وَمَظهَرَ ذِلَّةٍ ، وَمَظهَرَ حِرصٍ عَلى الخِدمَةِ لِكُلِّ مَن صَغُرَ أَو كَبُرَ .

وَوَصْفٌ آخَرُ يَحتاجُ إِلى انتِباهٍ مِنكُم وَهُو وَصْفُ الجِـدِّ المتَواصِلِ ، ما كانَ إِمامُكُم وَقُدوتُكُم وَأُسوَتُكُم وَسَيِّدُكُم وَرَسُولُكُم وَنَبِيُّكُم مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم إِلا مُتَواصِلَ العَمَلِ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشَّرح:٧]، فَحياتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم كُلُّها عَمَلٌ وَمَواقِفُ ، فَما بَينَ مَوقِفِ التَّعلِيمِ ، وَمَوقفِ الإِرشادِ ، وَمَوقِفِ القُرآنِ ، وَمَوقفِ التَّدَبُّرِ ، وَمَوقِفِ البُكاءِ ، وَمَوقِف القِيامِ ، وَمَوقِفِ الخِدمَةِ لِأَهلِ بَيتِهِ ، وَمَوقفِ الخِدمَةِ لِعامَّة المسلِمِينَ وَخاصَّتِهم ، لَيسَت لَه راحَةٌ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فَأَصحابُ الهِمَّةِ مِنكُم الَّذِينَ وَفَّقهم الحَـقُّ تَبارَكَ وَتَعالَى لِلإِقبالِ ، وَهُم عَلَى مَشارِفِ النَّجاحِ والفَلاحِ ، عَلَيهِم أَن يَتَنَبَّهُوا لأَنَّ مِن مَهامِّهم الأَخذَ بِيَدِ هَؤُلاءِ المتَكاسِلِينَ .

وَهَذا المتَكاسِلُ إِنْ كانَ مِمَّن يَدُلُّ غَيرَه عَلى الكَسَلِ فَلْيَحذَرْ ثُمَّ لِيَحذَرْ ثُمَّ لِيَحذَرْ أَن يُصِيبَه ما لا طاقَةَ لَه بِه ، أَما كَفَى ما فاتَكَ مِن الخَـيراتِ بِتَكاسُلِكَ وَعَدمِ مُبالاتِكَ بِوِردٍ ، بِمُطالَعَةٍ ، بِدَرسٍ ، بِوَقارٍ ، بِسَكِينَةٍ ، فَقَدْتَ المبالاةَ بِهَذِهِ الأَشياءِ فَفَقَدْتَ خَيراتٍ كَثِيرَةً كَبِيرَةً ، أَما كَفاكَ هَذا ؟ حَتَّى لا تَزالُ تُعَلِّمُ غَيرَكَ أَن يَتَأَخَّرَ أَو يَفْقِدَ وَقارَه ، فَهَؤلاءِ لابُدَّ لَنا أَن نُنْذِرَهُم ، وَإِنْ كانُوا قَلِيلاً بَينكُم لَكِنْ عَلَيهِم أَن يَعلَمُوا خَطَرَ الحالِ الَّذِي هُم فِيهِ ، وَتَعَرُّضَ أَحدِهِم أَن يُقْصَى أَو يُبْعَدَ فِي الباطِنِ ، أَمّا لَو يُصِيبُهُ شَيءٌ فِي الحِسِّ كَسَقطَةٍ مَثَلاً أَو مَرَضٍ فَهَذا أَمْرٌ سَهلٌ هَيِّنٌ وَبَسِيطٌ ، فَلِهَذا يَجِبُ عَلَى كُلِّ حاضِرٍ فِي هَذِهِ المَحاضِرِ أَن يَعرِفَ أَنَّها مَحَلٌ لِلجِدِّ لَيسَت محلاً لِلكَسَلِ وَلا لِلغَفلَةِ وَلا لِضَياعِ الوَقارِ والسَكِينَةِ والجِدِّيَّة .

وَهَؤلاءِ الكَثِيرُ مِنهُم مِن أَهلِ السَّكِينَةِ وَأَهلِ الاجتِهادِ ، كَيف يَنْسَوْنَ مَسؤُولِيَّتَهُم

حولَ القَليلِ هَؤلاءِ الَّذينَ ضَيَّعُوا وقارَهُم . إذا ما وُجدَ النُّصحُ والأَخذُ بِاليَدِ والمساعَدَةُ عَلَى الاستِقامَةِ مِنكُم ، أَينَ تُرِيدُونَهم يَجِدُون النَّصِيحَةَ ؟ تَترُكُونَهم لِمَن؟ اعلَمُوا هَذا .

وَهَذِهِ الأَخلاقُ امزجُوها بِطَلَبِكُم لِلعِلمِ وَجِدِّكُم فِيهِ وَتَحصِيلِكُم لَه ، وامزجُوها بِقِيامِكُم بِالعِباداتِ ؛ لأَنَّها ما تَنفَكُّ بَعضُها عَن بَعضٍ ، الخُلُقُ الكَرِيمُ مَع العِبادةِ، مَع العِلمِ ، مَربُوطَةٌ تُقَوِّي بَعضُها البَعضَ ، فامزجُوا هَذِهِ الأَخلاقَ بِتَعَلُّمِكم واهتِمامِكم بِالدُّروسِ ، امزِجُوها بِما تَقُومُون بِهِ مِن العِباداتِ ، امزِجُوها بِالخُلُقِ.. بِالتَّواضُعِ والرَّحمةِ واللُّطفِ والخِدمَةِ والنَّصِيحَةِ لِهَؤُلاءِ الَّذِينَ ضَيَّعُوا الجِدَّ ، وَضَيَّعُوا الوَقارَ والسَّكِينَةَ ، فَهَذِهِ أَخلاقُ صاحِبِ هَذا الدّارِ[١] صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، نَبِيِّكُم المختارِ، نُورِ الأَنوارِ ، وَسِرِّ الأَسرارِ ، مُحمَّدٍ المجتَبَى ، أَحمَدَ المصطَفَى ، مُطَهَّرِ الجَيبِ عَن عَيبٍ وَعَن دَرَنٍ ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبارَكَ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ ، فَلابُدَّ أَن تُستَجلَى أَخلاقُهُ فِيكُم، وَفَّقَنا اللهُ وَإِيّاكُم .

فيما يتعلّق بقواعد المحبّة والاحترام

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ[٢] يَجِبُ أَنْ تُحِبُّوا رَبَّكُم قَبلَ كُلِّ شَيءٍ ، وَمَحَبَّتُكُم لله مِيزانُها مَحَبَّتُكُم مِن أَجلِهِ ، بَعدَ ذَلِكَ فَمِن غَيرِ شَكٍّ أَنَّ الحَبِيبَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم أَولَى بِمَحَبَّتِكم

(١) أَي: دارُ المصطَفَى الَّذي تَأَسَّسَ بِتَرِيم سَنَة ١٤١٤هـ عَلى يَدِ سَيِّدِي الحَبِيبِ عُمَر بنِ مُحَمَّدٍ بنِ سالِمِ بنِ حَفِيظ ، وافتُتِحَ فِي التّاسِعِ والعِشرِينَ مِن شَهرِ ذِي الحِجَّة سَنَة ١٤١٧هـ ، وَقَد قامَ عَلَى ثَلاثِ مَقاصِدَ : تَحصِيلِ وَتَحقِيقِ العُلُومِ الشَّرعِيَّةِ وَأَخذِها بِالسَّنَدِ المتَّصِلِ إِلى رَسُولِ الله ، وَتَزكِيَةِ النَّفسِ وَتَطهِيرِها ، وَنَشرِ الدَّعوَةِ إِلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(٢) لَيلَةَ السَّبتِ ١٧ مِن شَهرِ صَفَر ١٤١٩هـ .

مِن أيِّ كائنٍ ، وَمِن أيِّ مَخلُوقٍ ، ثُمَّ بَعدَ ذَلِكَ أبوابُكُم إِلَيهِ وَأَدِلَّتُكُم عَلَيهِ ، ثُمَّ أعوانُكُم عَلَى مَسلكِهِ وَمَنهَجِهِ .

ثُمَّ لابُدَّ أن يَكُونَ بَينَكُم جانِبُ مُراعاةِ حَقِّ الكِبارِ فِي السِّنِّ ، وَحَقِّ الأَقْدَمِيَّةِ فِي الخِدمَةِ ، فَهَذِهِ الأَشياءُ لابُدَّ أن يَبقَى لَها اعتِبارٌ ، قالُوا حَديثُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم : «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقْتُمْ مِثْلَ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَباً»[1] أَتَى بِهِ لِلَّذِينَ أَسلَمُوا بَعدَ الفَتحِ، فِي شَأنِ الَّذِينَ أَسلَمُوا قَبلَ الفَتحِ ، وَخاطَبَ أَصحابَهُ ، وَقال : ما تُدرِكُوا هَؤُلاءِ ، قَد نَصَرُوا مِن قَبلُ ، وَكانُوا مَعِي مِن أَوَّلِ الأَمرِ ، لِهَذا قالُوا : بَعضُ مَظاهِرِ العِبادَةِ عِندَ التّابِعِينَ تَفوقُ بِكَثِيرٍ مَظاهِرَ العِبادَةِ عِندَ الصَّحابَةِ ، وَلكِنَّ الصَّحابَةَ أَعظَمُ ، وَلهَذا لابُدَّ مِن مُراعاةِ حَقِّ الأَسبَقِيَّةِ .

يَنبغِي لكلِّ مَن يَدخُلُ دائِرَةَ العَمَلِ والخِدمَةِ لِدِينِ اللهِ مَعَنا أن يَعرِفَ أَنَّ مِن قَواعِدِهِ فِي السَّيرِ .. احتِرامَ العُمُومِ واحتِرامَ الخُصُوصِ ، وَمِن جُملَتِهِ قاعِدَةٌ خاصَّةٌ فِي احتِرامِ السّابِقِينَ فِي العَمَلِ نَفسِهِ ، لابُدَّ أَنْ نَعرِفَ هَذا ، حَتَّى لا يَأتِي أَحَدٌ مِنّا وَيَقُولُ : أَنا اشتَغَلْتُ أَحسَنَ مِنهُم ، وَقُمتُ بِأَعمالٍ أَكثَرَ مِنهُم ، هَذا لَيسَ مِيزاناً عِندَنا ، هَذا مِيزانُ السُّقُوطِ . بَعدَ ذَلِكَ إِهمالُ الواحِدِ ، والإِساءَةُ إِلَيهِ وَتَركُهُ ، فَمِن غَيرِ شَكٍّ يَكونُ عَلامَةً لِعَدمِ استِقامَةِ السَّيرِ نَفسِهِ ، وَيَكونُ مَبعَثاً لِحُزنِ القائِمِ عَلَى العَمَلِ ، وَقَد وَجَدْتُ أَنَّ ذَلِكَ فِي المِيزانِ المَأخُوذِ عِندَنا بِالشَّرعِ ، ثمَّ الحَقِيقَةُ أَنَّ خُسرانَ الفَردِ عِندَنا داهِيَةٌ .

---

(١) الحَديثُ عَن أَنَسٍ قالَ : كانَ بَينَ خالِدِ بنِ الوَليدِ وَبَينَ عَبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ كَلامٌ ، فَقالَ خالِدٌ لِعَبدِ الرَّحمنِ : تَستَطِيلُونَ عَلَينا بِأَيّامٍ سَبَقتُمُونا بِها ؟ فَبَلَغَنا أَنَّ ذَلِكَ ذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فَقالَ : «دَعُوا لِي أَصحابِي .. فَوالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَو أَنفَقتُم مِثلَ أُحُدٍ –أَو مِثلَ الجِبالِ– ذَهَباً ما بَلَغتُم أَعمالَهم» رَواهُ أَحمَد وَرِجالُه رِجالُ الصَّحيحِ .

كانَت القَبائِلُ عِندَهُم إذا طَعِمَ أَحَدٌ مِلحَهُم ، يَقُولُون : أَصبَح بَينَنا وَبَينَه عَيشٌ وَمِلحٌ ، وَيَصعُبُ عَلَيهِم الأَمرُ وَيَشُقُّ ، لَو أَرادَ أَحَدٌ أَن يَعتَدِيَ عَلَيهِ يَقُومُونَ ضِدَّهُ، حَتَّى جاءَ جَماعَةٌ مِنهُم يُرِيدُون أَن يَسرِقُوا ، فَبَينَما هُم كَذَلِكَ نَظَرَ أَحدُهُم إلى شَيءٍ مَوضُوعٍ فِي إناءٍ ، وَلا يَدرِي ما هو ، طَعِمَهُ فَإذا بِهِ مِلحٌ ، فَقالَ لأَصحابِهِ : يا جَماعَةُ هَؤلاءِ النّاسُ أَنا طَعِمْتُ مِلحَهُم ، فَبَينِي وَبَينَهُم عَيشٌ وَمِلحٌ ، قالُوا : صَحِيح ، فَما يُمكِنُ لَنا أَخذُ شَيءٍ مِنهُم فَرَدُّوا ما أَخَذُوه وَخَرَجُوا.

وَهَذا أَيضاً مِن مَعانِي قَولِه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم «**لا تَسُبُّوا أَصْحابِي**»[١] ، مَعَ أَنَّه قَد حَدَّث عَن أَشياءَ تَكونُ بَينَهُم ، وَلَكِن لَم يسمَحْ لأَحَدٍ أَنْ يَتكَلَّمَ عَلَيهِم وَهَكَذا ، إذا لابُدَّ مِن رِعايَةِ هَذا المعنَى .

جاءَ سَيِّدُنا عُمرُ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم قائِلاً لَه : دَعنِي أَضرِبُ عُنُقَهُ يا رَسُولَ الله فَإنَّه نافَق ، قالَ لَه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم : «**إنَّهُ شَهِدَ بَدْراً وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[٢] ، ما سَمَحَ لَه بِذَلِكَ، مَع أنه عَمِلَ مُشكِلَةً كَبِيرَةً فِي الحَربِ ، يُرِيدُ أَن يُفشِيَ السِّرَّ ، وَيُشْعِرَ الكفّارَ فِي مَكةَ بِخَبَرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم .

هَذا حاطِبُ بنُ أَبِي بَلتعة[٣] ، وَنَزَلَتِ الآياتُ فِيه ، والعَجَبُ أَنَّ الآياتِ خاطَبَتْهُ :

(١) رَواهُ أَحمدُ والشَّيخانَ وَأَبو داوُدَ والتِّرمِذِيّ عَن أَبِي سَعِيدٍ .

(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيه .

(٣) حاطِبُ بنُ أَبِي بَلتَعَةَ مِنَ السّابِقِين إلى الإسلام ، جاءَ مِن اليَمَن إلَى مَكَّةَ واستَقَرَّ بها ، كانَ مِن جُملَةِ مَن هاجَرَ مِن مَكَّةَ إلى المدِينَة ، وَهو سَفِيرُ النَّبِيِّ وَحامِلُ رِسالَتِهِ إلَى المقوقَسِ حاكِمِ مِصرَ ، وَلَمّا عَزَمَ النَّبِيُّ عَلَى فَتح مَكَّةَ دُونَ إراقَةِ الدِّماءِ كَتَمَ مَقصِدَهُ هَذا عَن الناسِ وَلَكِنَّ حاطِباً رَضِيَ اللهُ عَنهُ عَرَفَ ذَلِكَ وَكانَ لَه أَهلٌ وَوَلَدٌ بِمَكَّةَ ، فَخافَ عَلَيهِم فَأَرادَ أَن يُخبِرَ المشرِكين بِذَلِكَ،

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:١٠٤]، يَشهَدُ لَه الحقُّ بِالإِيمانِ ، أي أَنَّه لَيسَ بِمنافِقٍ ، مَع أَنَّه كان سَيعملُ مُشكِلةً كَبيرةً ، سَيُخالِفُ الأَمرَ ، الشّاهِدُ فِي ذَلِكَ أن نُدرِكَ أَمثالَ هَذِهِ الأُمُورِ ، هِي بَعد ذَلِكَ تَكُونُ سِرَّ نَجاحٍ لَكُم ، وَفَلاحٍ وَفَوزٍ ، إِن شاءَ الله .

الوفاء بالبيعة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[١] مقصُودُ العِباداتِ والدَّعوَةِ .. تَحقِيقُ الوَفاءِ بالبَيعَةِ ، البَيعَةُ بَينَنا وَبَينَ الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ [التوبة:١١١]، وَهَذِهِ ما تَتجَلَّى إِلا بِصِدقٍ فِي التَّصفِيَةِ والتَّزكِيَةِ، **(ما كمُلَ إلا من جالَس رِجالَ الكَمالِ)** ، مَعَ نَبذٍ وَطَرحٍ للأَهوِيَةِ والمراداتِ حَتى يَكُونَ المقصُودُ هوَ الله ، والمرادُ هوَ الله ، فَيَتَخَلَّى الإنسانُ عَن أَهوِيَتِهِ وَمراداتِهِ .

والسَّيْرُ عِلْمٌ والعُقُولُ أَدِلَّةٌ   والرَّبُّ قَصْدٌ والرَّسُولُ إِمامُ

جِدُّوا واطلُبوا حُسْنَ مصاحَبَتِكُم للحَقِّ ، وَحُسْنَ مصاحَبَتِكُم لأَهلِ الحَقِّ وَمَناهِجِ الحَقِّ وَشَريعَةِ الحَقِّ وَآدابِها ، سُمُوُّكُم لا يَكُونُ إِلّا بالآدابِ ، انظُرُوا إِلى مَن حَوالَيكُم تَرَونَ رَبَّ العالمين يَرحَمُهُم .. ارحَمُوهم ، تَرونَهُ يُعَظِّمُهُم .. عَظِّمُوهم ، تَرونَهُ يُكرِمُهُم.. أَكرِمُوهُم ، تَرونَه يُبَيِّنُ لَهم .. بيِّنُوا لَهم ، تَرونَه أَشفَقَ عَلَيهِم .. أَشفِقُوا عَلَيهِم ، تَرونَهُ أَرسَلَ إِلَيهِم .. كُونُوا رُسُلاً إِلَيهِم فَتُصبِحُونَ رَبّانِيِّين .

إِذا كانَ الدّاعِي لا يَحتَرِمُ الإِيمانَ الَّذِي عِندَ العاصِي فَلَيسَ بِمَأمُونٍ عَلَى آدابِ الدَّعوَةِ ؛ لِأَنَّ الحَقَّ سُبحانَه وَتَعالَى يَحتَرِمُ وَيُعَظِّمُ المؤمِنِينَ ، والمؤمِنُ العاصِي لَو أَظهَرَ

فَكَتَبَ لَهم رِسالَةً مَعَ جارِيَةٍ فَأَوحى اللهُ إِلَى نَبِيِّه بِذَلِكَ ، فَنادَى عَلِيّاً وَعَمّاراً والزُّبَيرَ وَطَلحَةَ والمقدادَ وَأَمرَهُم أَن يَنطَلِقُوا حَتَّى يُمسِكُوا تِلكَ الجارِيَةِ وَيَأخُذُوا الرِّسالَةَ الَّتِي مَعَها ، وَعاتَبَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم حاطِباً عَلَى ذَلِكَ ، وَلَكِن سُرعانَ ما اعتَذَرَ حاطِبٌ رَضِيَ الله عَنهُ وَنَدِمَ عَلَى فِعلِهِ ذَلِكَ .

(١) وَذَلِكَ لَيلَةَ الثُّلاثاء ٣ مِن شَهرِ محرَّم ١٤٢٠هـ .

الله نُورَه لَطَبَقَ[1] ما بَيْنَ السَّماءِ والأَرض[2] .

فَلَو أَنَّ أَحَدَنا لمْ يُبالِ بِكَسرِ خاطِرِ العاصِي فِي ما لا يَعُودُ نَفعُهُ عَلَيهِ مِن زَجرِهِ أَو رَفعِ أَمرِهِ ، فَلَيس بِأَمِينٍ عَلَى الدَّعوةِ ؛ لأَنَّه انتهَجَ غَيرَ نَهجِ الرَّبّانِيَّةِ ، إِذا لَم يَتَميَّزْ أَتباعُ الدَّعوةِ بِالتَّواضعِ لِلخَلقِ لَم يَتَميَّزوا بِالرِّفعةِ عِندَ الخالق .

مخاطباً بعض تلامذته ومريديه

وقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ونَفَعَنا بِهِ[3] تَذكَّرُوا عَظَمَةَ ما اجتَمعْتُم عَلَيهِ ، والعُهُودَ الَّتي سَلَفَتْ مِنكُم، وَهِي مَظاهِرُ تَأكِيداتِ عَهدِكُم القَدِيمِ مَعَ الرَّبِّ العَظِيمِ ، وَأَقِيموا أَساسَ احتِرامِ غَيرِكُم ، حَتَّى يَشعُـرَ كُلُّ مُسلِمٍ تُقابِلُونَه أَو تُجالِسُونَه بِأَنَّكُم تُكرِمُونَه وَتُحِبُّونَه ، وازدادُوا حِرصاً عَلى أَذكارِكم وَأَورادِكُم ، وَتَدَبَّرُوا القُرآنَ .

رَدِّدُوا النَّظَرَ ، ماذا حَصَلَ عَلى أَيدِيكُم مِن نَشرِ الأَخلاقِ الفاضِلةِ ، والصِّفاتِ المحمُودةِ، وَتَقويمِ السُّلُوكِ، وَربطِ الخَلقِ بِخالِقِهِم، واطمَئِنُّوا وواصِلُوا.. تُواصَلُوا، وَلا تَنسَوا زِيارةَ الأَخيارِ مِن أَهلِ البَرزَخِ والدُّنيا ، وَأَقِيمُوا قَواعِدَ الافتِقارِ إِلى الله ، والاضطِرارِ إِلَيهِ ، وانكِسارِ القُلُوبِ مِن أَجلِهِ .

واعلَمُوا أَنَّ عَلَيكُم رِعايَةً وَوِقايَةً ، وَلَكُم حِمايَةٌ ، واعتَنُوا بِنَشرِ سِيرَةِ سَيِّدِ الوُجودِ وَشَمائِله ، قِراءةً واتِّباعاً وَتَبليغاً ، واللهُ يُضاعِفُ لَكُم هِباتِهِ وَعَطِيّاتِهِ ، وَيُكرِمُكُم

---

(١) أَي: مَلأ .

(٢) قالَ أَبُو الحَسَنِ الشّاذِلِي : «لَو كُشِفَ عَن نُورِ المؤمِنِ العاصِي لَطَبَّقَ ما بَين السَّماءِ والأَرضِ ، فَما ظَنُّكَ بِنُورِ المؤمِنِ المطِيع ؟» مِن شَرحِ الحِكَمِ العَطائِيَّةِ لِلشَّرنُوبِي .

(٣) في شَهرِ ذِي القِعدَةِ ١٤٢٠هـ ، خاطَبَ بِذَلِكَ القائِمِين بِشُؤُونِ الدَّعوَةِ فِي أَندُونِيسيا ، وَجَّهَ إِلَيهِم هَذِهِ الوَصِيَّةَ فِي رِسالَة .

بِمَوَدّاتِهِ ، وَلا يَتْـرُكْ أَحَدُكُم المطالَعَةَ فِي الفِقهِ والتَّصوُّفِ واللهُ يَتوَلّاكُم .

ميزان في الفرح بالشيوخ

وقال رضي الله عنه ونفعنا به [(١)] البعـضُ منّا ما يَعرِفُ يُقِيمُ المِيزانَ فَيَفرَحُ أَحياناً إِذا أَحَدٌ مَدَحَهُ أَو مَدحَ شَيخَهُ ، فَلا يَعرِفُ يُفَرِّقُ بَينَ فَرَحِهِ بِظُهُورِ الدِّينِ أَو فَرحِهِ بِسَبَبِ النِّسبَةِ إِلَى شَيخٍ مُعَيَّنٍ ، أَي نِسبَتِهِ ـ الشَّخصِيَّة ـ لِذَلِكَ الشَّيخِ فَيَختَلِطُ الأَمرُ عَلَيهِ ، والمقصُودُ أَنَّ كُلَّ مَن ظَهرَ مِن أَهلِ الحَقِّ تَفرَحُ بِظُهُورِهِ ؛ لأَنَّه ظُهُورٌ لِلدِّينِ .

أَمّا إِذا قُلتَ : أَنا لا أَفرَحُ إِلا إِذا كانَ الَّذِي ظَهَرَ شَيخِي فَقَط أَو صاحِبِي فَقط ، أَو مِن بِلادِي فَقط ، أَو كان الَّذِي ظَهَرَ عَلَى منهجِي وَمَشرَبِي فَقط فَهذا دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ الإِخلاصِ .

كَما وَقَعَ فِي كَثِيرٍ مِن الدُّعاةِ إِلَى الإِسلامِ ، فَكانُوا يَدعُونَ إِلَى أَفكارِهِم الخاصَّةِ وَتَنظِيماتِهِم ، فَلَيسُوا بِدعاةٍ إِلَى الإِسلامِ عَلى وَجهِهِ مِن حَيثُ أَنَّه إِسلامٌ ، بَل كُلُّ واحِدٍ مِنهُم داعٍ إِلى فِكرِهِ لا إِلى الشَّرِيعَةِ ، وَمِن هُنا جاءَت التَّحَزُّبات بَينَهُم فَصارُوا مِثلَ الأَحزابِ الأَرضِيةِ ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣]، فَظُهُورُ أَيِّ مُسلِمٍ فِي العالَمِ وانتِشارُ صِيتِهِ نَخافُ إِنْ اشمَأَزْزنا مِن ذَلِكَ أَو كَرِهناه أَن نَكُونَ فِي خِيانَةٍ مَع اللهِ لِمَحَبَّةِ المسلِمِينَ ، فَكَيفَ إِذا كانَ الَّذِي أَظهَرَهُ اللهُ صاحِبَ نُورٍ أَو صاحِبَ وِراثَةٍ أَو وِلايَةٍ .

قواعد الخلافة والتجديد

وقال رضي الله عنه ونفعنا به [(٢)] نُرِيـدُ تَعلِيقَ قُلُوبِ كُلِّ الـمُنتَمِينَ إِلَى الإِقبالِ عَلَى الدَّعوَةِ بِجَوانِبِ الوَلَعِ بِالذِّكرِ، وَتَعَشُّقِ القُربِ مِن الحَقِّ وَإِيثارِه عَلَى السِّوَى .. تَكُونُ قَواعِدَ الخِلافَةِ والجِهادِ فِي الدِّينِ مِن أَصلِهِ .

---

(١) لَيلَةَ السَّبتِ ١٨ مِن شَهرِ رَبِيعِ الثّانِي ١٤٢٠ هـ .

(٢) فِي ١٧ مِن شَهرِ شَوّال ١٤١٩هـ .

نَحنُ لَسنا مُحتاجِينَ إِلى أُناسٍ يَتَكَلَّمُونَ عَن أَسماءِ الجِهادِ وَلا أَسماءِ الخِلافَةِ وَلا أَسماءِ التَّجدِيدِ وَلا المهدِيِّ وَلا سَيدِنا عِيسَى ، نَحنُ محتاجُونَ إِلى أُناسٍ يَتَكَلَّمُونَ عَن قَواعِدِ هَذِهِ الأَشياءِ ، وَرُوحِ هَذِهِ الأَشياءِ ، وَأَساسِ هَذِهِ الأَشياءِ ، مِن دُونِ أَسماء .

فالخِلافَةُ والتَجدِيدُ وابنُ مَريَم والمهدِيُّ .. الأَساسُ فِيهِم هَذِهِ القَواعِدُ ، الدُّخولُ إِلَى حَظائِرِ القُربِ مِن الرَّبِّ ، والوُصُولُ إِلَيهِ ، لَكِنِ التَّصَوُّراتُ عِندَ النّاسِ هِي الَّتِي تُحِيدُ بِهِم عَن سَواءِ السَّبِيلِ ، يَقولُ العَوامُ «هَذا يُدوِّر[1] لِوَلَدِهِ وَوَلَدُه فَوقَ كِتِفِهِ» هَذا هُو الحَقُّ ، وَهَذِهِ هِي الطَّرِيق .

وَأَنت ماذا تَتَصَوَّرُ الكَرامَةَ والرِّفعَةَ والفَهمَ والإِدراكَ والعِزَّةَ الَّتِي كانَت مِن قَبلِ فَتحِ مَكَّةَ ؟! ما زادَت بَعدَ الفَتحِ ؟! بِالعَكسِ فالَّذِينَ أَسلَمُوا مِن قَبلِ الفَتحِ .. لا يُساوِيهِم الَّذِينَ جاءُوا مِن بَعد ، فَما كان شَيءٌ ناقِصٌ فِي المَدَدِ ، وَلا فِي العَطاءِ قَبلَ فَتحِ مَكَّةَ ، أَنتَ اُترُك المَظهَرَ ؛ لأَنَّه لَيسَ هُو المقصُودُ ، بَل المقصُودُ أُولَئِكَ الَّذِينَ كانُوا أَيّامَ الاستِضعافِ بِمَكَّةَ ، الشَّأنُ عِندَهم هَؤلاءِ لَيس الشَّأنُ فِي مَظهَرِ الفَتحِ ، والقُرآنُ مُصَرِّحٌ بِذَلِكَ ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ [الحديد:١٠].

فيما يتعلّق بالحوادث المستقبليّة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: نَحنُ مَعَنا شَرِيعَةٌ واضِحَةٌ بيِّنَةٌ ، نَعرِفُ كَيفَ نَتَقَرَّبُ إِلَى الله سُبحانَه وَتَعالَى بِالأَوصافِ الَّتِي يُحِبُّها الله ، فَنَشتَغِلُ بِإِقامَتِها ، أَمّا الحَوادِثُ المستَقبَلِيَّةُ الَّذِي يُقَرِّبُها ما هُو نَحنُ ، والَّذِي يُبَعِّدُها ما هُو نَحنُ .. دَعها ، وَما أَخبَرَ بِهِ الله وَرَسُولُه لابُدَّ أَنْ يَأتِي .

عِندَنا واجِباتٌ وَمُهِمّاتٌ ، الصادِقُ والمتَوَجِّهُ هُو مِن أَنصارِ الشَّرِيعَةِ ، ظَهَرَ المهدِيُّ

---

(١) أَي: يَبحَث عَن ابنِهِ وَهُو بِقُربِهِ .

أَو ما ظَهَر ، هُو مِن أَنصارِ مُحمَّدِ بنِ عَبدِ الله ، عَلى قَدرِ ما يَبذُلُ مِن جِدٍّ واجتِهادٍ ، إنَّما يَتَشَرَّفُ أَنصارُ المَهدِيِّ بِكَونِهِم نَصَرُوا خَليفَةً لمحَمَّدٍ ، فَجاءَ الشَّرَفُ كُلُّه مِن هُنا ، إذا فَأَنتَ بِصِدقِكَ وَبَذْلِكَ وَجُهْدِكَ مِن أَنصارِ مُحَمَّدٍ ، إمامُكَ الخَليفَةُ أَم لَيسَ بإِمامِكَ ؟ أَنتَ ناصِرٌ لَه صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، فَأَكرِمْ بِتِلكَ الرُّتبَةِ ! وَأَكرِمْ بِتِلكَ المنزِلَةِ ! فَكُن مِن أَنصارِهِ .

والوَقتُ الَّذي يُظْهِرُ اللهُ فِيهِ سَيِّدَنا المهدِيّ ، لَن يَملِكَ أَحَدٌ أَنْ يُؤَخِّرَهُ وَلا أَنْ يُبعِّدَهُ، وَفِي الوَقتِ الَّذي يَظهَرُ فِيهِ .. بَعضُ النّاسِ الَّذين يَتَشَدَّقُون بِهِ .. يُعادُونَه ، وَبَعضُ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الخَيرَ .. يَسبُّونَه ، حَتَّى يُهيِّئَ اللهُ لَه القُلُوبَ .

أَيُّ قُلُوبٍ هَذِهِ ؟! قُلُوبُ الَّذِينَ كانُوا صادِقِينَ مَعَ الله ، قُلُوبُ الَّذِينَ كانُوا لا يَشتَغِلُونَ بِسَبِّ النّاسِ ، وَلا إِيذاءِ النّاسِ ، وَلا بِالمجادَلاتِ مَع النّاسِ ، بَلْ الَّذِينَ كانُوا مُشتَغِلِينَ بِتَطهِيرِ نُفُوسِهِم ، بِتَطهِيرِ قُلُوبِهِم .. هُم الَّذِين يَكُونُونَ حَوالَيهِ ، بَلْ هُم هَؤلاءِ الأَوائِلُ الَّذِينَ يُقيمُ اللهُ بِهِم قَواعِدَهُ ، ثُمَّ يُخْضِعُ الله لَه العالَمَ كُلَّه ، ثُمَّ يُخضِعُ لَه الآخَرِينَ بِجِهادِ أُولَئِكَ الصّادِقِينَ الَّذِينَ يَكُونُونَ مَعَهُ .

إذا نَحنُ ما عِندَنا حاجَةٌ لِذِكرِ الأَسماءِ ، وَلا لِلتَّعَلُّقاتِ بِالشُّؤُونِ الَّتِي ما حَكَّمنا الله فِيها ، وَلا أَمَرَنا بِها ، لَكِن هُناكَ واجِباتٌ أَمامَ عَينِكَ ، فَما مَعنَى أَنْ تَنامَ عَنها أَو تَترُكَها ، لِكَي تَقُولَ سَيكُونُ كَذا .. سَيَأتِي كَذا ، قُمْ بِواجِباتِكَ ، والزَمْ فَرضَكَ ، انتَبِهْ مِن مُهِمّاتِكَ الَّتِي أَنتَ فِيها .

المَهدِيُّ عِندَما يَأتِي لَن يَفرَحَ مِن واحِدٍ تَرَكَ الواجِباتِ ، أَو تَركَ المهِمّات ، وَلا الَّذِينَ قَبلَهِ وَلا الَّذِينَ بَعدَه مِن الصّالِحِينَ ، كُلُّهُم إنَّما يَكُونُ فَرَحُهُم بِمَنْ يَصدُقُ وَيَجِدُّ وَيَجتَهِدُ ، وَيَفِي بِالعَهدِ ، وَيُؤَدِّي ما عَلَيهِ فِي هَذا الجانِبِ .

الباب السابع

حسن الظّنّ وسعة المشهد قاعدةٌ لابدّ منها لصحّة المعاملة مع الله

معنى «واحدية الفاعل»

قال رضي الله عنه ونفعنا به [1] إذا كُنّا نَحنُ المنْتَمِينَ لِهَذِهِ الدَّعْوةِ لَـمْ نُحيِي مَعانِيَ حُسنِ الظَّنِّ والاعتِقادِ فِي الخامِلِينَ وَعَدمِ الاعتِزازِ بِالمظاهِرِ ، فَهَذِهِ وَظِيفَةُ مَن يُحْيِيها فِي الأُمَّةِ ؟ مَن الَّذِي يُقِيمُها ؟ نَحنُ نُعَلِّمُ النّاسَ مَعانِيَ احتِرامِ الخامِلِين واحتِرامِ المستُورِين ، بَل وَنُعَلِّمُهُم كَيفَ يُحسِّنُونَ الظَّنَّ بِالعاصِين ، أَتأتِي نَظَراتُنا مَعكُوسَةً ؟ وَنُصَنِّفُ النّاسَ أَو نُنَقِّصُ مِن مَنْزِلَتِهِم ، أَو نَجعَلُ الأَمرَ دائِراً عَلَى المَظهَرِ .

لا يَستَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَتَطاوَلَ عَلى خَزائِنِ المولَى ، لا بِحَصرٍ وَلا بِقَصرٍ وَلا بِعَطاءٍ وَلا مَنعٍ ، والحَقُّ للمَلِكِ جَلَّ جَلالُه ، يُسَلِّمُ ما شاءَ لمن شاءَ ، وَكلُّ مَن سَلَّمَه شَيئاً فَهوَ أَعرَفُ بِأَدَبِه فِيه .

والأَمرُ لَيسَ دائراً عَلى سِترٍ وَلا عَلى ظُهُورٍ ، بَل الأَمرُ دائِرٌ عَلى المنزِلَةِ عِندَ السّاتِرِ الظّاهِرِ ، وَلا عَلى تَسلِيطٍ وَلا عَلى تَسخِيرٍ ، الأَمرُ دائِرٌ عَلى المسَلِّطِ المسَخِّرِ .

فالحَذَر ، أَنتُم عَبِيدٌ لِلواحِدِ ، لا تَستَرِقُّكُم هَذِهِ المظاهِرُ ، اُخرُجُوا مِن قَبضَتِها وَمِن دائِرَتِها ، انطَلِقُوا مِن قَيْدِها وَحَصرِها وَأَسْرِها ، لَم يَنْبَنِ الأَمرُ عَلى خُمولٍ وَلا شُهرةٍ وَلا نُصْرةٍ وَلا تَسلِيطٍ ، وَلا زَمَنٍ مُتقدِّمٍ ولا زَمنٍ مُتأَخِّرٍ ، وَلا انحَصَرَ فِي مَكانٍ ، وَلا غَيرِ ذَلِكَ مِن كلِّ ما يُرمَى بِه فِي العالَمِ الخَلقِيّ مِن مَظاهِرِ التَّصرِيفِ الحَـقِّي ، الأَمرُ لَيسَ دائِراً عَلى شَيءٍ مِن ذَلِك ، الأَمرُ دائِرٌ عَلى المتَسَلِّطِ المتصَرِّفِ .

فَلابُدَّ أَنْ تَنْـفَكُّوا مِن قُيُودِ الأَسرِ بِهَذِهِ الأُمُـورِ ، والالتِـفاتُ قَد يَظهَرُ أَو يَبطُنُ ، فالله واحِدٌ جَلَّ جَلالَه يَرفَعُ .. يَخفِضُ ، يُقدِّمُ .. يُؤخِّرُ ، أَينَ أَنتَ مِنه فَقَط ؟ ما عَلَيك

---

(١) فِي يَومِ ١٧ مِن شَهرِ شَوّال ١٤١٩هـ .

مِن هَذِهِ المظاهِرِ ، فَلا يَنبغي أَن تَأخذَ بِعَقلِك وَفِكرِك بِشَيءٍ مِن هَذِهِ الشُّؤُونِ .

يَنبَغِي أَنْ تَستَوِي عِندَكَ الأُمُورُ باعتِقادِكَ **(واحِدِيَّةَ فاعِلِها)** ، وَأَمّا المظاهِرُ الدُّنيوِيَّةُ فَابعُدْ ثُمَّ ابعُدْ عَنها .. تَقْرُبُ ، لهذا قالَ لَهم صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، فِي أَيّامِ جُوعِهِم وَعَدمِ وُجودِ الطَّعامِ عِندَهم عَلى الكَثرَةِ ، بَل وَوُجُودِ الأَعدادِ الكَثِيرَةِ الَّذِين يَبِيتُون بِلا طَعامٍ : «فَكَيْفَ إِذا جاءَكُمْ زَمانٌ يُراحُ عَلَى أَحَدِكُمْ بِصَحْفَةٍ ، وَيُغْدَى بِأُخْرَى .. أَأَنْتُمْ اليَوْمَ خَيْرٌ أَمْ يَوْمَئِذٍ ؟» قالُوا : نَحنُ يَومَئِذٍ خَيرٌ ـ ما دامَ هَذا الأَمرُ مُتَوَفِّراً ـ قالَ : «أَنْتُمُ اليَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ»[1] . مَعَ أَنَّ ظاهِرَها تَوسِعَةٌ عَلَى الأُمَّةِ ، فَلابُدَّ أَنْ نَخرُجَ مِن الاستِرقاقِ لِهَذِهِ المظاهِرِ ، وَنَعرِفَ مَن نَقْصِدُ وَإِلَى مَن نَتَوَجَّهُ ؟

فيما يتعلّق بحسن الظّنّ بالآخرين

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ نَحنُ مُحتاجُونَ إِلَى أَن نَعرِفَ حُسْنَ الظَّنِّ والاستِمدادَ مِن المتَكاسِلِ فِي عَمَلِ الدَّعوةِ ، بَل يَجِبُ عَلَينا أَن نَعرِفَ كَيفَ نُتقِنُ فِيما بَينَنا وَبَينَ اللهِ حُسنَ الظَّنِّ والاستِمدادَ مِن المعتَرِضِ عَلى الدَّعوةِ ، بَل يَحتاجُ إِن صَدَقنا فِي دَعوَتِهِم ، أَن ندرِكَ أَنَّ نُورَ الإِيمانِ بِهِ عَظِيمٌ عِندَه ، فَنُعظِّمَهُ حَيثُ وُجِدَ ، أَما نَعرِفُ مَعنَى الأَثَرِ **(لو كُشِفَ نُورُ العَبدِ المؤمِنِ العاصِي لَطَبَقَ ما بَينَ الأَرضِ والسَّماءِ)**[2] .

---

(١) الحَدِيثُ : عَن عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم : «كَيْفَ بِكُمْ إِذا غَدا أَحَدُكُم فِي حُلَّةٍ وَراحَ فِي حُلَّةٍ، وَوُضِعَت بَين يَدَيْهِ صَحْفَةٌ وَرُفِعَت أُخْرَى، وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُم كَما تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ؟» قالوا : يا رَسُولَ اللهِ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مِنّا الْيَوْمَ .. نَتَفَرَّغُ لِلْعِبادَةِ وَنُكْفَى الْمُؤْنَةَ . فقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم : «لَأَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ» رَواهُ التِّرمِذِي .

(٢) قالها أَبُو الحَسَنِ الشّاذِلِي :**(لَو كُشِفَ عَن نُورِ المُؤمِنِ العاصِي لَطَبَقَ ما بَينَ السَّماءِ والأَرضِ ، فَما ظَنُّك بِنُورِ المُؤمِنِ المُطِيعِ ؟!)** مِن شَرحِ الحِكَمِ العَطائِيَّةِ لِلشَّرنُوبِي .

هَذِهِ الدُّرُوسُ الَّتِي لَنْ يَقُومَ الأَساسُ إلا عَلَيها ، نَحنُ نَكِدُّ وَنَجتَهِدُ ، وَنواصِلُ السَّيرَ ، وَنَعرفُ أَنَّ أَدَبَنا مَعَ اللهِ بِالاستِمدادِ مِن الَّذي يَكْسَلُ وَينامُ ، بَل مِن الَّذِي يُعارِضُ وَيَعْتَرِضُ وَيَنْتَقِدُ عَلَينا ، فَإِن رَآنا اللهُ هَكَذا صادِقِين ائْتَمَنَنا .

فَإِن لَم يُؤَمَّنِ الشَّخصُ عَلى مُعارِضِينَ أَو مُعتَرِضِينَ أَو مُناوئِينَ فِي مُحِيطِهِ الصَّغيرِ القَرِيبِ ، أَفَيُؤَمَّن بَعدَ ذَلِك عَلى الأُمَّة كُلِّها .

أَنتَ بِسرعَةٍ قابَلَتْكَ الرُّدُودُ غيرُ اللَّائِقَةِ مَع مُحِيطِكَ الصَّغِيرِ ، أَهلِ بَلدتِكَ، أَهلِ قريتِكَ، لا تَزالُ ما ائْتُمِنْتَ عَلى الأَدَبِ مَعهم بِالمعامَلةِ الَّتي يُحِبُّها اللهُ ، أَتريدُهُ يَأتَمِنُكَ بَعدَ ذَلِكَ عَلى أُمَّةِ سَيِّدِنا مُحمَّدٍ فِي العالَم .

إِذا كانَ لا يَزالُ إِخوانُكَ فِي المَحِيطِ الخاصِّ ما قامَتْ عِنْدَكَ حَقِيقَةُ التَّعظِيم لَهم ، فَإِنَّ هَذا مُقتَضَى الأَمانَةِ، صاحِبُ الدَّعوَةِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم يَقُولُ اللهُ عَنهُ : ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، فَإِذا ما قُمتَ بِحَقِّ هَذِهِ الأَمانَةِ ، وَأَنتَ فِي المَحِيطِ الأَخصِّ بِك ، لَيسَ الخاصَّ ، وَهُم السّائِرُونَ مَعَكَ فِي نَفسِ الوِجهَةِ وَنَفسِ هَذا العَمَلِ ، وَلا تَزالُ تُخالِجُ صَدرَكَ بِأَسبابِ نَقصٍ عِندَكَ ، مِن خَواطِرِ الاستِثقالِ ، وَخَواطِرِ الاشمِئزازِ ، وَخَواطِرِ الانتِقاصِ مَع المُحِيطِ الأَخصِّ ، الأَمانَةُ أَينَ هِي ؟ أَنتَ ستَحمِلُ الأمانةَ إِلى أَين ؟ رُبَّما عَمِلْتَ فِي خَيالٍ بعد .

اِستَحْضِرْ مَعنَى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب:٧٢] ، لِهَذا انظُرْ إِلى الرَّعِيلِ الأَوَّلِ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟﴾ [الحشر:٨] ما يؤخِّرُهُم مالٌ وَلا عِيالٌ وَلا أَهلٌ ، مقابلُهُ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر:٩]

فَوقَ هَذا ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾، فَوق هَذا ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

هَذِهِ الصِّفاتُ إذا ما قامَت تَماماً فِي أَيِّ جَماعةٍ فَإنَّهم لَن يَصِلوا إلى غايةٍ فِي إرثِ أُولَئِك، وَنِيابةٍ عَنهُم ، غايَةُ الأَمرِ يَأخذونَ بَعضَ الجَوانِبِ الطَيِّبَةِ عَلى ما فِيها، لَكِن نَحن ما نتحَدَّثُ عَن هَذا ، هَذا فِي واقِعِ الأُمَّةِ الآن ، يُعْتَبَرُ مِثلَ العَبَثِ ، إذا وَصَلَ الطَّعْنُ إلى الدّاخِلِ ، وَأناسٌ يَبقَون فِي الحَواشِي عَلى أَطرافٍ في الصِّفاتِ ، وَعَلى أَطرافٍ فِي جُنْدِيَّتِهم، وَعَلى أَطرافٍ فِي جِدِّيَّتِهـم ، هَذا إنْ ناسَبَ فِي أَوضاعٍ سابِقَةٍ ، لَكِن ما يُناسِبُ فِي وَضعِنا الآنَ ، بَل هُوَ مِثلُ اللَّعِبِ بِالعِبادَةِ واللَّعِبِ بِالدِّينِ ، لابدَّ أَن نُدرِكَ هَذا.

إذا كانَ هَذا فِي مُحِيطِنا الأَخصِّ ، الحِرصُ ما قام عِندنا ، الرَّأفَةُ ما قامَت عِندَنا ، الرَّحمةُ ما قامَت عِندَنا، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة:١٢٨] ما قامَتْ ، كَيف يَأتَمِنُك الحَقُّ عَلى مُجتَمعِك ؟ بَعدَ ذَلِك كَيفَ يَأتمنُك عَلى الَّذِينَ حَوالَيك ، بَل كَيفَ يُهيِّئُك لأَمانَةٍ تَتعلَّقُ بِأُمَّةِ حَبِيبِهِ كلِّهِم ؟!

فَخُذِ الأُمُورَ بِدَرَجاتِها ، ابدَأْها خُطْوَةً خُطْوَةً ، وَلكَ الحَظوَة[(١)] ، وَقَدِّر هَذِهِ البِضاعَةَ الَّتي تُعرَضُ ، إنَّما يَقدِرُ قَدْرَها صاحِبُ المَخزَنِ الَّذِي أَخرَجها مِنه ، إنَّما يَقدِرُ قَدرَها «اللهُ» ثمّ يَعرفُ قَدْرَها «رسولُه» . نَحنُ غايَةُ الأَمرِ نُدرِكُ شَيئاً مِن عَظَمَتِها فَقَط ، السّاقِي ما مات ، بَل وَلا تَوقَّفَ عَنِ السُّقْيا ، إلا أَنَّ ذَلِكَ لِمَن تَهَيَّأَ .

خُذُوا هَذا الخَبَرَ وَخُذُوا التَّعظِيمَ لِجَوانِبِ الإرشاداتِ السَّماوِيَّةِ ، وَجَوانِبِ التَّعلِيماتِ النَّبويَّةِ المحَمَّدِيَّةِ .

---

(١) أَي: النَّصِيبُ الوافِي، وَهِي مَأخُوذَةٌ مِن الحَظِّ، وَمِن ذَلِكَ قَولُه تَعالَى : ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فُصِّلَت:٣٥].

الكتمان في قضاء الحوائج

وقال رضي الله عنه ونفعنا به زِيادَةُ حُسنِ الظنِّ ، والشُّعُورُ بِالنِّعمةِ بِلا استِحقاقٍ ، والشُّعُورُ بالمنِّ من الخالِق يُلْزِمُكَ هَذا هِمَّةً فِي أَنْ تَرْتَقِي ، فَـتُحَسِّنَ صِفاتَك وَتَعامُلَك مَع القَرِيبِ والبَعِيد ، وَأَنْ تَبقى مَعَ العامِلينَ فِي هَذا الميدانِ عَلى نَفسِك دائِماً ، تُحْسِنَ الكَتْمَ فِي مَوضِعِهِ ، وَتُحْسِنَ البَيانَ فِي مَوضِعِهِ ، تُقَدِّمَ جَمِيعَ شُؤُونِهِ عَلَى جَمِيعِ أغراضِك ، تَعَلَّمْ دَفنَ نَفسِكَ[1] ، والله يَختَصُّ بِرَحـمَـتِهِ مَن يَشاء ، وَتستَجلِبُ مِن أَجلِ ذَلِكَ التَّعب ، وَلابُدَّ مِن شُهُودِ المِنَّةِ لِلحَقِّ .

فيما يتعلّق بحسن الظّن وتوسيع المشاهد في من حوالينا من الإخوان

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[2] قِيامُنا بِأَعمالِنا هَذِهِ فِي هَذا الميدانِ إِنَّما نَرْجُو بِها رِضى الرَّحمن سُبحانَه وَتَعالَى ، وَلَو جِئنا بِأَفضَلِ أَعمالِنا وَآخَذنا اللهُ بِها لَخَشِينا ، يَقولُ بَعضُ العارِفِينَ بِالله فِي مناجاته : «إِلَهي إِنِّي أَخافُ أَن تُعَذِّبَنِي بِأَفضَلِ أَعمالِي ، فَكَيفَ لا أَخافُ مِن عِقابِكَ بِأَسوَأِ أَحوالِي ؟!» ، اللهُ أَمَرَكَ أَن تَتَّخِذ إِلَيه سَبِيلاً مِن الذِّلَّةِ والانكِسارِ والاعتِرافِ والاضطِرارِ والافْتِقارِ ، وَتُتَرْجِمَ ذَلِكَ فِي عَقِيدَتِك وَفِي تَعامُلِك مَع النّاس.

الآنَ أَنتُم كُلَّ مَن لَقِيتُمُوهُ مِن المسلِمِينَ هل يَشْعُرُ أَنَّكم تُقَدِّرُونَه وَأَنَّكم تُحِبُّونَه وَأَنَّكم تُعَظِّمُونَه لِلإِسلامِ ؟ أَو لا تَزالُ عاداتُكم وَنَظَراتُكم وخطاباتكم ما تُشْعِرُ بِهَذا! ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ [الفرقان:٦٣].

---

(١) أي: تَعَلَّمْ دَفنَ وُجُودِكَ بَعِيداً عَن الشُّهرة ، مُتَوارِياً عَن إِغوائِها حَتَّى تَصفى سَرِيرَتُكَ مِن الشَّوائِبِ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ صاحِبُ الحِكَم : **(ادفِنْ وُجُودَكَ فِي أَرضِ الخُمُولِ ، فَما نَبَتَ مِمّا لَمْ يُدفَن لا يَتِم نِتاجُه)** .

(٢) فِي ١٦ مِن شَهرِ جُمادَى الأَوَّل ١٤٢٠ هـ .

وَلِهَذا قِيلَ إِنَّ مِن السَّلَفِ الصّالِحِ مَن يَحمَدُهُم البَرُّ والفاجِرُ ؛ لأَنَّهم يَرحَمُونَ الكُلَّ، وَيجتَهِدونَ فِي نَفعِ الكُلِّ ، وَيَتَواضَعُونَ للكُلِّ ، مِن أَجلِ رَبِّ الكُلِّ ، وَلِذَلِكَ قَد تَجِدُ كَثِيراً مِمن لَهم مَسْلَكٌ فِي الشَّرِّ لَمّا يَموتُ العارِفُ المَتَواضِعُ النَّصُوحُ الرَّؤُوفُ يُثْنِي عَلَيهِ وَيَتَأَسَّفُ عَلى فَقدِهِ .

ماذا تَقُولُونَ أَيُّها الإِخوانِ ؟ تَواصَلُوا وَتَناصَحُوا وَهَذِهِ مِن مَقاصِدِكُم ، أَي الاستِفادَةُ مِن بَعضِكُم البَعض، انظُروا فَهَذا الأَمرُ يَأْتِي مِن الحِجابِ والقُصُورِ بِأَن يَقُولَ : أَنَّه يَعتَقِدُ الانتِفاعَ مِن الشَّيخِ بِشَخصِهِ فَقَط ، والآنَ أَمامَك أَقْوالُه وأَفعالُه وكُتُبُه وآثارُه وتَلامِذَتُه وأَصحابُه ، إِذا قمتَ بِحَقِّ هَذِهِ المَحَبَّةِ فَستَعتَقِدُ فِيها كلَّها ، لَيسَ كَمَن يَقُولُ : أُحِبُّ بَعضَك وَأَكرَهُ بَعضَك .

استِفادَتُك مِن الشَّيخِ فِي الغالِبِ .. عَلى قَدرِ استِفادَتِكَ مِن أَصحابِه وَتَلامِذَتِه وَجماعَتِه وَكتبِه وَكَلامِه وَأَثرِه ، بَل مَحبَّتُك لَه أَيضاً إِن تُرِدْ حَقِيقَتَها إِلى أَينَ أَوصَلَتْك.. تَأَمَّلْها فِي تَلامِذَتِهِ وَأَصحابِهِ ، بَل تَعظِيمُكَ لَه كَذَلِكَ ، بَعضُهُم قالَ : إِنَّ مَجنونَ لَيلَى شاهَدَ فِي حَيِّ لَيلَى الَّتِي تَعَلَّق بِها كَلباً أَسوَدَ ، فَأَحَبَّ مِن أَجلِ ذَلِكَ سُودَ الكِلابِ ، فَصارَ يُحِبُّ أَيَّ كَلبٍ أَسوَد .

وَذَلِكَ النَّبِيهُ اللَّبِيبُ مِن الصَّحابَةِ لما جاءَ الوَفدُ إِلى المَدِينَةِ كانَ يُحِبُّ الجُلُوسَ مَع النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم والاستِفادَةَ مِنهُ ، كانَ ذَلِكَ الصَّحابِي مِن صِغارِ القَومِ فَيقضِي عَملَهُ بِسُرعَةٍ وَيُجهِّزُ لَهم الأَمتِعَةَ وَيُعطِي الطَّعامَ لِدَوابِّهِم ، ثُمَّ بَعدَ ذَلِكَ يَتفَرَّغُ لِلجُلُوسِ عِندَ النَّبي صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، فَإِذا لَم يَجِدْهُ يَذهَبُ إِلى أَبِي بكر ، فَإِذا لَم يَجِدْهُ يَذهَبُ إِلى عُمرَ ، كانَ حالُه هَكَذا حَتَّى يَستَفِيدَ .

رِجالُنا الَّذِين مَضوا هَذِهِ آثارُهم وَدِيارُهم وَأَحبابُهم وَذرارِيهم ومُحِبُّوهُم والمتَعَلِّقون بِهِم ، تَعظِيمُنا لَهم لَن يُتَرجَمَ إلا فِي هَؤلاءِ وَولاؤنا لَهم كَذَلِكَ بَل حَتَّى انتِفاعنا مِنهم لَو تَوسَّعَتْ مَشاهِدُنا سَنَنتَفِعُ ، حَقيقةُ النَّفع من أولئِك بأولئِك وَمِن هَؤلاءِ بِهؤلاءِ.

ثُمَّ نَأتِي بَعدَ ذَلِك وَنَقُولُ هَؤلاءِ كُلُّهم هُمْ وولايَتُهم مَظهَرُ نورانيَّةِ النُّبوَّةِ والرِّسالَةِ ، فاستِفادَتُنا مِن الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ عَلى قَدرِ استِفادَتِنا مِن وُرّاثِها مِن غَيرِ رَيْبٍ ، بَل النُّبوةُ والرِّسالةُ كلُّها مَظهرُ جُودِهِ وَكَرمِه ، فَرجعَتْ إلَى أَصلِها وَهو مَحبَّتُنا الله وَهَكَذا ، هِي حَلَقاتٌ مُتَسَلسِلةٌ وَلا يَسعُكُم فِي وِجهَتِكم وَمَجالِكم حَصْرُ وَلا قَصْرُ شَيءٍ مِن فَضلِ الله وَلا جُزءٍ أَبَدا .

اتَّسِعُوا لِلنّاسِ حَتَّى فِي مَظاهِرِ شُرُورِهم فَكَيفَ بِمَظاهِرِ الخَيرِ فِيهِم ! يَنبَغِي أَن تَتَعلَّموا احتِرامَ الكُلِّ ، كان يُحَدِّثنا بَعضُ جماعَةِ الشَّيخ الشَّعراوِي(١) رَحِمَهُ الله يَذكرُ لَنا بَعضَ مُعامَلَتِهِ وَأَخلاقِهِ وَصِفاتِهِ ، قالَ : يَأتِي مَثَلاً شَيخُ طَرِيقَةٍ أَو تِلمِيذٌ لِشَيخِ طَرِيقَةٍ أَو مُنتَمٍ لَه ، وَيَأتِي عالِمٌ أَو قَرِيبٌ إلى عالِمٍ أَو مُنتَمٍ لَه أَو طَلَبَةُ مَعاهِدِ العِلْمِ الأَزْهَرِيَّةِ ، رَأَيتُهُ يُقَبِّلُ أَيدِيَهُم كُلَّهُم احتِراماً لِطَلَبةِ العِلمِ ، هَذا مَظهَرٌ صَحِيحٌ مِن مَظاهِرِ التَّصَوُّفِ وَمِن مَظاهِرِ الصِّدقِ ، فَهَذا شَيخٌ كَبِيرٌ يُقَبِّل أَيدِيَ طَلَبَةٍ ؛ لِأَنَّهم طُلاَّبُ عِلْمٍ ، مَع إيمانِهِ وَتَعظِيمِهِ لِلعِلْم ، ماذا تَقُولُونَ ؟ اللهُ يَنظرُ إِلَينا وَإِلَيكم وَيُسعِدُنا وَإِيّاكم إِنْ شاءَ الله .

---

(١) هُو الشَّيخ مُحَمَّد مُتوليِّ الشَّعراوِي ، وُلِدَ فِي قَرية «قادُوس» ، وَحَفِظَ القُرآنَ فِي الحادِيَة عَشَر مِن عُمرِهِ ، أَعطاه الحَقُّ تَعالَى مِن حَلاوةِ التَّعبِيرِ والتَّفسِيرِ ما كَشَفَ بِهِ الكَثِيرَ مِن أَسرارِ كِتابِ الله، قَضَى حَياتَهُ فِي التَّعلِيمِ والدَّعوَةِ ، حَتَّى كانَت لَحظَةُ وَفاتِهِ فَجر الأَربعاء ١٧ يُونيُو ١٩٩٨م المُوافِق ٢٣ مِن شَهرِ صَفَر ١٤١٩هـ ، رَحِمَه الله رَحمَةَ الأَبرارِ .

الواحِدُ مِنكُم يَكُون مُتابِعاً ، وَيَكُونُ مُواصِلاً ، وَيَكُونُ مُثابِراً ، وَيَكُونُ مُجْتَهِداً ، وَيَكُونُ مُعاوِناً ، وَيَكُونُ مُحَرِّضاً ، وَيَكُونُ مُشَجِّعاً ، وَيَكُونُ مُنبِّهاً ، وَيَكُونُ مُنشِّطاً ، وَيَكُونُ ناصِحاً ، وَهَكَذا .

الواحِدُ مِنكُم حِينَما يُلاقِي واحداً مِن إِخوانِهِ وَلَيسَ لَه فِيه مَشهَدُ استِفادَةٍ ، أَو مَشهَدُ اسْتِزادةٍ ، أو مَشْهَدُ إجلالٍ ، أو مَشْهَدُ اجتماعٍ ، أَو مَشهَدُ ارتقاءٍ ، إذاً النَّفعُ الَّذي بَينك وَبينه قَليلٌ ، وَإذا كان النَّفعُ الَّذي بَينَك وَبينه قَليلاً ، فَنَفعُك إِذاً مِن شَيْخِكَ قَليلٌ ، وَنَفعُك مِن شَيْخِ شَيخِه وَمن السَّلفِ كلِّهم قَليلٌ ؛ لأَنَّهم يُوصِلُون لَك طَرفَ السِّلسِلةِ تَفكُّها ما تُمْسِكُ بها مَسكاً صَحيحاً ، فهكذا يجبُ أن تُقِيمُوا التَّرجمةَ لِتعظِيمِ الله فِي أَفئِدتِكم بِمِثلِ هَذِهِ المعانِي ، وَهَذا السِّرُّ المخبُوءُ فِي الخَلقِ والمَطوِيُّ فِيهم هوَ الذي يُعظَّمُ ، وَهوَ سرُّ الله تعالى .

في كيفية التعامل مع مختلف مراتب الناس

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ الحَواجِزُ والحَواجِبُ الَّتي فِي النّاسِ عِبارَةٌ عَن كُدُوراتٍ فِكرِيَّةٍ وَذِهنِيَّةٍ وَعَقلِيَّةٍ، وَأَغلَبُها نَفسِيَّةٌ تَكْتَرِثُهم ؛ لأَنَّهم التَفَتُوا إِلَيها .

وَمَن لَه فِي الكَوْنِ شَيءٌ لَم يَمُتْ حَتى ينالَهُ ، ومَن له سابِقَةٌ يدرِكُ نَصِيبَهُ ، وَمَن أَرادَهُ اللهُ أَن يَقِفَ فِي مَكانٍ حَصَرَه بِشَيءٍ فَبِذَلِكَ يبقى فِيه ، وَمَن أَرادَ أَنْ يرفعَهُ .. يَرفعُه ، يَبتَلِيكَ سُبحانَه وَتَعالَى بِالَّذِينَ رَفَعَهُم .. يُرِيدُك أَنْ تُحسِنَ الاستِمدادَ مِنهُم ، وَيَبتَلِيك بِالَّذِين وَضَعَهم .. يُرِيدُك أَنْ تُحسِنَ الظَّنَّ فِيهِم ، فَيبتَلِيك هُنا هَل تَتَكَبَّرُ عَلَى مَن هُم تَحت ؟ أَو هَل تُقَصِّرُ فِي حَقِّ مَن هُم فَوق ؟ أَو تَستَقِيمُ ؟

اللهُ يَرزُقُنا الاستِقامَةَ ، وَيَأخُذُ بِأَيدِينا ، مَعُونَةً تامَّةً مِن جَمِيعِ الجَوانِبِ ظاهِراً وَباطِناً،

بِوجاهةِ الَّذي دَعانا ، وَبِسبَبِه اجتَمَعنا عَلَى مَولانا ، وَعَلى النَّهجِ الَّذِي بَعثَه بِه إِلينا ظاهراً وَباطِناً .

الباب الثامن

ضوابط في التعامل مع الكفار ومنهجنا في الفهم وعدم الانبهار لما يأتي من قبلهم

قواعد في مواجهة الكفار

قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ القَواعِدُ الآنَ الَّتِي نُواجِهُ بِها قُوَى الكُفرِ عَلى مُختَلَفِ أَنواعِها .. تَقْوِيمُ الصِّلاتِ بِالله عَلى وَجهِها ، وَتَعرِيفُ مَن حَوالَينا لمقامِ النُّبُوَّةِ ، وَتَقوِيمُ الأَقدامِ عَلَى اتِّباعِهِ.

مَسالِكُ وَقَواعِدُ نُواجِهُهم بِها والأَشياءُ الثّانِيَةُ تَكونُ تَبَعاً لها ، وَهَذِه الأَقدارُ[1] تَخدُمُ ، والسَّماءُ تَقومُ مَع أَهلِ الخَيرِ ، وَهَؤُلاءِ الكفّارُ ما الَّذِي بَينَنا وَبَينَهم؟ فِي الحَقِيقَةِ ما بَينَنا وَبَينَهم أَسلِحَةٌ ، بَينَنا وَبَينَهم دِينٌ، القَضِيَّةُ الَّتِي بَيننا وَبَينَهم دِينٌ . ما هَذا الدِّينُ؟ هو عِبارَةٌ عَن صِلَةٍ بِالرَّحمَنِ ، خُضُوعٍ له ، وانقِيادٍ له ، واتّباعٍ لِنَبِيِّهِ ، غَيرُ هَذا ما عِندَنا شَيءٌ ، هَذا الَّذِي بينَنا وَبَينَهُم ، إِذا ضَيَّعناه تَسَلَّطوا عَلَينا ، وَإِذا قُمنا بِهِ اندَحَروا وَتَذَلَّلُوا لَنا ، فنُرِيدُ نُواجِهُهُم بِهَذِهِ الحَقِيقَةِ الَّتِي واجَهَهُم الإِسلام بِها ، وَكَذلِكَ الأَنبِياءُ والصِّدِّيقُونَ والصّالِحونَ .

ضرورة ارتكاز التوجيهات الربانية في بواطن القائمين بالدعوة

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ واقِعُ القُوى المادِيَّةِ الموجُودَةِ فِي زَمَنِكُم ، مِنَ المظاهِرِ والصِّراعاتِ الإِعلامِيَّةِ والدّعائِيَّةِ والتَّصوِيرِيَّةِ الموجُودَةِ فِي العالَمِ الآنَ ، لا تَحفَلُوا[2] بِها بِمِقدارِ ما تَحفَلُوا بِنُصُوصِ التَّوجِيهاتِ الرَّفِيعَةِ السَّماوِيَّةِ نَفسِها ، والتَّعلِيماتِ النَّبَوِيَّةِ نَفسِها .

يَجِبُ أَن تَأخُذَ هَذِهِ ـ أَي النُّصُوص والتَّوجِيهات الرَّبّانِيَّة ـ مَركَزَها فِيكُم ، حَتَّى تُصبِحُوا ـ أَنتُم ـ فِي انتِمائِكم لَيسَ لِواقِعِ ما يُحاكُ حَولَكم ، بَل أَنتم فِي انتِمائِكم لِواقِعِ

(١) **الأقدار** : جمع قَدَرٍ وهو وُقُوعُ الأشياءِ وَجَرَيانُها طِبقاً لِعِلمِ الله الأزَلِيِّ بِها ، أما القَضاءُ فَهوَ عِلمُ الله الأزَلِي بِكُلِّ ما سَيَجرِي فِي المستقبَلِ .

(٢) أي: لا تَجعَلُوا لها قَدراً وَمَنزِلَةً .

الإِرشاداتِ مِن فوقِكُم ، لِذَلك لا يُمكِنُ أَن يُؤَثِّر فِيكُم ما يُحاكُ[1] حولَكُم ، فَإِذا لَم تَتَأَثَّرُوا بِهَذِهِ التَّوجِيهاتِ الرَّبّانِيَّةِ بَل تَأَثَّرتُم بِالواقِعِ المحِيطِ بِكُم.. كُنتُم مُتَأَثِّرِينَ بِهِ لا مُؤَثِّرِينَ فِيهِ ، فَتبقَى صِلَتُكُم بِالفَوقِ ـ وَهِيَ هَذِهِ التَّوجِيهاتِ ـ ضَعِيفَةً ، فَلابُدَّ أَنْ تَنتَشِلُوا[2] ارتِكازَ تَعظِيمِ هَذا مِن بَواطِنِكُم .

تحقيق شعار «الله أكبر»

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ الشُّغلُ بِما يَجرِي مِن هَؤُلاءِ الأَرضِيِّينَ والكَفَرَةِ وَمَن والاهُم مِن شُؤُون تَدبِيراتٍ وَتَفكِيراتٍ يَسعَوْنَ مِن خِلالِها لِتَحقِيقِ أَغراضِهِم ، يَكفِيها لِمَن استَقامَ القَلِيلُ مِن تَرتِيباتِ العُلْوِيِّـينَ[3] ، فَلا تَحتاجُ مِنكُم إِلَى كَبِيرِ أَمرٍ ؛ لِأَنَّهَا لا تَـكبُـرُ ، فَهِيَ لَيسَتْ بِكَبِيرَةٍ ، بَل هِيَ صَغِيرَةٌ وَحَقِيرَةٌ.

نَحنُ شِعارُنا «اللهُ أكبرُ» ، وَتَحقِيقُ هَذا الشِّعارِ أَن لا نُعطِيَهُم فَوقَ حَجمِهِم ، هُم وَخُطَطُهُم وَتَرتِيباتُهُـم يَكفِيها القَلِيلُ مِن فِكرِ الصّادِقِينَ مَع الله ، يَكفِيها القَلِيلُ مِن جُهدِ الواثِقِين بِالله إِذا قامَ ذَلِكَ عَلَى وَجهِهِ.

شَـأنُ إِعـداداتِ الـحَبِيبِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم لِلأُمَّـةِ الَّذِيـنَ بُعِـثَ فِيـهِم ، إِن جِئتَ مِن جِهَةِ الظَّواهِرِ والمادِّياتِ مَتَى تَكافَأَتِ القُوَى مادِّياً ؟ مَتَى تَبارَوا[4] فِيها ؟ فِي أَيِّ سَنَةٍ مِن سِنِينِه ؟ قَبلَ هِجرَتِه أَو بَعدَ هِجرَتِه إِلَى آخِرِ أَيّامِه ، ثُمَّ حالَةُ الصَّحابَةِ مِن بَعدِه كَذَلِك ، فَهَذا لَم يَحصلْ أَبداً ، وَلَمّا يكثُرُون[5] قالَ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم

---

(١) أي: فِيما يُثارُ وَيُنْشَرُ بِأَيِّ أُسلُوبٍ كان .

(٢) **الانتِشالُ** : هُو المبالَغَةُ فِي نَزعِ الشَّيءِ .

(٣) أي: أَهلِ السُّمُوِّ فِي الهِمَّةِ والعُلُوِّ فِي القَصدِ والوِجْهَةِ .

(٤) أي: تَكافَؤُوا أَو تَعادَلُوا .

(٥) أي: أَفرادِ هَذِهِ الأُمَّةِ .

عَنهُم: «أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ .. وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ»[١] ، فَلَو صِرتُم مِن أَهلِ هَذا الجَوهَرِ واللُّبِّ .. كانَ الكَلامُ آخرَ ، لَكِن إنَّما يَتَداعَوْنَ عَلَيكُم وَيَتَسَلَّطُونَ بِسَبَبِ هَذه الغُثائِيَّةِ[٢] الَّتِي ارتَضَيتُمُوها ، وَخُرُوجِكُم عَن الأَمرِ ، الله يَتَوَلانا وَإِيّاكُم ، وَيَرعانا جَمِيعاً ، وَيَأخُذُ بِأَيدِينا .

ضوابط الانبهار

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ: نَحتاجُ فِيمَن حَوالَينا إِلَى وَضعِ ضَوابِطَ للانبهارِ بِكَثِيرٍ مِن الأُمُورِ ، مِن هَذِهِ الأُمُورِ .. الانبهارُ بِشُؤُونِ الزَّخارِفِ والظَّواهِرِ ، أَو ما يُسَمَّى بِالثَّقافاتِ[٣] أَحياناً ، يَكُونُ لَها عِندَنا مَنزِلَةٌ أَو مَكانَةٌ فَيَأخُذُنا الانبهارُ بِها ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَباً فِي تَأخِيرٍ أَو عَرقَلَةِ المَشيِ فِي هَذِهِ الدَّعوَةِ، مَثَلاً : الانبهارُ بِكَونِ هَذا يَحمِلُ شَهادَةَ كَذا ، أَو مُتَّصِلاً بِدَولَةِ كَذا ، أَو بِجَمعِيَّةِ كَذا ، أَو هوَ مِن دَولَةِ كَذا ، هَذِهِ الأَشياءُ لَيسَت مَحَلَّ اعتِزازٍ ، نَظَرُ الشَّرِيعَةِ عِندَنا أَنَّ الاعتِزازَ بِتَقوَى الله ، مَن كانَ أَتقَى .. كانَ أَعَزَّ .

يَجِبُ أَن نُحَكِّمَ هَذِهِ الضَّوابِطَ فِي أَنفُسِنا وَنَبثَّها فِيمَن حَوالَينا ، لا تَأخُذُهُم شَأنَ الانبِهاراتِ هَذِهِ ؛ لأَنَّ الإِعلامَ لَهُ أَثَرٌ فِي هَذا ، واجتِهاداتُ الكُفّارِ عَلَينا لَها آثارٌ

---

(١) رَواهُ أَبُو داوُود .

(٢) مَأخُوذَةٌ مِن غُثاءِ السَّيلِ وَهوَ الزَّبَدُ، وَهِي هُنا كِنايَةٌ عَن كُلِّ ما لا فائِدَةَ منه كَقَولِهِ تَعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ [الرعد:١٧].

(٣) **الثَّقافَةُ** : هِي الفَهْمُ وَالحَذْقُ ، يُقالُ : ثَقِفَ الشَّيءَ ، أَي: فَهِمَه ، وَرَجُلٌ ثَقِفٌ ، أَي: حاذِقٌ فَهِمٌ، وَيُقالُ: غُلامٌ ثَقِفٌ ، أَي: ذُو فِطنَةٍ وَذَكاءٍ، وَالمُرادُ أَنَّه ثابِتُ المعرِفَةِ بِما يَحتاجُ إِلَيهِ ، وَيُقالُ: ثَقِفَ الشَّيءَ، أَي: ظَفِرَ بِهِ وَوَجَدَه، وَمِنهُ قَولُهُ تَعالَى : ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٧] وَقَولُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة:١٩١] أَي: وَجَدتُمُوهُم ، وَقَولُهُ سُبحانَهُ وَتَعالَى : ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ [الممتحنة:٢] أَي: إِن يَظفَرُوا بِكُم.

كَثِيرةٌ، فلا يَنبَغِي أَن نَنبَهِرَ بِهَذِه الصُّوَرِ أَو بِهَذِهِ الشَّكلِيّات ، هَذا مِن ناحِيَة .

إلى جانِبِ ما ذُكِرَ فَإِنَّه ما يَمنَعُ هَذا مِن أَنَّنا قَد نَستعمِلُ أَحياناً لَهم ما انبَهَرُوا بِهِ فِي سَبِيلِ جَذبِهِم لِلخَير .. فَلا مانِعَ مِن ذَلك ، لَكِن بِالنِّسبَةِ لَكَ فِيمَن حَوالَيك .. لابُدَّ أَن تُقِيمَ هَذِهِ القاعِدَةِ ، والأَعظَمُ مِن ذَلك تَقوَى الله .

يَأتِي أَحَدُ الصَّحابَةِ لِسَيِّدِنا عُمَرَ وَيَقُولُ لَهُ : نُرِيدُ مِنكَ أَن تُمِدَّنا بِجَيشٍ وَمَدَدٍ ، فَنَحنُ فِي قِتالٍ مَعَ الكفّارِ ، استَجابَ لَه سَيِّدُنا عُمَرُ وَأَرسَل لَه رَجُلاً واحِدا ، وَكَتَب لِقائِدِه : طَلَبتُم مِني مَدَداً فَقَد أَرسَلتُ إِلَيكُم القَعقاعَ بن عَمرو(١) ، واعلَمْ أَنَّه لا يَنبَغِي لِجَيشٍ أَن يُهزَمَ وَفِيهِم القَعقاعُ(٢) ، أَرَأَيتَ ذَلك ؟ سَيِّدُنا عُمَرُ كانَ عَلَى غايَةٍ مِن العِلم ، وَغايَةٍ مِن الوَعي، وَغايَةٍ مِن الفِقهِ ، يَكتُبُ لأُمَراءِ الجَيشِ وَيَقُولُ لَهم: انظُرُوا إِلَى أَهلِ قِيامِ اللَّيلِ والتَّذَلّلِ والصَّمتِ فِيكُم فاستَشِيرُوهُم ؛ لأَنَّ اللهَ يُجرِي عَلى قُلُوبِهِم وَأَلسِنَتِهِم ما لا تَعلَمُوه ، وَما لا تَدرِيهِ العُقُولُ المُجَرَّدَةُ.

فَينبَغِي أَن تَقُومَ انبِهاراتُنا فِي مَوضِعِها ، حَتَّى لا يَأتِيَ بَعضُ النّاسِ فَيُرِيدُ أَن نَنبَهِرَ

---

(١) هُوَ القَعقاعُ بنُ عَمروٍ التَّمِيمِيّ ، أَحَدُ فُرسانِ العَرَبِ وَأَبطالِهِم فِي الجاهِلِيَّةِ والإِسلام ، لَه صُحبَةٌ ، شَهِدَ اليَرمُوك ، وَفَتَحَ دِمَشقَ وَأَكثَرَ وَقائِعَ أَهلِ العِراقِ مَعَ الفُرسِ ، سَكَنَ الكُوفَةَ ، أَدرَكَ وَقعَةَ صِفِّين فَحَضَرَها مَع عَلِيّ ، وَكانَ يَتَقَلَّدُ فِي أَوقاتِ الزِّينَةِ سَيفَ هِرَقلَ مَلِكِ الرُّوم. وَيَلبَسُ دِرعَ بَهرام مَلِكِ الفُرسِ وَهُما مِما أَصابَه مِن الغَنائِمِ فِي حُرُوبِ فارِس، وَكانَ شاعِراً فَحْلاً. قالَ أَبُو بَكرٍ الصِّدِّيق : **صَوتُ القَعقاعِ فِي الجَيشِ خَيرٌ مِن أَلفِ رَجُلٍ**. تُوفِّيَ سَنَة ٤٠هـ.

(٢) وَأَخرَجَ الطَّبَرِي بِسَنَدِهِ فِي ذِكرِ حَوادِثِ سَنَةِ ١٢هـ أَنَّ خالدَ بنَ الوَلِيدِ لما فَرَغَ مِن اليَمامَةِ أَمَرَه أَبُو بَكرٍ بِالمَسِيرِ إِلَى العِراقِ ، كَما أَمَرَه أَن يَأذَنَ لِمَن شاءَ مِن الجُندِ بِالرُّجُوعِ إِلَى أَهلِهِم ، فارفَضَّ عَنهُ جَيشُه ، فاستَمَدَّ خالدٌ مِن أَبِي بَكرٍ فَأَمَدَّه بِالقَعقاعِ ، فَقِيلَ لَه : **أَتُمِدُّ رَجُلاً قَد ارفَضَّ عَنهُ جُنُودُه بِرَجُلٍ!؟** فَقالَ : **لا يُهزَمُ جَيشٌ فِيهِم مِثلُ هَذا**.

بِشَيءٍ مِن كَلامِهِ ، أَو بِشَيءٍ مِن حَرَكاتِهِ ، وَيقُولُ : أَنا مُتَّصِلٌ بِكَذا أَو بِكَذا أَو بِالجِهَةِ الفُلانِيةِ ، وَكَأَنَّه قد كَمُلَ ! هاتِ لَك مُتَّصِلاً بِالله وَيُغنِيك عَن هَذا كلِّه .

وَلهَذا كانَ النَّبيُّ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم يُعالِجُ لَنا هَذِه المواضِيعَ حَتَّى يَقُولَ لَنا : «إِنَّما تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ بِضُعَفائِكُمْ»[1] ، عَكْسُ الظّاهِرِ تَماماً ، بِالله عَليكَ هاتِ لِي هَذِهِ العَقليّاتِ الآن ، هاتِ لِي تَفكِيراتِ الجَماعَةِ الَّذِين يَقُولُونَ : ماذا نُرِيدُ بِالضُّعَفاءِ ؟ فَنَحنُ عِندَنا شَبابٌ أَقوِياءُ مُدَرَّبونَ خِرِّيجُونَ لَهم كَذا ، وَعِندَهُم كَذا ، وَمَعَهم خِبرَةٌ. كانَ الحبيبُ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم يقول: «إِنَّما تُنْصَرونَ وَتُرْزَقُونَ بِضُعَفائِكُمْ»، فَكانَ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم يُخرِجُ الانبهارَ الَّذِي عِندَهم ، والقُرآنُ يُؤَدِّبُهُم إِلى حَدِّ أن يَقُول لَهم : أُحضِرَتِ الملائِكةُ مَعَكُم ولكنْ حَتَّى لا تَنبَهِرُوا ، انظُرُوا إِلى هَذِهِ التَّرقِيَةِ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:١٠]، حتَّى لا تَقُولُوا : نَحنُ كَذا أَو مَعَنا كَذا ، كُونُوا مَعَهُ دائِماً ؛ لأَنَّ الحَقِيقَةَ هِي هَذِهِ ، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ .

يَأتِي النَّبيُّ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم الَّذِي أَخذَ الرَّمِيَةَ وَرَمَى بِها الكُفّارَ فَيَقولُ اللهُ لَه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، يَجِبُ أَنْ تَقُومَ عِندَنا هَذِهِ الموازِينُ وَهَذِهِ القَواعِدُ تامَّةً ، لَكِن هُناكَ نَقصٌ وَشِركَةٌ فِي الشُّهُود أَوقَعَنا فِي هَذا الضَّعفِ وَيَجِبُ أَن نَعرِفَهُ .

---

(١) رَواهُ أَحمَدُ وَمسلِمٌ وابنُ حِبّان ، والحاكِمُ فِي «المستَدرَك» عَن أَبِي الدَّرداءِ .

واصفاً بعض أحوال مجتمعات الكفّار

وقال رضي الله عنه ونفعنا به أمّا تِلك المجتمَعاتُ الكَذّابَةُ ـ مُجتَمَعاتُ الكُفّارِ ـ الّذين يَقُولُونَ: نَحنُ نَرفَعُ الفَوارِقَ بَينَ النّاسِ ، نَحنُ نَرفَعُ التَّميِيزَ بَينَ النّاسِ ، مجتَمَعاتُهم مَلآنَةٌ بِالأَمراضِ الظّاهِرةِ والباطِنةِ ، الحِسِّيةِ والمعنوِيَّةِ ، والتَّفَرُّقُ والتَّفكك عِندَهُم والمخالَفاتُ ، والتَّميُّزاتُ بَينَهُم .

وَيَكفِيكُم أَنتُم الآنَ عِبرَةٌ ، مَرَّت عَلى النّاسِ زَوبَعَةٌ أَخذَت عُقُولَهم ، (الغَرب * الغَرب) ، والتَّقَدُّم هُناك ، أَنتُم جالِسُونَ مَع هَذا الدِّينِ ! النّاسُ طَلَعُوا إِلى القَمَرِ ! نَحنُ عَلى نُورٍ مِن رَبِّ القَمَرِ ، نَحنُ عَلى نُورٍ مِن عِندِ الَّذِي انشَقَّ لَه القَمرُ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم ، وَلكنَّهم فِي غَفلَتِهم وَتُرَّهاتِهِم ذَهَبُوا يُعَظِّمُونَ الغَربَ .

وَأَنتُم الآنَ قَد كَفاكُم الله هَذِهِ المؤنَة . قَد مَرَّتْ عَلَينا سِنُونَ وَواقِعُهُم الآنَ فِي كلِّ بَلَدٍ مِن بُلدانِهم يُرِيكُم أَنَّ الحَقَّ مَع سَيِّدِنا محمَّدٍ وَما قالَ ، وَأَنَّه لا سَعادَةَ إِلا فِي تَوجِيهاتِهِ وَتَعلِيماتِهِ ، وَأَفكارُهم الزّائِفَةُ هَذِهِ ، تَـربَّى عَلَيها أَطفالٌ بِلا أُسَرٍ ، وَوَقَعَتْ عِندَهم مَشاكِلُ ، وَتَفَكَّكَ مُجتَمَعُهُم تَفَكُّكاً قَوِيّاً حادّاً ، حَتَّى أَنَّ الأَبَ فِي بَعضِ المَواطِنِ لا يَعرِفُ ابنَه ، والابنَ لا يَعرِفُ أَباهُ ، إِلَى غَير ذَلك مِن أَنواعِ الشَّدائِد ، إِذاً فَلا مَنهَج حَقٍّ وَلا مَنهَجَ صِدقٍ إِلا مِن عِندِ خَيرِ الخَلقِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم .

في شأن الثقة بالله

وقال رضي الله عنه ونفعنا به (١) كُلُّ داعٍ يحتاجُ إِلَى أَن يَكونَ قَوِيَّ الثِّقَةِ بِالله ، واسِعَ الرَّجاءِ فِيما عِندَ الله ، مُطمَئِنّاً لأَمرِ الله وَلِوَعدِهِ تَبارَكَ وَتَعالَى ، فَنَحنُ إِذاً نَنطَلِقُ فِي هَذِهِ الحَياةِ وَجَمِيعُ الاعتِباراتِ الَّتِي تَحجزُ النّاسَ لا نَنحَجِزُ بِها ، أَو تَحبِسُ النّاسَ لا نَنحَبِسُ بِها.

(١) فِي ١٤ مِن شَهرِ ذِي القَعدَة ١٤٢١ هـ .

إِنَّما مَع انطِلاقِنا مِن الثِّقَةِ الكُبرَى والرَّجاءِ الواسِعِ واليَقِينِ العَظِيم نُفَكِّرُ فِي هَؤلاءِ المأسُورِينَ والمحبُوسِينَ ما هِي أَقرَبُ الوَسائِلِ لإِخراجِهِم مِن هَذا الحَبسِ وَتَخلِيصِهِم مِن هَذا الأَسرِ ، فَنَحنُ إِنَّما نَفعَلُ ذَلِكَ رَحمةً بِهِم .

أَمّا أَنْ تُؤخَذَ مِنّا القُلُوبُ والعُقُولُ بِالخَوفِ مِمّا لَم يخوِّفْنا اللهُ بِه ، وَبتَعظِيم ما فِي أَيدِي الكفّارِ وَغَيرِهِم مِن القُوى .. فَهَذا مِمّا لا يَجوزُ أَن يَكونَ فِي قَلبِ الدّاعِي ، وَلا يَنبَغِي أَن يُخالِطَ ظَنَّه وَلا عَقِيدَتَه أَبـداً .

الباب التاسع

ضوابط في التعامل مع المعترض والتفكير في جمع الأمة

في منهج ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾

قال رضي الله عنه ونفعنا به يجبُ علَينا أن نُخرجَ خوفَ غيرِ الله مِن قُلُوبنا ، نَحنُ إن استعمَلْنا الحِكمَةَ فَذلِك لأنه واجبٌ علَينا مِن الله ، لا لِكَونِنا نَخافُ مِن أحَدٍ ، نَحنُ ما عِندَنا شَيءٌ غيرَ ما طَلَبَهُ اللهُ مِنّا وَما طَلَبَه الدِّينُ مِنّا ، وَهَذا ما نُحاذِرُ[1] فيه أَحَداً .

فَلِهَذا يَجِبُ أن نَكُونَ عَلى بَصِيرةٍ مِن هَذا الأَمرِ ، وَبالُنا واسِعٌ ، مَن سَبَّ .. اقبَلُوا سَبَّه ، إنْ كان فِي سَبِّهِ أَيُّ فائِدةٍ لَكُم ، تُشِيرُ إلى شَيءٍ مِن عُيُوبِكُم .. استَفِيدُوا مِنه ، ما عرفْتَ مَثلاً فائِدةً مِنهُ .. اعلَمْ أَنَّه ما تَكَلَّمَ عَلَيكَ بِهَذا الكَلامَ إلا لأنَّ الحَقَّ أَرادَ أَنْ يُسْمِعَكَ هَذا الكَلامَ ، وَأَرادَ أَنْ يَصدُرَ عَلَيكَ هَذا الكَلامَ وَإلا ما قَدَر .

لماذا أَرادَ الحَقُّ أَنْ يُقالَ فِيكَ ذَلِكَ؟ سَيَختَبِرُكَ ، سَيَبتَلِيكَ ، سَيَنظُرُ إلى صِدقِكَ مِن كَذِبِكَ ، ثَباتِكَ مِن تَزَحْزُحِكَ ، فَلِذَلِكَ سَلَّطَهُ عَلَيكَ .

وَفوقَ ذَلِكَ أعطاكَ مَنهَجاً وَقالَ لَكَ : ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون:٩٦]، ادفَع السَّيِّئَةَ بِالحَسَنَةِ ، فَلِهَذا لا تُبالِ وَلا تَنزَعِجْ ، بالُنا واسِعٌ لِلمُنْتَقِدِ وَلِلمُعتَرِضِ ، وَلَكِنْ ما هُوَ واسِعٌ لِلانقِطاعِ ، وَلا بالُنا واسِعٌ لِلتَّأَخُّرِ ، وَلا بالُنا واسِعٌ لِلرِّضا بِالتَّكاسُلِ أَبَداً .

في خطر ما يحدثه البعض من تفريق في صفوف الأمّة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به أَرادَ المرِيدُونَ فِي مجتمَعِ مَكَّةَ .. التَّفرِيقَ ، وَلَقَد نَجَحوا فِي أَنواعٍ مِن الإِيذاءِ ، وما قَدرُوا أَنْ يُفرِّقُوا قُلُوباً عَلِمَت أَنَّ اللهَ رَبُّها ، وَأَنَّ مُحَمَّداً نَبِيُّها وَسَيِّدُها صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ ، فَعَمِلُوا ما عَمِلُوا ، فَما ازدادَ المؤمِنُونَ إلا مَحَبَّةً لِنَبِيِّهِم ، وَجاءَ المفَرِّقُونَ فِي مجتمَعِ المَدِينَةِ المُنَوَّرةِ ، وَتَحَرَّكُوا بِما تَحَرَّكُوا ، وَعَمِلُوا ما

---

(١) أَي: لا نُجامِلُ فِيهِ أَحَدا أَو نَستَحِيي مِنه .

عَمِلُوا ، وَلكنَّ اللهَ سبحانه وَتعالَى زادَ المؤمِنِينَ الْتِآماً وَتَقارُباً وَتَآلفاً بِمُحَمَّدٍ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلام ، وَمَضَى عَلَى هَذا الحالِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم .

والقَواعِدُ ثابِتَةٌ لاجتِماعِ أُمَّتِهِ عَلى الخَيرِ والهُدَى ، والشُّـرُورُ قائِمَةٌ أَيضاً مادامَتِ الأَرضُ فِي كُلِّ مَن أَراد أَن يُؤذِيَ أَو أَرادَ أَن يُشَتِّتَ أَو أَن يُمَزِّقَ أَو أَن يُفَرِّقَ ، والحَقُّ سُبحانَهُ وَتَعالَى هوَ المحِيطُ بِكُلِّ ما يَقُولُونَ وَيَفعلُونَ ، وَلَقَد حاوَلَ المفرِّقُونَ فِي ذَلِكَ المجتَمَعِ أَن يُحدِثُوا الأَقوالَ وَيُحدِثُوا الأَلفاظَ الَّتِي فِيها التُّهَمُ لأَصدَقِ الخَلقِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم يَظُنُّون أَنَّ بِاستِطاعَتِهِم إِبعادَ النَّاسِ واشمِئزازهم مِنه فَأَنزَلَ الله عليه ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ ، وَما سِرُّ عَدَمِ الحُزنِ هَذا؟ قال : ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [يس:٧٦].

وَمادُمنا نَحنُ مَعَك .. نَعلَمُ سِرَّهُم وَإِعلانَهم ، فَكَيفَ يَحزُنُك قولهُم ؟ دَعهُم يَقُولُون ما يَقُولُون ، دَعهُم يَتَفَوَّهُون بِما يَتَفَوَّهُون ، نَحنُ الَّذِينَ أَرسَلنا ، وَنَحنُ الَّذِينَ بَعَثنا ، وَنَحنُ الَّذِين نَـبَّأْنا ، وَنَحنُ الَّذِينَ شَرَّعنا ، وَنَحنُ مِن وَراءِ شَرِيعَتِنا ، وَنَحنُ مِن وَراءِ هَدْيِنا ، وَنَحنُ مِن وَراءِ وَحيِنا ، وَنَحنُ الَّذِينَ سَنَحمِيهِ ، جَلَّتْ قُدرَتُه وَتَعالَتْ عَظَمَته ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [يس:٧٦] .

السّموّ عن البشريّات

وقال رضي الله عنه ونفعنا أُسمُوا بِمَكانَتِكُم ، وارتَفِعُوا بِهِمَمِكُم عَن البَشَرِيّاتِ الَّتِي يُعذَرُ فِيها النّاسُ ، فَلا تَقلَقُوا مِن وُجُودِ آثارِ انتِقادٍ أَو اعتِراضٍ ، وَما إِلى ذَلِكَ مِمَّن صَغُرَ أَو كَبُرَ، فَلِذَلِكَ نَظائِرُ وَأَمثالٌ كَثيرةٌ فِي واقِعِ الدَّعوَةِ مِن بِدايَتِها إِلى آخِرِها ، وَفِي سِيَرِ رِجالِنا مِن أَمثالِ ذَلِكَ الكَثِيرُ والكَثِيرُ ، مِما يَستَغرِبُ لَه ذُو اللُّبّ .

فَأَصبَحَ الأَمرُ لَيسَ بِغَرِيبٍ ، فَلْنَطوِ سَرائِرَنا عَلَى المحَبَّةِ لِجَمِيعِ المسلِمِينَ عامَّةً ،

وَأَهلِ منهجنا والمنتَمِينَ إِلَيه خاصَّةً ، وَأَهلِ العِلمِ كَذلِكَ ، وَلا نَتَثَبَّطُ وَلا نَتَأَخَّرُ عَمّا تَيَقَّنا أَنَّ الخَيرَ كُلَّه فِيهِ ، وَإِنَّ خَلْقَنا فِي الوُجُودِ كانَ مِن أَجلِه ، مِن نُصرَةِ الشَّرِيعَةِ والدَّعوَةِ[1] إِلى الله تَعالَى .

الثقة في أمر البلاغ

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ اعلَمُوا أَنَّ كُلَّ مُنطَلَقِنا رَحمَةٌ ، وَلا يُهوِّلُ عَلَيكُم كَلامُ أَحَدٍ ، وَلا تَخذِيلُ أَحَدٍ ، نَحن عَلى ثِقَةٍ مِن أَمرِنا ، نَحنُ فِي مَرحَلَةِ : «لَو وَضَعوا الشَّمسَ فِي يَمِينِي والقَمَرَ فِي يَسارِي عَلى أَن أَترُكَ هَذا الأَمرَ حَتى يُظهِرَه الله أَو أَهلكَ فِيه ما تَركتُه»[2] .

أَنا عَلى هَذا الحال إِنْ شاءَ اللهُ ؛ لأَنَّ المَسأَلَةَ عِندِي يَقِينٌ ، أَمرٌ إِلهِيٌّ رَبّانِيٌّ سَماوِيٌّ ، ما لِي اختِيارٌ فِيهِ ، لَو لَنا اختِيارٌ سَنُفكِرُ ، لَكِن ما لَنا اختِيارٌ ، بَيعَةٌ بايَعناها ، وَعَهدٌ عاهَدناه ، وَبَعد سَيَسأَلُنا ، لَيس لَنا اختِيارٌ فِي بَذلِ النَّفسِ والنَّفِيسِ والرُّوحِ فِي هَذا السَّبِيلِ .

معنى الوحدة بين الناس

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ يَرُوقُ لِبَعضِ النّاس أَن يَقولَ : هُناك طَوائِفُ فِي هَذِهِ البِلادِ مِن المَفرُوضِ أَن يَجتَمِعوا ، يَقصُدُ بِالطَّوائف مَن ؟ أَهلُ السُّنةِ ؟ أَهلُ العَقِيدَةِ الواحِدَةِ؟

---

(١) لِقَولِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، والعِبادَةُ قِوامُها : الدَّعوَةُ إِلَى الله .

(٢) انظر «البِدايَة والنِّهايَة» لابنِ كَثِيرٍ ، وَتارِيخَ الطَّبَرِيّ ، وَأَخرَجَه البَيهَقِي فِي «الدَّلائِلِ» بِلَفظِ : «يا عَمِّ ! لَو وُضِعَتِ الشَّمسُ فِي يَمِينِي والقَمَرُ فِي يَسارِي ما تَركتُ هَذا الأمر حَتى يُظهِرَه الله تَعالَى أَو أَهلِكَ فِي طَلَبِه» .

هَذا الأَمرُ يَجِبُ أَن يَأخُذَ نَصِيباً مِن خِدمَتِنا نَحنُ ، كَيفَ ذَلِكَ ؟! مِن خِلالِ ثَنائِنا عَلَى الخَيراتِ الموجُودَةِ عِند النّاسِ ، مَن يُوافِقُكَ عَلى أُسلُوبِكَ ، وَمَن يَعتَرِضُ على أُسلُوبِكَ ، هُوَ ما يَعتَرِضُ عَلى أُصُولِكَ ، ما يَعتَرِضُ عَلى عَقِيدَتِكَ ، لَكِن يَعتَرِضُ عَلى الأُسلُوبِ أَو الكَيفِيَّةِ أَو الهيئَةِ ، أَو يَكونُ لَه فِيها رَأْيٌ .

فَهَذا الَّذِي انتَقَدَ عَلى أُسلُوبِي أَو كَيفِيَّتِي أَو هَيئَتِي هَل تُوجَدُ فِيهِ صِفَةُ خَيرٍ أَو لا تُوجَدُ ؟ بِلا شَكٍّ مَوجُودَةٌ فِيه ، يُمكِنُ أَن أَشتَغِلَ بِالثَّناءِ عَلى صِفاتِ الخَيرِ الَّتي فِيهِ، هَذا جَوابِي لَه ، أَترُكُهُ يَنتَقِدُ وَأَنا أَذكُرُ صِفاتِهِ الحَسَنَةَ ، فَهَذا يُساعِدُ عَلَى إِيجادِ مَعنَى الاتِّحادِ مَع الإِخوانِ .

وَمَعنَى الوِحدَةِ بَينَ النّاسِ: أَن تَكُونَ خادِماً لهَذِهِ الحَقِيقَةِ ، خِدمَة عَجِيبَة مِن دُونِ أَن تَفتَحَ الأَبوابَ لِلمُبَلبِلِينَ[1] وَلِلنّاسِ ، حَتَّى لا يَقولُوا لَنا بَعدَ ذَلِكَ : تَعالَوا سَنَجمَعُ بَينَكُم ، وَسَنُقارِبُ بَينَكُم ، نَقُولُ لَهم : نَحنُ مُجتَمِعُونَ مُتَقارِبُونَ وَمُتَمازِجُونَ مِن قَبلِ أَن يَتَكَلَّمَ أَحَدٌ ، لَكِن كَيفَ يَتِمُّ هَذا عَلى ساحَةِ الواقِعِ ؟ مِن خِلالِ ضَبطِ الكَلامِ حَتَّى لا يَصدُرَ مِنكَ عَلى أَحَدٍ كَلِمةٌ سَيِّئَةٌ .

وَلا يَجُوزُ لأَحَدٍ مُنتَمٍ لأُسلُوبٍ كَمِثلِ أُسلُوبِنا هَذا ، أَن يُقابِلَ المنتَقِدِينَ عَليه بِنَشرِ ما فِيهِم مِن أَوصافٍ سَيِّئَةٍ لَو وُجِدَت ، مَمنُوعٌ .. حَرامٌ عَلَيه ، ما يَجُوزُ لَه أَن يَذكُرَ أَوصافَهم السَّيئَةَ ، فَكَيف يُحِبُّ أَن يَتَكَلَّمَ عَلَيهِم بِأَيِّ شَيءٍ سَواءً كان فِيهِم أَو لَيس فِيهِم ، الأَوصافُ السَّيئَةُ الَّتي فِيهِم لَيسَ مِن مَصلَحَةِ الدَّعوَةِ نَشرُها .

لا يَهُولُكُم اعتِراضُ النّاسِ ، لا تُهَوِّلُوا الاعتِراضَ ، ما تَحتَهُ شَيءٌ وَلا هو قائِمٌ

(١) أَي: الَّذِينَ لا يَفتَرُونَ وَلا يَملُّونَ مِن كَثرَةِ الكَلامِ فِي الباطِلِ وَنَشرِ الفِتنَةِ .

عَلَى شَيءٍ ، وَلا تَظُنّ أَنَّ أَحداً سَيقِفُ فِي وَجهِ هَذِهِ الدَّعوَةِ بِانتِقاداتِه أَو تَرتِيباتِه أَو تَخذِيلاتِه ، إِذا جَرَى سَيلُ الله .. ما تَردُّه مَرابِشُ(١) الخَلقِ .

في ضرورة جمع كلمة المسلمين انطلاقاً من حكمة اجتماعهم في الحجّ الأكبر

وقالَ رضيَ اللهُ عنهُ ونفعنا به: ما شَرَعَ اللهُ ذَلِكَ الاجتِماعَ إِلا لِيَتَذَكَّرَ المسلِمُونَ جَمْعَهُم عَلَى الكَلِمَةِ الواحِدَةِ ، عَلَى المنهَجِ الواحِدِ ، عَلى الطَّرِيقَةِ الواحِدَةِ الَّتي بَعَثَ بِها النَّبِيَّ محمَّداً صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، وَجَعَلَ لَهم شِعاراً واحِداً : «لَبَّيكَ اللهُمَّ لَبَّيك .. لَبَّيكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيك .. إِنَّ الحَمدَ والنِّعمَةَ لَكَ والملك .. لا شَرِيكَ لَك»(٢) .

هَذا الشِّعارُ الَّذِي تَضِجُّ بِهِ أَلسِنَتُهُم يُبَيِّنُ لِلأُمَّةِ أَنَّ هَدَفَها واحِدٌ ، وَأَنَّ طَرِيقَها واحِدٌ ، وَأَنَّ مَقصِدَها واحِدٌ ، وَأَنَّ كلَّ مَن أَرادَ بِنوعٍ أَو بِأُسلُوبٍ أَنْ يُشَتِّتَ أَو يُفَرِّقَ أَو يُمَزِّقَ أَو يَهْتِكَ الحُرُماتِ فَهُو خارِجٌ عَن مَقصُودِ دَعوَةِ خَيرِ البَرِيّاتِ وَسَيِّدِ السّاداتِ صَلَّى الله وَسَلَّم وَبارَك عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ ، بِأَيِّ قَمِيصٍ تَقَمَّصَهُ وَبِأَيِّ رِداءٍ لَبِسَه .

إِنَّ الصّادِقَ مَع الله لا يَملِكُ إِلا أَن يَبُثَّ المحَبَّةَ بَينَ المؤمِنِين ، يَبُثَّ الأُلفَةَ بَين المؤمِنِينَ ، يَبثَّ جَمعَ الشَّملِ بَينَ المؤمِنِينَ بِكلِّ ما أُوتِيَ مِن قُوَّةٍ ، أَو بَيانٍ ، أَو مَنزِلَةٍ ، أَو قُدرَةٍ مِن القُدُراتِ ، وَعَلَى ذَلِكَ مَضَى الأَئِمَّةُ ، وَمَضَى خِيارُ الأُمَّةِ زَمَناً بَعدَ زَمَنٍ ، وَعَصراً بَعدَ عَصرٍ ، وَمِنهُم المشايِخُ بَعدَ المشايِخِ الَّذِينَ قامُوا بِحَملِ رايَةِ العِلمِ فِي هَذا الوادِي(٣) عَلَى وَجهِ الخُصُوصِ قَرنا بَعدَ قَرنٍ ، وَزَمَناً بَعدَ زَمَنٍ ، صادِقِينَ فِي إِرادَةِ

---

(١) المربَش : عِبارَةٌ عَن زَنبِيل مِن خُوص يُستَعمَلُ لِنَقلِ الطِّين ، وَيُسَمَّى عِندَنا بِالعامِّيَّةِ الحضرمِيَّة المخْفَر .

(٢) رَواهُ البُخارِيُّ وَمُسلِم .

(٣) أَي : وادِي ابنِ راشِد وادِي حَضرَموتَ الَّذِي اختَصَّه الله بِكَوكَبَةٍ فَرِيدَةٍ مِن عُلَماءِ آلِ البَيتِ النَّبَوِيِّ مِن أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ عَلَى وَجهِ الخُصُوصِ وَغَيرِهِم مِن أَهلِ المحَبَّةِ والوَلاءِ .

الجمعِ بكلِّ إِمكانيّاتِـهم ، فاللهُ يجمعُ شَمْلَنا وَشَمْلَ المسلمِـينَ .

إذا تعلَّقْتَ بالأمرِ الَّذِي ذكرناه أوّلاً ، وهو مسألةُ قُربِكَ مِن الله ، وأدركتَ الميدانَ الَّذِي تَنطلِقُ مِنه الآنَ ، في عُلُوِّهِ وسُمُوِّهِ ورِفعتِه واتِّصالِه بالرَّبِّ وَبنبيِّه صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسلَّمَ ، تَفهَمُ أنَّه لَيسَ المَقصودُ مُجرَّدُ طائفةٍ مِن طوائِفِ النّاسِ ، الرِّسالةُ التي تحملُها رِسالةٌ إِلَى العالَمِينَ ، رِسالةٌ عالميَّةٌ ، المقصُودُ مِن استِقبالِها ، والعَمَلِ بها ، والقِيامِ بها .. أُمورٌ عُلْوِيَّةٌ عَظِيمَةٌ كَبِيرَةٌ جَلِيلَةٌ .

إذا أَدركتَ ذَلِكَ تَعرِفُ أَنَّهُ ما يَتأتّى حَصرُ مَعنَى الدَّعوَةِ فِي الرَّدِّ عَلَى المبتَدعَةِ(١) فَقَط ، نقول: أنت لِمَ تُصغِّرُ الكبيرَ ؟ ولِمَ تُضيِّقُ الواسعَ ؟ ولِمَ تُنزِّلُ العاليَ؟ الأَمرُ أكبرُ وَأوسَعُ مِن ذَلِكَ ، هَذِهِ الدَّعوَةُ الَّتِي تَحمِلُها .. تتعلَّقُ بهمِّ تَربيَتُكَ أَنتَ ، وَبِهَمِّ رَبطِ الخَلقِ بالخالقِ ، وَبِهَمِّ نَشرِ الصِّفاتِ الصّالحاتِ ، وَبِهَمِّ اتِّساعِ مَعانِي النَّفعِ لِلمُسلِمِينَ، قَد مَضَت فَترَةٌ احتَجنا فِيها إِلَى كَثِيرٍ مِن البَيانِ والتَّركِيزِ عَلَى إِيضاحِ الأُمُورِ وَذِكرِ الأَدِلَّةِ ، ممّا جَعَلَ الأُمُورَ فِيها شَيءٌ مِن الوُضُوحِ فِي غالبِ الأَماكِنِ ، فَصِرنا لَسنا بِحاجَةٍ إِلَى كَثرَةِ الخَوضِ مَعهُم ، سَبَقَت مَعَكم أَحادِيثُ أَنَّ فِيهِم القابِلَ لِلتَّفَهُّمِ والقابِلَ لِلرُّجُوعِ ، والقابِلَ لِلتَّذَكُّرِ ، وَفِيهِم صاحِبُ العَصَبِيَّةِ ، وَصاحِبُ الحِقدِ ، وَما إِلَى ذَلِكَ .

نَحنُ مهمَّتُنا أَن نُحسِنَ أَداءَ البَلاغِ ، وَإِقامَةَ البَيانِ ، وَيَستَوِي عِندَنا إِقبالُه وَإِدبارُه واستِقبالُه وَرَدُّه ، مِن أَيِّ جِهَةٍ ؟ مِن جِهَةِ طُمَأنِينَتِنا عَلَى المنهَجِ والسَّيرِ ، وَمِن جِهَةِ ثِقتِنا بِمُقَلِّبِ القُلُوبِ ، وَمِن جِهَةِ تَحقِيقِ المَقصَدِ .

أَمّا مِن جِهَةِ عُبودِيَّتِنا فِي شُعُورِنا مَعَ النّاسِ ، فَإِنَّما يَكُونُ بِفَرحِنا بِاستِقامَةِ النّاسِ ،

---

(١) أي: الَّذِينَ خَرَجُوا عَن مَنهجِ أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ ، وَخالَفُوا إِجماعَ الأُمَّةِ فِي كَثِيرٍ مِن المسائِلِ.

وَرَجعَةِ النّاسِ ، وَأَوبَةِ النّاسِ ، وَعَودَةِ النّاسِ إلى رَبِّهِمْ ، وإقلاعِهِم عَن السُّوءِ والشَّرِّ فِي العَقائِدِ والسُّلوكِ والمَنهَجِ .

فَلا تَجعَلْ وُجُودَ المُخالِفِ والمُعارِضِ مانِعا عَن انتِشارِ دَعْوتِك ، وَلا عَن تَحقِيقِكَ لأَمرٍ يُمكِنُ أَنْ يَتَحقَّقَ ، هَذا المبتَدِعُ إذا لَم يَقبَلْ مِنكَ أُسلُوبَكَ الطَّيِّبَ والأَدَبَ فِي إقامَةِ الحُجَّةِ ، وَتَوضِيحِ الأَمرِ بِالوَقارِ والسَّكِينَةِ والضَّبطِ فاترُكْهُ وَأَعرِضْ عَنه ، وَعُدْ كَأَن لَيسَ لَه وُجُودٌ فِي البَلَدِ ، وَلَيسَ لَه وُجُودٌ عِندَكَ .

فَلا تَزالُ مَتى ما استَعَدَّ .. وَجَدَ البَيانَ أَمامَه ، وَوَجَدَ الطَّرِيقَ قُدّامَه[1] ، والبابَ مَفتُوحا لَه ، وَمَتى ما رَكِبَ غَيَّه وَهَواه .. كُفِيتَهُ ، قالَ سُبحانَه وَتَعالَى : ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ [البقرة:١٣٧] كَيفَ تَعمَلُ مَعَهُم؟ قالَ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧] هَذا أَمرٌ .

والأَهَمُّ مِن الاشتِغالِ بِالخَوضِ مَعَهُم .. تَربِيَةُ الأَولادِ وَتَحصِينُ النّاسِ وَتَقوِيمُ الحَقائِقِ وَما إلى ذَلِكَ .

---

(١) أي: أمامه .

الباب العاشر

معانٍ ساميةٌ في قواعد السّير إلى الله وتزكية النّفس وكلامٌ في الحقائق والذّوق

في شأن إدراك الوجه الباطن للدّعوة وثمرته

قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ [1] يجبُ علَينا أن نُدرِكَ الوَجهَ الباطِنَ للدَّعوَةِ ، **والوَجهُ الباطِنُ للدَّعوَة** : خُروجٌ عَن الـمَألُوفاتِ والاستِجاباتِ لِدَواعِي النُّفُوسِ بِأَصنافِها، هَذا الوَجهُ إذا أُدْرِكَ فالـحَـواجِـزُ مَهما كَبُرتْ.. تَضمَحِلُّ ، والاستِثـقالاتُ والاستِقـلالاتُ والاستِعجالاتُ .. تَتلاشَى، تَتَذاوَبُ التَّخالُفاتُ ، تَقوَى التَّآلُفاتُ، تَظهَرُ التَّحالُفاتُ .

إدراكُ وِحدَةِ الوِجهَةِ والسَّيرِ الَّذِي لا يَقُومُ إلا بِوِحدَةِ القُلُوبِ ، وَهُوَ يُقَوِّيها كَما أَنَّها تُمِدُّه ، وِحدَةُ القُلُوبِ تُمِـدُّ وِحدَةَ السَّيرِ والوِجهَةِ ، وَوِحدَةُ الوِجهَةِ والسَّيرِ تُقَوِّي وِحدَةَ القُلُوبِ ، كَما أَنَّ العَمَلَ الصّالِحَ مَصدَرُه القَلبُ وَلَكِن إذا صَدرَ مِن الجارِحَةِ.. عادَ عَلَى القَلبِ مِنه نُورا.

لَكُم فَتـرَةٌ وَجوانبُ الإدراكاتِ لِهذا الوَجْهِ لِلدَّعْوَةِ وَتَرجَمَتُها في واقِعِكُم فِيه نَقْصٌ وَفَتْرَةٌ [2] ، والفَتْرَةُ هَذِهِ هِيَ الَّتِي كانَت سَبَباً فِي إِحْداثِ كَثِيرٍ مِن الأُمُورِ الَّتِي تَذْكُرُونَها أَو تَسْتَشْكِلُونَها مِن قِيامِ حَواجِزِ النُّفُوسِ الَّتِي تُؤَدِّي لِلالْتِفاتِ إِلَى دَواعِي الاسْتِقْلالِ والاسْتِثْقالِ والتَحاجُزِ والتَباعُدِ .

فَيَخْتَلِطُ مَع فَهْمِنا لِلدَّعْوةِ أَنَّنِي خادِمٌ لِلمَنْهَجِ الرَّبّانِيِّ بِمَنْظَرِ وَرُؤْيَةِ «أَنا فُلان» ، ما يَحْصُلُ الصَّفا حَتَّى نَرْفَعَ رايَةَ «أَنا الخادِمُ لِلمَنْهَجِ» وَنَدْفُنَ «أَنا فُلان» إِذا دُفِنَتْ صَفا الوَجْهُ وَتَهَيَّأَ صاحِبُها لِلمُواجَهَةِ ، وَلَو أَدْرَكْتُم الْمُواجَهَةَ الَّتِي نَذْكُرُها لَكُم أَو نَدْعُوكُم لِلوُصُولِ إِلَيها .. لَطارَتِ الأَرْواحُ شَوْقاً إِلَى تَحْصِيلِها .

---

(١) وَذَلِكَ لَيلَةَ الجُمُعَةِ ٢٤ مِن شَهرِ شَعبانَ ١٤٢٢ هـ .

(٢) فَتـرَة : مِن الفُتُورِ وَهوَ عَدَمُ الجِدِّ والاستِنهاضِ بِالأَمرِ .

والمُواجَهَةُ هِيَ أَنَّ صاحِبَ الدَّعْوَةِ وَحامِلَها صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم فِي هِمَّتِهِ وَهَمِّهِ بِأُمَّتِهِ ، وَفِي مُطالَعَتِهِ لما يُعْرَضُ عَلَيْهِ مِن أَعْمالِ الأُمَّةِ لا يُواجِهُ شَيْئاً بِحُسْنِ اعْتِنائِهِ الشَّرِيفِ كَما يُواجِهُ شُؤُونَ دَعْوَتِهِ .

فَلَو تَمَّ ذَلِكَ الصَّفا مِن مُنْتَمٍ إِلَى دَعْوَتِهِ لَحَصَلَتْ مُواجَهَةُ الذّاتِ بِالذّاتِ بَعْدَ أَن تُواجَهَ الصِّفاتُ بِالصِّفاتِ ، والأَفعالُ بِالأَفعالِ ، والأَخْلاقُ بِالأَخْلاقِ، وَتِلْكُم مَراحِلُ يَطِيبُ الرَّحِيلُ فِيها لِكُلِّ راحِلٍ، أَدْرَكَ إِلَى أَينَ يَرْحَلُ وَمَعَ مَن؟

هُمُ المسافِرُونَ مِن أَرضِ العاداتِ والاعتِباراتِ الَّتِي عِندَ النّاسِ إِلَى أَرضِ حَقِيقَةِ العِباداتِ وَمَوازِينِ اعتِباراتِ الخالِقِ رَبِّ النّاسِ ، وَفِي بَعْضِ شُؤُونِ تِلْكَ الرِّحَلاتِ التِي هِيَ بِالنِّسْبَةِ لأَهْلِ هَذا الشَّأْنِ .. تُعْتَبَرُ لأَهْلِ النِّهاياتِ فِي المقاماتِ.. قالُوا:

رِحْلَـةٌ فِيـها رَحَـلْنا ... لِلْمَقـاماتِ العِظـامْ

حَتَّى قالُوا :

حَضْـرةٌ فِيـها عَرَفْـنا ... سِـرَّ تَصْرِيفِ الكَـلامْ

فاحْفَظُوا عَـنّا خَـبَـرْنا ... إِنَّـهُ قَـولُ حَـذامْ

ثُـمَّ قُومُوا حَيثُ قُـمْنا ... فالنَّـدَى فِينا أَقامْ[1]

فيما يتعلّق باتّصال هذه الدّعوة بسرّ الشّهادتين

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ[2] يَجِبُ أَنْ نُدْرِكَ أَنَّنا باتِّصالِنا بِهذِهِ السِّلْسِلَةِ ، وَهَذا السَّنَدِ وَهؤُلاءِ الأَئِمَةِ تَقْرُبُ عَلَينا المسافَةُ فِي رَبطِ أَصْغَرِ أَعْمالِنا وَأَقَلِّ عِباداتِنا بِنُورِ الشَّهادَةِ[3] ، لَكِنْ

---

(١) الأبياتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإمامِ عَلِيِّ بنِ مُحمَّدٍ الحَبَشِي مَطلَعُها :

فِي حُرَيضَةَ قَـدْ حَضَرنا ... مَجْمَـعَ القَـومِ الكِـرام

(٢) وَذَلِكَ فِي ٢٨ مِن شَهرِ رَبِيعِ الأَوَّلِ ١٤٢٠ هـ .

(٣) أَي: شَهادَةَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ .

هَذا لِمَن قَبِلَ واسْتَقْبَلَ وَأَقْبَلَ وَقابَلَ وَقُوبِلَ فَقُبِلَ .

كُلُّ الاسْتِقْبالاتِ لأَسْرارِ هَذِهِ الشَّهادَةِ، وَإِنْ شِئْتُم قُولُوا لِلحَضْرَتَينِ العَظِيمَتَينِ حَضْرَةِ اللهِ الَّذِي لا إِلهَ إِلا هُو ، وَحَضْرَةِ الرِّسالَةِ لِسَيِّدِنا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، اسْتِقْبالاتُها وَمُقابَلاتُها لَنْ تَجِدُوها إِلا فِي هَذِهِ الأَعْمالِ المُلْقاةِ إِلَيْكُم .

وَإِذا قَد أُوْقِفْتُم عَلى هَذِهِ الأَبوابِ، وَجادَ المَلِكُ سُبْحانَه وَتَعالى بِإِبرازِ ذَلِكَ وَظُهُورِهِ فَقَد قَرُبَتْ عَلَيْنا المَسافَةُ فِي رَبْطِ الأَعْمالِ والأَحْوالِ والشُّؤُونِ الَّتِي عِنْدَنا بِسِرِّ الشَّهادَةِ، وَما سِرُّ الشَّهادَةِ عِندَ الظُّهُورِ أَو البُرُوزِ أَو الحُلُولِ فِي ذاتِ المُؤْمِنِ إِلا ذَوْقٌ وَوَجْدٌ وَشُهُودٌ وَمُشاهَدَةٌ .

إِذا عَلِمتُم ذَلِكَ فَإِنَّ الرِّضى بِالتَّقاعُسِ والإِهْمالِ والتَّكاسُلِ .. رَفْضٌ لِلمُقابَلَةِ ، والمُقابَلَةُ الَّتِي نَعْنِيها وَنَقْصِدُها : انْتِقالٌ مِن العُمُومِيَّةِ فِي الإِسْلامِ والإِيمانِ بِاللهِ إِلى اخْتِصاصٍ لِتَحْقِيقٍ فِي الإِسْلامِ والإِيمانِ والإِحسانِ ، واعْتِلاءٍ فِي دَرَجاتِ هَذا الدِّينِ لا تُوصَفُ ، وَلا يُبْلَغُ مَدَى حُزْنِ مَن ضَيَّعَها ، وَحَسْرَةِ مَن فاتَتْهُ.

بِمَعْنَى أَنَّ الرّاضِيُ بِأَنْ يُخَلَّفَ عَن حَظائِرِ القُدْسِ ، وَعَن مُجالَساتِ رِجالِ الحَضْرَةِ، وَعَن الدَّرَجاتِ العُلَى فِي الجَنَّةِ ، وَعَن القُرْبِ مِن الصُّفُوفِ الأُولَى وَقْتَ صَفِّ أَهْلِ الجَنَّةِ فِي المَحْشَرِ ، وَعَن الوُرُودِ مَعَ أَوائِلِ الوارِدِينَ عَلَى الحَوْضِ ، وارْتَضَى بِأَنْ يَتَغَيَّبَ عَن هَذِهِ ، وَهُوَ بِذَلِكَ مُتَعَرِّضٌ بِأَنْ لا يَرِدَ أَصْلاً ، وَأَنْ لا يَدْخُلَ أَصْلاً ، وَغايَتُهُ إِنْ نَجا .. لَم يَفُزْ بِمَنازِلِ المُحْسِنِينَ ، وَحالُه كَما قالَ سَيِّدُنا عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : «هَبْ أَنَّ اللهَ تَجاوَزَ عَنِ المُسِيئِين .. أَلَيْسَ قَدْ فاتَهُم ثَوابُ المُحْسِنِين !» وَأَبْكَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ قُلُوبَ بَعْضِ الرِّجالِ ثَلاثِينَ سَنَةً .

فَمَنْ أَخَذَ مِنكُم ما كُلِّفَ بِهِ مِن تَرْتِيبٍ صادِقاً ، مُعَظِّماً للأَمْرِ ، ناوِياً التَّنْفِيذَ ،

واسْتَفْرَغَ الطّاقَةَ والجُهْدَ فِي القِيامِ بِهِ .. بَدَأَ إحْسانُ المُقابَلَةِ لَه .

والسِّلْسِلَةُ هَذِهِ إذا تَحَرَّكَ آخِرُها .. تَحَرَّكَ أَوَّلُها ، فالصِّدْقُ هُنا والقِيامُ بالواجِبِ يَقْتَضِي مُقابَلَةً لِسِرِّ الشَّهادَتَيْن ، وإنْ شِئْتَ قُلْ مُقابَلَةً للحَضْرَتَيْن .

فالمَطْلُوبُ مِنْكُم أَنْ تَأْخُذُوا الآنَ واجِباتِكُم فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ ، وَقَد انْتَقَلْتُم مِن الصُّورَةِ والحِسِّ وَمُجَرَّدِ التَّصْدِيقِ إلَى مَعْنَىً مِن الذَّوْقِ والشُّهُودِ.. بِأَنَّ المَسْأَلَةَ دِينٌ وَعَقِيدَةٌ وَمِلَّةٌ وَوَحْيٌ وَرِسالَةٌ وَنُبَوَّةٌ وَأُلُوهِيَّةٌ وَخالِقٌ وَعرشٌ وَكُرْسِيٌّ وَجَنَّةٌ وَنارٌ ، كُلُّها مُنْطَوِيَةٌ فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، أَسْرارُ العَرْشِ فِي دَعْوَةِ مَن خُلِقَ مِن نُورِهِ العَرْشُ ، وَأَسْرارُ الكُرْسِيِّ فِي دَعوَةِ مَن خُلِقَ مِن نُورِه الكُرسِيُّ ، والجَنَّةُ والدُّنْيا والآخِرَةُ كُلُّها تَفَرَّعَتْ مِن هَذا النُّورِ ، فَلا تَحسَبْ أَنَّ دَعْوَتَه هَيِّنَةٌ.

إذا عَلِمتُم هَذا فَإنَّه فِي ماضِيكُم كَثِيرٌ مِن الإخفاقاتِ فِي هَذِهِ المُقابَلاتِ ، وَلَولا عَظِيمُ المَسامَحاتِ لاشْتَدَّ خَوْفُ أَشَدِّنا اجْتِهادا وَلَكِنَّ باسِطَ هَذِهِ النِّعْمَةِ لا يَزالُ بِنا يَتَأَنَّى ، وَعَلَينا يَجُودُ وَيَتَكَرَّمُ وَيَتَفَضَّلُ .

فَيُشْبِهُ ذَلِكَ أَحْوالاً مَرَّت عَلَى ساداتِنا الصَّحابَةِ وَهُم مَن هُم ؟! عَلَيهِم رِضْوانُ الله، أَظْهَرَ الحَقُّ تَعالَى رِعايَتَه بِهِم حَتَّى قالَ عَنهُم : ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٢]، ثُمَّ جاءَ بِمَنْشُورِ العَفْوِ فَقالَ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

فَلَوْلا سِرُّ هَذا العَفْوِ بِبَرَكَةِ هَذا الحَبِيبِ لَكانَت إساءَتُنا لِلأَدَبِ فِي هَذا المَنهج تُوجِبُ أَنْ نُبْعَدَ أَو نُطْرَدَ أَو نُحْرَمَ ، وَلَكِنَّ هَذا فَضْلُ الله عَلَيْنا وَعَلَى النّاسِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:٣٨].

لا نَزالُ نَتكَلَّمُ والأَبوابُ مَفْتوحَةٌ والحِبالُ مُتَّصِلَةٌ والغُيُوثُ هاطِلَةٌ والعَطايا جَزيلَةٌ والطَّرِيقُ مُهَيَّأَةٌ وَمُمَهَّدَةٌ ، اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ شُكْراً ، وَلَكَ المَنُّ فَضْلاً ، فَلابُدَّ أَنْ تَأْخُذُوا الأَمْرَ بِقُوَّةٍ ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم:١٢].

الإقبال على الله لا يقبل الشركة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به(١) مما يجب أنْ يَطَّلِعَ الله عَلَيْهِ مِن بَواطِنِكُم وَمشاعِرِكُم وَأَحاسِيسِكُم أَنَّ كلَّ ما يَحْصُلُ مِن هَذا الإقْبالِ الَّذي حَصَلَ وَما سَيلحَقُه .. حَقِيقَتُهُ لَيسَ إِقْبالاً عَلَينا وَلا عَلَى أَمْرٍ مَنْسُوبٍ إِلَينا مِن مَنْهَجٍ ، نَحنُ لَسْنا بِشَيءٍ إِلا إِذا كُنّا لَه جَلَّ جَلالُه، والمَنْهَجُ لَيْسَ بِشَيءٍ إِلا إِنْ كانَ مِن عِنْدِه .

إذا فَما يُنازِلُ المَشاعِرَ مِنّا مِن أَنَّه تَمَّ إِقْبالٌ عَلَى منهجنا ، تَمَّ اسْتِقْبالٌ لِكَلامِنا ، حَصَلَ انْتِشارٌ لَمَنْهَجِنا ، يَجِبُ أَنْ نُعالِجَه فِي الدّاخِلِ حَتَّى نَسْلَمَ مِن مَفاسِدِه فِي الباطِنِ وَمفاسِدِه عِنْدَ مُقابَلَتِه وَإِقْبالِه . فَإِنَّ ذَلِكَ الأَمرَ يُشْبِهُ إِقْبالَ المالِ ، فالذي يَتَصَوَّرُ مِن التُّجارِ وَغَيْرِهِم مِن أَهْلِ الأَمْوالِ، أَنَّ إِقْبالَ المالِ إِنَّما هُوَ بِهِ وَعَلَيْهِ وَمِنْهُ هُو الَّذِي يَتَكَبَّرُ وَيَبْخَلُ وَيَصْرِفُه فِي غَيْرِ مَصْرِفِهِ وَقَد قالَ بَعْضُ المتَكَبِّرِين : ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [القصص:٧٨]، والذِي يَعرُفُ أَنَّ هذا المالَ الذِي أَقْبَلَ إِنَّما هو ابْتِلاءٌ واخْتِبارٌ مِن الله ، وَأَنَّه لله تعالَى ، يَعْرِفُ كَيفَ يَتَّقِي اللهَ فِيهِ، وَيَعْرِفُ كَيْفَ يَصْرِفُه ، بَلْ وَيَسْتَخْرِجُ مِن قَلْبِه كُلَّ شائِبَةٍ تُوجِبُ الحُـزْنَ. فَكَذَلِكَ ما هو حاصِلٌ مِن هَذِهِ الإِقْبالاتِ فَهِيَ إِقْبالاتٌ عَلَى الله وَرَسُولِه ، لَيسَ عَلَيْنا وَلا عَلَى مَنْهَجِنا، نحن لَسْنا بِشَيْءٍ إِلا إِنْ كُنّا له جَلَّ جَلالُه وَمَن كان له فَمَنْطِقُه:

---

(١) وَذَلِكَ فِي لَيلَةِ الأَربعاء ١٧ مِن شَهرِ رَجب ١٤٢٠هـ .

ما أنا مِنْ أهْلِ (بِي) (لِي)[١] كَلّا ولا سَبِيلِي[٢]

فالأمْرُ إمّا يَكُونُ لَكَ أو له ، فالشِّرْكَةُ لا يَقْبَلُها هو جلَّ جَلالُه وَتَعالَت عَظَمَتُه، حتَّى لو أكْرَمَنا الحَقُّ تَعالى بأنْ مَكَّنَنا بِأَخْلاقٍ كَرِيمَةٍ وهي العِمادُ والأساسُ في الدَّعْوَةِ، فإن نَظَرْنا إليها مِن خِلالِ نِسْبَتِها إلَيْنا ـ أي: هي أخْلاقُنا ـ ضِعْنا وَضاعَتْ، وإنْ نَظَرْنا إليها بِأَنَّها أخلاقُ نَبِيِّنا ، وأنَّها مَظْهَرُ رَحْمَةِ رَبِّنا واصْطِفائِه انْتَفَعْنا بها وَنَفَعَتْ. فَإِنْ قابَلْنا النّاسَ بِأَخْلاقِنا المَنْسُوبَةِ إلَيْنا فَمَن نَحْنُ وَما أَخلاقُنا ؟ وَلَكِن ما أكْرَمَنِي الله بِهِ مِن خُلُقٍ جَمِيلٍ هِي أَخلاقُ مُحَمَّدٍ ، فَبِبَرَكَتِهِ تَنْفَعُنِي وتَنْفَعُ سِواي ، أي يَجْعَلُها الله سَبَباً للنَّفْعِ .

في مظاهر حقائق التّوحيد

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[٣] حَقائِقُ التَّوحِيدِ مُبْثَثَّةٌ فِي الوُجُودِ ، وَلِشِدَّةِ ظُهُورِها حُجِبَ عَنها أَهْلُ الجُمُودِ ، وَنَشَأَ بَينَ الخَلائِقِ الجُحُودُ ، وكانَ ما كانَ ، والحَقِيقَةُ : أَنَّ هَذِهِ الحَواجِزَ تَرْتَفِعُ لأَهْلِ العَزْمِ الجازِمِ ، إذا خَضَعُوا وَذَلُّوا وَعَرَفُوا كَيْفَ يَخْضَعُون لِلرَّبِّ في أَيِّ مَجْلَى، وَكَيفَ يُتَرْجِمُون هَذا الخُضُوعَ ، وَكَيفَ يَدْخُلُونَ مِن بابِه ، وَكَيْفَ يَقْبِضُونَ بِحَبْلِهِ.

وَلابُدَّ مِنْ شَيْخٍ تَسِيرُ بِسَيْرِهِ إِلَى الله مِنْ أَهْلِ النُّفُوسِ الزَّكِيَّةِ
مِنَ العُلَماءِ العارِفِينَ بِرَبِّهِمْ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فالصِّدْقُ خَيْرُ مَطِيَّةٍ[٤]

---

(١) أي : بِي يَكُونُ كَذا ، وَلِي يَكُونُ كَذا .

(٢) البَيتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلشَّيخ عُمَر بامَخْرَمَة .

(٣) وَذَلِكَ فِي ١٢ مِن شَهرِ رَمَضان ١٤١٩ هـ .

(٤) الأبياتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإمامِ الحَدّادِ مَطلَعُها :

بَعَثْتُ لِجيرانِ العَقيقِ تَحِيَّتِي وأودَعْتُها رِيحَ الصَّبا حِينَ هَبَّتِ

أُنظُر «الدُّر المنظُوم» ص١٥١ .

فَإِنْ لَمْ تَجِدْ «لِقُصُورِكَ» فالصِّدْقُ خَيْرُ مَطِيَّةٍ «إِلَى أَنْ تَجِدَ» . ما غابَ رَبُّك فَكَيْفَ يَغِيبُ الدّالُّون عَلَيْه ، ما غابَ رَبُّك فَكَيْفَ يَغِيبُ المُوصِلُون إِلَيْهِ ، وَلَكِن سُبْحانَ مَن لَم يَجْعَل الدَّلِيلَ عَلَى أَوْلِيائِهِ إِلا مِن حَيْثُ الدَّلِيلُ عَلَيْه ، وَلَم يُوصِلْ إِلَيهِم إِلا مَن أَرادَ أَنْ يُوصِلَه إِلَيْهِ[1] .

تَجِدُهُم يَعِيشُون بَينَ النّاسِ والواصِلُ إِلَيْهِم أَفْرادٌ مِن كَثْرَةِ أَعْدادٍ ، أَحَدُهُم يُجالِسُه أَعدادٌ وَيُخاطِبُه أَعدادٌ وَيَنْظُرُ إِلَيهِ أَعدادٌ وَلا يَصِلُ إِلَيْه إِلا أَفرادٌ ، وَبَعْضُهُم جَعَلَ الله بِسَبَبِهِم وُصُولَ الإِمدادِ إِلَى أَعدادٍ ، بِحَسَبِ ما سَبَقَ فِي القَضاءِ الَّذِي مالَه مِن رادٍّ ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ [الزُّمَر:٣٧] ، أَي: لَوْ أَرادَ أَحَدٌ مِن النّاسِ أَن يُضِلَّ الَّذِي هَداهُ رَبُّهُ ، يَنْتَقِمُ الله مِنهُ ، فَيَتَحَوَّلُ وَصْفُ ﴿بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ بالنسبةِ لِـمَنْ هَداهُ إِلَى جَمالٍ باهٍ وَكَمالٍ زاهٍ وَجَلالٍ عَجِيبٍ ، فَيَمْتَزِجُ الجَمالُ مَعَ الجَلالِ .

سُبْحانَ المُتَجَلِّي ! والحَوادِثُ والكائِناتُ مَجالٌ لِتَجَلِّيهِ ، اللهُ يَرْزُقُنا وَإِيّاكُم حَقِيقَةَ التَّوحِيدِ ، وَيَرْفَعُنا فِي مَراتِبِ التَّفْرِيدِ مَعَ كُلِّ فَرِيدٍ .

أُنْظُرْ كَيْفَ جَعَلَ اللهُ اخْتِلافَ الأَلوانِ الظّاهِرَةِ ، فَجَعَلَ كُلَّ واحِدٍ فِي لَوْنِهِ الظّاهِرِ مُفْرَداً مُوَحَّداً ، فالمَراتِبُ الباطِنَةُ كَذَلِكَ ، وَعادَتُهُ مَن وَحَّدَهُ .. وَحَّدَهُ ، وَمَن أَفْرَدَهُ.. أَفْرَدَهُ ، عَلَى قَدْرِ التَّفْرِيدِ يُرَقِّيكَ فِي مَراتِبِ التَّفْرِيدِ ، حَتَّى تَتَلاشَى بَعْدَ ذَلِكَ جَمِيعُ الصُّوَرِ ثُمَّ تَتَلاشَى جَمِيعُ المَراتِبِ .

---

(١) أَي: إِنَّ اللهَ سُبحانَه وَتَعالَى سَتَرَ أَولياءَه صِيانَةً لَهم عَنِ الأَغيارِ ، وَلا دَلِيلَ عَلَى مَعرِفَتِهِم إِلا العِنايَةُ الإِلَهِيَّةُ الَّتِي عُرِفَت بِها الرُّبُوبِيَّة ، كَما قالَ سَيِّدُنا أَبُو بَكر : **عَرَفتُ رَبِّي بِرَبِّي ، وَلَولا رَبِّي ما عَرَفتُ رَبِّي** . فَإِذا أَرادَ اللهُ أَن يُعَرِّفَكَ بِوَلِيٍّ مِن أَولِيائِه طَوَى عَنكَ وُجُودَ بَشَرِيَّتِهِ وَأَشهَدَكَ وُجُودَ خُصُوصِيَّتِهِ . انظُر شَرحَ الحِكَمِ لِلشَّرنُوبِي ص ١٨٧ .

فَهُنـاكَ العَيْـــشُ وَبَهْجَتُهُ فَلِمُبْتَهِـجٍ وَلِـمُنْتَـهِـجِ[1]

وَتحَدَّثَ رَضِي الله عنه بِمعانٍ لَطِيفَةٍ وَأَسرارٍ دَقِيقَةٍ عَن مَعْنَى قَولِهِ تَعالَى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢] ، وَعَن مَعْنَى الحَدِيثِ القُدسِي «كُنْتُ كَنْزاً مَخْفِياً فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ»[2]:

قَوْلُهُ: «فَأَحْبَبْتُ ، فَخَلَقْتُ» ، صارَ أَصْلُ الخَلْقِ مُحَمَّداً ، «فَأَحْبَبتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ» وَهُم الخَلْقُ .. يَرْجِعُ المَقْصُودُ مِن جِـهَتِهِم : المَعْرِفَةُ ، وَقِوامُها : العِـبادَةُ ، ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فَمَعْنَى المَعْرِفَةِ هَذا .

وَقالَ تَعالَى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] فالسَّماواتُ والأَرْضُ وَتنَزُّلُ الأَمرِ بَيْنَهُن كُلُّه مِن أَجلِكُم ، قالَ : ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ أَيْ: أَنْتُم.. صارَ مِن أَجلِكَ أَنْتَ ، فَصارَ الأَمْرُ عَظِيماً ما يَشْعُرُ بِهِ أَكْثَـرُ النّاسِ ، إِلّا مَن قامَ بِالتَّعْظِيمِ وَأَنْصتَ بِشَوقٍ وَمحَبَّةٍ وَوَلَعٍ وَخُضُوعٍ كامِلٍ يَعْرِفُ أَثَرَ هَذِهِ العَظَمَةِ ، فَيَخلَعُ عَلَيه بَعدَ ذَلِكَ الصّانِعُ خِلْعَةً عَظِيمَةً أُخرَى .

كَثِـيراً ما تُرجِعُ إِرادَةَ الفَضلِ والإِعطاءِ إِلَى التَّعرِيفِ ، فَإِذا أَرادَ اللهُ أَنْ يُعْلِيَ شَأْنَ أَحَدٍ وَيرْفَعَه أَو يُعظِّمَه .. عَرَّفَهُ بِسِرِّ العَظَمَةِ فِي صُنْعِهِ وَإِيْجادِهِ وَخَلْقِهِ وَهَكَذا كَما

---

(١) البَيتُ مِن القَصِيدَةِ المُنفَرِجَة المنسُوبَةِ إِلى الإِمامِ أَبِي الفَضلِ يُوسُف بنِ محَمَّد بنِ يُوسُف التُّوزَرِي التِّلِمسَانِي المعرُوف بِأَبِي النَّحوِيّ ، المتَوَفَى سَنة ٥١٣هـ ، مَطلَعها:

اشْتَدِّي أَزمَةُ تَنفَرِجِي قَد آذَنَ لَيلُكِ بِالبَلَجِ

(٢) ذَكَرَهُ العَجلُوني فِي «كَشفِ الخَفاءِ» بِلَفظ: «كُنتُ كَنزاً لا أُعرَفُ .. فَأَحبَبتُ أَن أُعرَفَ فَخَلَقْتُ خلقاً فعرَّفْتُهم بي فعرفوني» فَراجِعهُ . وَذكَرهُ صاحِبُ تَفسِيرِ «رُوحِ المعانِي» ، والفَخرَ الرّازِي فِي تَفسِيرِه .

ذَكرنا قبلَ ذلِكَ ، قُلْنا: سُبْحانَ القَوِيِّ! إِذا أَرادَ أَنْ يُقَوِّيَ عَبْداً .. عَرَّفَه بِضَعْفِهِ ، كُلَّما عَرَفَ ضَعْفَهُ أَكْثَرَ .. أُمِدَّ بِالقُوَّةِ وَهكَذا ، فَكَثِيرٌ ما يَكُونُ سَبَبُ العَطاءِ والفَضلِ راجِعاً إِلَى التَّعْرِيف .

والحَقُّ تَعالَى تَعَرَّفَ إِلَيْنا بِأَنْواعِ مَخْلُوقاتِه وَأَنْواعِ كائِناتِهِ ، والآيَةُ شاهِدَةٌ بِذَلِكَ ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ﴾ [الطلاق:١٢]، فَنَحْنُ نَأْخُذُ العِلْمَ الَّذِي هُوَ تَعَرُّفٌ إِلَيْنا مِن السَّبْعِ السَّماواتِ وَمِن الأَرْضِ الَّتِي مِثْلَها وَمِن تَنَزُّلِ الأَمْرِ بَيْنَها ، فَيَهْدِي عامَّةَ النّاسِ أَوَّلاً إِلَى التَّفَكُّرِ فِي هَذِهِ المَخْلُوقاتِ الَّتِي بَيْنَ أَيدِيهِم لِيَأْخُذُوا نَصِيبَهُم مِنها ، عَسَى يَصِلُونَ إِلَى ما هُو بَعْدَ ذَلِكَ وَهكَذا ثُمَّ هكَذا ، ثُمَّ يَأْتِي إِلَى أَنْ يَتَعَرَّفَ وَيَتَعَلَّمَ مِن السَّماواتِ السَّبعِ ثُمَّ مِن أَمرِ التَّنَزُّلِ .

مِن هُنا قالُوا إِنَّ لِلقُرْآنِ نُزُولاً وَقَد انْقَطَعَ ، وَتَنَزُّلاً ، وتَنَزُّلُ القُرآنِ هذا عِبارَةٌ عَن بابٍ مِن أَوْسَعِ الأَبوابِ ، ما انْفَتَحَ لِلأُمَمِ قَبْلَنا وَلَكِن انْفَتَحَ لأَئِمَّتِنا ، فَغَرِقُوا فِي أَبحُرٍ سالَت مِن بابِ القُرْآنِ ، واطَّلَعَ عَلَيْهِم مِنهُ جَلالٌ وَجَمالٌ وَبَهاءٌ وَحُسْنٌ يُشْهَد أَكْثَرُهُ فِي البَرْزَخِ وَفِي القِيامَةِ.

فَكُلَّما طالَعْتَ فِي صَفَحاتِ الوُجُودِ مِن جَمالِ الحَقِّ وَجَلالِه تَذْكُرُ أَنَّها كُلَّها كانَت قَد جُعِلَت مِن أَجلِه ، إِذاً فَهذا الجَمالُ المُودَعُ فِي هَذِهِ الكائِناتِ مِن أَجلِهِم ، فَما مِقْدارُ الجَمالِ الَّذِي أُودِعَ فِيهِم هُم ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٧] ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

إِذا صَرَّحَ القُرآنُ أَنَّ هَذِهِ السَّماواتِ السَّبعَ والأَراضِي السَّبعَ وَتَنَزُّلَ الأَمرِ بَيْنَهُنَّ مِن شَأْنِنا كَيفَ بَعْدَ ذَلِكَ يُسْتَغْرَبُ لَمّا يَتَكَلَّمُ عارِفٌ عَن شَأْنِ السَّماواتِ ، كَوْنُها كَذا

أو كَوْنُها كَذا ، الحَقُّ سُبْحانه عَظَّمَهُم عَلَيْها ، وَجعَلَها مِن أَجْلِهِم ، وَما جَعَلَهُم (هُم) مِن أَجْلِها ، جَعَلَهُم (هُم) مِن أَجْلِه (هو) ، وَجعَلَها مِن أَجْلِهِم .

فَهَلْ إِنكارُ كَلامِ العارِفِينَ عَمّا يَتَعَلَّقُ مَثَلاً بِالسَّماواتِ مِن التَّوحِيدِ أَو مِمّا يُخالِفُ التَّوحِيدَ ؛ لأَنَّ القُرْآنَ يُبَيِّنُ أَنَّها لَهُم فَيأتِي بَعْضُ النّاسِ وَيُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَها فَوْقَهُم ، فَهَل هَذا مِن التَّوحِيدِ أَو مِمّا يُناقِضُ القُرْآنَ ؟ وَكَيْفَ أُسْدِلَ الحِجابُ عَلَيهم ، وَأُسدِلَ السِّتارُ ، فَما دَرَوْا بِأَنْفُسِهِم إِلَى أَنْ يُكْشَفَ الغِطاءُ ، بَعدَ ذَلِكَ سَيَبْكُونَ ، سُبْحانَهُ إِذا أَرادَ أَمرا سَلَبَ مِن أَهْلِ العُقُولِ عُقُولَهُم .

وَلِهَذا نَقُولُ لما نَسْمَعُ مِن كَلامِ العارِفِين إِنَّما هو بَعْضٌ مِمّا صُرِّحَ به في الآياتِ، أَتَعجَّبُ مِن إِنكاراتِهِم على كَلامِ العارِفِين ، وَأَجِدُها أَصرَحَ فِي القُرآنِ وَأَوضَحَ مِمّا تَكَلَّمُوا هُم بِهِ؛ وَلَكِن مَن لَم يَكُن بَيْنَه وَبَيْنَ القُرآنِ صِلَةٌ كَيْفَ تُوصِلُه ؟ أَو كَيْفَ تُواصِلُهُ؟ أَو كَيْفَ تَتَخاطَبُ مَعَه ؟ بِأَيِّ لِسانٍ تُكَلِّمُه ؟ المَحْجُوبُ المَحْجُوزُ المَحْرُومُ المَبْعُودُ عَنِ القُرآنِ، كَفاهُ ما هُو فِيهِ ، اللهُ يُنْقِذُنا والأُمَّةَ وَيَتَدارَكُنا وَيُوَفِّرُ حَظَّنا مِن الخَيرِ والرَّحْمَةِ إِنْ شاءَ الله.

كلام في شأن المحبة الصادقة

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ[(١)] لا تَجِدُونَ بَين مُتَوَجِّهِينَ إِلَى الرَّبِّ تَبارَكَ وَتَعالَى صادِقاً مِنهُم .. إِلا غُمِرَ بِالمَحَبَّة ، وَعُمِرَ بِها ، وامْتَلأَ قَلْبُه بِها ، وَفاضَتْ عَلَيْه ، ثُمَّ إِنَّ مَحَبَّةَ الحَقِّ تَبارَكَ وَتَعالَى لابُدَّ أَنْ تَصْحَبَها التَرْجَمةُ وَلا تُفارِقُها ، وَإِنَّما التَرْجَمَةُ مَحَبَّةُ مَحابِّهِ وَأَحْبابِه سُبْحانَه وَتَعالَى ، مَحابُّه مِن الأَعمالِ والأَحْوالِ والصِّفاتِ والذَّواتِ ، وَعَلَى قَدْرِ اسْتِكْمالِها .. يَكُونُ كَمالُها .

فَفِي خَلقِ الله تَعالَى أَعمالٌ مَحْبُوبَةٌ وَأَحوالٌ مَحْبُوبَةٌ وَصِفاتٌ مَحْبُوبَةٌ ، فَلا يَتَأَتَّى

---

(١) فِي ١٢ مِن شَهرِ رَبِيعٍ الثّانِي ١٤٢٠هـ .

الصِّدقُ فِي مَحبةِ الله تَعالَى إلا بِوُجُودِ التَّرجَمةِ لَها فِي مَحبَّةِ هَذِهِ المحبُوباتِ لَهُ ، فَلابُدَّ مِن قِيامِ أَساسِ تِلكَ المحبَّةِ، وَتِلكُم التَّعلُّقاتِ الَّتِي هِيَ مِن عَينِ تَوحِيدِ الله .

فَمَحبَّةُ الغَيرِ إن جاءَت عَلى وَصفِ الانفِصالِ عَن أَمرِهِ والعَمَلِ بِطاعَتِهِ فَهِي قاطِعَةٌ وَحاجِبَةٌ وَهِي تُنبِئُ عَن بُغضٍ والعِياذُ بِالله ، وَإِن جاءَت عَلى امتِثالِ أَمرِهِ وَلَه وَمِن أَجلِهِ كانَت مُنبِّئَةً عَن حَقِيقَةِ المحبَّةِ لَه تعالَى ، وَبِذَلك تَعلَمُ أَنَّ الَّذي يُحِبُّ لله لا يَحمِلُهُ عَلَى هَذِهِ المحبَّةِ سِوَى الله فَهو لا يُحِبُّ فِي الحَقِيقَةِ إلا الله .

وَأَنتَ تَعلَمُ أَنَّ أَطهَرَ الذَّواتِ فِي جَمِيعِ المخلُوقاتِ ذاتُ محمَّدٍ ، وَمَع ذَلِكَ فَمَحبَّتُنا لِذاتِ محمَّدٍ مِن أَجلِ الله ، وَلأَجلِ ذَلِكَ قالَ سَيِّدُنا الغَزالِيّ : لا يَتأَتَّى أَن يُحبَّ شَيءٌ لِذاتِه مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ إلا الله ، وَأَنَّ غَيرَهُ لا يَتأَتَّى أَن تَكُونَ المحبَّةُ لِذاتِه مِن جَمِيعِ الوُجُوه مَهما ادَّعَيْت ، إِنَّما هِي مَراتِبُ يُعبِّرونَ عَنها بِمحبَّةِ الصِّفاتِ أَو محبَّةِ الذَّاتِ ، وَفِي هَذِه المراتِبِ أَحوالٌ .

لِذَلِكَ فَرَّقُوا بَينَ مَن يُحِبُّ الشَّيخَ لِصِفاتِه وَمَن يُحِبُّ الشَّيخَ لِذاتِهِ ، وَهَذا التَّفرِيقُ إِنَّما هُوَ بِاعتِبارِ اختِلافِ الأَحوالِ فِي المواجَهةِ والمقابَلَةِ وَرُسُوخِ المحبَّةِ وَتَمكُّنِها ، وَأَما المحبَّةُ لِلذّاتِ مِن جَمِيعِ الوُجُوه فَمُمتَنِعَةٌ إلا لِذاتِ الحَقِّ الأَعلَى ، فَإِنَّها هِي الَّتِي لا سَبَبَ لَها وَكُلُّ ما سِواها هِي سَبَبٌ لَه ، فَإِذاً هُو الَّذِي يُحَبُّ بِلا عِلَّةٍ مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ، فَتَكُونُ المحَبَّةُ مِن أَجلِهِ .. فَرعاً مِن محبَّتِه جَلَّ جَلالُه .

في شأن المحبّة

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنفَعنا بِهِ (١) مُنذُ أَن بَدَأَتْ هَذِهِ الدَّعوَةُ بِبِعثَتِهِ صَلىَّ اللهُ عَلَيهِ وَآلِه وَسَلَّم ما قامَت لَها قَواعِدُ وَلا حَصلَتْ لَها فَوائِدُ إلا بِالمحبَّةِ ، مِن أَوَّلِ مَن آمَنَ كالسَّيِّدةِ خَدِيجَةَ

(١) فِي ١٤ مِن شَهرِ ذِي القِعدَةِ ١٤٢١ هـ .

بنت خُوَيلِدٍ وَسَيِّدنا أَبِي بَكرٍ الصِّدِّيق وَسَيِّدنا عَليِّ بن أَبِي طالبٍ وَسَيِّدنا بِلالِ بن رَباح ، هَؤلاءِ كُلُّهُم ما قامَتْ حَقائِقُ ما عِندَهُم مِن الفَضلِ والخَيرِ إلا بِقاعِدةِ المَحبَّةِ، وَأَوَّلُ ما شَرِبُوا فِي الاتِصالِ بِالمصطفَى كَأسَ المَحبَّةِ .

بِالمَحبَّةِ الصّادِقَة قامَ ما قامَ مِن جَمِيعِ الخَيراتِ الَّتِي وَرِثُوها ، وَكَذَلِك كانَ حالُ الصَّحابةِ ، بَل وَخيراتُ الدَّعوَةِ المنتَشِرةِ فِي الآفاقِ عَلى مُختَلَفِ الأَصنافِ ، حَقِيقَةُ ما يحصُلُ مِن الخَيرِ فِيها .. هُو ما كان مُتَّصِلاً بِأَصلِ المَحبَّةِ ، وَما لَيسَ كَذَلِك فَهو صُورَةٌ لا تَكُون ثَمرتُه مُجدِيَةً وَلا نِهايَتُه مَطلُوبَةً وَمَقصُودَةً ، إِذا فالأَمرُ لابُدَّ أَن يَقُومَ عَلى نَفسِ الأَساسِ الَّذِي قامَ عَلَيهِ .

في ثمرات هيبة الحقّ إذا استقرّت في القلب

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[1] نَحتاجُ إِلى تَثبِيتِ هَيبَةِ الحَقِّ تَعالى فِي القُلُوبِ ، يَصلُحُ لحضرتِهِ مَن ثَبَتَتْ هَيبَتُه فِي قُلوبِهِم ، أُولَئِكَ الَّذِين يَصدُرُ مِن حَركاتِهِم وَأَعمالِهِم ثَمَراتٌ كَبِيرَةٌ وَمَنافِعُ لِلنّاسِ عَظِيمَةٌ ، وَإِذا نَقَصَتْ هَذِهِ الهَيبَةُ لَم يَبلغوا تِلكَ الرُّتبَةَ ، وَلَم تَحصُلِ الثَّمرةُ مِن أَفعالِهِم ، وَإِن كَثُرتْ هَذِهِ الأَفعالُ ، بَل وَإِن ظَهَرتْ ظَواهِرُ الثَّمَراتِ ؛ لأَنَّ الشَّأنَ إِقامَةُ عُبُودِيَّةٍ مَحضَةٍ[2] مِن العَبدِ مَع رَبِّه تَعالى .

وَهَذا الأَدَبُ مَع الشُّيُوخِ عِبارةٌ عَن تَرجَمَةٍ لِلإِيمانِ ، وَكَذَلِكَ الأَدَبُ مَع سادتِنا الأَنبِياءِ والملائِكَةِ ، بَل وَتَوقِيرُ مَن هُو أَكبرُ مِنّا سِنّاً ، كُلُّ ذَلِكَ يَدخُلُ فِي مَعنَى إِجلالِ الله ، وَبِذَلِك يَأتِي الخَلاصُ مِن الشَّوائِبِ الَّتِي تَعْلَقُ بِالنُّفُوسِ فَتُفسِدُ الأَعمالَ مِن حَيث لا يَدرِي النّاسُ .

(١) وَذَلِكَ فِي لَيلَةِ الأَربعاء ١٧ مِن شَهرِ رَجَب ١٤٢٠ هـ .
(٢) أَي : خالِصَة .

العلم في الميزان الرباني

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: أيُّ شيءٍ ما يُذكِّرُ بهِ جلَّ جلاله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٧]، صدقَ رَبُّنا ، وكلُّ ما تأتّى أنْ يكونَ معلوماً غير هذا فهُو في الميزانِ الرَّبّانيّ لا يُسمّى عِلماً ، بل هو مجرَّدُ جهلٍ ، لكنَّ الجهلَ أحياناً يكونُ بَسيطاً ، وأحياناً يَكونُ مُركَّباً.

لِماذا قُلنا من ظَنَّ أنه عَلِمَ .. فقَد جهِلَ ؟ لأنَّه انقطَعَ ، كُلُّ من ظَنَّ أنَّه عَلِمَ .. انقطَعَ سَيرُه على الإطلاقِ حتَّى لَو كان مِن أربابِ الخُصُوصِ ، إذا ظَنَّ أنّه عَلِمَ انقطَعَ عَن السَّيرِ ؛ لأنَّه ما يحيطُ بعِلمِهِ تَعالَى مُحيطٌ ، وَهوَ كلَّما سارَ .. ازدادَ مَعرِفَةً بجَهلِهِ، فَهذا مَعنَى أنَّه يَسيرُ ، فإذا ظَنَّ أنَّه عَلِمَ.. وَقفَ ، وَهنا جاءَه الجَهلُ ، بَل هُو عَينُ الجَهلِ .

ظَنُّ الإحاطَةِ عَينُ الجَهلِ ، فما مُحاطٌ سَلَّمَ لِلمُحيطِ ، كان سَيِّدُنا الحَسنُ بن صالح البَحرِ[1] يَقول : إذا قَرأتَ بِسۡمِ ٱللَّهِ في الصَّلاة فاعْلَمْ أنَّ كلَّ شيءٍ قائمٌ باسمِه مُحاطٌ بعِلمِهِ ، فإذا قُلتَ : بِسۡمِ ٱللَّهِ.. فَأيُّ اسمٍ من أسمائِه اختارَه لَنا في بِدايَةِ القُرآنِ والخِطاباتِ مع لَفظِ الجَلالةِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، فَلابُدَّ أن يُوقِفَكَ الاسمُ عَلَى المسَمَّى ، إن كان لَكَ مَقصَدٌ أسمى ، في كلِّ مَرَّةٍ تَنطِقُ أنتَ بهذا الاسمِ فلابُدَّ أن يَكونَ هُناك أمرٌ يُفهَمُ غير المعنَى الأوَّلِ وإلا لما كان هُناك مَعنَىً للتَدَبُّرِ والتَّكرارِ .

بكَثرةِ الذِّكرِ يَظهَرُ سِرُّ ما في الغُيُوبِ ، قامَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم لَيلَةً يَتْلُو فِيها

(١) هُوَ الإمامُ العارِفُ باللهِ الحَسَنُ بنُ صالح بنُ عَيدَرُوس بنِ أبي بَكرٍ الجُفري ، وُلِدَ بمَدينَةِ الحَوطَة خَلع راشِد سَنَة ١١٩١هـ ، أخَذَ عَن جُملَةٍ مِن مَشايخ عَصرِه كالعَلّامَة عُمَر بن زَين بن سُمَيطٍ وَغيرِه ، وكانَ شَيخَ فَتحِهِ الحَبيبُ عُمَرُ بنُ سَقّاف بن مُحمَّد السَّقّاف ، لَم يَكُن لَه نَظيرٌ في المتَأخِّرينَ عِلماً وَعَمَلاً وَزُهداً وَوَرَعاً وَعِنايَةً بالفُقَراءِ والمساكِينِ، كانَت وَفاتُه في ٢٣ مِن شَهرِ ذِي القِعدَة سَنَة ١٢٧٣هـ ، رَحِمَه الله رَحمَةَ الأبرارِ .

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، وجاءَهُ سَيِّدُنا جبريلُ يقولُ لَهُ : «يقولُ لكَ ربُّكَ ما يُبكيكَ ؟» وهوَ أعلَمُ ، قالَ : «قُل لَه : أُمَّتي» ، فرَجعَ إليهِ يقولُ له : «يقولُ لكَ ربُّكَ : إنّا سَنُرضيكَ في أُمَّتِكَ ولن نُخزيكَ فيهِم»[(١)].

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يَسهُلُ عليهِم اجتلاءُ معاني الشَّريعَةِ كلِّها مِن البَسمَلَةِ[(٢)]، ما أَحَدٌ يَتعَجَّبُ مِن قولِهم ، كلُّ ما في القرآنِ في الفاتِحَةِ ، وكلُّ ما في الفاتِحَةِ في البَسْمَلةِ، كَيفَ هذا ؟ فالَّذي لا يَعرِفُ مَثلاً الدِيسكات والإخراجَ في الكَمْبيُوترات تقولُ لَهُ: كُلُّ ما في هذِهِ الكُتُبِ يَحمِلُه هذا الشَّريطُ الصَّغيرُ ، تَجِدُهُ يَستنكِرُ ويَقولُ لكَ: ما الَّذي تَقولُه أنتَ ؟ لأنَّه ما يَعرِفُ يَستجْليها مِنه ، لكِن لَو عِندَه جِهازٌ يَستجْليها حِينَئِذٍ يَقولُ لَكَ : هَذا صَحيحٌ ، وهَذِه تُشبِهُ هَذا الدِّيسك ، فَقُل لَه : إنْ كانَ مَعكَ جِهازٌ ضَعْها وسَيَظْهَرُ لَكَ .

يا كَريمُ .. نِعمَ الكَريمُ ربُّكم ، مِن يومِ أن أَوجَدَ العالَمَ ما قَد خَيَّبَ رَجاءَ راجٍ ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٧] ، حتَّى الرَّجاء ما يَعلَمُونَه وإلا لَو رَجَوه

---

(١) رَواهُ مُسلِمٌ عَن عَبدِ الله بنِ عَمرو بنِ العاصِ رَضيَ الله عنهُما أنَّ النَّبيَّ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم تَلا قولَ الله عَزَّ وَجَلَّ في إبراهيمَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، وقولَ الله عَلَى لِسانِ عيسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فرَفَعَ يَدَيهِ وقالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتي .. أُمَّتي» وبَكى . فقالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: «يا جبريلُ .. اذهَبْ إلى محمَّدٍ ـ وربُّكَ أعلَمُ ـ فَسَلْهُ ما يُبكيهِ؟» فأتاهُ جبريلُ فأخبَرَهُ رَسولُ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم بما قالَ وهُو أعلَم . فقالَ الله تعالَى : «يا جبريلُ .. اذهَبْ إلَى محمَّدٍ فقُل : إنّا سَنُرضيكَ في أُمَّتِكَ ولا نَسوؤُكَ».

(٢) قالَ الألُوسي في تَفسيرِهِ «رُوح المعاني» : مَعاني الكُتُبِ في القُرآنِ ، ومَعانيها في البَسملَةِ ، ومَعاني البَسملَةِ في الباءِ .

لَوَجَدُوهُ نِعْمَ المَرْجُوّ ، يَقُولُ سَيِّدُنا الشَّيخُ أَبُو بَكْر : حَتَّى لا نَرْجُو وَلا نُحِبَّ وَلا نَخافَ سِواه .

المَحَبَّةُ لَه وَمِن أَجْلِهِ وَفِيهِ لَيْسَتْ مِن مَحَبَّةِ سِواه ، وَأَوْلَى مَن يُحَبُّ لَهُ وَمِن أَجْلِهِ وَفِيهِ أَحَبُّ مَحْبُوبٍ لَدَيهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم وَهذا لَمّا نَقُولُ نَحْنُ أَحَبُّ مَحبُوبٍ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، أَينَ فَهْمُكَ ؟ هَل هُناكَ خالِقٌ ثانِي ؟ فَإِنَّ جَمِيعَ ما أَحَبَّه الحَقُّ تَعالَى مُفَرَّعٌ عَن هَذا الأَصْلِ ، فَأَصْلاً ما هُناكَ مَحْبُوبٌ ثانِي ، وَكُلُّ نِسْبَتُه مِن هَذا الأَصْلِ عَلَى حَسَبِ فَرْعِيَّتِه فِيهِ ، وَلهَذا نُطْلِقُ عَلَيْه: أَحَبُّ مَحبُوبٍ ، فَنَضطَرُّ إِلَى هَذا المَجازِ والتَّجَوُّزِ ؛ لأَنَّهم لَنْ يَفْهَمُوا .

وَمَن يُجَوِّزُ[١] ـ يَعْرِفُ يُجاوِزُ ـ يَأتِي عَلَى مَكانِه[٢] فَتُصْبِحُ لَه مَكانَةٌ ، لَكِن لا بِنَفْسِهِ وَلا بِذاتِهِ ، فَإِذا أَدْرَكَ أَنَّها لا بِنَفْسِهِ ذابَتْ وَفَنِيَتْ نَفْسُه ، وَإِذا أَدْرَكَ أَنَّها لا بِذاتِهِ ذابَتْ وَفَنِيَت ذاتُه ، فَحُقَّ لِلذّاتِ أَنْ تَشْهَدَ الذّاتَ ، إِنَّما يَشْهَدُهُ مَن فَنِيَ فِيه ، كالَّذِي فِي الدّارِ مَثَلاً إِنَّما يَشْهَدُهُ مَن دَخَلَ وَسْطَهُ، فَإِذا دَخَلَ وَسْطَه تَغَطَّى هو مِن الدّاخِلِ .

قوة التعلق بالأكوان وآفته

وقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ مَن نامَ بَدْرِي[٣] عَنِ الشُّرُورِ .. يَقُومُ بَدْرِي عَلَى الخُيُورِ ، وَمَن نامَ بَدْرِي عَنِ الأَكْوانِ.. يَقُومُ بَدْرِي على المُكَوِّنِ ، مَن نامَ بَدْرِي .. يَقُومُ بَدْرِي ، مَن ظَلَّ مُعَلَّقاً بِالأَكْوانِ .. يَصْعُبُ قِيامُه ، تُوقِظُه فَما يَسْتَيْقِظُ وَما يَسْتَقْبِلُك ، تَقُولُ لَه : هَذا الفَجْرُ طَلَعَ .. فَما يُحِسُّ ، هَذِهِ الشَّمْسُ طَلَعَت.. فَلا يُجِيبُ ؛ لأَنَّ النَّومَ اسْتَغْرَقَ فِيهِ؛

---

(١) أَي: يَعرِف استِعمالَ المَجازِ فِي مَكانِهِ المناسِبِ .
(٢) أَي: يَفهَم الإِشارَةَ مِنهُ فِي موضِعِها .
(٣) مُبَكِّرًا .

بِسَبَبِ قُوَّةِ عَلائِقِه بِالأَكْوانِ .

والأَكوانُ هِذِهِ جَعَلَها اللهُ اخْتِباراً وامْتِحاناً ، وَجَعَلَها نِعْمَةً وامْتِناناً ، فَمَن خَرجَ مِن الوَهْمِ والـخَيالِ .. وَقَعَت لَه سَبِيلاً لِلوُصُولِ والوِصالِ والاتِّصالِ ، وَتَـحَوَّلَت لَه إِلى حِبالٍ[(١)]، وَمَن انْحَـبَسَ فِي وَهمِهِ وَخَيالِهِ .. وَقَعَت لَه حِجاباً ، وَصُدَّ عَن البابِ، وانْقَطَعَ بِالأَسبابِ ، وَصارَت عَلَيه بَلِيَّةً[(٢)]، والشَّأنُ كَما سَمِعْتَ فِي القُرآنِ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤].

وَبَعدَ ذَلِكَ القُرآنُ مُهَيمِنٌ عَلَى كُلِّ كِتابٍ ، وَكُلُّ ما فِي هَذا الكِتابِ هوَ كَلامُ الحَقِّ، وَكَلامُ الحَقِّ سُبْحانَه وَتَعالَى مُرْتَبِطٌ بِأَفْعالِه ، وَأَفْعالُه .. الكائِناتُ كُلُّها ، فَسَرَتِ السِّرايَةُ؛ لأَنَّ كُلَّ كائِنٍ يَكُونُ لِهَؤُلاءِ نِعْمَةً ، وَعَلَى هَؤُلاءِ نِقْمَةً ، كَما هُوَ الحالُ فِي الآياتِ تَزِيدُ هَؤُلاءِ إِيماناً إِلَى إِيمانِـهِم وَتَزِيدُ هَؤُلاءِ رِجساً إِلى رِجْسِهِم وَماتُوا وَهُم كافِرُونَ .

لأَجْلِ ذَلِكَ أَهلُ القُرْبِ مَعَه ، وَرِجالُ المَعْرِفَةِ بِه يَتَجَلَّى اللهُ عَلَيهِم فِي هَذِهِ الكائِناتِ إِلَى حُدُودٍ بَعِيدَةٍ ، كَما ذَكَرَ ذَلِكَ فِي نَصِّ الكِتابِ فِي نِداءِ سَيِّدِنا مُوسَى فِي البُقْعَةِ المبارَكَةِ مِن الشَّجَرةِ وَوَقَعَت مَظْهَرَ تَجَلٍّ ، وَنَقْرَؤُها بِالنَّصِّ .

وَلَمّا يَتَكَلَّمُ العارِفُونَ عَن بَعْضِ هَذِهِ الحَقائِقِ تَجِدُ المنكِرُونَ يُنْكِرونَ عَلَيْهِم وَيَقُولُونَ كَيفَ وَكَيفَ ، أَتَقُولُونَ كَيفَ لِمَن خَرَجُوا عَن الكَيفِ ؟ وَلَكِن مَن لَم يَعرِفْ ذَلِكَ كَيْفَ تُعَرِّفُه ؟ سُبْحانَ اللهِ ! فَلا كَيْفَ لَهم إِذْ لَم يَخْرُجُوا عَن الكَيْفِ .

---

(١) أَي: رَوابِط مُوصِلَة لَه إِلى المقصُود .

(٢) أَي: مصيبة كبيرة.

العالم الأسمى والعالم الأصفى وأول الإدراك

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[(١)] اللهُ يُثبِّتُكم وإيّانا ، ويُظهِرُ في الأُمَّةِ حقائقَ الصِّلةِ بالإمامِ ﷺ ويُنشِرُها في الأقطارِ كُلِّها إنْ شاءَ الله .

واللهُ يَرحمُ الشّيخَ عَبْدَ الكريمِ المَلاّحِي[(٢)] ، كانَ يَقولُ لَنا : أنّه سَمِعَ الحَبيبَ أحمدَ بنَ حَسَنِ الحَدّاد[(٣)] يَقولُ في دُعائِه : اللّهمَّ أظهِر في زَمانِنا مَن تَقرُّ بِهِ عَينَ نَبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، بَدَأَ استبشارٌ، وَيَكمُلُ إنْ شاءَ اللهُ لنا وَللأَخْيارِ في الأَقطارِ .

والمقصُودُ مِن أَمثالِ هَذا أَن تَحملكَ مِن عالَـمِكَ إِلَى عالَمٍ أَسْمَى وَأَصْفَى ، **والعالَمُ الأَسْمَى** هُو ما تَبدُو فِيهِ أَنوارُ عَجائِبِ الأَسماءِ ، **والعالَمُ الأَصفَى** هُو ما تَظْهَرُ لَكَ فِيهِ عَجائِبُ الصِّفاتِ ، وَأَنتَ بِذَلِكَ تَطْرُقُ أَبوابَ المعرِفَةِ بِالذّاتِ ، فَإِذا أَبدَى لَكَ مَعاني أَسمائِهِ ، وَأَظهَرَ لَكَ عَجائِبَ صِفاتِهِ ، فَما تَلتَفِتُ إِلَى شَيءٍ ، وَلا تَنْظُرُ وَلا تَسْمَعُ وَلا تَحُسُّ بِذَرَّةٍ مِن ذَرّاتِ الكائِناتِ إِلا وَوَجَدْتَ مَخبُوءاً فِيها نُورُ اسمٍ مِن أَسْمائِهِ ، وَصِفَةٍ مِن صِفاتِه جَلَّ جَلالُه ، فَتَمْتَزِجُ عِندَكَ مَعْرِفَةُ الأَفعالِ بِمَعرِفَةِ الصِّفاتِ والأَسماءِ .

أَوَّلُ الإِدراكِ هُو أَن تُدرِكَ أَنَّ لِلمُلكِ مَلِكاً ، وتُدْرِكَ الكائِناتُ احْتِياجاتِها إِلَيهِ في

---

(١) في ١٤ مِن شَهرِ رَبيعِ الثّاني ١٤١٧هـ .

(٢) هُو الشَّيخُ عَبدُ الكَرِيمِ بنُ عَبدِ القادِرِ بنُ عُبيد المَلاّحِي ، وُلِد بِجُزُرِ القُمُرِ في نَجازَيجيا سَنَة ١٣٣٨هـ ، وَهاجَرَ إِلَى الشِحرِ وَعُمرُهُ ١١ سَنَة ، كانَ مِن أَجَلِّ شُيُوخِهِ الحَبِيبِ عَبدِ الله بنِ عَبدِالرَّحمن بنِ الشَّيخِ أَبِي بَكر بنِ سالِمٍ ، حَمَلَ رايَةَ العِلمِ والدَّعوَةِ مُستَغرِقاً فِي ذَلِكَ جَميعُ أَوقاتِهِ إِلَى أَن تَوَفّاه الله لَيلَةَ الأَحد ١٧ مِن شَهرِ رَبيعِ الثّانِي ١٤١٦هـ .

(٣) الإمام أحمد بن حسن بن أحمد بن حسن بن عبد الله بن طه بن عمر بن علوي بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علوي بن أحمد الحداد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عدب الله بن الفقيه أحمد بن عبد الرحمن السقاف، ولد رضي الله عنه بمدينة الغرفة فاتحة شهر رجب سنة ١٣١٤هـ في ذات الشهر الذي توفي فيه الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي، وكان وفاته رحمة الله عليه في الخامس من شهر رجب سنة ١٤٠٢هـ بمدينة الغرفة.

كُلِّ نَفسٍ ، وَأَنتَ واحِدٌ مِنها ، ما أَعظَمَ حاجَتِكَ إِلَيهِ فِي عِظَمِ غِناه عَنكَ ، وَما أَعظَمَ ما يَجُودُ وَيَتَكرَّمُ بِهِ عَلَيكَ فِي حالَةِ غَفْلَتِك عَنهُ ، ثُمَّ تَستَقِلّ مِن هَذا إِلَى ظُهُورِ آثارِ الصِّفاتِ لِتَطرُقَ أَبوابَ مَعرِفَةِ الذّاتِ .

وَأَنتَ فِي قَطعِ هَذِهِ المَراحِلِ ما يُعَبِّرُ عَمّا يُنازِلُكَ مِن لَذّاتٍ ، وَيُواجِهُكَ مِن تِلكَ الحَضرَةِ الشَّرِيفَةِ ، إِلا أَنَّ المُرادَ فِيما تَسمَعُونَ : التَّشوِيق ، وتَعَلُّقُ القُلُوبِ بِخَيرِ رَفِيق، حَتَّى تَتَهيَّأَ لِلرَّحِيق.. والرَّحِيقُ قَد هُيِّئَ لِكلّ شارِبٍ مِن قَبْلِ خَلقِ السَّماواتِ والأَرضِ ، فَما بَقِيَ إِلا مَجِيءُ الوَقتِ لِيَشْرَبَ كُلُّ واحِدٍ ما هُيِّئَ لَه فَقَط ، والسّاقِي فِي جَمالِهِ وَجَلالِهِ وَكَمالِهِ قَد هَيَّأَ وَأَعَدَّ وَرَتَّبَ الكُؤُوسَ المَشْرُوبَةَ كُلَّها ، وَلا يُخْلَقُ أَحَدٌ إِلا وَقَد خُلِقَت كُؤُوسُهُ، وهُيِّئَ نامُوسُه[١] ، المُعِدُّ سُبحانَه وَتَعالى جَلَّ عَنِ الإِحاطَةِ ، وَإِعدادُهُ كَذلِك جَلَّ عَنِ الإِحاطَةِ:

فَإِنَّ فَيضَ فَضْلِهِ فِي النّاسِ ... جَلَّ عَنِ التَّقيِيدِ والقِيَاسِ
طُرُقُهُ بِعَدَدِ الأَنْفاسِ ... وَجُودُهُ جارٍ بِكُلِّ حالِ[٢]

فانظُرُوا الآنَ نَحنُ وَإِيّاكُم قَد جاهَرناهُ وَبارَزناهُ بِالمَعاصِي ، وَهوَ جَلَّ جَلالُهُ يَتَجَلَّى عَلَينا بِمِثلِ هَذِهِ السّاعَةِ ، وَبِمِثلِ هَذِهِ اللَّحظَةِ .. السِّتْرُ قَد سَتَرَ ، والعَفْوُ والمَغفِرَةُ مِنهُ، وَيَقُولُ خُذُوا مِن فَيضِ فَضلِي وَلا أَقطَعُكُم ، وَإِنْ صَدَرَ مِنكُم ما صَدَرَ ، وَإِن كانَ

---

(١) **النّامُوسُ** : يَأتِي بِمَعنَى الوَحيِ وَبِمَعنَى الإِلهامِ وَلَعَلَّ المُرادَ بِهِ هُنا هُو مُحادَثاتُ الحَقِّ الخاصَّةُ لِعِبادِهِ والله أَعلَم .

(٢) الأَبياتُ مِنَ الرَّشَفاتِ لِلحَبِيبِ عَبدِ الرَّحمنِ بن عَبدِ الله بِلفَقِيه وَقَد وَرَدَت عِندَ قَولِهِ :
رَشفَةٌ مِن عَينِ جُودِهِم.. وَنَسمَةٌ مِن تَعيِينِ وُجُودِهِم..

يَقُولُ قَومٌ عَن هُداهُمْ ضَلُّوا ... قَدعَدِمُوافِي عَصرِناوَقَلُّوا
فَقُلْ لَهم كَلّا وَلَكِن جَلُّوا ... عَن أَن تَراهُم أَعيُنُ الجُهّالِ
فَكَيفَ يَخلُو عالَمُ الشَّهادَةْ ... عَنهُم وَهُم فِيهِ الهُداةُ القادَةْ
قَد حَفِظَ الله بِهِم عِبادَه ... وَصانَهُم فِي سائِرِ الأَحوالِ

مِنكُم ما كانَ .

فَإذا هَبَّت عَلَيْكَ نَسَماتُ عِنايَتِه ، وانْقَدَحَ فِي قَلْبِكَ سِرُّ الافْتِقارِ .. فَأَحْسَنُ ما يَطْلُبُكَ الافْتِقارُ ، وَأَحسَنُ ما تَطلُبُ بِهِ المواهِبَ الاضْطِرارُ ، تَـحَقُّقُك بِالافْتِقارِ أَحسَنُ طَلَبٍ يَطْلُبُكَ ، وَتَـحَقُّقُكِ بِالاضطِرارِ هو بابُ المواهِبِ كُلِّها . قالَ الإِمامُ الحدّاد :

قَـــدْ تَـحَقَّقْـــتُ بِعَجْـــزِي ... وَخُـضُـــوعِـــي وانْكِســارِي

أَنـا عَبْــدٌ صــارَ فَخْـــرِي ... ضِمْـنَ فَقْـــرِي واضْطِـرارِي

قَــدْ كَـفـانِي عِـلْــمُ رَبي ... مِـنْ سُـــــؤالِي واخْتِيارِي(١)

إذا عَرفْتُم ذلك ، فَخُذُوا في قَطعِ العَقَباتِ وتَصْفِيَةِ النُّفُوسِ بِما هَيَّأَ الحَقُّ لَكُم سُبْحانه وَتَعالى ، ولا تَبْخَلُوا عَلَى أَنْفُسِكُم ، قالَ تَعالى : ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨] فَلا يَبْخَلْ أحدٌ مِنْكُم عَن نَفْسِه .

والحَقُّ قَد فَتَحَ أَبوابَه ، وَأَوسَعَ رِحابَه ، والوَسِيلَةُ سَيِّدُ أَحبابِه ، وَعَيْنُه ناظِرَةٌ فيمَن يَذْكُرُه في كلِّ وَقْتٍ ، وفي كلِّ زَمَنٍ ، والنَّظَراتُ عامَّة في ذاكِريه على وَصْفِ المَحَبَّة ، ثُمَّ خاصَّةٌ للخَواصِ ، وَلها مَعانٍ راقِياتٌ لأَهلِ العِناياتِ والسَّوابِقِ القَدِيمَة .

---

(١) الأَبيات مِن قَصِيدَةٍ لِلإمامِ الحَدّادِ مَطلَعُها :

قَد كَفاني عِلمُ رَبي ... من سُؤالي واختِياري

فَدُعـائِي وابتِهـالِي ... شاهِـدٌ لِي بافتِقارِي

وَقد قالَها الإمامُ الحَدّادُ فِي طَلَبِ حاجَة فَقُضِيَت عَلى أَحسَنِ الوُجُوهِ ، وَما واظَبَ صادِقٌ عَلى قِراءَتِها عِندَ وُقُوعِهِ فِي شِدَّة إلا وَيُدرِكهُ الله بالإِغاثَة . «الدُّرّ المنظوم» ص ١٢٠ .

في معاني تفريغ القلب عن كلّ ما سوى الله

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: لا تجعَلُوا فِي قُلُوبكُم محَلّاً لِسواه ، هَذِهِ التَّفْرِيغات بِما لَها مِن تفْرِيعاتٍ ، تحتاجُ مِنكُم إِلَى توجُّهاتٍ وَدِقَّةٍ فِي التنَبُّهاتِ لما يُلْقَى وَلما يُوصِلُه الحَقُّ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ إِلَيكُم ، حَيثُ تتعَلَّقوا بِحِبالِ الارْتِقاءِ ، حَتَّى تَـمْتلِئَ قُلُوبكم بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، لِيَتَحَقَّقَ أَحَدُكم بِأَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُه أَحَبَّ إِلَيهِ مِمّا سِواهُما .

والدَّعْوَةُ مُوجَّهَةٌ إِلَينا فِي إخراجِ آثارِ السِّوَى ، وَهِي ما تُساوِي شَيئاً ، وَلا زالَت فِي صُدُورِنا وَقُلُوبِنا مِنها أَنواعٌ ، تُرِيد مِنّا التَّساعُدَ عَلَى إِخراجِها ، حَتَّى تُفَرِّغه لَه ، فَيَمْلَؤُه لَكَ ، وَلِذا يُفَصِّلُ لَكُم المُجْمَل ، تَشْهَدُونَه تَفْصِيلاً فِيما أَجمَلَ فِي التَّنْزِيلِ ، عَلَى لِسانِ الحَبِيبِ ، وَما تَفرَّعَ عَن تِلْكُم اللِّسانِ مِن أَلْسُنِ التَّقرِيبِ .

عامَّةُ الأَشياءِ هَذِهِ الَّتِي تَسْمَعُونَها فِي شُؤُونِ الحَقائِقِ والغَيبِيّاتِ ، هِي عِندنا مُجمَلَةٌ ، أَنتَ تَصِيدُها بَعدَ هَذا التَّفرِيغِ ، يَقُولُ سَيِّدنا الإِمامُ الحَدّاد :

فالنَّفْسُ مِغْناطِيسُ أَمْرِ الإِلْهامْ ... والرُّوحُ مِغْناطِيسُ كَوْنِ الأَجْسامْ
وَذاكَ مِنْ بَعْدِ التَّوَجُّهِ التّامْ ... بِكُلِّ باطِنْ وبِكُلِّ ظاهِرْ
اللهُ أَكبَرْ هَذِهِ الحَقِيقَهْ ... قَدْ أَشْرَقَتْ مِنْ مَشْرِقِ الطَّرِيقَهْ
فامْسِكْ أَخِي بالْعُرْوَةِ الوَثِيْقَهْ ... وَهِيَ اتِّباعُكْ سَيِّدَ العَشائِرْ
مُحَمَّدَ المَبْعُوثَ بالهِدايَهْ ... والحَقِّ والتَّحْقِيقِ والوِلايَهْ
إِنْسانَ عَيْنِ الكَشْفِ والعِنايَهْ ... وَرُوحَ مَعْنَى جُمْلَةِ المَظاهِرْ (١)

وَإِذا اتَّصَلتَ بِتِلكَ الرُّوحِ ، فَقَد نُفِخَ فِيكَ مِن رُوحِهِ ، فَتفهَمُ لِـمَ يُنادَى مِثلَ سَيِّدِنا

---

(١) الأبياتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإِمامِ الحَدّادِ مَطلَعها :

نَسِيمُ حاجِرْ يا نَسِيمْ حاجِرْ ... هَل مِن خَبَرْ تَشفِي بِه الخَواطِرْ
عَن خِيرةِ الحَيِّ الَّذِي تُجاوِرْ ... فالشَّوقُ قَد أَربَى عَلَى السَّرائِرْ

أُنظُر «الدُّرّ المنظُوم» ص ١٣٩ .

المسيحِ ، يا رُوحَ الله ، وتَفْهَمُ أَنتَ مِن الأَوامِرِ رُوحَها ، وَمِن النَّواهِي رُوحَها ، وَمِن الخِطاباتِ رُوحَها ، وَمِن الكائِناتِ رُوحَها ، فَتَصِيرُ أَنتَ رُوحاً ، وَ ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، وتفْهمُ معْنَى الإلْقاءِ ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر:١٥].

كانَ الحَبيبُ عَلوِي[1] يَقولُ: «أَنا لَكُم نَذِير» ، فَأَهلُ النَّذارَةِ ، هُم الَّذينَ أُلقِيَ عَلَيهِمُ الرُّوحُ مِن أمرِهِ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞ﴾ [غافر:١٥-١٦].

وَهل يَخفَى عَلَيهِ مِن أَمْرِنا شَيءٌ ؟ واللَّيلَةُ هَذِهِ ما يَخفَى عَلَيهِ مِن أَمرِنا شَيءٌ ، لِمَن المُلكُ اليومَ ؟ وَهذا اليَومَ أَيضاً ، لا يَزال فِينا سَيَلانُ الشُّعُورِ بالمُلكِ لِلغَيرِ ، فَتَحتاجُ مِنّا أَن تُخرَجَ نِهائِيًّا ، ما لأَحَدٍ شَيءٌ مَعَه سُبحانَه وَتَعالَى ، حاشاه فِي ذا وَلا ذاكَ ، هَذا المَشهَدُ .. أَنتَ ذُقْهُ ، ثُمَّ تَـحقَّق بِهِ ، إِذا تَحَقَّقْتَ بِهِ كُسِيتَ خِلعَتَه ، فَطَرَقتَ أَبوابَ حَقِيقَةِ التَّوحِيدِ ، فَإِذا فُتِحَت لَكَ .. زَجَّتْ بِكَ إِلى دَوائِرِ الأَحَدِيَّةِ ، ثُمّ عَرفتَ السِّرَّ

---

(١) هُوَ الحَبيبُ العارِفُ بِالله عَلَوِيّ بنُ عَبد الله بنِ عَيدَرُوس بنِ محمَّد بنِ عَلي بنِ شِهاب الدِّين ، وُلِدَ رَضِيَ الله عَنهُ بِمَدِينَةِ تَرِيم سَنَة ١٣٠٣هـ وَنَشَأَ بِها وَتَرَبَّى عَلى يَدِ عَمِّهِ محمَّد بنِ عَيدَرُوس، كانَ شَيخَ فَتحِهِ الحَبِيبُ عَبدُ الرَّحمن بنُ محمَّد بنِ حُسَين المشهُور ، وَقَد نَذَرَ الاعتِكافَ بِتَرِيم، وَدَرَسَ فِي رِباطِ تَرِيم وَكانَ مِن مَشايِخِهِ الشَّيخ أَحمَد بن أَبِي بَكرٍ الخَطِيب والحَبيب عَلِيّ بن عَبدالرَّحمنِ المشهُور والحَبيب عَبدِ البارِي بنِ شَيخ وَغيرهم ، تُوفِّيَ بِمَدِينَةِ تَرِيمٍ فِي رَمَضانَ سَنَة ١٣٨٦هـ .
وابنُه الحَبيبُ محمَّد بنُ عَلَوِيّ يُعتبَرُ مِن أَجَلّ شُيُوخ صاحِبِ هَذِهِ الأنفاس ، كانَت ولادَتُه فِي ٦ مِن شَهرِ رَبِيعِ الأَوَّل سَنَة ١٣٣١هـ ، وَتَرَبَّى عَلَى يَدِ والِدِهِ وَهوَ شَيخُ فَتحِهِ ، عاشَ جَمِيعَ ساعاتِ عُمُرِهِ فِي الدَّعوَةِ إِلى الله بِجَمِيعِ المعانِي حَتَّى وافتهُ المَنِيَّة وَهُو قائِمٌ يَعِظُ فِي حولِ الحَبِيبِ عَبدِ الله بنِ حُسَينِ بنِ طاهِر صَباح الثُّلاثاء ١٧ مِن شَهرِ رَبِيعِ الثّانِي ١٤٠٠هـ، عَن عُمرٍ يُناهِز التّاسِعَةَ والسِّتِّينَ عَلَيهِ رِضوان الله .

الَّذي صَبَّر بِلالَ بنَ رَباحٍ[1] ، وَلم يخرُجْ مِن الدُّنْيا ، حتَّى صَعدَ عَلَى ظَهْرِ الكَعبَة ، عَسَى لَكُم بَلالٌ .. حتَّى تَلحَقُوا بِبِلالٍ وَمَوْلَى بِلال .

وَإِذا كُنْتَ مِن أَهْلِ البَلَّةِ .. كانَ هُو مَولاكَ ، وَلهَذا إِذا غُصتَ عَلَى سِرِّ الصِّلَةِ بِهِ فَتَتَأَمَّلُ بعدَ ذَلِكَ صَحبَهُ هَؤُلاءِ ، أَقوياءَ أُمَّتِهِ ، مِن خَواصِّ أتباعِهِ ، بَعدَ ذَلِكَ تَتَداخَلُ عَلَيكَ الأَسماءُ ، باتْسَمِّيهِمْ بِلال .. تَعْرِف ، باتْسَمِّيهِمْ أَبابَكْر تَعْرِف ، باتْسَمِّيهِمْ عُثْمان تَعْرِف، باتْسَمِّيهِمْ عَلِي تَعْرِف ، باتْسَمِّيهِمْ الحَسَن تَعْرِف ، باتْسَمِّيهِمْ الحُسَيْن تَعْرِف.

إِنْ غُصْتَ عَلَى سِرِّ هَذِهِ العِلاقَةِ .. فَتَصِيرُ التَّفْرِقَةُ عِنْدَكَ جَمْعاً ، والجَمْعُ واحِداً، فَتَنْتَفِي عَنْك الهُمُومُ المُتَفَرِّقَةُ باجْتِماعِك عَلَيه ، فَيَنُوبُ عَنْك في كُلِّ هَمٍّ ببالِك ، فَيَحِلُّ هو جَلَّ جَلالُه مَحَلَّ هُمُومِك كُلِّها ، أَيْ: إنَّ اللهَ يَكُونُ هَمَّك ، لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصِفَ غِبْطَةَ التَّشْرِيفِ فِي هَذِهِ الخِلعَةِ ، مِن المُمكِنِ تَصَوُّرُها البِدائِي ، فأَمرٌ واضِحٌ أَنْ يَكُونَ هَمُّكَ اللهُ ، لَكِن ما حَقِيقَةُ هذا الأَمر ، الآنَ أَنْتَ مَن أَنتَ وَمَن هُو ؟ ما مَعْنَى كَيْنُونَتِهِ بِعِزَّتِهِ وَجَلالِهِ هَمَّكَ أَنت ؟ مَدَى التَّشْرِيفِ فِي هَذِهِ الخِلعَةِ فَوْقَ تَصَوُّرِ العَقْلِ ، لَكِنِ المَدعُو إِلَى هَذا كُلِّه ، كَيْفَ يَرْضَى بِالسُّفْلِ ، أَو بِالدَّناءَةِ ، سُبْحانَ الله ! لا عَيْشَ إِلا مَعَهُم .

قَلْبِي مُعَلَّقْ مَعاهُمْ في أَرْضِهِمْ وَسَماهُمْ

---

(١) بِلالُ بنُ رَباح : مُؤَذِّنُ الرَّسُولِ صَلى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، كانَ يَقُولُ سَيِّدُنا عُمَرُ فِيهِ : **(أَبُوبَكر سَيِّدُنا وَأَعتَقَ سَيِّدَنا)** ، كانَ شَدِيدَ السُّمرَةِ ، نَحِيلاً ، مُفرِطَ الطُّولِ ، كَثَّ الشَّعرِ ، كانَ عَبداً لأُناس مِن قَبِيلَةِ بَنِي جُمح الَّتِي كانَ أُمَيَّةُ بنَ خَلَفَ أَحدَ شُيُوخِها ، قاسَى سَيِّدُنا بِلالُ أَشَدَّ أَلوانِ التَّعذِيبِ وَلَكِنَّه صَمَدَ صُمُودَ الأَبرارِ العِظام ، عاشَ إِلى خِلافَةِ سَيِّدِنا عُمَر ، واستَقَرَّ فِي الشّامِ وَفِيها انتَقَلَ إِلى جِوارِ رَبِّهِ مُرابِطاً فِي سَبِيلِهِ سَنَة ٢٠هـ .

وَلَيْس عِنْدِي كَماهُمْ عَرِّجْ بِهِمْ يَوْمْ غِبِّي [1]

الله يُدخِلنا فِي ذَلِكَ العَيش .

فَهُناكَ العَيْشُ وَبَهْجَتُهُ فَلِمُبْتَهِجٍ وَلِمُنْتَهِجِ [2]

ترجمة الشوق إلى الله

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: تَفانُوا فِي الإقبالِ عَلَى رَبِّكُم واصدُقُوا مَعَه فِي كُلِّ أَحوالِكُم ، واعشَقُوا لِقاءَهُ حتَّى تَلقوهُ ، تَرجِمُوا ذَلِكَ بِامتِثالِ الأَوامِرِ والمسابَقَةِ إِلى كَرِيمِ الأَخلاقِ والشَّمائِلِ، وَكَسبِ الفَضائِلِ ، واقتِلاعِ شَجَرِ الرَّذائِلِ ، ومُواصَلَتِكُم حتَّى تُواصَلُوا.

في ذكر بعض قواطع الطريق

وقال رضي الله عنه ونفعنا به [3] بَعْضُ النّاسِ لِقُصُورِهِ .. يَظُنُّ أَنَّ شُؤُونَ هَذِهِ الخِدمَةِ والقِيامَ بِها مَقصُودَةٌ لِذاتِها ، والمقصُودُ لِذاتِهِ ، والمحبُوبُ لِذاتِهِ ، مِن جَمِيعِ الوُجُوه .. لا يَكُونُ غَيرُ الواحِدِ قَط ، فَلا يَتَأَتَّى أَن يُحِبَّ شَيءٌ فِي جَمِيعِ عَوالِمِهِ وَكائِناتِهِ مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ عَلَى الإِطلاقِ إِلا ذاتُه جَلَّ جَلالُه وتَعالَت عَظَمَتُه .

والمُدْرِكُونَ لِهَذِهِ الحَقائِقِ ، لا يَزالُونَ فِي تَرَقٍّ فِي عَيْشِهِم الرّائِقِ ، وَلأَجْلِ ذَلِكَ تَكُونُ عِندَهم انبِساطاتٌ فِي مُواصَلاتِ الأَعمالِ ، لَكِن عَلَى أَحوالِ تَرَقٍّ ، وَكَمالِ تَنَقٍّ ، وَحُسْنِ تَلَقٍّ ، فَيَتَهَيَّؤُونَ لأَنْ تُسَخَّرَ لَهم السَّماواتُ والأَرضُ وَما فِيها ، وَفِيهِم يُتَرجَمُ مَعْنَى قَوْلِه تَعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣]،

---

(١) الأبياتُ مِن قَصِيدَةٍ لِسَيِّدِنا الإمامِ عُمَرَ المحضار مَطلَعها :

أَهــلاً وَسَهــلاً بِحِبِّــي يا مَن سَكَنْ وَسطِ قَلبِي

وَفِي الهَوَى صار حَسبِي هَـذِه مَقادِيـر رَبِّـي

(٢) البَيتُ مِن القَصِيدَةِ المُنفَرِجَة لأَبِي النحوي.

(٣) لَيلَةَ الأَربعاءِ ٢٠ مِن شَهرِ رَبِيعٍ الثّانِي ١٤١٩هـ .

وَكَم تَحتَ الكَلِمَةِ مِن مَعانٍ ، وَلَكنَّ أَصحابَ القُيُودِ إِذا رَضُوا بِقُيُودِهِم .. فَما ظُلِمُوا وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُم .

والقُيُودُ كلُّ داعِيَةِ انقِطاعٍ وابتِداعٍ ، وَزَيْغٍ وَتَعالٍ وَتَكَبُّرٍ وَتَرَفُّعٍ ، وَحِقْدٍ وَحَسَدٍ وَسُوءِ ظَنٍّ وَما إِلَى ذَلِكَ ، هَذِهِ قَواطِعُ لِلطَّرِيقِ ، فالعَجَبُ كَيفَ يَرْضَونَ بِها؟!

وَأَمثالُ المجتَمِعِينَ عَلَى هَذا الأَمرِ ، يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا أَصحابَ الأُذُنِ الواعِيَةِ ، فَإِنْ لَم يَتَمَيَّزُوا فِي ذِلَّتِهِم وَفِي تَخَلُّصِهِم مِن شَوائِبِ النَّفْسِ ، فَما مَعْنَى أَنْ يَكُونُوا عامِلِينَ فِي مَجالِ الدَّعوَةِ ، أَو قائِمِينَ بِشَيْءٍ مِن شُؤُونِها ؟ ما مَعْناه ؟

النّاسُ يَتَنافَسُونَ عَلَى الفانِياتِ وَهُم تَنافَسُوا عَلَيها ، النّاسُ يَركَنُونَ لِلدَّنايا وَهُم رَكَنُوا إِلَيها ، النّاسُ يَتَحاسَدُونَ وَهُم تَحاسَدُوا ، بَعْدَ ذَلِكَ ما مِيزَتُهم ؟ أُقعُدْ مَحَلَّك.. المجالُ لَه رِجالُه.. اختارُوا أَنْ لا يَبْقَوا مَع شَوائِبِ نُفُوسِهِم ، وَوَجَّهُوا كُلَّ الهِمَّةِ إِلَى قُدُّوسِهِم ، فَأَعانَهم وَصَفّاهُم وَنَقّاهُم .

وَيَجِبُ أَن لا يَتَأَخَّرَ أَهلُ هَذا الميدانِ ، فِي تَفكِيرِهِم فِي الارتقاءِ عَن الرُّعُوناتِ النَّفسِيَّة ؛ لأَنَّ الوَقْتَ لا يَنْتَظِرُهُم ، وَلا يَقُومُ أَيضاً إِذا رَكَنُوا إِلَى هَذِهِ الدُّنيا عُذْرُهُم، الطَّرِيقُ هُيِّئَت لَنا ، السَّبِيلُ وُضِّحَ لَنا ، والحادِي أَحسَنَ حَدْوَنا ، والأُمُورُ تَيَسَّرَت كَثِيراً ، والرَّحْمَةُ أَحاطَتْ ، والعِنايَةُ حَصَلَتْ ، فَما بَقِي ؟

لا يَزالُ الواحِدُ مِنّا وَقارُهُ ناقِصاً ، سَكِينَتُه ناقِصَةً ، أَدَبُه ناقِصاً ، تَواضُعُه ناقِصاً ، حُسْن ظَنِّه ناقِصاً ، أَنتَ تُحِبُّ النَّقْصَ لماذا ؟ إِلَى مَتَى ؟ لَكَ شَهرٌ ، شَهران، أَربَعُونَ يوماً تكفِيك ، بَل يَأْتِي إِلَى مِثلِ هَذِهِ المَواطِنِ فِي مِثلِ هَذِهِ المَوارِدِ أَربَعَةَ أَيّامٍ وَتَكفِيهِ ، وَسَوفَ يَصِلُ إِلَيها مَن تَكفِيه أَربَعُ ساعاتٍ ، وَسَوف يَصِلُ إِلَيها مَن تَكفِيهِ أَربَعُ

لَحَظاتٍ ، قالُوا لِلحَبيبِ عَلي[١] : هَذا يَطلُبُ لِقاءَكَ ! وَيَتعَلَّقُ بِك ، وَيَرْحَلُ مِن بِلادٍ إِلَى بِلادٍ ، وَلَمّا جاءَ نَظَرَ إِلَيكَ لَحْظَةً وسافَرَ ! قالَ لَهم : «فِي هَذِهِ اللَّحظَةِ قَد قُضِيَتْ مَطالِبُه كُلُّها ، فَقَد ظَفَرَ بِجَمِيعِ المَقاصِد» ، وَصَلَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى مَسْجِدِ الرِّياض[٢] ، وَسَأَلَ أَينَ الحَبيبُ عَلِيّ ؟ قالُوا لَه : لا يَزالُ فِي البَيتِ وَلَكِن سَيأتِي إِلَى المسجِدِ لِكَيْ يُصَلِّي ، ما صَبَرَ لِـما فِي باطِنِه ، ذَهَبَ نَحوَ البَيْتِ ، وَوَصَلَ إِلى عِنْدَ البابِ ، فَوَجَدَ الحَبيبَ عَلِي نازِلاً ، وَلَمّا فَتَحَ البابَ نَظَرَ إِلَيهِ مِن رَأْسِه إِلَى قَدَمَيهِ وَسافَرَ .

والخُلاصَةُ أَنَّ المَوارِيثَ تَطْلُبُ أَهْلَها ، وَأَهلُها يَقَعُ فِي قُلُوبِهِم طَلَبُها ، فَيُحْسِنُوا الطَّلَبَ ، فَيُحَقِّقُ اللهُ المَطْلَبَ ، فَلابُدَّ أَنْ تَدْخُلُوا هَذا المِيدانَ بِكَمالِ اطْمِئْنانٍ .

كَمِّلُوا نَواقِصَكُم فِي الوَقارِ ، والضَّحِكُ كَمْ حَدُّه فِينا ؟ كَمِّلْ نَواقِصَكَ فِي تَواضُعِك ـ التَّواضُع القَلْبِيّ ـ قَلِّلْ مِن تَواضُعِ اللِّسانِ[٣] ، اجْعَلِ الحَقَّ يَطَّلِعُ مِن قَلْبِكَ عَلَى عَقِيدَةٍ هَكَذا ، مِن دُونِ ما تَتَكَلَّم .

---

(١) هُو الإمامُ عَلِيّ بنُ مُحمَّد بنُ حُسَين بنُ عَبد الله بنُ شَيخ الحَبَشِي ، وُلِدَ رَضِي الله عَنهُ بِمَدِينَة قَسَمْ فِي ٢٤ مِن شَهرِ شَوّال سَنَة ١٢٥٩هـ ، تَفَرَّغَ لأَخذِ العِلم عَن أَبِيهِ فِي مَكَّةَ المَكَرَّمَة ، وَتَتَلمَذَ أيضاً عَلَى يَد السَّيِّد أَحمَد زَينِي دَحلان وَقَرَأَ عَلَيهِ فِي الفِقهِ كِتابَ مِنهاج الطّالِبِينَ ، وَعادَ إِلى سَيؤُون وَبَنَى بِها الرِّباط المَشهُور سَنَة ١٢٩٠هـ وَهوَ أَوَّلُ مَعهَدٍ بُنِيَ لِلتَّعلِيم بِحَضرَمَوت ، وَلا يَزال حامِلاً رايَةَ العِلمِ والدَّعوةِ حَتَّى كانَت لَحظَةَ وَفاتِهِ فِي ٢٠ مِن شَهرِ رَبِيع الثّانِي سَنَة ١٣٣٣ هـ .

(٢) هُو المسجِدُ الَّذِي بُنِيَ سَنَة ١٣٠٠هـ عَلَى يَدِ الحَبِيبِ عَلِّي الحَبَشِي بِمَدِينَةِ سَيؤون.

(٣) هُوَ كَثرَةُ الكَلامِ وَتَردِيدُ الأَلفاظِ الَّتِي يُفهَمُ مِنها تَواضُعُ الشَّخصِ المتَحدِّث بِها ، كَأَن يَقُول حِينَما تُخاطِبهُ فِي أَمرٍ أَو تُكَلِّفهُ بِمُهِمَّةٍ : أَنا لَستُ أَهلاً لِذَلِك ، أَنا غَيرُ صادِقٍ ، أَنا غَيرُ مُرتَبِطٍ ، أَنا لا أَعرِفُ شَيئاً ، أَنا لا أَفهَمُ وَهَكَذا ، فالمطلُوبُ أَن يَكُونَ هَذا الأَمر حالٌ بَينَه وَبَينَ الله مِن غَيرِ تِكرارٍ لِمثلِ هَذِهِ الأَلفاظِ .

رَأَيْنا أعْداداً مِن أَهلِ عَظِيمِ الإمْدادِ .. قَلِيلي كَلامِ التَّواضُعِ بِاللِّسانِ ، راسِخِي الأَقْدامِ فِي التَّواضُعِ مَغْمُورِينَ فِيهِ بِالجَنانِ ، فَهُمْ عِنْدَ اللهِ رِجالُ الذِّلَّةِ لله ، فَأَبَى لَهم إلا العِزَّةَ فِي الحَياةِ ، وَعِندَ الوَفاةِ وَبَعْدَ الوَفاةِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] .

خُذُوا بِالجِدِّ فِيها واسْتَقِيمُوا ... فَإنَّ دَلِيلَها أَقْوَى دَلِيلِ
خُذُوا فِيْها بِصِدْقٍ والْزَمُوها ... دَواماً فِي الإقامَةِ والرَّحِيلِ(١)

* * *

وَها هِيَ أَعْمالٌ خَلَتْ عَنْ شَوائِبٍ ... وَعِلْمٌ وَأَخْلاقٌ وَكَثْرَةُ أَوْرادِ
وَأَرْبابُها يَسْعَوْنَ فِيها بِوِجْهَةٍ ... فَهُمْ بَيْنَ عُبّادٍ بِعِلْمٍ وَزُهّادِ
أُولَئِكَ قَوْمٌ شَرَّفَ اللهُ قَدْرَهُمْ ... فَهُمْ بَيْنَ أَقْطابٍ كِرامٍ وَأَوْتادِ
وَمِمَّنْ مَضَى مِنْ أَهْلِ عَصْرِي أَئِمَّةٌ ... أَخَذْتُ طَرِيقَ الحَقِّ عَنْهُمْ بِإِسْنادِ
مُسَلْسَلَةٌ عَنْهُمْ أَسانِيدُ أَخْذِهِمْ ... إِلَى خَيْرِ مَحْمُودٍ وَأَشْرَفِ حَمّادِ
طَرِيقَةُ رُشْدٍ قَدْ تَلَقَّى الَّذِي لَها ... مِنَ السِّرِّ أَمْجادٌ خَلائِفُ أَمْجادِ
أَبٌ يَتَلَقّى عَنْ أَبِيهِ وَهَكَذا ... فَيا لَكَ مِنْ آبا كِرامٍ وَأَجْدادِ(٢)

الاستعداد لتلقي المعاني

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: الإِحساسُ زَينٌ ، يُورِثُ تَحَسُّساً ، يُثمِر تَنَبُّهاً ، وَيُقابِلُه تَخَنُّنٌ ، يَبْدُو ما

---

(١) البَيتانِ لِلحَبِيبِ عَلِيِّ بن محمَّدٍ الحَبَشِي مَن قَصِيدَةٍ مَطلَعُها :

لَكُم بُشْرَى الإجابَةِ والقَبُولِ ... مِن المَولَى بِواسِطَةِ الرَّسُولِ

أُنظُر «سَمطِ الدُّرَر» ص ١١٨ .

(٢) الأَبياتُ لِلحَبِيبِ عَلِيِّ بنِ محمَّدٍ الحَبَشِي مِن قَصِيدَةٍ مَطلَعُها :

إِلَى المسلَكِ المحمُودِ أَرْشِدْ أَولادِي ... وَمَن يَقبَلُ الإرشادَ مَن أَهلِ ذا الوادِي

أُنظُر الدِّيوان الحَكَمِي ص٨٦ .

يَزُولُ بِهِ الالْتِباسُ، وَيكُونُ بِهِ الإِحْساسُ، وَيَصْلحُ بِهِ النّاسُ، والمعانِي تَخْتَلفُ بِعُمُومِها وَخُصُوصِها، واخْتِلافِ[1] الاسْتِعْداداتِ، والعُقُولُ والأَرواحُ قابِلَةٌ، مَرْجِعُها إِلى إِقامَةِ حَقِيقَةِ العُبُودِيَّةِ، وَسعَةِ اسْتِيعابِ الخَلْقِ، فِي قَوالِبِ الأَخلاقِ النَّبَوِيَّةِ.

فليَرْفَعُوا لَهم الهِمَمَ فِي إِدراكِ أَسرارِ الخِلافَةِ، والوِراثَةِ النَّبَوِيَّةِ، والصِّلَةِ بِالحَقِّ جَلَّ جَلالُه، مِن خِلالِ هَذِهِ الأَعمالِ نَفْسِها، وَهَذا المَيدانِ نَفْسِه، وَهَذا المَجالِ نَفْسِهِ، حَتَّى يَكُونُوا رَبّانِيِّينَ، وَيَتَعالَونَ عَمّا يَدُورُ مِن شُؤُونِ النُّفُوسِ والحَساسِيّاتِ، والالْتِفاتِ إِلَى المَظاهِرِ، يَبْذُلُونَ المَوَدَّةَ لأَهْلِ الإِسْلامِ، حَتَّى لِمن عارَضَهم وانتَقَدَهُم، وَلا يُفَوِّتُوا الوَقْتَ فِي مُماراةِ المُنْتَقِدِينَ، مُقابِلَ أَنْ يُضَيِّعَ إِفادَةَ مُسْتَفِيدِينَ، وَتَرْقِيَةَ مُتَرَقِّينَ، يَتَعامَلُونَ مَع الحَقِّ بِالطُّمَأْنِينَةِ، والاعْتِمادِ عَلَيهِ.. وَيَتَعَلَّمُونَ سِرَّ التَّحَقُّقِ بِالبَراءَةِ مِن الحَوْلِ والقُوَّةِ، حَتَّى لا يَشْهَدُوا لَهم قُوَّةً فِي شَيءٍ، وَلا حَولاً فِي شَيءٍ، وَيَشْهَدُونَ الحَوْلَ والقُوَّةَ كُلَّها إِلَيهِ «وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِالله».. يَعْثُرُون عَلَى الكَنْزِ[2].

وَإِلى هَذِهِ العُمُومِيّاتِ تَرْجِعُ كَثِيرٌ مِن المعانِي الَّتِي قَد يَحْتاجُ بَعْضُها إِلَى تَفْصِيلاتٍ، وَهَذا عِندَ المتَهَيِّئِ لَه، وَيُقابِلُ استِيعابَ هَذا التَفصِيلِ القَوِيّ، عَلَى قَدْرِ تَحْصِيلِه[3].

الطمع في صاحب الحكم المطلق

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: سُبحانَ الله الَّذِي يَأذَنُ بِذِكْرِه وَذِكْرِ حِكَمِهِ فِي الوُجُودِ حَتَّى لِلعُصاةِ والقُساةِ أَمثالِنا، وَهَذا مِن جُمْلَةِ آياتِه فِي العَطاءِ، وَمِن جُمْلَةِ عَجائِبِ الجُودِ والكَرَمِ،

(١) أَي: إِنَّ فَهمَ المعانِي يَتَفاوَت عَلَى حَسبِ اختِلافِ الاستِعداداتِ.
(٢) قَال النَّبِيُّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ لِعَبْدِالله بنِ قَيْسٍ: «يا عَبْدَالله بنَ قَيْسٍ.. أَلَا أَدُلُّكَ على كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنّةِ؟» قُلْتُ: بلى يا رَسُولَ الله.. قال: «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاّ بِالله». رواه البخاري برقم (٣٩٦٨).
(٣) أَي: إِنَّ الاستِيعابَ القَوِيَّ لِتَفصِيلِ هَذِهِ المعانِي إِنَّما يَكُونُ عَلَى قَدرِ التَّحصِيلِ

وَإلا ما كُنّا لِنَصِلَ لِكَرَمِهِ وَلا لِرَحمَتِهِ أَبداً ، لو لَم تَكُنْ عَظِيمَةً وَواسِعَةً وَمُتعالِيَةً وَمُنزَّهَةً عَن الحَدِّ والحَصْرِ والكَيْفِ .. ما كُنّا لِنَبْلُغَ شَيْئاً قَطُّ مِن هَذا الكَلامِ ، فَيَكْفِي النَّقْصُ الَّذِي عِنْدَنا ، والتَّقْصِيرُ فِي أَحْسَنِ أَعمالِنا وَأَفْضَلِها ، يَكْفِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حاجِباً وَمانِعاً ، فَكَيْفَ في باقِي أَعمالِنا ؟ وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ ما مَنَعَ وَلا حَجَبَ وَلا حَرَمَ وَلا أَبْعَدَ وَلا صَدَّ وَلا أَغْلَقَ وَلا أَعْرَضَ وَلا أَرانا إلا كَرَمَه وَإِحْسانَهُ فِي كُلِّ حالٍ ، وَهَذا يَكْفِي دَلِيلاً عَلَى عَظَمَةِ المِنَّة وَعَظَمَةِ الكَرَمِ والجُودِ .

المُتَكَلِّمُونَ بِأَلْسُنِ الذَّوقِ مِن الماضِينَ والحاضِرينَ كُلِّهم لا إِشكالَ فِي كَلامِهِم ، وَلَكِن تَسرِي سِرايَةُ كَلامِهِم فِي لِسانٍ عاصٍ وَصاحِبِ قَلْبٍ عاصٍ فَيَتَكَلَّمُ بِهِ ، هَذا عَجِيبٌ وَهَذا غَرِيبٌ ! هُو الكَرِيمُ الَّذِي يُعْطِي وَلا هُو مُبالِي ، هُنا العَظَمَةُ ، يُعَذِّبُ وَلا يُبالِي ، وَيُنْعِمُ وَلا يُبالِي ، سُبْحانه جَلَّ جَلالُه ! يَحْكُمُ كُلَّ شَيْءٍ وَلا يَحكُمه شَيْءٌ .

حَتَّى حُكّامُ الأَرْضِ هَؤُلاءِ الحُكْم المجازِي ، مِنْهم الَّذِينَ يَحْصُرُهم وَيُقَيِّدُهُم قانُونٌ ، وَمِنْهُم الَّذِينَ ما يَحْصُرُهم شَيْءٌ ، فالَّذِي ما يَحْصُره شَيْءٌ يَخافُونه النّاسُ أَكْثَرَ وَرُبَّما رَجَوْهُ أَكْثَرَ ، وَلَكِنَّ المُتَقَيِّدَ بِمَنْهَجٍ أَو بِقانُونٍ يَقِلُّ الطَّمَعُ فِيهِ ؛ لأَنَّه مَحكُومٌ ، وَيَقِلُّ الخَوفُ مِنهُ ؛ لأَنَّه مَحكُومٌ ، هَذا وَصفُ الخَلْقِ ، أَمّا صاحِبُ الحُكْمِ المُطْلَقِ أَحَقُّ بِأَنْ يُرجَى ، وَأَحَقُّ بِأَنْ يُخافَ مِنه ، وَأَحَقُّ بِأَنْ يُطْمَعَ فِيهِ مِن كُلِّ جانِبٍ ، وَأَن يُهابَ مِن كُلِّ جانِبٍ ، سُبْحانَه المُتَصَرِّف ! يَقُولُ اللهُ: هَؤُلاءِ الخَلْقُ عَلَى قَبْضَتَينِ ، هَؤُلاءِ إِلَى الجَنَّةِ وَلا أُبالِي ، وَهَؤُلاءِ إِلَى النّارِ وَلا أُبالِي[1] ، وَقالَ سُبْحانَه : لِكُلٍّ مِنكُم عَلَيَّ مِلْؤُها (الجَنَّةُ والنّارُ)[2] ، جَلَّ الجَبّار .

---

(١) قالَ النَّبِي صَلىَّ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ حِينَ خَلَقَهُ فَضَرَبَ كتفه اليُمْنَى فاخرَجَ ذُرِّيَّةً بَيْضاءَ كَأَنَّهُم الذَّرُّ ، وَضَرَبَ كَتِفَهُ اليُسْرَى فاخرج ذُرِّيَّةً سَوْداءَ كَأَنَّهُم الحُمَمُ ، فَقالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ : إِلَى الجَنَّةِ وَلاَ أُبالِي . وَقالَ لِلَّذِي فِي كَفِّهِ اليُسْرَى : إِلَى النّارِ وَلاَ أُبالِي» رَواهُ مُسلِمٌ.

(٢) شاهِدُ ذَلِكَ قَولُ رَسُولِ اللهِ صَلىَّ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: «احتَجَّتْ الجَنَّةُ والنّارُ فَقالَتْ النّارُ : فِيَّ الجَبّارُونَ

وَلِكَونِهِ صاحِبَ الحُكمِ المُطْلَقِ جَلَّ جلالَه تَـرَى كَـيْفَ خَـشْـيَةُ المـلائِكَةِ ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨]، الملائكَةُ ما وُعِدُوا بِجَنَّةٍ وَلا تُوَعِّدُوا بِنارٍ ، لَكِنَّهُم عَرَفُوا الحَقِيقَةَ ، فَما يَحْتاجُون إِلَى وَعْدٍ أَو وَعِيدٍ .. إِلا فَضْلٌ مِنه سُبْحانَهُ وَسِياسَةٌ لنا نَحْن ، وَسَوْقٌ لِلخَيْرِ أَتَى لَنا بِالوَعْدِ والوَعِيد ، هَذا بِسَبَبِ ضَعْفِنا ، وأَمّا هَؤُلاءِ لا وَعْدَ ولا وَعِيدَ بالنِّسْبَةِ لهم ، ولكن مَعَ ذَلِك عِنْدَهم خَوْفٌ ورَجاءٌ .

الحَمْدُ لله الَّذِي جَعَل مِنّا سَيِّدَهُم وَإِمامَهُم الَّذِي يَلْجَؤُون إِلَيْه ، الحَمدُ لله الَّذِي جَعلَه مِن هَذا النَّوعِ الإِنسانِي ، فَلِهَذا قالَ الحَبِيبُ أَحْمَدُ بنُ حَسَن : (**ما أَغْبِطُ مَلَكاً وَلا غَيْرَه ، لَكِن أَغْبِطُ الَّذِي يَتَّبِعُ الحَبِيبَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم**) ، والَّذِي يَعْرِفُ أَسْرارَ اتِّبـاعِهِ مِن خِلالِ اتِّباعِ السَّلَفِ الصّالِحِ فَهَذا أَغْبِطُه ، وَأَمّا المَلَكُ كَيْفَ أَغْبِطُه وَهو مَعْصُومٌ ؟ فَلا يُتَصَوَّرُ ذَلِك ، وَهَل سَيِّدُ الخَلْقِ مِن المَلائِكَةِ أَو مِن هَذا النَّوعِ الإِنسانِي؟ إِذا فابْحَثْ لَكَ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي تَقْدِرُ عَلَيهِ ؛ لأَنَّـه قَد تَحْصُلُ مِنَ النَّوْعِ الإِنْسانِيِّ المتابَعَةُ لِلحَبِيبِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم فَهَذا تَغْبِطُهُ ، وَأَمّا ساداتُنا الأَنبِياءُ والمُرسَلُون فَلِعُلُوِّ مَراتِبِهِم لا يَتَأَتَّى الوُصُولُ إِلَيهِم بِمَعْنَى المساواةِ لَهُم .

فيما يتعلّق بصدق الإقبال ونفي الالتفات لغير الحقّ سبحانه وتعالى

وقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ الطَّرِيقُ مُيَسَّرَةٌ ، والسَّبِيلُ مُمَهَّدَةٌ ، والدّاعِي ما وَقَفَ عَن دَعْوَتِنا لَحْظَةً، والحادِي باسِطٌ حِبالَ حَدْوِه فِي كُلِّ لَـمْحَةٍ ، فَماذا بَقِيَ عَلَينا ؟ نُلَبِّي إِنْ شاءَ الله ، نُجِيبُ إِنْ شاءَ اللهُ ، نَصْدُقُ إِنْ شاءَ الله ، نَطْرُقُ الأَبْوابَ إِنْ شاءَ اللهُ ، نَتَوَجَّهُ إِنْ شاءَ اللهُ ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩]، لا تُشْرِكْ مَعَه فِي الوُجُودِ شَـيْئاً ، لا تُشْرِكْ مَعَه عَـرشاً ، وَلا

والمتكَبِّرون ، وَقالَت الجَنَّة : فِيَّ ضُعفاء المسلِمِينَ وَمَساكِينِهِم ، فَقَضَى الله بَينَهما إِنَّكِ الجَنَّة رَحمَتِي أَرحَمُ بِكِ مَن أَشاءُ ، وَإِنَّك النّارُ عَذابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَن أَشاءُ وَلِكِلَيكُما عَلَيَّ مِلؤُها» رَواهُ مُسلِمٌ.

كُرسياً ، وَلا جَنَّةً ، وَلا ناراً ، وَلا شَيْئاً مِن مَخْلُوقاتِه ، فَلَيْس لها وُجُودٌ ذاتِيٌّ قَطُّ قَطُّ قَطْ ، هَذِه كُلُّها أَصْلُها عَدَمٌ ، الوُجُودُ له ، هَذِه كُلُّها حَواجِزُ قابِلَةٌ لِلزَّوال ، ولو أرادَ أَنْ تَزُولَ لَزالَت .

ولا في الإرادَةِ .. لا تُثْبِتْ مَعَه شَيْئاً ، ولا في القُدْرَةِ ، ولا في العِلْمِ ، ولا في الـحَياةِ، ولا في السَّمْعِ .. تَسْمَعُ ، ولا في البَصَرِ .. تُبْصِر ؛ لأنـَّه الله السَّمِيعُ البَصِير .

الله يُرَقِّينا وَإيّاكُم وَجَمِيعَ إِخْوانِنا وَصَحْبِنا ، وَأَهْلِ وِجْهَةِ الخَيرِ مِن الجِنِّ والإِنْسِ فِي المَشارِقِ والمَغارِبِ ، وَيُعِيدُ عَلَينا وَعَلَيْكُم عَوائِدَ الاتِّصالِ ، حَتَّى نَسْلَمَ مِن كُلِّ اعْوِجاجٍ ظاهِراً وَباطِناً .. آمِين اللَّهُمَّ آمِين .

إِنْ عَرَفْتُم حَمْلَ هَذِه الأَمانَةِ .. احْمِلُوها ، وَإِنْ عَرَفْـتُم أداءَها .. أَدُّوها ، وَإِنْ عَرَفْتُم الدَّلالَةَ عَلَيْها .. دُلُّوا بِها ، وَكُلُّ ذَلِك يَحْصُلُ مِن بَعدِ التَّوَجُّه التّامِّ ، بِكُلِّ باطِنٍ وكُلِّ ظاهِرٍ.

الأنس بالله

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنفعنا بِهِ: مَن لَم يَكُنْ لَه أُنسٌ بِالطّاعَةِ .. كَيْفَ يَكُونُ لَه أُنسٌ بِالمُطاعِ ؟ وَمَن لَم يَكُن له أُنسٌ بالعِبادَةِ .. فَكَيفَ يَصِلُ إِلى الأُنسِ بالمَعْبُودِ ؟ أَوَّلاً تَأْنَسُ بِطاعَتِه ، تُـحِبُّها وَتَعْشَقُها وَتَسْتَلِذُّ بِها ، ثُمَّ بَعدَ ذَلِكَ يَفْتَح لَكَ بابَ الأُنْسِ بِه ، وَهوَ شَيْءٌ لا يُعَبَّر عَنهُ ، وَلَن يُكَلِّمَك عَنه أَحَدٌ إِلا إِنْ فَتَحَ لَكَ هو بابَه .. سَتَذُوقُ وسَتَنْظُرُ وسَتَعْرِفُ، أما الكَلامُ فلا أَحَدَ سَيُغْنِيك عنه بِكَلامٍ ، شُدَّ الحِزامَ وقِفْ على البابِ الَّذِي دَخلُوا منه كُلُّهم .

باب مَوْلاكْ لِي مِنْهُ وُرُود الفَوايِدْ

ثمرة الحفاظ على شهود الحق تعالى

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[1] لَو حافظَ كُلٌّ مِنّا عَلَى شُهُودِهِ وَمَشْهُودِهِ وَقَصْدِ مَعْبُودِهِ ، مَع التعَلُّقِ بِأَذْيالِ كَرَمِهِ وَجُودِهِ ، مُتَحَقِّقاً بِحَقائِقِ سُجُودِهِ ، لما كانَت هُناكَ فِي عالَمِ الظّاهِرِ مُبايَنَةٌ ، وَلا مُنازَعَةٌ إلا ما قَد يَحصُلُ بِسَبَبِ شَيْءٍ مِن الوَهْمِ أَو سُوءِ التَّصَرُّفِ .

وَلَعاشَ فِي النّاسِ لا لِلنّاسِ ، وَبَينَ النّاسِ لا بِالنّاسِ ، وَوَسَطَ النّاسِ لا فِي النّاسِ، فَهوَ يَعِيشُ بَينَ الخَلقِ لِلخالِقِ بِالخالِقِ ، يُخاطِبُهُم فِي اللهِ وَيُعامِلُهُم للهِ وَيُكَلِّمُهُم بِاللهِ، وَصِدْقُ الوِجْهَةِ إِلى رَبِّ الأَربابِ هُو الَّذِي تُقطَعُ بِهِ هَذِهِ العِقابُ ، وَتُنالُ بِهِ هَذِهِ الآراب .

إفراد القصد لله تعالى

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[2] إفرادُ القَصدِ لِلحَقِّ تَبارَكَ وَتَعالى بِأَنْ تَتَذَكَّروا دائِمًا أَنَّ المَقْصُودَ هُوَ اللهُ وَرِضْوانُه ، وَمَن قَصْدُهُ اللهُ .. يَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَ على قَدْرِ القَصْدِ هذا، فَلَو أَنَّ عِنْدِي مِئَةَ أَلْفِ رُوحٍ أَو أَكْثَرَ وَقَدَّمْتُها واحِدَةً بَعْدَ الثّانِيَةِ فِي سَبِيلِهِ لَكانَت كُلُّها يَسِيرَةً وَحَقِيرَةً وَصَغِيرَةً .. جانِبَ لَحظَةٍ مِن رِضوانِ اللهِ تَعالى ، هَذا حَقٌّ ، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ ، وَكَلامٌ صِدْقٌ .

إذا فَمَنْ أَفرَدَ القَصدَ للهِ تَعالَى .. لَم يَضُرَّهُ ثَناءُ النّاسِ وَذَمُّهُم ؛ لأَنَّـهُ ما قَصَدَهُم أَصلاً، فَلَو قَصَدَهُم إِنْ مَدَحُوه .. انْتَفَخَ[3] ، وَإِنْ ذَمُّوهُ .. تَـكاسَلَ ، لَكِن إذا لَم يَقصِدهُم ، وَكانَ القَصدُ عِندَه مُفْرَدٌ لِواحِدٍ .. أَتْرُكهُم يَمْدَحُونَ وَيَذُمُّونَ حَتَّى يَمَلُّوا، فَلا أَحَدَ مِنْهُم يُقَدِّمُ وَلا يُؤَخِّرُ ، وَالمَقْصُودُ واحِدٌ اسْمُهُ اللهُ ، وَالواسِطَةُ وَالدَّلِيلُ واحِدٌ اِسْمُه مُحَمَّدٌ ، وَالطَّرِيقُ إِلَيهِ سَنَدُنا ، وَهُم أَئِمَّتُنا وَشُيُوخُنا ، فَباقِي الكائِناتِ ما عَلَيْنا مِنها فَلا

---

(١) وَذَلِكَ فِي ١٢ مِن شَهرِ صَفَر ١٤٢٠هـ .

(٢) يَومُ الخَمِيسِ ١٨ مِن شَهرِ ذِي القِعدَةِ ١٤٢٠هـ .

(٣) كِنايَةٌ عَن فَرَحِهِ بِالمدحِ .

نَقْصُدُها وَلا نَلْتَفِتُ إِلَيْها ، اللهُ يُثَبِّتُ أَقْدامَكُم ، أَنتُم فِي نِعمَةٍ مِن اللهِ أَنْعَمَ بِها عَلَيكُم، اللهُ يُتِمُّها عَلَيكُم ، والعاقِبَةُ لِلمُتَّقِين .

في شأن قصد الوصول إلى الله من خلال أعمالنا

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ [1] السّائِرُ فِي هَذا السَّبِيلِ لابُدَّ أَنْ يَكُونَ لَه مَقْصَدٌ صالِحٌ وَصادِقٌ فِي وُصُولِهِ إِلَى رَبِّهِ ، فَيَكُونُ السّائِرُ عَلَى وَصْفِ استِحلاءِ ذِكْرِهِ والقِيامِ بِوَظائِفِ شُكْرِه تَعالَى ، وَيَعْرِفُ النُّقْصانَ مِن المَزِيدِ فِي أَحوالِهِ وَلا يَزالُ يَسْتَزِيدُ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الحَقَّ تَعالَى لَيسَ أَهلاً لأَنْ يُيَئِّسَ أَحَداً مِنه ، وَلَيسَ أَهلاً لأَنْ يُقْتَصَرَ بِالعَمَلِ لَه عَلَى ظَواهِر ، الحَقُّ تَعالَى مُنَزَّهٌ عَن أَنْ يَكُونَ شَأنُه هَكَذا ، فَهَذا الرَّبُّ لا يُمْكِنُ مُخادَعَتُه وَلا يُعامَلُ بِالقَوالِبِ ، وَلا يُؤمَنُ مَكْرُه ، وَلا يُيْأَسُ مِن رَحْمَتِه ، وَلا يُقْنَطُ مِن عَطائِه ، وَلا يُؤمَنُ عِقابُهُ ، فَهَذِهِ صِفَةُ الرَّبِّ الَّذِي نَعْبُدُه .

فَتَحتاجُ إِذا عَلِمْتَ صِفَةَ رَبِّكَ أَنْ تَكُونَ ذَوّاقاً فَتَعْرِفَ كَيفَ تُوصِلُ الكَلِمَةَ وَكَيْفَ تُعالِجُ المُشْكِلَةَ ، وَكَيفَ تُواجِهُ القَرِيبَ والبَعِيدَ ، وَكَيْفَ تُكَلِّمُ الأَخَ والصَّدِيقَ والمُجافِي فَتُوصِلُ إِلَيْهِم هَذِهِ الأَشياءَ بِذَوقٍ .

رَبِّ زِدنا عِلماً ، وَعَلِّمنا مِن لَدُنْكَ عِلْماً ، وَآتِنا رَحمَةً مِن عِندِكَ ، وارزُقْنا فَهْماً ، اللَّهُمَّ إِنّا نَسأَلُكَ فَهمَ النَّبِيِّينَ وَحِفظَ المُرسَلِينَ وَإِلْهامَ الملائِكَةِ المُقَرَّبِينَ .

في معاني تقويم المعاملة مع الله

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ [2] لا تَفرَحُوا بِأَيِّ شَيءٍ سِواه ، مِن ثَناءِ النّاسِ وذَمِّهِم ، هذا مِن سِوَى الله فلا تَفرَحُوا بِهِ ، وَأَحياناً الإِنسانُ مِنّا ما يَلْتَفِتُ إِلَى المَدْحِ فِيهِ مَثَلاً ، أَو

(١) فِي ١٤ مِن شَهرِ ذِي القِعدَةِ ١٤٢١هـ .

(٢) لَيلَةَ السَّبتِ ٣ مِن شَهرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ ١٤١٩هـ .

المُعامَلَةِ الطَّيِّـبَةِ لَـه ، لَكِن فِي وَقتِ رَدِّه لَها .. يبدأُ يَنْشَأُ عِنْدَه أَنَّ فِي المَسْأَلَةِ شَيْئاً ، إلا أَنَّ واجِبِي أَرُدُّ الكَلامَ ، فَيَبْدَأُ يَرُدُّ الكَلامَ بِلسانِه ، وفي باطِنِه يَثْبُتُ مِنه شَيْءٌ ، فَيَحْتاجُ هذا إلى النَّظَرِ والتَّعَرُّضِ مِنه سُبْحانه وتَعالَى ، والحَقُّ له أَلْطافٌ بِعَبْدِه وله رِعايَةٌ .

في شأن قاعدة التبـرّي من الحول والقوّة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[(١)] مِن مُهِمّاتِ الدّاعِي أَنْ يَفْهَمَ قاعِدَةَ التَبرِّي مِن الحَولِ والقُوَّةِ وبها يُدْرِكُ سِرَّ مَعْنَى «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِالله» .

يُدْرِكُ هَذا المَعنَى فَيَبْدَأُ يَتَحَقَّقُ بِهِ فِي ذَوقِهِ وَسُلُوكِهِ فَيَنفِي عَن نَفسِهِ الحَولَ والقُوَّةَ، فَحِينئذٍ يَكُونُ فِي اجْتِهاداتِه الـمُتَواصِلَةِ وَأَعمالِهِ المستَمِرَّةِ نافِياً عَن نَفْسِهِ الحَوْلَ والقُوَّةَ، غَيْرَ مُدَّعٍ لِشَيْءٍ وَلا ناسِباً لَه لِنَفْسِه ، فَعِندَ ذَلِكَ تَنْغَلِقُ عَنهُ أَبوابُ الكِبرِ والعُجبِ والغُرُورِ وَما إِلَى ذَلِكَ باباً بَعْدَ بابٍ، حَتَّى إذا رَحِمَهُ الحَقُّ تَعالَى اقْتَلَعَ شَجَرَتَها مِن أُصُولِها وَجُذُورِها فَطَهَّرَهُ تَطهِيراً ، واصطَفاه لِقُدْسِهِ ، وَأَجلَسَهُ عَلَى بِساطِ أُنسِهِ ، وَقابَلَه بِما هُو أَهلَه سُبْحانَه وَتَعالَى ، وَأَذاقَهُ لَذَّةَ مُعامَلَتِهِ وَحَلاوَةَ رَحْمَتِهِ ، فَلا نَسلَمُ مِن الدَّعوَى حَتَّى نُـكْفَى شَرَّها .

فَفِي قِمَّةِ اجتِهادِنا وَبَذْلِنا الشَّدِيدِ نَعْرِفُ أَنَّه لا حَولَ لنا وَلا قُوَّةَ ، والمَنُّ لله وَلِرَسُولِه ﴿ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحُجُرات:١٧].

فيما يتعلّق بشأن الارتباط برجال الإرث من خلفاء الحبيب ﷺ

وقال رضي الله عنه ونفعنا به تَحْقِيقُ قُدْوَتِك بِه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مِن غَيْرِ شَكٍّ لا يَتِمُّ وَلا يَقُومُ إلا مِن أَبوابِ خِلافَتِه وَنِيابَتِهِ وَوِراثَتِه ، هَذا أَمرٌ مَعلُومٌ ، فَلا تَخلِطْ بَينَ المَسائِلِ.

وَلا تَظُنَّ أَنَّ مَعْنَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ دَعوَةٌ لإِسقاطِ الدُّخُولِ مِن الأَبواب ، لا تَتَحَقَّقُ

(١) فِي ١١ مِن شَهرِ رَبِيعٍ الثّانِي ١٤٢٠هـ .

القُدْوَةُ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم إلا مِن قَبِيلِ خُلَفائِهِ ، وَمِن أَبوابِ نُوّابِهِ وَوَرَثتِه صَلَّى اللهُ وسَلَّم عَلَيه وَعَلَى آلِهِ ، كَما أَنَّه لا يَتأَتّى الوُصُولُ إِلَى رِضْوانِ اللهِ إلا مِن بابِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ، وَلا وُصُولَ إِلَى رِضوانِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ إلا مِن أَبوابِ خُلَفائِهِ وَوَرَثتِه عَلَيْهِم رِضوانُ الله .

في شأن الارتباط والصّلة بالمشايخ

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ إنَّما تَنْضَبطُ أُمورُ النّاسِ بِحَسْبِ هَذِهِ الرَّوابِطِ ، الرّابِطَةُ بِنَبِيِّه وَرَسُولِهِ ما تَأْتِي بِدُونِ رابِطَةٍ بِخُلَفائِهِ ، فَأَهلُ كُلِّ زَمَنٍ .. منهجُهُم إِلَى الارتِباطِ بِالمُصْطَفَى خُلَفاءُ زَمانِـهِم ، كَذَلِكَ رَتَّبَ اللهُ ، تَجِدُ المُرْتَبِطَ أَمْرُهُ مُنْضَبِطٌ ، القَلِيلُ مِنهُ يَفُوقُ الكَثِيرَ مِن غَيْرِه ، اليَسِيرُ مِنه يَتَبـارَكُ وَيَحْصُلُ بِهِ الأَثَـر .

ضَعِيفُ الصِّلَةِ مِثْلُ الَّذِي يُباهِي وَيَفْتَخِرُ بِالصُّورِ بِلا حَقائِقَ ، كالَّذِي يُرِيدُ النّاسَ يَبْنُونَ لَـهُم بُيُوتاً فَأَخَذَ صُوراً لِمَوادِ البِناءِ الَّتِي يَلْعَبُ بِها الأَطْفالُ وَخَرَجَ يَبِيعُها ، مَنْ سَيَشْتَرِيها مِنهُ ؟! إلا إذا كانُوا أَطفالاً يَأْخُذُونَها مِنه لِكَيْ يَلْعَبُوا بِها ، وَلا تُبنَى بِها بُيُوتٌ ، لَكِن إذا جاءَ بِالمَوادِ الحَقِيقِيَّةِ لِلبِناءِ يَشْتَرِيها مِنه العُقَلاءُ والكِبارُ والفاهِمُونَ وَيَبْنُونَ بِها البُيُوتَ .

كانَت هُناك رَوابِطُ بَينَ المُتَلَقِّينَ والشُّيُوخِ فِي العُصُورِ الأُوْلَى ، لَكِن ذَلِكَ فِي أَفرادٍ ، وَإِلا فالغالِبُ أَنَّ جُمُوحَ النَّفسِ يَمْنَعُها عَن القُدْسِ ، فَلا يَزالُ الوَسْواسُ مُوقِعاً لَها فِي الالْتِباسِ والبَأْسِ .

تَخَيُّلُ الاستِقْلالِ أَو الاسْتِغْناءِ ، وَتَصْدِيقُ الوَسْواسِ بِأَنَّه غَيْرُ مُحْتاجٍ ، وَتَصْدِيقُ النّاسِ فِي مَدْحِهِم لَه ، هَذِهِ عامَّةُ القَواطِعِ وَهِي راجِعَةٌ إِلَى رُؤْيَةِ النَّفْسِ ، أَيْ أَنْ يَرَى نَفْسَه، فَإِذا انقَطَعَ عَن وِجْهَةِ الشَّيخِ وَهِمَّةِ الشَّيخِ وَمَسْلَكِ الشَّيخِ كانَ ذَلِكَ سَبَبَ القَطِيعَةِ

عَنهُ، الحَبيبُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم قالَ لِلمُبَلِّغِين: «بَلِّغُوا عَنِّي»(١) أَي بِلا انْقِطاعٍ ، الله يُقَوِّي رَوابِطَنا وَإِيّاكُم وَمَن يُحِبّ لما يُحِبُّ عَلَى ما يُحِبُّ حَتَّى يَجعَلَنا فِيمَن يُحِبُّ .

لهَذا قالُوا : إنَّ بَعْضَ التَّلامِيذِ يُرَقِّيه الله ، وَقَد يَرْتَفِعُ بَعْضُ التّلامِيذِ عَلَى مَقامِ شَيْخِهِ، فَيَجِبُ عَلَيهِ أَنْ يَكُونَ قَوِيَّ الصِّلَةِ بِهِ ، حَسَنَ العِرفانِ لِجَمِيلِهِ وَإِحْسانِهِ ، فَإِنْ اعْتَقَدَ التَّرَفُّعَ أَو الاسْتِغْناءَ عَنهُ .. سَقَطَ وَسُلِبَ حالُه ، وَلهذا نَجِدُ المشايِخَ الكِبارَ الَّذِينَ اعتَلَتْ مَراتِبُهُم عَلَى أَشياخِهِم كَثِيرِي التَّواضُعِ لهُم ، كَثِيرِي التَرَدُّدِ عَلَيْهِم ، كَثِيري الاعْتِرافِ بِفَضلِهِم عَلَيهِم ، كَثِيرِي الثَّناءِ عَلَيهِم كَمِثْلِ سَيِّدِنا الحَدّادِ واعْتَلا عَلَى أَكْثَرِ مَشايخِهِ فَصارَ يَقُولُ :

أَيْنَ أَرْبابُ المَثاني ... والعُلُومِ اللَّدُنِّيَّة
أَيْنَ أَصْحابُ المَعاني ... والنُّفُوسِ العُلْوِيَّة
أَنا أَدْعُو مَنْ دَعاني ... هَكَذا حُكْمُ القَضِيَّة

أَي: الَّذِينَ كانُوا يَدْعُونِي فَأَنا الآنَ أَدْعُوهُم .

فِي خُصُوصٍ لا عُمُومٍ ... عَلَّةً مِنْ بَعْدِ نَهْلَة(٢)

فَصارَ كَثِيرٌ مِن مَشايخِهِ يَسْتَمِدُّ منه أَنْوارَ المَعارِفِ بالله والارْتِقاءِ مِن المَقامِ الذِي هو فِيه إلى ما هو أَعْلَى ، يَتَرَقَّى على يَدِهِ وقَد كانَ تِلْمِيذَهُ ، مَعَ ذَلِك بَقِيَ على تَعْظِيمِهِم وإِجْلالِهِم ومَعْرِفَة حَقِّهِم والثَّناءِ عَلَيْهِم ومَعْرِفَةِ فَضْلِهِم عَلَيْه وهَكَذا ، حتَّى لو كانَ

---

(١) قالَ النَّبِيّ صَلىَّ الله عَلَيهِ وَسَلَّم: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» رَواهُ البُخارِيّ .

(٢) **العَلَّة** : الشرُّبُ لِلمَرَّةِ الثّانِيَةِ ، **النَّهلَة** : الشرُّبُ لِلمَرَّةِ الأُولى .

والأبياتُ لِلإمام الحَدّادِ مِن قَصِيدَةٍ يَقُولُ فِي مَطلَعِها :

أَنا مَشْغُولٌ بِلَيلى ... عَن جَمِيعِ الكَونِ جُمله
فَإذا ما قِيلَ مَن ذا ... قُل هُوَ الصَّبُّ المُوَلَّه

أُنظُر «الدُّرّ المنظُوم» ص ٢٠٠ .

أحَدٌ مِنهم فِي البَرْزَخ ، قالَ الإمامُ الحَدّادُ : كانَت لنا اليَدُ مِن العَيْدَرُوس[١] ، ثُمَّ كانَت لنا اليَدُ مِن الفَقِيه ، ثُمَّ صارَت مِن مُـحَمَّدٍ صاحِبِ مِرْباط ، والآن لنا اليَدُ مِن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، ومَعَ ذَلِك له قَصِيدَةٌ فِي سَيِّدِنا الفَقِيه وغَيْره . فالرَّوابِطُ قائِمَةٌ بَيْنَهم ، تَزْدادُ فِي كُلِّ نَفَسٍ إلى ما لا نِهايَة ، كُلُّهم كَواكِبُ حَوْلَ ذَلِكَ السِّراجِ المُنِير .

فَإِنَّـهُ شَـمسُ فَضلٍ هُـمْ كَواكِبُها　　　يُظْهِرْنَ أَنْوارَها لِلنّاسِ فِي الظُّلَمِ[٢]

الأصل في الأعمال الصلة بسلسلة النبوة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به الأَعمالُ مَهْما كانَت مَرْبُوطَةً بِسِلسِلَةِ النُّـبُوَّةِ .. كانَت مباركَةً ، والقَلِيلُ عِنْدَنا لا يُقالُ لَه قَلِيلٌ ، فَلا تَهُولُكَ الكَثْرَةُ ، وَلا المَظهَرُ وَلا المادَّةُ ، اِبْحَثْ كَيْفَ تَـكُونُ صِلَتُك ، فَتُحْسِنُ النَّظَرَ فِي ذَلِكَ ، وَتَبْذُلُ غايَةَ الوُسْعِ ، فَإِذا عَمِلْتَ بِذَلِك فَأَنْتَ النّاجِحُ الفالِحُ .. دُنْياً وأُخْرَى .. حِسّاً ومَعْنَى .

ثمرة مجالسة الأولياء ومعرفتهم

وقال رضي الله عنه ونفعنا به كَثِيرٌ مِن النّاسِ جالَسُوا الأَولِياءَ وَلا وَصَلُوا إِلَيهِم ، وَكَثِيرٌ عَرَفُوهُم وَوَصَلُوا إِلَيْهِم ، وَكَثِيرٌ مِمَّن جَمَعَ بَينَ المَقامَين ، وَأَخَذَ بِالطَّرَفَين ، ونالَ السَّعادَتَين ، وَحضَرَ بِالجِسْمِ والقَلْبِ ، وَقَرُبَ بِالشَّبَحِ والرُّوحِ ، وَنَظَرَ بِالبَصَرِ والبَصِيرَةِ ، فَعُرِّفَ فَعَرَفَ ، وَأُوصِلَ فَوَصَلَ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ عَن حالِه فَلا تَسَلْ ، فَإِنَّه :

---

(١) **العَيدَرُوس** : هُو الإِمامُ عَبدُ الله العَيدَرُوسِ ابنُ الشَّيخِ أَبِي بَكرٍ السَّكرانِ ابنِ الإِمامِ عَبدِالرَّحمن السَّقّاف ، وُلِدَ بِتَرِيم فِي العَشرِ الأُولِ مِن شَهرِ ذِي الحِجَّةِ سَنَة ٨١١ هـ وتُوُفِّيَ يَومَ الأَحد ١٢ مِن شَهرِ رَمَضانَ ٨٦٥ هـ وعُمرُهُ ٦٥ سَنَةً ، قَرَأَ «التَّنبِيه» و«المنهاج» و«الخُلاصَة» وَكُتُبَ الإِمامِ الغزالِيّ وَخُصُوصا «إِحياء عُلُوم الدِّين» حَتَّى كادَ أَن يَحفَظه، وَأَطنَبَ فِي مَدحِهِ وَمَدحِ مُصَنِّفِه .

(٢) البَيتُ مِن قَصِيدَةِ البُردَةِ لِلبُوصِيرِي ، الفَصل الثّالِث فِي مَدحِ النَّبي صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم .

لا يَعْـرِفُ الشَّـوْقَ إلا مَنْ يُكابِدُهُ   وَلا الصَّبابَـةَ إلا مَــنْ يُعانِيهـا

فَإِنَّ وَصْفَ ذَلِكَ الحالِ لمن لم يَبْلُغْهُ .. كَوَصْفِ المحالاتِ عِنْدَ بَعْضِ العُقُولِ الَّتِي تُفَكِّرُ فِيها ، فَلا تَتَصَوَّرُ وُجُودَها ، وَهِيَ أَيضاً كَمَن يَصِفُ شُؤُونَ السُّلْطَةِ ومَلَذَّةَ المُلْكِ لِصَبِيٍّ غَيْرِ مُـمَيِّزٍ ، سُبْحانَ الله فاتِحِ أَبوابِ جُودِه لمن اِسْتَمداه ، فَلَهُ الحَمْدُ سُبْحانَه وَتَعالَى .

طلب الترقي بالأخذ بأسبابه

وقال رضي الله عنه ونفعنا به العالَمُ الآنَ كُلُّه يَنْطِقُ لَنا بِأَنَّ الإِسلامَ يُوجَدُ لَه مَساقٍ لِلقُلُوبِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الجِهاتِ ، فَإِذا كانَ لَه شَأْنٌ فِي عالَمِ الظّاهِرِ فالله يَرْزُقُنا السَّبْقَ بِصِدْقِ القَصْدِ.

الَّذِي يَطْلُبُ التَّرَقِي لا يَبْخَلُ الحَقُّ أَنْ يُرَقِّيَهُ ؛ لأَنَّ المَجالَ واسِعٌ فَسِيحٌ ، إِذا خاطَبَ الإِنْسانُ نَفْسَه بِأَسبابِ التَّرَقِّي .. يُرَقِّيه اللهُ فَيُخَلِّصُ نَفْسَه حَتَّى يَعْتَلِي فَتَأْتِي لَه الحَقائِق.

لله بارِقَةٌ لِلْقَلْـــبِ قَــدْ لَـمَعَــتْ   مِنْ عالَمِ الأَمْـرِ لا مِنْ عالَـمِ الصُّوَرِ
أَنْسَـتْكَ إِيّـاكَ والأَكْـوانَ أَجْـمَعَها   وَأَوْقَفَتْكَ عَلَى المطْلُــوبِ والْوَطَـرِ [1]

مظهراً معنى الافتقار لله

وقال رضي الله عنه ونفعنا به [2] ما أنا إلا خادِمٌ ما قُمْتُ بِحَقِّ الخِدْمَةِ وَلا عَرَفْتُ قَدْرَها ، وَلهذا أَثَّرَ النَّقْصُ فِيَّ ، والتَّقْصِيرُ مِنِّي أَحياناً يَظْهَرُ عَلَيكُم ، فَتَظُنُّونَه مِنْكُم ، بَل هُوَ مِنِّي ، وَأَنا السَّبَبُ فِي ذَلِك فَسامِحُونِي .

---

(١) البَيتان مِن قَصِيدَةٍ لِلإمامِ الحَدّادِ مَطلَعُها :

يازائِرِي حِينَ لا واشٍ مِنَ البَشَرِ   واللَّيلُ يَخطُرُ فِي بُردٍ مِنَ السَّحَرِ

أُنظُر «الدُّرّ المنظُوم» ص٢٣٢ ، والبُـرد بِالضَّمِّ : ثَوبٌ مُخَطَّط كَما فِي «القامُوس» .

(٢) وَذَلِكَ لَيلَةَ السَّبتِ ٣ مِن شَهرِ رَبيعٍ الأَوَّل ١٤١٩هـ .

فِي الشُّؤونِ كُلِّها أنا أَطْلُبُ مِنكُم المسامحَة ؛ لأَنِّي أَعْرِفُ أَنَّ رَبِّي يُحِبُّ مِن الـمُتَحابِّين فِيهِ والـمُتَصاحِبين فِيه وُجُودَ هَذِه الخِصْلَةِ[1] بَيْنَهُم ، وَأَنَّه يَسْأَلُهُم عَن صُحْبَتِهِم ، وَلهذا أَنا دائِماً أَطْلُبُ مِنْكُم المُسامحَة ، وَأَقُولُ لَكُم : سامِحُونا ، حَتَّى تَسْرِي فِيما بَيْنَكم البَيْن ، عَلَى بَعْضِكمُ البَعْض ، مِن أَجْلِ أَنْ تَعْلَمُوا أَيضاً أَنَّه إذا خاطَبْتَ مُرْتَبِطاً بِإِنْسانٍ أَو مُتَّصِلاً بِهِ أَو تِلْمِيذاً لَه .. فَأَنتَ تُخاطِبُ جُزءاً مِن ذَلِكَ الإِنْسانِ ؛ لأَنَّ السِّرايات قائِمَةٌ ، واللهُ سُبْحانَه وَتَعالَى أَثْبَتَها ، حَتَّى وَكُلٌّ مَشْغُولٌ بِنَعِيمِهِ فِي الجَنّاتِ .. جَعَلَها سارِيَةً قائِمَةً ، وَكَأَنَّها لا تُفْصَلُ ، فَلابُدَّ تَبْقَى كَما هِي .

رُبَّما فِي البِدايَةِ أَنتَ نَظَرُك إِلَى شَيْخِك ، بَعْدَ ذَلِك تَعْلَمُ أَنَّ الْمُتَّصِلَ بِشَيخِك .. مُتَّصِلٌ بالسِّلْسِلَةِ ، وَتَعْلَمُ أَنَّ الْمُتَّصِلَ بالسِلْسِلَةِ .. مُتَّصِلٌ بِرَأْسِها ، تَرْجِعُ بَعدَ ذَلِك تَتَعامَلُ مَعَه ، فَيَكُونَ تَعامُلُك فَوْقِياً ، كَذَلِكَ تَتَعامَلُ مَعَ الحَبِيبِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فِي شَأْنِ التَلامِذَةِ الَّذِينَ تَراهُم صِغاراً ، أَو مُقَصِّرِينَ ، هَل أَنْتَ تَدْرِي بِالرِّعايَةِ أَو بِالعِنايَةِ الَّتِي لَهم ؟ فَتَتَعامَلُ مَعَهُم مِن هَذا المِيدانِ ، بَعْدَ ذَلِك تَرْتَقِي وَتَعْرِفُ أَنَّ الـمُتَّصِلَ بِرَأْسِ السِّلْسِلَةِ .. مُتَّصِلٌ بِالحَقِّ جَلَّ جَلالُه ، فَتَرْجِعُ بَعدَ ذَلِكَ تَتَعامَلُ مَع الله فِيهِم هَؤُلاءِ، كَيْفَ أَدَبُك مَعَ الله تَعالَى ؟ فَيَرْجِعُ ظَنُّك آخَرَ والأَمْرُ عِنْدَك ثانِي ، حَتَّى عَلَى ما ظَهَرَ لَكَ مِن أَسْواءِ .. يَكُون لَكَ ظَنٌّ ثانِي وتَعامُلٌ ثانِي .

وَلا يَزالُ عِنْدَك اعْتِقادٌ أَنَّه رُبَّما دَخَلْتَ فِي شَفاعَةِ أَحدِهِم ، وَرُبَّما ارْتَقَيْتَ بِهِم هَؤُلاءِ الْمُخْطِئِينَ ، رَبِّي طَوى الأَمْرَ عَلَيك ، حَتَّى تَتَأَدَّبَ ، اللهُ يَأْخُذُ بِأَيْدِيكُم ، أَنْتُم عَلَى بابِه وَهوَ الفَتّاحُ ، سَمَّى نَفْسَهُ الفَتّاحَ ، الحَمْدُ لله ، وَنِعْمَ الفَتّاح هُوَ ! يا فَتّاحُ يا عَلِيم .

---

(١) أَي: الصِّفَة .

الاعتقاد في الشيوخ

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[1] يَنْبَغِي لِلْمُرِيدِ أَنْ يَزِيدَ فِي الاعْتِقادِ بِشَيْخِهِ كُلَّما اسْتَتَرَ بَيَنَ النّاسِ، وَلِهَذا مِن الغَفْلَةِ إِذا لَم يَكُنْ شَيْخُهُ مُتَصَدِّراً فِي المَجْلِسِ مَثلاً .. فَما يُرِيدُ الحُضُورَ ، أَو إِذا لَم يَتَكَلَّمْ فِي المَجْلِسِ .. يَشْمَئِزُّ ، فَهَذا ما فَهِمَ الأشْياءَ ، مَحْصُورٌ بِالصُّوَرِ ، مَحْبُوسٌ عن مَعْرِفَةِ الحَقائِق ، فَيَغْلُبُ عَلَيه ذَلك .

قَد يَصِلُ الأَمْرُ عِنْدَه إِلَى حَدٍّ أَنَّه إذا سَمِعَ الفائِدَةَ مِن الغَيْرِ ما يُقابِلُها بِحَقِّها ، فَهَذا نَقْصٌ وَضَعْفٌ يَدُلُّ عَلَى نَقْصِ شَيْخِهِ ؛ لأَنَّه لَم يُقَوِّمْهُ تَقْوِيماً صَحِيحاً ، الشُّيُوخُ كانُوا يُعَلِّمُونَنا كَيْفَ نَسْتَفِيدُ مِن الكائِناتِ والمَخْلُوقاتِ فَضْلاً عَنِ المُؤْمِنِينَ ، فَضْلاً عن عُلَماءِ المُؤْمِنِينَ ، فَضلاً عَن أَوْلِياءِ الأُمَّةِ .

في شأن التخلية

وقال رضي الله عنه ونفعنا به مَن أَعطَى لله وَأَخَذَ لله .. فَقَدِ اسْتَكْمَلَ حَقِيقَةَ إِيمانِه ، فَكُلُّ ما تُعْطَى مِن مَعْرِفَةٍ أَو عِلْمٍ أَو فَهْمٍ أَو إِدراكٍ؛ إِذا أَخَذْتَه لله فَلابُدَّ أَنْ تُعْطِيَهُ لله ، تُعْطِيهِ لله مِن جِهَةِ البَذْلِ والتَّعْلِيم لِمَن يَفْهَمُه ، وَمِن جِهَةِ تَخْلِيَةِ الإِناءِ عَنه حَتَّى تَأْخُذَ عِلْماً جَدِيداً، فَإِنْ تَرَكْتَه مِن أَجْلِه[2] كَما أَخَذْتَه مِن أَجْلِه .. حَفِظَهُ لَكَ جَلَّ جَلالُه ، فَلا يَزالُ مَحْفُوظاً مَعَك وهَكَذا.

وَأَمّا إن اكْتَفَيتَ بِما عِنْدَك .. فَسَتَظَلُّ فِي مُسْتَواكَ وَلَم يَكُن لَكَ مَجالٌ لِلتَّوَسُّعِ والاسْتِزادَةِ أَبداً ، لِهَذا تَجِدِ التُّجّارَ فِي المَجْلِسِ الواحِدِ يُفْرِغُون خَزائِنَهم أَكْثَرَ مِن مَرَّة.

كانَ سَيِّدُنا الجِيلانِي[3] رَضِي الله عَنْه يَقُولُ لِبَعْضِ تَلامِذَتِهِ : إِذا تُرِيدُ الدُّخولَ إِلَى

---

(١) لَيلَةَ السَّبتِ ١٨ مِن شَهرِ رَبيعِ الثّاني ١٤٢٠ هـ .

(٢) وَمَعنَى تَركِهِ مِن أَجلِهِ : أَي لَم تَكتَفِ بِالمستَوى الَّذِي وَصَلتَ إِلَيهِ بَل تَطلبُ الزِّيادَةَ دائِمًا .

(٣) هُو الشَّيخُ الإِمامُ العارِفُ بِالله عَبدُ القادِرِ بن أَبِي صالِح مُوسَى وَيَنتَهِي نَسَبَه إِلَى الحَسن المُثَنَّى

عِنْدِي .. اُتـرُك عَقْلَكَ وَعِلْمَكَ وَفِكْرَكَ وَفَهْمَكَ فِي الـخارِجِ ، وتَعالَ إلَيَّ خالِياً حَتَّى أَملأَكَ ، وَأَمّا أنْ تَدْخُلَ إلَيَّ مُسْتَشْعِراً زَهْوَ ما عِنْدَكَ مِن عِلْمٍ أو فَهْمٍ .. فَلَن تَسْتَفِيدَ حِينَئِذٍ مما عِنْدِي ، وَلَكِن فَرِّغْ إناءَكَ حَتَّى تَأْخُذَ عِلْماً آخَرَ وَهَكَذا .

ما انْقَطَعْ فَضْلُ رَبِّي يا عُمَرْ عَـنْ عَبِيـدِهْ
غَيْـر كُلِّيـنْ[1] غارِقْ فِـي عَطِيّاتْ سِيـــدِهْ[2]
فاقْصُـــدُه فانَّـــهُ الْمَقْصُودْ والْـخَيْـرْ بِـيَـدِهْ
ما خَسِـــرْ مَـنْ قَصَـدْ بابُـــهْ وَلازَمْ وَصِيـــدِهْ
واتْرِكِ الخَلْقَ شُـفْ كُلِّيـنْ راكِـبْ جَرِيـــدهْ[3]
واشْكُرِ الله واطْلُـبْ عِنْـدَ شُكْـــرِهِ مَزِيـــدِهْ
سَلْهُ يُدْخِـلْكَ فِي أَهْـــلِ الوُجُــــوهِ السَّعِيـــدِهْ
أَهْلِ عِلْـمِ التُّقَـى أَهْـلِ الصِّفاتِ الحَمِيدِهْ
لِـي لَـهُمْ كُـلْ ساعَـهْ مِنْـهُ عَطْـوَهْ جَدِيـدِهْ
قَومْ قامُـوا بِحَـقْ أَسْـــرارْ ما فِي العَتِيـــدَهْ[4]

ابنِ الحَسَن السِّبط ، وُلِد رَضِي الله عَنه سَنَة ٤٧٠هـ بجَيلان وَدَخَلَ بَغداد وَهوَ ابن ١٨ سَنَة، وَكانَت وَفاتَه سَنَة ٥٦١ هـ ، أُمّه فاطِمَة بنت أَبي عَبدِ الله الصَّومَعِي ، كانَ الشَّيخُ عَبدُالقادِر آدَمَ اللَّونِ ، نَحِيفَ البَدَنِ ، رَبعَ القامَةِ ، عَرِيضَ الصَّدرِ ، عَرِيضَ اللِّحيَةِ طَوِيلَها ، مَقرُونَ الحاجِبَين ، لَه صَوت جَهورِي ، مَكَثَ ٢٥ سَنَة مُتَجَرِّداً سائِحاً فِي بَرارِي العِراق ، مكث أَربَعِينَ سَنَة يُصَلِّي الصُّبحَ بِوُضُوءِ العِشاءِ . اُنظُر شَرحَ العَينِيَّة ص ١٠١ .

(١) كُلِّين : بِاللُّغَةِ العامِّيَّة ، وَمَعناها : كُلّ واحِد .

(٢) أَي: مُحِيطَةٌ بِهِ عَطايا رَبِّه سُبحانَه وَتَعالَى .

(٣) أَي: جَرِيد النَّخلِ، والمعنَى: أَن كُلّ واحِدٍ يَمشِي عَلَى هَواه .

(٤) أَي: القُرآنِ الكَرِيم .

كَمْ وَكَمْ بَيْنَنا مِنْهُمْ دَرارِي فَرِيدِهْ[1]
وَصْفُهُمْ وَصْفُ مَنْ يَخْشَى مِنَ اللهِ وَعِيدِهْ
لِلْخُمولِ ارْتَضَوْا يَرَوْنَهْ أَكْبَرْ وَجِيدِهْ[2]
هُمْ عُيُونُ الزَّمانْ اهْلِ الْعُهُودِ الأَكِيدِهْ[3]

منة الله بقبول أهل التقصير في ميدان الخدمة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: لما قَلَّ رِجالُ أَهْلِ الإِقْبالِ القَوِيِّ .. قُبل مِثْلُنا ، وَإِلّا لَقَد أَدْرَكْنا أَقواماً.. كُنّا نُعَدُّ في جَنْبِهم لُصُوصاً ، يَقُول ذَلك الحَسَنُ البَصْرِي[4] ـ وهو الذِي أَلْبَسَه سَيِّدُنا عَلِي ـ لما دَخَلَ مَرَّةً في مَسْجِدٍ في العِراق وَوَجَدَ فيه مُدَرِّسِين يُدَرِّسُون فَكان يَسْتَمِعُ لَهم وَيُقَوِّمُ البَعْضَ مِنهُم وَيَقُولُ لَه : أَنت .. قُمْ لا تُدَرِّسْ ، حَتَّى جاءَ إِلَى الحَسَنِ البَصْرِي سَمِعَه قالَ لَه : مِثْلُكَ يُدَرِّسُ .

وَذَلِين نِعْمَةٌ كَبِيرَةٌ أَنَّ مِثْلَنا يُقْبَلُ فِي هَذا المَيْدانِ ، اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ شُكْراً ، وَلَكَ المَنُّ فَضْلاً ، فانْتَبِهُوا لِما يُلْقَى عَلَيْكُم واغْتَنِمُوا أَوْقاتَكُم .

الحَمْدُ لله الذِي أَكْرَمَنا بِشُيُوخِ حَنانٍ وَرَحْمَةٍ خالِصَةٍ ، وَإِلا لَو امْتَحَنُونا كانَ

(١) دَرارِي : جَمع دُرَّة ، وَفَرِيدَه : أَي وَحِيدَةٌ مِن نَوعِها .
(٢) أَي: أَكبرَ عَطِيَّة وَجَدُوها ، وَهِي مِن (وَجَدَ) أَي: تَحَصَّل على .
(٣) الأَبياتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلحَبِيب عَلِيِّ بن محمَّد الحَبَشي ، أُنظُر «سَمطَ الدُّرَر» ص٩٧ ، وانظُر الدِّيوانَ الحُمَيني (٤ : ٥٤١).
(٤) هُو الإِمامُ التّابِعِي الحَسَن بنُ أَبِي الحَسن البَصري ، مَولَى زَيدِ بن ثابتٍ ، وَأُمّه مَولاة أُمِّ سَلَمَة اسمُها خَيرَة ، وُلِدَ لِسَنَتَين بَقِيَتا مِن خِلافَةِ سَيِّدِنا عُمَر وَماتَ فِي رَجَب سَنَة ١١٦هـ وَهو ابنُ تِسعٍ وَثَمانِين سَنَةً ، كَلامُه يُشبِه كَلامَ الأَنبياءِ ، وَكانَ أَطوَلَ النّاسِ سُكُوتاً ، وَلما ماتَ الحَسَن رَأَى بَعضُهم مُنادِيا يُنادِي مِن السَّماءِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران:٣٣] ، أُنظُر شَرحُ العَينِيَّة ص٤٨٨ .

الأَمْرُ آخرَ ، الحَبِيبُ أَحْمَد بن حَسَن العَطّاس يَقُول : «كُنْتُ أَذْهَبُ إلى بَيْتِ الحَبِيب أَبِي بَكر بنِ عَبْدِ الله العَطّاس فَأَطْرُقُ البابَ فَيَتْرُكُنِي مِن الصُّبحِ إلى الظُّهْرِ فِي الشَّمْسِ، وَهوَ يَعْلَمُ بِي وَلا يُكَلِّمُنِي ، وَمَع ذَلِكَ لا أَذْهَبُ وَلا أَنْصرِفُ حَتَّى يَفْتَحَ لِي» ، قالَ: «والآنَ إِذا أَحَدٌ جاءَ إِلَى عِنْدَنا وَطَرَقَ دارَنا وَما كَلَّمَه أَحَدٌ ذَهَب ؛ لأَنَّه يُرِيدُ العُذْرَ وَيَقُولُ : ما كَلَّمَنا أَحَدٌ أَو ما وَجَدْتُ أَحَداً» .

فالعَزائِمُ تَخْتَلِفُ ، والهِمَمُ تَخْتَلِفُ ، والمَقاصِدُ تَخْتَلِفُ ، والرِّعايَةُ بِالصّادِقِ تَـكْتَنِفُ، وَرُوحُ المُقْبِل تَعْتَرِفُ ، فَإِنْ قالُوا : اِنْصَرِفْ . قُلْ : إِنَّ أَحْمَدَ اسْمٌ لا يَنْصَرِفْ . فَإِنْ قالَ: أَنا شاعِرٌ أُصَرِّفُ ما لا يَنْصَرِفُ . قُل له : صَرْفُكَ يُحَوِّل النُّحاسَ ذَهَباً فَتَصَرَّفْ كَما شِئْتَ ، فَقَد عَلِمْنا شُغْلَ[١] الصَّيارِفَةِ ، يا اللهُ بِالتَّوْفِيقِ حَتَّى نُفِيقَ ، وَنَلْحَقَ بِالفَرِيقِ ، فَإِذا تَمَّ هَذا أُكْرِمْتَ بِالجَمْعِيَّةِ .

مِنْ عادَةِ الحَقِّ إذا أَرادَ أَنْ يَجْمَعَ أَحداً عَلَيه .. جَمَعَه عَلَى مَحْبُوبٍ، فَيُهَيِّئُه الجَمْعُ عَلى ذَلِكَ المَحْبُوبِ بِالاجْتِماعِ عَلَى الإِمامِ الأَعْظَمِ ، فَإِذا تَمَّ الاجْتِماعُ عَلَيْه .. وَصَلَ إِلَى بارِئِه ، وَإِذا لَم يُرِدْ أَنْ يَجْمَعَ إِنْساناً عَلَيهِ .. فَلا يَغُرُّك ما يُكَرِّرُه[٢] مِن كَلامٍ ، وَلا ما يَفْعَلُهُ مِن أَفْعالٍ ، فَلَن يَصِلَ وَلَو مَلأَ الأَرْضَ عِبادَةً.

لَـو سَـار شَرَّق وغَـرَّب   وظَـل صائـم ووَاصَـل في اللَّيـالي قِيامــه
وَليس لَـه مِـن ذِي التِّجـارات مَكْسَـبٌ
مِسْـكِينٌ مغبـون، دائِـمٌ فِي عَنـاءٍ واهْتِـمامٍ

يَنْطَبِقُ عَلَيْه حَدِيث «رُبَّ قائِمٍ... رُبَّ صائِمٍ...»[٣] ، الله لا يَحْرِمْنا خَيْرَ ما عِنْدَه

---

(١) أي: عَمَلَهُم .

(٢) أي: هَذا الإنسان .

(٣) رَواهُ الطَّبَرانِّي فِي «الكَبِير» عَن ابنِ عُمَر ، وَأَحْمَدُ فِي مُسنَدِهِ ، والحاكِمُ فِي «المستَدرَك» والبَيهَقِي

لِشَرِّ ما عِنْدَنا .

إذا ظَفِرْتَ بِذلِكَ وَأُكْرِمْتَ بِالجَمْعِيَّةِ .. فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَحسَنَ خُلُقاً مَعَ أَصنافِ الخَلْقِ، بَعْضُ النّاسِ يَظُنُّ إذا جَمَعَه اللهُ عَلَى عَبْدٍ أَنَّه يَحْتَقِرُ الغَيْرَ ، فَهَل الجَمْعِيَّةُ عَلَى المَحْبُوبِين تُوقِعُكَ فِي المَعاصِي ، احْتِقارُ الغَيرِ مَعصِيَةٌ لا تَجُوزُ ، وَلَكِن إذا اجْتَمَعْتَ عَلَيه .. جَمَعَكَ عَلَى الآدابِ ، فالله يَجْمَعُنا وَإيّاكُم عَلَى ما يُحِبُّ وَمَن يُحِبُّ كَما يُحِبُّ فِي لُطفٍ وَعافِيَةٍ .

الثبات على مبدأ السابقين

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ(١) الله يُثَبِّتُنا وَإيّاكُم ، وَيَرْتَضِينا وَيَخْتارُنا وَيَرْعانا ؛ لأَنَّهَا كُلُّها بِاخْتِياراتِه ، الجَنَّةُ هُوَ يَخْتارُ أَهلَها ، والنّارُ هُوَ يَخْتارُ أَهْلَها ، والمَراتِبُ والمَقاماتُ كُلُّها تَبَعُ اخْتِيارِه تَعالَى ، قالَ الحَبِيب عَبدُ الله : ما لِحَدْ شَيْ مُعُهْ حَاشَاهُ فِيْ ذَا وَلَا ذَاكْ ، هُو الَّذِي يَخْتارُ ، فَعَسَى إِنْ شاءَ الله يَخْتارُنا نَحْنُ لِلصِّدْقِ مَعَه ، وَلِلدُّخُولِ فِي دَوائِرِ أَهْلِ حَضْرَتِه ، وَرِجالِ مَوَدَّتِه ، أَئِمَّةِ دِينِ الله الَّذِينَ قالَ عَنْهُم سَيِّدُنا الحَدّاد :

أَئِمَّةُ دِينِ اللهِ يَدْعُونَ خَلْقَهُ ... إلى بابِهِ طُوبَى لِمَنْ سَمِعَ النِّدا
وَسارَ إِلَى الرَّبِّ الرَّحِيمِ مُبادِراً ... لِطاعَتِهِ يَرْجُو النَّعِيمَ الْمُخَلَّدا
وَيَخْشَى عَذابَ اللهِ فِي نارِهِ التي ... يُخَلَّدُ فِيها مَنْ طَغَى وَتَمَرَّدا
وَلَمْ يَتَّبِعْ خَيْرَ الأَنامِ مُحَمَّداً ... نَبِيَّ الْهُدَى بَحْرَ النَّدَى مُجْلِيَ الصَّدا
عَلَيْهِ صَلاةُ اللهِ ثُمَّ سَلامُهُ ... صَلاةً وَتَسْلِيماً إِلَى آخِرِ الْمَدَى(٢)

هَلْ سَمِعْتُم ؟ احْفَظُوا هَذا القَوْلَ ، وقَوْلُ أَوَّلِهم كَقَوْلِ آخرِهِم ، وَلَنْ تَجِدُوا

فِي «السُّنَنِ» عَن أَبِي هُرَيرَة .

(١) لَيلَةَ الأَحَدِ ٢ مِن شَهرِ شَوّال ١٤٢٠هـ .

(٢) الأبياتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإمامِ الحَدّادِ قافِيَةِ الدّالِ مَطلَعُها :

وارِثاً لَهم إلا وَهوَ مُتكَلِّمٌ بِعَينِ اللِّسانِ الَّتِي تَكَلَّموا بِها ، لهَذا دائِماً يَقُولُ لَهم الحَبِيبُ عَلوِي: لَو جاؤُوكُم مِن بَرازِخِهِم وَقُبُورِهِم ـ الفَقِيهُ والسَّقافُ والمِحْضارُ والسَّلَفُ ـ لَنْ يُكَلِّمُوكُم إلا بِالكَلامِ الَّذِي أُكَلِّمُكُم بِهِ ، وَلَنْ يَدْعُوكُم إلا بِالَّذِي أَدْعُوكُم إِلَيْه ؛ لأَنَّ لِسانَهُم واحِدَ.

إِنْ كانَ الكَلامُ مُسَجَّلاً مَعَكُم .. سَمِّعُوهُم إيّاه كُلَّهم ، وَيَحْتاجُ تَسجِيلاً فِي الأَفئِدَة، أَمّا إِنْ تَسَجَّلَ فِي الأَفْئِدَةِ فيصِيرَ مِثْلَ الثَّمَرِ والبَذْرِ يُنْبِتُ ، وَبَعْدَ ذَلِك ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[إبراهيم:٢٥]، تَأْتِي مِنها ثَمَرَةٌ مُمْكِنٌ حتَّى بَعْدَ سِنِين تَكُون ثَمَراتٌ أُخْرَى مِن الكَلام ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[إبراهيم:٢٤] فتُغْرَسُ في القَلْبِ الطَّيِّب ، ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَا﴾[إبراهيم:٢٥]، ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾[آل عمران:١٦٣].

بَعْضُهم ثَمَرُهُ يَنْضُجُ فِي سَنَةٍ ، وَبَعضُهم فِي شَهْرٍ ، وَبَعْضُهم كُلَّ ساعَةٍ قُطُوفُه دانِيَةٌ؛ لأَجْلِ هَذِهِ الـمُتابَعَةِ ، وَمِن أَجلِ هَذِهِ المُواصَلَة .

لابُدَّ مِن الصِّلَةِ بِكُلِّ مُقْبِلٍ وَمُستَقْبِلٍ ، وَما تَدْرِي البَرَكَةُ مِن أَيْن ؟ أَحياناً يَنْفَعُ الله بِواحِدٍ ما يُؤْبَهُ لَه ، وَيُقْبَلُ وَيَقَعُ بِهِ نَفْعٌ كَبِيرٌ ، وَأَنتَ أَحياناً تَظُنُّ أَنَّ واحِداً سَيَنْفَعُ وَسَيَنْتَفِعُ لَكِن إمّا أَنْ لا يَكُونَ منه أَثَرٌ أَو يَحْصُلُ عَلَى يَدَيْه ضَرَرٌ ، ما أَنت دارِي ، لهَذا تَبْقَى دائِماً عَلَى ثِقَةٍ بِرَبِّك ، مَع إِقامَةِ الأَسْبابِ وَعَدَمِ الاعْتِمادِ عَلَيْها ، عَسَى الله يُقَوِّي

هَدَى اللهُ مَعشُوقَ الجَهالِ إلى الهُدَى وَجَنَّبَهُ ما يَختَشِيه مِن الرَّدَى
وَنَفسَ حَسُودٍ أَسخَنَ اللهُ عَينَهُ وَأَسهَرَهُ حَتَّى يَبِيتَ مُسَهَّدا
وَلا بَرِحَتْ تُهدِي لَنا ظَبيَةُ الحِمَى مِن المِسكِ والكافُورِ فِي غَفلَةِ العِدا

أُنظُر «الدُّرّ المنظوم» ص٨٧ .

هِمَمَكُم ويُعَلِّمُكُم ما مَعْنَى العَمَل ، ومَعْنَى هَذا الكَلام كُلّه .

سَيِّدُنا أَبُوبَكرٍ تَهَيَّبَ الأَمْرَ أوّلَ الخِلافَةِ ، قالُوا لَه : أَمِّرْ غَيْرَ أُسامَةَ عَلَى الجيشِ ، قالَ لَهم : بَلْ أَنْفِذوا جَيْشَ أُسامَةَ ، قَد سَمِعتُ النَّبِيَّ على المِنْبَرِ يَقُول: «أَنْفِذُوا جَيْشَ أُسامَةَ»[1]، فَأَوَّلُ عَملٍ أَبْدَأُ به هَذا ، فَخرَج بِنَفْسِه يُوَدِّعُه ؛ لأَنَّه خَلِيفَةٌ صادِقٌ رَضِيَ الله عَنه.

سُبْحانَ الَّذِي خَصَّهُم بِتِلْكَ الآدابِ ! سَتَرى خَبَرَهم فِي القِيامَةِ بَعْدَ ذَلِك ، والأُمَمُ السّابِقَةُ يَتَعَجَّبُون مِنْهُم كَأَنَّهم أَنْبِياءُ ؛ لأَنَّهُم انْطَوَوا فِي بَحرِ النُّبُوَّة بكُلِّيَتِهِم ، حَتَّى قالُوا : مِن أَسْبابِ مَوْتِ أَبِي بَكر .. الكَمَدُ عَلَى الفِراقِ ، فَقَد كانَ فِي غايَةٍ مِن الشَّوْقِ سَنَتَيْن وَسِتَّة أَشْهُرٍ مَرَّت كَيْفَ صَبَرَ فِيها ؟ حَتَّى فِي عالَمِ الحِسِّ والظّاهِرِ وَضَعُوه بِجانِبِ قَبْرِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم .

عِنْدَ تَكْوِينِ آدَم .. أَخَذَ الله مِن بِقاعِ الأَرْضِ لِكُلِّ واحِدٍ بَذْرَة مِن مَكان طِينَتِه مِن الأَرْض ، وَهِي البُقْعَةُ الَّتِي يُقْبَرُ فِيها ، وَفِي وَقْتِ تَكْوِينِ آدَمَ أُخِذَت التُّرْبَةُ لجَمِيعِ الأَجْسادِ الَّذِينَ سَيُخْرَجُونَ مِن آدَمَ إِلَى يَوْمِ القِيامَة .

وَكانَت التُّرْبَةُ لأَبِي بَكرٍ وَعُمَرَ مَأْخُوذَةً مِن مَكانٍ جانِبَ مَكانِ الحَبِيبِ نَفْسِهِ ، وَهوَ المكانُ فِي المَدِينَةِ المُنَوَّرَة ، أُخِذَت تُرْبَتُه مِن ذَلِكَ المَكانَ فَفِيهِ الجَسَدُ الشَّرِيفُ، وَمِن جَنْبِه أُخِذَت تُرْبَةُ أَبِي بَكرٍ وَعُمَرَ ، فَكُلُّ واحِدٍ يُقْبَرُ فِي الأَرْضِ بِمَكانِ تُرْبَتِهِ ، أَي: المَكانِ الَّذِي أُخِذَت مِنه ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ ، فَـ «فِي» مُتَعَلقَةٌ بِـ«مِن» ، مِنْها وَفِيها ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[طه:٥٥].

---

(١) رواه ابن عساكر.

نتيجة انحطاط المسلمين

وقال رضي الله عنه ونفعنا به النُّورُ الأكبرُ الَّذي كانَ بإمكانِهِ أنْ يَسرِيَ .. خَسِرَه العالَمُ بانحِطاطِ المسلِمِين ، وَهَذِه الأُمورُ تُرِيد مِنّا هِمَماً عاليةً وَصِدقاً ، وَهِي لَيسَت بَعِيدةً لمن صَدَقَ مَع الله وَإنَّه لَيسيرٌ عَلى مَن يَسَّره الله عَليه(١) .

في شأن الصدق والتعلق به

وقال رضي الله عنه ونفعنا به رِجالُ الصِّدقِ ما يُقدِّمون شَيئاً عَلَى مَولاهُم ، ما تَقدِرُ شَهَواتُ النُّفوسِ تَأخُذُهم وَلا الدَّواعِي لأنَّهم لَه جَلَّ جَلاله .

قالَ الله تَعالَى : ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾ [المائدة:١١٩] ، سُلَّمُ الصِّدقِ يُوصِلُ إلَى الصِّدِّيقيَّةِ ، فَأَسِّسُوا أُمورَكم عَلَى الصِّدقِ ، وَما مَضَى مِن ضَعفٍ وَغَفلَةٍ يَكفِي ، كُلُّ يَومٍ تَطلعُ القَوائِمُ إلى رَبِّ العَرشِ ، لَكِن مُمكِنٌ أَنْ يَترَقَّى الإنسانُ كلَّ يَوم ، وَيَعتَلِي وَيَذُوقُ وَيرتَفِعُ وَيَعلُو وَيَسمُو ، كلَّ يَوم ممكِنٌ ، بَل كلَّ لَيلَةٍ ممكِنٌ ، بَل كُلَّ ساعَة وَكلَّ لحَظَةٍ ممكِنٌ ، كُلُّ ذَلِكَ بَينَ يَدَي الرّافِعِ الخافِضِ ، الَّذي يَسمَعُكم وَيَراكم ، وَيَستَوِي عِندَه ظَواهِرُكم وَخَفاياكم ، وَكَلِماتُكم وَنَواياكم ، وَما تُسِرُّون وَما تُعلِنُون ، في قَبضَتِه أَنتُم ، فَعَسَى حُسنُ العَرضِ عَليه ؛ لِيَعلَمَ مِن طَواياكُم ما يُرضِيهِ ، وَيُثْبِتُنا فِيمَن يَرتَضِيه .

خدمة كل صاحب مقام في مقامه

وقال رضي الله عنه ونفعنا به(٢) أَهلُ الدَّعوَةِ في كُلِّ زَمَنٍ يُمَثِّلون طَوائِفَ المُؤمِنِين ، فَلابُدَّ أَن يَكُونَ في العامِلِينَ مَعَنا في مَيدانِ الدَّعوَةِ قَومُ الخَوفِ وَقَومُ الرَّجاءِ ، وَقَومُ المعرِفَةِ

---

(١) اقتِباسٌ مِن قَولِ النَّبيِّ صَلَّ الله عَلَيهِ وَسَلَّمَ لمعاذِ بنِ جَبَلٍ عِندَما سَأَلَه : أَخبِرنِي بِعَمَلٍ يُدخِلُنِي الجَنَّةَ. فَقالَ: «لَقَد سَأَلْتَ عَن عَظِيمٍ وَهوَ يَسِيرٌ عَلَى مَن يَسَّرَهُ الله عَلَيهِ» رَواهُ أَحمَد .

(٢) وَذَلِكَ لَيلَةَ الخَمِيسِ ٢٣ مِن شَهرِ جُمادَى الأَوَّل ١٤٢٢هـ .

والجامِعُون أيضاً .

وَعلى أيِّ حالٍ فَفِي أيِّ مَقامٍ قُمتَ فَأَنتَ مُطالَبٌ بِحُكمِ ذَلك المقامِ إلى الإِحسانِ فِي العَمَلِ ، وَإلى سَدِّ الخَلَلِ ، وَإلى الاجتِهادِ لِقَصدِ وَجهِ الحقِّ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإلى التَّدارُكِ وَإلى الصِّدقِ وَإلى المواصَلَةِ ، وَإلى البَذلِ وَإلى التَّضحِيَةِ ، سَواءً قُمتَ عَلى قَدَمِ الخَوفِ المزعِجِ المقلِقِ ، أَو قُمتَ عَلى قَدَمِ الرَّجاءِ المشوِّقِ المرغِّبِ المنَـبِّهِ ، أَو قُمتَ عَلى المعرِفَةِ عَلِيَّةِ الشّانِ .. رَفِيعَةِ المكانِ .. أَو كنتَ جامِعاً .

كلُّ مَقامٍ مِن هَذِه المقاماتِ يَنفِي التَّكاسُلَ والتَّخاذُلَ ، وَيَنفِي الرِّضى بِالتَّقهقرِ والتَّأَخُّرِ ، وَيَنفِي الرِّضى بِعَدمِ استِصلاحِ النَّفسِ وَعدمِ التَّرقِّي ، بَل يَتنافَى مَع الرِّضى أَن يَمرَّ يومٌ وَلَيلَةٌ بِلا زِيادَةٍ سَواءً كُنتَ مِن أَهلِ الرَّجاءِ أَو كُنتَ مِن أَهلِ الخَـوفِ أَو كُنتَ جامِعا .

لَن نَجِدَ ما تُزَكُّونَ بِهِ أَنفُسَكُم وَيُقوِّمُ أَقدامَكُم عَلى سَبِيلِ مَرضاتِهِ تَعالَى واستِصلاحِ أَنفُسِكُم وانتِزاعِ الأَسواءِ مِنها مِثلَ تَفانِيكُم وَصِدقِكُم فِي هَذا الميدانِ وَفي هَذا المجالِ، وَمَن لَه قُدرَةٌ مِنكُم عَلَى سُؤالِ صاحِبِ الشَّأنِ والرِّسالَةِ مِن أَيِّ وَجهٍ فَليَسأَلْ ، لا نَجِدُ أَصفَى وَأَنقَى لَكم إِذا تَوجَّهتُم وَصَدَقتُم فِي الخِدمَةِ مَع التَّفانِي فِي هَذا الميدانِ وَفي هَذا المجالِ مِن هَذا العَمَلِ .

فَإِنْ لَم يَكنِ الأَمرُ كَذلِكَ .. كانَ الحِسابُ صَعباً عَلينا فِي يَومِ القِيامَةِ عَلى هَذا الكَلامِ الَّذِي نَتَـكلَّمُ بِهِ ؛ لأَنَّ كَلامَ الإِنسانِ مِن عَمَلِه فَيُحاسَبُ عَلَيهِ ، لهَذا إِذا قَبِلتُم النَّصِيحَةَ فَهَذا الميدانُ ، الصِّدقُ مَع الرَّحمنِ ، وَأَخْذُ أَلبِسَةِ أَوصافِ المنـتَقَى مِن عَدنان ، عَظِيمِ الشَّأنِ ، الَّذي يُقرِّبُكُم مِنه غَداً عَلى قَدرِ قُربِكم الآنَ .

هُناكَ حَوضُهُ ، وَهُناكَ لِواءُ حَمدِه ، وَهُناكَ تَقدُّمُه ، وَهُناكَ الجنَّةُ الَّتي يَدخُـلُها ،

وَهُنا دِينُه ، وَهُنا هَـمُّه ، وَهُنا اهتِمامُه ، وَهُنا مُهِمَّتُهُ ، وَهُنا عِنايَتُهُ ، وَهُنا مَظهَرُ كَمالِه ، وَهُنا مَظهرُ خُصُوصِيَّته فِي حَملِ الرِّسالَةِ الكامِلَةِ العامَّةِ للعالمينَ إلى يَومِ القِيامَةِ بِالرَّحمَةِ الإلهيَّة ، فَلَيسَ الوُرُودُ عَلى ما ذَكَرنا مِن حَوضٍ وَجَنَّةٍ واستِظلالٍ بِلِواءِ الحَمدِ إلى غَير ذَلك إلا نَتائِجَ وَفُرُوعاً وَثَمَراتٍ لِذَلك الذي ذَكرته لكم هُنا .

فانظُـرُوا كَيفَ نَستَظِلُّ الآنَ ! وَكَيفَ نَرِدُ وَنَشرَبُ الآنَ ، وَكَيفَ نَدخُلُ إِلى الحظائِرِ الآنَ ، وَلَيكونَنَّ أَهلُ صِدقٍ فِي هَذا الزَّمانِ مَع تَأَخّرِهِ ، مِمَّن يَظلُّونَ وَيَبِيتُونَ فِي جِنانٍ مِن قُربِ الرَّحمنِ بِصِدقِهِم فِي هَذا المَيدانِ .

مخاطبا المرتبطين من العاملين في ميدان الدّعوة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: يَنبَغِي للعامِلِينَ فِي هَذا المَيدانِ أَن يَتَعامَلُوا مَع النّاسِ بِمَبادِئ وَبِمَناهِجَ وَبِوجهاتٍ ، فَهَذِهِ النَّواقِصُ يَـجِبُ أَنْ نَتَدارَكَها ، والدِّينُ المعامَلَةُ ، وَمَن لَه سابِقَةٌ يُدرِكُ نَصِيبَه .

ضَعُوا فِي بالِكُم أَنْ لا تَحتَقِروا أَحَداً ، فَأَهلُ الدَّعوَةِ لا يَتَحَكَّمون فِي إِدخالِ النّاسِ الجَنَّةَ أَو النّارَ أَو إِخراجِهِم مِنها ، بَلْ هُم مَأمُورُونَ بِالبَيانِ لَهُم ، وَمَأمُورُونَ بِصَفاءِ السَّرائِرِ ، وَمَأمُورونَ بِالجُهدِ فَيَجتَهِدونَ ، وَبِالثَّباتِ عَلى الخُلُقِ الَّذِي ارتَضاهُ رِجالُنا، خُلُقِ الثَّباتِ ، والرُّسوخِ وَحُسنِ الظَّنِّ ، وَوَزنِ القَولِ ، وَحُسنِ البَيانِ ، مَع وُجُودِ قاعِدَةِ الثَّباتِ عِندَنا وَغَرسِ هَذِهِ القَواعِدِ فِي بَواطِنِنا ، حَتَّى يَتِمّ التَّمَكُّنُ فِي أَصحابِنا بِالطُّمَأنِينَةِ المستَقاةِ مِن اليَقِـينِ .

في شأن ضابط الجمع بين الحرص والتّسليم

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: لا يَخـتَلطْ عَلى المتَوَجِّهِ والسّالِكِ وجودُ الحِرصِ والرَّحمَةِ مَع وُجودِ التَّسليم ، فَيَجِبُ أَن يَكُونَ التَّسليمُ والرِّضى آخِذاً مَأخَذَه مِن الدّاعِي والسّالِكِ

والمتَوجِّهِ ، مَع بَذلِهِ الوسعَ وَمَع وُجُودِ الحِرصِ وَوُجُودِ الشَّفقَةِ والرَّحمةِ وَما إلى ذَلك، بِحَيثُ لا يُفقِدُ أَحَدُهُما الآخَرَ ، لا يُفقِدُ وُجُودُ التَّسليمِ وُجُودَ الحِرصِ والسَّعيِ، وَلا يُفقِدُ وُجُودُ الحِرصِ والسَّعيِ وُجُودَ التَّسليمِ والرِّضى .

يجب أَنْ نكُونَ عَلى نَصِيبٍ وافِرٍ مِن الرِّضى عَن رَبِّنا فِيما يُقَدِّرُهُ وَيقضِيهِ خُصُوصاً وَعُمُوماً بِما يُرِيدُ كَما يُرِيدُ ، مُعتَقِدِينَ أَنَّه لَن يَكونَ غَيرُ ما أَرادَه ، إِنَّما نَحنُ مُتَعَبَّدونُ بِالحِرصِ عَلى هَذا ، والفَرحِ بِهَذا والحُـزنِ عَلى هَذا ، وَكلُّ الفَرحِ والحُزنِ والحِرصِ وَعَدَمِ الاهتِمامِ بِكُلِّ ما أُمِرنا بِعَدَمِ الاهتِمامِ بِهِ ، كُلُّ هَذِهِ الأَحوالِ لا تُغَيِّرُ شَيئاً وَلا تُكَدِّرُ صَفاءً فِي جانِبِ الرِّضى ، وَلا تَمَسُّه بِحالٍ مِن الأَحوالِ .

بِحَيثُ يَكُونُ الرِّضى ثابِتاً عَلَى قَوائِمِهِ وَقائِماً عَلَى أُصُولِهِ فِي باطِنِكَ وَقَلبِكَ مَع كَونِكَ حَيثُ أُمِرتَ بِالحِرصِ .. تَحرِص ، وَحَيثُ أُمِرتَ بِالإِعراضِ .. تُعرِض، وَكلُّ هَذا لا يَمسُّ صَرحَ الرِّضى التَّامِّ ، مَع بَذْلِكَ لِلوُسعِ فِي ذَلِكَ .

في شأن ضوابط الكتم والإفصاح

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ [1] مِن جُملَةِ السرِّ الَّذِي يُحِبُّ الله سُبحانَهُ وَتعالى كَتمَه أَنَّه بَثَّ شُؤُونَه فِي البَرِيَّةِ ، ثمَّ لَم يُظهِرْ عَلى وَجهِ العُمُومِ إلا شُؤُوناً قَلِيلَةً ، وَجَعَلَ عامَّة الشُّؤُونِ مَخفِيَّةً وَمَكتُومَةً، فالَّذِي يَتعامَلُ بِهَذا الخُلُقِ مِن بَرِيَّتِه يَكشِفُ لَه عَن أَسرارِهِ ، وَيأْتَمِنُه عَلى أَسرارٍ فِي الإِيمانِ واليَقِينِ والمعرِفَةِ بِه . والَّذِي طَبِيعَتُهُ أَنَّ ما عِندَه يُفشِيه ، وَما سَمِعَهُ يُبدِيه .. لا يُؤمَنُ عَلى أَسرارِ الحَقِّ ، وَيترَتَّبُ عَلَى هَذا فِي مَجالِ الدَّعوَةِ أَنْ يَكُونَ غَيرَ مَأمُونٍ عَلى كَثِيرٍ مِن الأُمُورِ ، فَهو يُحِبُّ الخَوضَ وَكَثرَةَ الكَلامِ ، وَلا يَعرِفُ أَن يَجعَلَ الخُصُوصَ لِلخُصُوصِ ، وَما مَجالُهُ الكَتمُ لِلكَتمِ ، والسِّرُّ لِلسِّرِّ ، والإِظهارُ لِلإِظهارِ،

---

(١) وَذَلِكَ فِي نفس اليوم.

وَقد عَلِمنا أَنَّ مَظهَرَ مخاطَبَتِنا لِلنّاسِ لِسانُ الشَّرِيعَةِ المطَهَّرَةِ بِأَوامِرِها وَنَواهِيها وَعَقائِدِها وَأَحكامِ الحقِّ وَرَسُولِه وَشُؤُونِ الدّارِ الآخِرَة .

فَيَنبَغِي أَن نَأخُذَ الأَمانَةَ فِيما نَعرِفُه مِن أَحوالِ أَصحابِنا ، وَأَنْ لا نُبَلِّغَ وَلا نُظهِرَ إِلا ما فِي إِظهارِهِ وَإِبلاغِهِ قُربَةٌ إِلَى الله ، أَي: نَرَى أَنَّ هَذا أَحَبُّ إِلى الله تَعالى وَأَقرَبُ إِلَيهِ فَنُظهِرُه ، وَقَد يَحتاجُ البَعضُ مِن السّالِكِينَ إِلى أَنْ تُظهِرَ له ما عَرفتَهُ فِي مَسأَلَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، أَو ما عَرفْتَهُ عَن شَخصٍ مُعَيَّنٍ وَلا يَحتاجُ إِلَيهِ الآخَرُ ، فَتُظهِرَ لَه ما يَحتاج إِلَيهِ فَقَط .

وَهُناكَ أُمُورٌ مَجالُكَ فِيها فَسِيحٌ وَواسِعٌ كَتَعظِيمِ أَمرِ الشَّرِيعَةِ وَتَعظِيمِ الحَقِّ جَلَّ جَلالُه والرَّسُولِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، والحَثِّ عَلَى الاقتِداءِ بِهِ وَتَعظِيمِ شُؤُونِ الآخِرةِ ، فَفِي مِثلِ هَذِهِ المسائِلِ بِإِمكانِكَ أَنْ تَنطَلِقَ ، فَقَد أُعطِيتَ الإِشارَةَ الخَضراءَ فِي ذَلِكَ كَما يُعبِّرُ بِذَلِكَ أَهلُ العَصرِ ، فَتَمشِي مُطمَئِنّاً فِي هَذِهِ النَّواحِي ، والنَّواحِي الأُخرَى تُحاسِبُ عَلَيها مُحاسَبَةً ، فَلا تُحَدِّثْ بِكُلِّ ما تَسمَعُ ، وَكَثِيرٌ مِن شُؤُونِ إِخوانِكَ وَأَصحابِكَ لا تَحتاجُ إِلى إِشاعَةٍ وَلا إِظهارٍ .

وَأَمّا الشُّؤُونُ والأَحوالُ والمحاسِنُ الظّاهِرَةُ المتَعَلِّقَةُ بِالأَوصافِ فِي جَوانِبِ العِبادَةِ والوَرَعِ فَهو مِمّا يَحسُنُ إِفشاؤُه غالِباً ، وَمُقابِلُ ذَلِكَ الصِّفاتُ الذَّمِيمَةُ فِي هَذِه النَّواحِي غالِباً ، بَل وَفِي أَعَمِّ الأَحوالِ فَهِي مما يَحسُنُ إِخفاؤُهُ وَسَترُهُ .

وَأَمّا الأُمُورُ الأُخرَى كَجَوانِبِ الخُصُوصِيّاتِ والاصطِفاءاتِ فَتَجِدُهُ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم أَظهَرَ مِنها ما يَحتاجُ إِلى إِظهارِهِ ، وَكَم عَلِمَ مِن اصطِفاءاتٍ فِي أَصحابِه وَفِي أُمَّتِه وَما تَحَدَّثَ إِلا بِكُلِّ ما فِيهِ مَنفَعَةٌ وَمَصلَحَةٌ لِلأُمَّةِ إِلى يَومِ القِيامَةِ ، وَما كَتَمَهُ أَكثَرُ مِمّا أَظهَرَهُ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم ، بَل اصطِفاءاتُهُ وَخُصُوصِيّاتُهُ لَم يَظهَرْ مِنها بِالنِّسبَةِ إِلى ما آتاهُ اللهُ وَلا عُشرُ العُشرِ ، بَل وَلا نِسبَةُ ذَرَّةٍ إِلَى رِمالِ الدُّنيا فِي مِثلِ قَولِهِ: «أَنا سَيِّدُ

وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْر»[1] وَنحوَ ذَلِكَ .

ثُمَّ إِنَّ أَهلَ الظّاهِرِ وَأَهلَ الباطِنِ لا نِسبَةَ بَينَ ما اطَّلَعُوا عَلَيهِ وَبَينَ ما خَصَّ اللهُ بِه نَبِيَّهُ ، إِلَى حَدٍّ تَصِلُ فِيهِ إِلَى الذّاتِ المحَمَّدِيَّةِ نَفسِها ، فَتَجِدُ الذّاتَ الرَّحمانِيةَ خَبَأَتْ لها ما لا يَخطُرُ لها عَلَى بالٍ ، وَمِنْ هُنا تَعرِفُ بَعضَ بَهجَةِ ﴿وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾[النساء:١١٣].

فَلِهَذا إِذا أَرَدنا أَنْ نَتكلَّمَ فِي الخُصُوصِيّاتِ فَيَنبَغِي أَنْ نَتَكلَّمَ بِما يَتَّفِقُ مَعَ القَواعِدِ وَمُراعاةِ الأُصُولِ والنَّظَرِ فِي الفَوائِدِ والمنافِعِ والتَّقرِيبِ، وَأَمّا ما يَتَعَلَّقُ بِخُصُوصِيّاتِ شُيُوخِنا وَأَئِمَّتِنا فَلا يُناطُ بِنا تَكلِيفٌ قَوِيٌّ حَولَ إِظهارِها وَإِخفائِها ، فَإِنَّكَ وَإِنْ سَكَتَّ فِي وَقتِ الحاجَةِ إِلَى إِظهارِها فَإِن أَبسَطَ الأَشياءِ سَتُظْهِرُها ، وَإِنَّك مَهما تَحَدَّثْتَ وَتَكلَّمتَ فِي وَقتِ إِخفائِها فَلَنْ تَظهَرَ وَسَوفَ تَبقَى مَخفِيَّةً ، فاعلَمْ حِكمَةَ اللهِ فِي ذَلِكَ، وَيَكفِيكَ مِن ذَلِكَ الأَطرافُ الَّتِي نَتَعَبَّدُ اللهَ بِها فَقَط .

في شأن محبّة الله للسّتر وآثاره على العبد

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[2] الحَقُّ سُبحانَه وَتَعالَى يُحِبُّ السَّترَ عَن عِبادِهِ ، بَل وَسَمَّى نَفسَه السَّتارَ ، وَيُعامِلُ المتخَلِّقَ بِهذا الخُلُقِ مِن عِبادِهِ بِسَترِ مَعايِبِهِ وَتَغطِيَةِ قَبائِحِهِ ، فالمتسارِعُ إِلَى إِظهارِ المَعايِبِ مُعرَّضٌ لِخَطَرِ الفَضِيحَةِ ، وَأَن يَكشِفَ اللهُ عَورَتَهُ .

فَإِذا كَتَمْتَ وَسَتَرْتَ مَعايِبَهُم فَلا تَقدَحْ فِي عَمَلِكَ هَذا أَو تُخَفِّفْ وَزنَه عِند رَبِّكَ أَو

---

(١) أَخرَجَهُ التِّرمِذِي وابنُ ماجَه مِن حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ ، والحاكِمِ مِن حَدِيثِ جابِرٍ وَقالَ: صَحِيحِ الإِسنادِ ، وَلَه مِن حَدِيثِ عُبادَةَ بنِ الصّامِتِ «أَنا سَيِّدُ النّاسِ يَومَ القِيامَةِ وَلا فَخر» ، وَلِمسلِمٍ مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ «أَنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَومَ القِيامَةِ» .

(٢) فِي ٣ مِن شَهرِ رَبِيعِ الأَوَّلِ ١٤٢٠هـ .

تخرجُ عَن العُبُودِيَّةِ بِأُمورٍ مِنها : أَن تظُنَّ أَنَّ لكَ المنَّةَ عَلَيهِم بِسَترِ قَبائِحِهِم ، أَو أَن ترى أَنَّك تَفضَّلْتَ عَلَيهِم بِذَلِكَ ، وَأَنتَ أَصلاً لَم تَفعَلْ إلا شَأنَ العَبدِ مَع رَبِّهِ، أَي: إنَّ هَذا الأَمرَ واجِبٌ عَلَيكَ أَصلاً فِيما بَينَكَ وَبَينَ الله ، فَلَيسَ لَكَ فِي ذَلِكَ مَزِيَّة .

ثُمَّ عَلَيكَ أَن لا تَطوِيَ باطِنَك عَلى استحقارِهِم فَإِنَّكَ لا تَعلَمُ نِهايَةَ مَصِيرِهِم إلا ما كانَ مِن وَهمِكَ وَخيالِكَ ، فَأَنتَ لا تَدرِي بِخَواتِيمِهِم ، بَل أَنتَ فِي حالِ سَترِكَ للمَعايِبِ تَكُونُ حافِظاً لِوَزنِها عِندَ رَبِّكَ ، وَحافِظاً أَيضاً لِقِيامِكَ بِحَقِّ العُبُودِيَّةِ فِيها بِأَنْ لا تَحتَقِرَ وَلا تَشهَدَ لَكَ مِنَّةً وَلا فَضلاً بِسَترِها وَلا بِكتمِها ، وَإِنَّما قُمتَ بِواجِبٍ عَلَيكَ ، وَلا تَقطَعْ عَلَيهِم بِنِهايَةٍ وَلا مَصِيرٍ فِيها .

فَوقَ هَذا كُلِّهِ لَو تَمكَّنَ مِنكَ مَشهَدُ التَّوَقُّعِ أَنَّ اللهَ مِن المُمكِنِ أَن يَنظُرَ إِلَيهِم فِي أَيِّ لَحظَةٍ وَرُبَّما جَعَلَ مَن جَعَلَ مِنهُم فِي المقامِ الأَعلَى فَقَد نَجَحْتَ فِي عُبُودِيَّتِكَ لله ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ صافِيَ الباطِنِ ، مُهيَّأً لأَنْ يُقذَفَ فِيكَ السِّر .

فيما يتعلّق بشأن الحديث عن الأحوال والمقامات والخوض فيها

وقال رضي الله عنه ونفعنا به (1) الحَدِيثُ عَن تِلكَ الأَحوالِ وَالأَذواقِ وَالمقاماتِ عَلى أَوجهٍ وَعَلى أَلوانٍ ، فَمِنها ما يَأتِي عَلَى وَجهٍ يُداخِلُ صاحِبَهُ فِيهِ الظَّنُّ وَالتَّوهُّمُ بِالتَّحَقُّقِ مِن غَيرِ وُجُودِ ذَلِكَ ، فَهَذا الَّذِي فِيهِ نَظَرٌ ، أَو كانَ مِمَّن يَقِلُّ فَهمُه فِيهِ وَيَضِيقُ عَنه أُفُقُ إِدراكِهِ وَسِعَةُ إِطِّلاعِهِ عَلى حَقائِقِهِ ، فَيَكُونُ الكَلامُ عَلَيهِ ضَرباً مِن التَّشوِيشِ وَبَعثاً لِلقَلَقِ أَو لإِنكارِ ما لا يُنكَرُ أَو لِتَقرِيرِ ما لا يُقَرَّرُ أَو سُوءِ ظَنٍّ أَو تَبَجُّحٍ بِما لَيسَ لَه .

فَلأَجلِ هَذا قالُوا إِنَّ الكَلامَ فِي المقاماتِ وَالأَحوالِ يَجِبُ أَنْ يُوزَنَ بِمِيزانٍ صَحِيحٍ مِن القَواعِدِ فِي هَذِهِ الدَّعوةِ الشَّرِيفَةِ ، وَإِنَّما يَصلُحُ الكَلامُ فِي كلِّ مَكانٍ وَلِجَمِيعِ النّاسِ

(1) وَذَلِكَ فِي ٢٨ مِن شَهرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ ١٤٢١هـ .

عَن الأَوامِرِ والنَّواهِي فِيما جاءَت بِهِ الشَّرِيعَةُ المطَهَّرةُ الواضِحَةُ البَيِّنَةُ بِما لا لَبسَ فِيهِ وَلا غُمُوضَ ، وَذِكرِ ما يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ[1] مِن الحِكَمِ وَما يَترَتَّبُ عَلَيهِ مِن الآثارِ فِي الدُّنيا والآخِرَة ، القَرِيبَةِ الفَهمِ والمستَوعَبَةِ لَدَى العُقُولِ .

فَهَذا المجالُ.. العِنانُ فِيهِ مُطلَقٌ لِمن أَرادَ أَن يَتَكَلَّمَ ، فَما بَقِيَ إِلا أَنَّ المتَكَلِّمَ فِيهِ إِمّا أَن يَكونَ عَلى وَصفٍ جَمِيلٍ أَو لا يَكُونَ ، وَأَهلُ الوَصفِ الجَمِيل إِمّا أَن يَكونُوا عَلى اتِّصالٍ بِرِجالِ الحَـضرَةِ وَأَهلِ الإِذْنِ المتَلَقَّى مِن فَوق ، وَإِمّا أَن لا يَكُونُوا.

فَيَختَـلِفُ كَلامُ صاحِبِ الاتِّصافِ بِالوَصفِ الجَمِـيلِ وَكَلامُ مَن لَم يَتَّصِـفْ بِهِ ، وَيَختَلِفُ كَلامُ المتَّصِلِ بِرِجالِ الله مِن أَهلِ الوَصفِ الجَمِيلِ عَن صاحِبِ الوَصفِ الجَمِيلِ الَّذِي لَم يَتَّصِلْ بِرِجال الله تَعالَى وَلَم يَرتَبِطْ بِأَهلِ الحَضرَةِ وَأَهلِ الإِذنِ ، فَيَأتِي اختِلافٌ كَثِيرٌ فِي نُورِ الكَلامِ ، وَفِي تَأثِيرِ الكَلامِ ، وَفِيما يَتَرَتَّبُ عَلَى هَذا الكَلامِ ، وَفِي بَرَكَةِ ذَلِكَ الكَلامِ ، فالله يُقَوِّي لَنا الارتِباطَ بِأَهلِ حَضرَتِهِ وَأَهلِ مَوَدَّتِه وَأَهلِ قُربِهِ .

في شأن الخوض في المقامات والأحوال

وقال رضي الله عنه ونفعنا به[2] الخَوضُ فِي المقاماتِ والأَحوالِ يَأتِي عَلى صُوَرٍ، فَمِنها خَوضٌ يَتَعَلَّقُ بِجانِبِ تَطَلُّعِ النَّفسِ مُنفَصِلاً هَذا التَّطَلُّعُ عَن العَزائِمِ الصّادِقَةِ والهِمَمِ القَوِيَّةِ والتَّوَجُّهاتِ الخارِقَةِ ، فَهو أَشبَهُ بِفُضُولٍ انْتُزِعَ فَضلُه الأَعلَى بِما عِندَ المتَـكَلِّمِ بِهِ مِن كُلُولٍ[3] وَعَجزٍ ، وَرِضا بِالوُقُوفِ والحِرمانِ وَقَناعَةٍ بِلَقلَقَةِ اللِّسانِ ، وَتَرَدُّدِ الأَلفاظِ بِلا اتِّعاظٍ وَلا مَعرِفَةٍ بِالبَسطِ والانقِباضِ وَلا تَذَوُّقٍ ، وَهَذا مِن جُملَةِ الخَوضِ الَّذِي يَنهى

---

(١) أَي: ما يَتَعَلَّقُ بِالأَوامِرِ والنَّواهِي وَما جاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَة .

(٢) فِي ٧ مِن شَهرِ رَجب ١٤٢١ هـ .

(٣) كَـلَّ لِسانُه أَي: ثَقُلَ .

عَنه رِجالُ المنهجِ عَلَى السّالِكِينَ فَإِنَّه قاطِعٌ وَعَن حَقائِقِ تِلكَ الأَحوال والمقامات مانِعٌ.

والكَلامُ فِي الأَحوالِ والمقاماتِ بِهَذا الوَصفِ وَبِهَذِهِ الصُّورَةِ يُؤَدِّي إِلَى تَخَيُّلِ الاتِّصافِ بِغَيرِ وَصفٍ ، وَتَوَهُّمِ التَّحَقُّقِ بِغَيرِ حَقِيقَةٍ ، كَما يَتَوَهَّمُ كَثِيرٌ مِمَّن يَأخُذُون مِن كَلامِ العارِفِينَ عَن دَقائِقِ الإِخلاصِ والصِّدقِ وَدَقائِقِ الرِّياءِ أَنَّهم ما قَدَروا عَلى هَذا إِلا وَهُم مُتَحَقِّقُونَ بِالإِخلاصِ ، سالِمونَ مِن الرِّياءِ وَهو غُرورٌ مَحْضٌ .

فَيُمكِنُ أَن يَتَخاطَبَ مَعي إِبلِيسُ بِدَقائِقِ الإِخلاصِ والرِّياءِ؛ وَلَكنَّه لا يَصِلُ إِلى الذَّوقِ والحَقِيقَةِ ؛ لأَنَّه مَحجُوبٌ وَمَقطُوعٌ ، لَكِنَّ زُخرُفَ القَولِ يَغُرّ .

ثُمَّ إِذا تَخَيَّلَ إِنسانٌ أَنَّه مِن أَهلِ السِّرِّ والمقاماتِ ؛ لأَنَّه يَتَكَلَّمُ فِي المقاماتِ ، فَقَد ادَّعَى بِلا بَيِّنَةٍ ، فاغْتَرَّ بِبِضاعَةٍ هَيِّنَةٍ ، فانحَجَبَ بِكَثائِفَ مُتَعَيِّنَةٍ ، فَقَنِعَ بِما لَيسَ تَحتَه طائِلٌ ، وَقَصُرَتْ بِه المآمِلُ ، وَكَثُرَتْ عَلَيهِ بِغَيرِ الحَقِّ الشَّواغِلُ ، وَأَصبَحَ صاحِبَ قَولٍ لَيسَ لَه نَصِيبٌ مِن الطَّوْلِ .

وَأَما الخَوضُ فِي المقاماتِ مَع الاعتِرافِ بِالعَجزِ والفَقدِ والخُلُوِّ ، بِما يُشَوِّقُ أَو يُرَقِّقُ أَو يَبعَثُ الهِمَّةَ أَو يُنَمِّي العَزِيمَةَ وَيُقَوِّي الوِجهَةَ فَلا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ مِن أَهْلِ المنهجِ ، وَلَكِنَّ الميزانَ فِيهِ دَقِيقٌ ، فَلنَحفَظْ كَلامَهُم المخصُوصَ لِلخُصُوصِ ، وَلنَتَبَيَّنْ أَخذَهُ مِن النُّصُوصِ ، وَلنَحذَر عَلَى أَسرارِهِ مِن القُطّاعِ واللُّصُوصِ ، وَلْنَضِنَّ بِه عَمَّن لَيسَ مِن أَهلِهِ ، وَمَن لَم يَدخُلْ دَوائِرَ تَلَقِّيهِ والقِيامِ بِحَقِّ عَمَلِهِ .

في شأن لسان الحال

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ (١) ماذا تَقُولُونَ ؟ وَماذا تَفعَلُونَ ؟ وَماذا تَنوُونَ ؟ وَمَن تَقصِدُونَ ؟

(١) عام ١٤١٨هـ .

الله يُبعِدنا وَإيّاكم عَن كُلِّ هُونٍ .

أَنتَ بِمَقاصِدِكَ وَنَواياكَ وَوِجهَتِكَ مُتكَلِّمٌ فِي كُلِّ وَقتٍ ، وَإِنْ رَأَيتَ نَفسَكَ صامِتا، إنَّما صَمَتَت اللِّسانُ اللَّحمِيةُ ، والنُّطقُ الثّانِي ما يَتوقَّفُ ، أَنتَ بِحالِكَ وَوِجهَتِكَ مُتكلِّمٌ دائِماً.

وَنَوعٌ مِن أَنواعِ الكَلامِ الرَّفِيعِ الوَسِيعِ ، الجَمِيلِ الحَسَنِ الزاهِي؛ يَختَصُّ بِهِ أَهلُ الأَرواحِ الطّاهِرةِ المصَفّاةِ المنتَقاةِ، وَلهَذا قالَ القائِلُ :

نَظَرُ الحَبِيبِ إِلى المُحِبِّ سَلامُ والصَّمْتُ بَيْنَ العارِفِينَ كَلامُ
جَمَعُوا الإِشارَةَ والعِبارَةَ بَيْنَهُمْ فَلِذا بِها فِي نَفْسِ ذا إِلْمامُ
قالُوا نَعَمْ لَبَّيْكَ فَأْتَلَفُوا بِها فَلَهُمْ بِحَرْفِ الإِئْتِلافِ غَرامُ

إِلَى أَن قالَ :

والسَّيْرُ عِلْمٌ والعُقُولُ أَدِلَّةٌ والرَّبُّ قَصْدٌ والرَّسُولُ إِمامُ[1]

في شأن معرفة الإنسان بنفسه

وَقَالَ رَضِيَ ٱللهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ[2] مَن لَم تَنكَشِفْ لَه حَقِيقَةُ نَفسِهِ فَهو أَجدَرُ أَنْ لا يُكشَفَ لَه عَن حَقِيقَةٍ قَط ، إذا كانَتْ حَقِيقَةُ نَفسِك حُجِبَتْ عَنكَ وَأَصبَحَتْ تَستَعلِي وَتَتكَبَّرَ ، فَكلُّ ذَلِكَ مِن سُوءِ الظَّنِّ بِالله ، تَكبُّرُ العَبدِ .. سُوءُ ظَنٍّ بِرَبِّه ، تَخيُّلُ العَبدِ أَنَّ له فِي الأَمرِ شَيئاً .. سُوءُ ظَنٍّ بِرَبِّه ، اعتِقادُ العِبدِ القُوَّةُ فِيه بِذاتِه .. سُوءُ ظَنٍّ بِرَبِّه .

وَمَن قَدَّسَ اللهَ وَسَبَّحَهُ وَعَظَّمَهُ تَحاشَى أَن يُشْرِكَ شَيئاً مِن نَفسِه مَع رَبِّه ، ادِّعاؤُكَ القُوَّةَ لِنَفسِكَ ادِّعاءُ شِرْكَةٍ ، ادِّعاؤُك العَظَمَةَ فِي نَفسِك وَذاتِك ادِّعاءُ شِرْكَة .

---

(١) الأَبياتُ مَنسُوبَةٌ لِلإمامِ العارِفِ بِالله عَبدِ الهادِي السُّودِي .
(٢) وَذَلِكَ لَيلَةَ الخَمِيسِ ٢٣ مِن شَهرِ جُمادَى الأَوَّلِ ١٤٢٢هـ .

وَمَن تَنَـزَّه عَن الشِّرْكَةِ أَصلاً ، وَنَزَّهَ الحَقَّ عَن الشَّرِيكِ أَصلاً ، لَم يَشهَدْ إلا ضُعفَه وَعَجزَه ، وَإذا ارتقَى فِي ذَلِكَ المقامِ وَبَلَغَ أَشُدَّه واستَوى ، وَأُوتِيَ حُكماً وَعِلماً ، قالَ فِيهِ مُتَحَقِّقاً بِلسانِ الحالِ ذَوقاً وَكَشفاً .

أَنا عَبْـدٌ صارَ فَخْـرِي ... ضِمْنَ فَقْـرِي واضْطِـرارِي
قَـدْ تَـحَقَّقْـتُ بِعَجْـزِي ... وَخُـضُـوعِـي وانْكِسارِي(١)

في معنى العبودية

وقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ: اعلَمُوا أَنَّ ما تَقُومُونَ بِهِ أَو تَتَعامَلُونَ بِهِ ، كُلُّ هَذِهِ الشُّؤونِ رُمُوزٌ وَإِشاراتٌ تَتَطَلَّبُ مِنكُم وَعياً ، تَعِيها الأُذُنُ الواعِيَةُ ، والقُلُوبُ الواعِيَةُ ، بَلْ هِي تُوقِفُ الواحِدَ مِنكُم عَلَى عُبُودِيَّتِهِ للرَّبِّ .

والعُبُودِيةُ لِلرَّبِّ تَبارَكَ وَتَعالَى تَقتَضِي مِن كُلِّ فَردٍ مِنكُم صِدقَ الطَّلَبِ فِي التَّطهِيرِ والتَّقدِيسِ لهَذِهِ النَّفسِ الَّتِي عَلَيها المدارُ بِهذا الشَّأنِ ، فَهِيَ القاطِعَةُ وَهِي المانِعَةُ وَهِي الحاجِبَةُ ، وَهِي الملقِيَةُ لِلإنسانِ مِن الأَوجِ إلَى الحَضِيضِ ، وَهِي الحائِلَةُ بَينَه وَبَين النَّفَحاتِ الكُبرَى والعَطايا العُظمَى ، وَهِي الحابِسَةُ لَه فِي صُوَرِ الأَعمالِ ، وَهِي السَّبَبُ فِي كلِّ انقِطاعٍ يُمكِنُ أَن يَتِمَّ لهَذا الإِنسانِ وَلهَؤلاءِ البَشَرِ أَجمَعِين .

وَمَعَ ذَلِكَ تَزكِيَتُها وَمُعاهَدَتُها وَتَطهِيرُها هُو البابُ وَهوَ المدخَلُ ، وَهوَ الموصِلُ وَهوَ الحَبلُ ، وَهوَ السَّببُ فِي الرِّفعَةِ وَفِي العِزَّةِ ، وَفِي الشَّرفِ وَفِي الكَرامَةِ ، وَفِي الفَهمِ وَفِي الأَخذِ وَفِي العِلمِ ، هَذِه النَّفسُ وَما فِيها شُؤُونُ طَهارَتِها وَتَقدِيسِها هوَ السَّبَبُ فِي كُلِّ خَيرٍ ، وَإِهمالُها والغَفلَةُ عَنها هُو السَّبَبُ فِي كلِّ شَرٍّ ، وَما قَطَعَ(٢) النّاسَ إلا هَذِهِ النُّفُوسُ .

(١) الأبيات مِن قَصِيدَةٍ الإمامِ الحَدّادِ « قَد كَفانِي عِلمُ رَبِّي » ، انظر «الدُّرّ المنظُوم» ص ١٢٠ .
(٢) أي: أَخَّرَهُم عَن نَيلِ المقصُود .

تحسين المشهد

وقال رضي الله عنه ونفعنا به كُلّ معاني رُؤيَةِ النَّفسِ صَغُرَت أو كَبُرَت ، دَقَّتْ أَو جَلَّتْ ، ظَهَرَت أو خَفِيَتْ ، مَرجِعُها إلى مَدرَسَةٍ قاعِدَتُها ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف:١٢] ، وَكُلُّ معانِي الذِّلَّةِ لِلحَقِّ والانكِسارِ وَشُهودِ المنَّةِ راجِعَةٌ إلى مَدرَسَة : «اللهُمَّ أَنتَ رَبِّي خَلَقْتَني وَأَنا عَبْدُكَ ، وَأَنا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّ ما صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبوءُ بذَنْبي»(١) ، مَن يَقولُ هَذا الكَلامَ ؟ يَقولُهُ الأَصلُ في خَلقِكَ وَخَلقِ السَّماواتِ والأَرضِ كُلِّها يَقولُ: «أَبوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبوءُ بِذَنْبي» ، ما الذَّنب إلا عِندِي وَعِندَك ، إن شاءَ الله تَحْسُنُ المشاهِد .

أسباب الهزيمة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به الاعتِمادُ عَلى النَّفسِ والتَّرتيبِ والجُهدِ مِن أَقوَى أَسبابِ الهزيمَةِ ، فَإِنْ تَطَهَّرَتِ النَّفسُ.. فَقُدْسٌ ، وَإِن تَنَجَّسَت .. فَرِجْسٌ ، فَعَلَى أَصحابِنا تَعَلُّمُ التَّخَلُّصِ في بَذْلِهِم وَعَطائِهِم ، وَأَن يَعرِفُوا الحَقَّ لأَهلِهِ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الرعد:١٦]، وَكُلّ الإِحسانِ مِنهُ وَإِليهِ ، والإِساءاتُ مِنّا وَإِلينا ، والمُدْرِكُ لهَذِهِ الحَقائِقِ مُدْرِكٌ لحَقِيقَةِ نَفسِهِ ، وَيَتَبَوَّأُ مَنازِلَ فِي المقامِ الأَعلَى ، إِنْ أَخَذتُم هَذِهِ المعانِي رُبَّما أَخرَجَت لِصاحِبِها ثِيابَ الجُندِيَّةِ ، فَيَلبَسُ خِلَعَها الزَّهيَّة ، وَكُلُّها هَنِيَّةٌ وَبَعضُها أَهنَأُ .

فيما يتعلّق بشأن إظهار بعض أعمال الدّعوة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به (٢) يَحصُلُ أَحياناً أَنَّ البَعضَ مِنّا يُحِبُّ إِظهارَ بَعضِ الأَعمالِ الدَّعوِيّةِ، مِن أَجلِ إقبالِ النّاسِ أَو فَهمِهِم أَو حُسنِ تَصَوُّرِهِم عَن هَذا الأَمرِ .

---

(١) رَواهُ أَحمَد فِي مُسنَدِهِ ، والبُخارِيّ فِي صَحِيحِهِ ، والنَّسائِي عَن شَدّادِ بنِ أَوسٍ .

(٢) وَذَلِكَ فِي ٣ مِن شَهرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ ١٤٢٠هـ .

فَنقُولُ : يَجِبُ أَنْ تُعالَجَ المسأَلَةُ مُعالجَةً صَحِيحَةً فَأَوَّلاً : إظهارُ الدَّعوَةِ غيرُ إظهارِ النَّفسِ والشَّخصِ ، وَإذا صَحَّتْ فِيها النِّيَّةُ فالأَمرُ واسِعٌ ، غيرَ أَنَّه لا يَرجُحُ جانِبُ التَّركِيزِ عَلى اتِّخاذِ الوَسائِلِ فِي الإظهارِ بِحَيث تَطغَى عَلى اتِّخاذِ الوَسائِلِ فِي الارتِقاءِ والمضِيِّ قُدُماً إلى الأَمامِ .

يَنبَغِي أَنْ تَكُونَ الهِمَّةُ فِي الزِّيادَةِ فِي القُربِ والزِّيادَةِ فِي المعرِفَةِ ، وَيَدَعُ الشُّؤونَ الخَلقِيَّةَ مَحكُومَةً بِالحِكمَةِ الحَقِّيَّةِ ، فيَعلَم مَعنى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾[آل عمران:١٢٨]، مَع عُبُودِيَّتِه لِلحَقِّ تعالى بِالرَّحمَةِ بِهِم والشَّفَقَةِ عَلَيهِم والحِرصِ عَلى هِدايَتِهِم.

مشيرا إلى خفايا من حظوظ النّفس

وقَالَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ [(١)] يُواجِهُنا دائِمًا فِي مَيدانِ الدَّعوَةِ أَنَّ نَفسَك إذا انطَلَقَت تَطلُبُ مِنكَ أَن تَقُولَ أَينَ وَضَعُوك ؟ أَنزَلُوك أَيَّ مَنزِل ؟ عامَلُوك أَيَّ مُعامَلَة ؟ حَطُّوك فِي أَيِّ اعتِبارٍ ؟ تَنَبَّهْ وَتَأَكَّدْ أَنَّها سائِرَةٌ بِكَ لِخِدمَتِها لا لِخِدمَةِ رَبِّها ، فَلابُدَّ أَن يَكُونَ عِندَك نَصِيبٌ مِن الوَعِي والإدراكِ أَنَّ البِضاعَةَ الغالِيَةَ هَذِه ما تُعْطى لِخَدَمَةِ النُّفُوسِ ، إنَّما تُعطَى لِخَدَمَةِ القُدُّوسِ .

الباحِثُ عَن مَنزِلَتِه أَينَ هِي ؟ وَمَكانَتِه أَينَ هِي فِي هَذا المجالِ ؟ غَيرُ صالِحٍ لِلارتِقاءِ بِحال ، كانَ سَيِّدُنا خالِدُ بنُ الوَلِيدِ أَمِيراً وَهوَ سَيفُ الله بِنَصِّ الحَدِيثِ[(٢)] ،

---

(١) في ١٤ مِن شَهرِ صَفَر ١٤١٨ هـ .

(٢) قال النبي صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم حين نَعَى زَيْدًا وَجعْفَر وابن رَواحَة لِلنّاسِ قبل أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ فِي غَزوَةِ مُؤتَة: «أَخَذَ الرّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيب ، ثُمَّ أَخَذَ جعْفَرٌ فَأُصِيب ، ثُمَّ أَخَذَ ابن رَواحَةَ فَأُصِيب، وَعَيْناهُ تَذْرِفانِ ، حَتَّى أَخَذَ الرّايَةَ سَيْفٌ من سُيُوفِ الله حتى فَتَحَ الله عليهم» رَواهُ البُخارِيّ.

يَأتِي إِلَيهِ سَيِّدنا عُمَر وَيقُول لَه : قَد عَزَلتُكَ وَوَلَّيتُ أَبا عُبيدَةَ بَدَلاً عَنكَ ، ما تَزَعْزَعَ وَلا تَنَكَّرَ وَلا تَـخَلَّفَ وَلا قالَ: كَيفَ هَذا ؟ أَنا أَمِيرٌ لِي كَذا وَكَذا سَنَة ، وَعَلَى يَدَيَّ كانَت الفُتُوحُ الكَبِـيرَةُ بَل بُلدانٌ كَثِـيرَةٌ فَتَحَتُها لِلأمَّةِ؟ لأَنَّ هَذِه تَربيَةُ سَيِّدنا محمَّد ، مَع أنَّه أَقَلّ مِن أَربَع سَنَـوات هِي الفَترة الَّتِي جَلَسها مَع النَّبي صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم؛ لأَنَّه أَسلَمَ فِي أَيَّامِ صُلحِ الحُدَيبِيَة لَكِنَّ هَذِه السَّنَواتِ مَع قِلَّتِها ارتَقَى بها إِلَى حالٍ جَعَلَه لا يَنبَهِرُ بِمثلِ هَذا ، وَأَن لا يَطلُبَ مَـنزِلَته بَعد ذَلك وَسَطَ الصُّفُـوفِ ، وَهوَ صاحِبُ الجِهادِ الكَبِـير .

فَكَيفَ يَأتِي أَحَدُنا وَيقُولُ : كانَ لِي سابِقَةٌ كَذا ، وَقَد عَمِلتُ كَذا ، وَقُمتُ بِالخِدمَةِ الفُلانِيَّة ، ما احتَـرَمُونا ، ما قَدَّرُونا ، يا أَخِي مِن أَين أَنت تَأتِي بِالأَخبارِ هَذِه ؟ هَذِهِ الأَخبارُ ما تَصلُحُ لِلدُّعاةِ ، هَذِه تَصلُحُ لِلمُتَـطارِدِينَ عَلَى الأَحزابِ وَعَلَى السِّياساتِ، اذهَبْ أَنتَ وَإِيّاهم ، لَكِنَّ أَصحابَ هَذا الشَّأنِ لَيسُوا هكَذا .

مِن المصائِدِ والمكائِدِ الَّتِي تَأتِي لِلإِنسانِ فِي هَذا أَنَّه يَسمَعُ ما يَجِبُ نَحوَ الغَيـرِ ، فَيظنُّ أَنَّه يَجِبُ نَحوه هُو ، كَيف ذَلك ؟ يَسمَعُ أَنَّه يَجِبُ عَلَينا أَنَّ مَن أَظهَرَ اللهُ لَه فَضلاً أَو أَجرَى عَلَى يَدِه خَيراً يَجِبُ أَن نُعَظِّمَهُ وَنَحتَرِمَهُ ، هَذا نُخاطِبُ بِه أَنفُسَنا مِن أَجلِ القِيامِ بِه ، هو يَعكِسُ هَذا الأَمرَ إِن أَدّاهُ لِلغَير يُؤَدِّيه بِضعفٍ أَو بِشَيءٍ مِن التَّقصِيرِ، لَكِن هُو يَطلُبُه لِنَفسِه ، وَيَقُولُ : أَنا ما عَمِلُوا لِي كَذا ! ما عَلِمَ أَنَّ هَذا ما جاءَ فِي الشَّرِيعَة إِلا لِيُعامِلَ بِه الغَيرَ ، لا لِيَطلُبه لِنَفسِه .

في شأن أهمّية التّزكية

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِه (١) لا يَزالُ هُناكَ نَقصٌ وَقُصُورٌ فِي كَثِيرٍ مِنّا فِي جَوانِبِ التَّزكِيَةِ

---

(١) فِي ١٧ مِن شَهرِ جُمادَى الأَوَّلِ ١٤١٩هـ .

والتَّرقيَةِ ، فنَرى البَعضَ يَنطَلِقُ فِي العَمَلِ وَيَقُومُ عِندَه الأَصلُ ، والنِّيَّةُ الطَّيِّبَةُ مَوجُودَةٌ، والمحَبَّةُ مَوجُودَةٌ ، هُوَ قائِمٌ بِعَمَلٍ مِن أَعمالِ الدَّعوَةِ لَكِن لَيسَ لَه دَرسٌ أَو جَلسَةٌ وَلا يُوجَدُ عِندَه اِطِّلاعٌ ، وَلا يُوجَدُ مَن يَبحَثُ لَه عَن خَفايا نَفسِه وَيُبَصِّرُه بِها ، أَو يَنصِبُ لَه سُلَّماً يَرتَقِي بِه فِي هَذا الجانِبِ وَهوَ مَشغُولٌ بِأَعمالِه .

فَنَحتاجُ إلى شَيءٍ مِن التَّكامُلِ وَأَخذِ الشُّمُولِ فِي هَذِهِ الجَوانِبِ عِندَ المهتَمِّينَ بِالدَّعوَةِ أَنفسِهِم بِحَيث تُراعَى الجَوانِبُ كلُّها ، فَكلُّ مَن تَأَتَّى أَن يَرتَقِيَ فَلا يَتَأَخَّر ، بل يَنْهَضُ وَيَتَيَسَّرُ لَه السَّبِيلُ لِلرُّقِيِّ ، وَمَنِ انتَهَتْ طاقَتُه فِي مَجالٍ مُعَيَّنٍ يَبقَى فِي مَجالِه ، والرِّفقُ فِي الأُمُورِ والحِكمَةُ فِيها ، والمداراةُ أَصلٌ جاءَ وَوارِدٌ عَلَى كُلِّ المستَوَياتِ ، وَإِنْ اختَلَفَ النّاسُ فِي مَراتِبِهِم وَأَذواقِهِم وَمَشارِبِهِم لَكنَّ هَذا الأَصلَ مُرتَبِطٌ بِالمراتِبِ كُلِّها .

أَمّا الأَصفِياءُ الأَوفِياءُ الَّذِينَ لا يُحَرِّكُهُم شَيءٌ فَهُؤلاءِ نَوادِرُ فِي الخَلقِ لا تَقُومُ عَلَيهِم الجَماعَةُ كُلُّها وَلا الجَيشُ كُلُّه ، وَهَل الجُندُ فِي مَرتَبَةٍ واحِدَةٍ ؟ وَهَل الضُّبّاطُ فِي مَرتَبَةٍ واحِدَةٍ ؟ وَهَكَذا شَأنُ هَذا المجالِ .

في شأن خطر الهوى على الإنسان

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ افهَمُوا واجِبَكم فِي مَعانِي هَذا الارتِباطِ وَقِيامِه ، فَإِنَّ الحَقَّ الَّذِي ائتَمَنَكُم عَلَى الأَمائِنِ ، جَعَلَ مَظهَرَ كلِّ صادِقٍ مِنكُم مَعَه حالَكُم مَعَ مَن حَوالَيكم فِي مَنهَجِه ، حالَكُم مَعَ مَن حَوالَيكُم فِي طَرِيقِه ، فَلا يَتَأَتَّى أَن يَصْدُقَ اللهَ واحِدٌ فِيكُم وَهوَ غَيرُ صادِقٍ مَعَ مَن عَلَى يَمِينِه وَمَن عَلَى شِمالِه ، وَلا مَعَ إِخوانِه ، وَلا مَعَ مَن شارَكَهُ فِي هَذِهِ الدَّعوَةِ ، وَلا مَعَ مَن يُوجِّهُهُ أَو يُعَلِّمُه أَو يُلقِي إِلَيهِ تَرتِيباً مُعَيَّناً ، يُخرِجُهُ مِن حَضِيضِ التَّقَيُّدِ بِنَفسِهِ ، والانحِباسِ بِرَأيِهِ ، وَدُخُولِ الهَوَى عَلَيهِ مِن هُنا أَو مِن هُناك فَيُفسِدُ عَلَيه عَمَلَه مِن حَيثُ لا يَشعُر .

إِنَّما يُخرِجُنا مِن هَذِه الأَهْوِيَةِ وَدُخُولِ بَلائِها .. إِعمالُ انقِيادِنا وَخُضُوعِنا ، وَأَنْ

نَتَلَقَّى توجيهاتٍ وَتعليماتٍ تُطلِقُنا مِن عِنانِ هَذِهِ الأَهوِيَةِ ، وَتُطلِقُنا مِن قَيدِ هَذِهِ الشَّهَواتِ النَّفسِيَّةِ ، والمراداتِ الَّتِي تَعُودُ إِلَى هَذِهِ النَّفسِ ، وَإِلَى ذَلكُم الهَوَى الَّذِي يَغلِبُ عَلَى الخَلقِ .

وَإِنَّ يَسِيراً مِن الطَّاعَةِ تَخرُجُ عَن قَيدِ الهَوَى أَقرَبُ إِلَى رَبِّكم تَبارَكَ وَتعالَى وَإِلَى رَحمَتِهِ مِن عِبادَةٍ تَملأُ الشَّرقَ والغربَ وَفِيها ذَرَّةٌ مِن هَوَى ، فَكَيفَ إِذا كانَ فِيها كَـثِيرٌ مِن هَوَى ، فَكَيفَ إِذا نَتَخَلَّصُ مِن هَذا الهَوَى ؟

اللهُ تَعالَى هَيَّأَ لَنا السَّبِيلَ بِالاتِّصالِ بِالشُّيُوخِ ، والاتِّصالِ بِأَهلِ التَّوجِيهِ ، وَأَربابِ التَّنبِيه، وَجَعَلَ لنا إِخواناً ، وَفائِدَةُ هَؤلاءِ الإِخوانِ أَن يَشُدُّوا بِالعَضُدِ ، وَيَأخُذُوا بِاليَدِّ مِن مَزالِق هَذِهِ الأَهوِيَةِ وَما يَتَعَلَّقُ بِها ، فَتَبقَى ماشِيا فِي نَوعٍ مِن الصَّفاءِ ، وَمُقابَلَةِ هَذِهِ النَّفسِ بِضِدِّ هَواها ، وَحِينَئِذٍ الرِّعايَةُ والعِنايَةُ تَأخُذُ بِيَدِك رُتبَةً بَعدَ رُتبَةٍ ، وَمَنزِلَةً بَعدَ مَنزِلَةٍ ، كُلَّما عَثَرتَ .. قَوَّمَتكَ ، وَكُلَّما مِلتَ[1] .. عَدَّلَتْكَ ، وَلا تَزالُ العِنايَةُ تَمشِي مَعَك وَأَنتَ تَكتَشِفُ عُيُوبَكَ مَرَّةً بَعدَ أُخرَى .

فَإِنَّ اللهَ إِذا أَرادَ بِعَبدِه خَيراً بَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفسِهِ ، وَلا يَزال يُظهِرُ عَلَيكَ عَيبا فَتَقُومُ بِالتَّطَهُّرِ والتَّصفِيَةِ ، فَتَظُنُّ أَنَّكَ قَطَّعتَ عُرُوقَهُ ، فَلا تَمضِي عَلَيكَ الأَيَّامُ وَيُشرِقُ عَلَيكَ النُّورُ إِلا وَقد أَدركتَ أَنَّ عُرُوقاً كَبِيرَةً مِن هَذا العَيبِ لازالَتْ فِيك، فَتَجتَهِدُ عَلَيها ، وَتَمضِي إِلَى الأَمامِ فَيَظهَرُ نُورٌ أَكثَرُ فَتعلَمُ أَنَّ بَقايا مِنه مَوجُودَةٌ ، وَلا يَزالُ الحَقُّ هَكَذا يُصَفِّيكَ تَصفِيَةً بَعدَ تَصفِيةٍ ، وَإِذا أَرادَ بِعَبدٍ خَيراً .. بَصَّرَه بِعُيُوبِ نَفسِهِ .

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: وما أَشَدَّ الحَسرَةِ عَلَى مَن مَضَتْ حَياتُه وَهُو لا يَستَضِيءُ بِهذا النُّورِ، بَل لا حَقِيقَةَ لإِيمانٍ يَقِرُّ فِي فُؤادِ العَبدِ إِلا بِالاستِسلامِ لهذا النُّورِ والخُضُوعِ لهذا

في شأن اختلاف النّاس في تسيير أهوائهم

(١) مِن المَيْلِ وَهوَ الانحِرافُ عَن الصِّراطِ المستَقِيم .

النُّـورِ ، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾[النساء:٦٥] وَ «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبَعاً لِما جِئْتُ بِهِ»(١) .

وَذَلِكَ أَنَّ الهَوَى هُوَ الغالِبُ عَلَى عامَّةِ الخَلائِقِ ، وَهُوَ شَوكَةُ المِيزانِ الَّتي تُبَيِّنُ اتِّجاهَ الإِنسانِ فِي هَذِهِ الحَياةِ ، فَإِنَّ لِكُلِّ إِنسانٍ فِي هَذِهِ الحَياةِ هَوَى ، وَإِنَّ لَهُم فِي تَسيِيرِ أَهوائِهِم والسَّيرِ مَعَها أَحوالاً ، هِيَ حَقِيقَةُ ما يقرُّ فِي قُلُوبِهِم أَو وجهَتِهِم الَّتِي يَتَوَجَّهُون إِلَيها ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾[البقرة:١٤٨]، ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾[الأعراف:١٦٠].

فَوِجهَتُكَ مِن حَيث تَوَجَّهَ قَلبُكَ وَخاطِرُكَ ، تَظهَرُ فِي الهَوَى ، أَين يَذهَبُ بِك هَواكَ ، هَل عِندَكَ قاعِدَةٌ تَضبِطُ بِها هَواكَ حِينَما تُرِيد أَن تَتَصَرَّفَ أَو تَتَكَلَّمَ أَو تَتَحَرَّكَ فِي هَذِه الحَياةِ ؟ أَم أَنَّ هَواكَ هُوَ الَّذِي يُحَرِّكُ وَهوَ الَّذِي يُسَيطِرُ ؟ أَم أَنَّ إِرادَةً مِن إِرادَةِ الفانِياتِ هِي الَّتِي تُخضِعُ مُقتَضَى هَواك ؟ وَ «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبَعاً لِما جِئْتُ بِهِ»(٢) صَلَّى اللهُ وَسَلَّم وَبارَكَ عَلَيهِ وَعَلى آلِه ، فَلا واللهِ لا يَذُوقُ السَّعادَةَ فِي الدُّنيا قَبلَ الآخِرَةِ إِلا شَخصٌ وَقَفَ بِهَواه وَمَشاعِرِه كُلِّها أَمامَ هَذا النُّور .

هُـوَ النُّـورُ المبِيـنُ بـِهِ اهْتَدَيْنـا ... هُـوَ الدّاعِـي إِلى أَقْـوَى سَـبيلِ
أَتانـا داعِيـاً بِالحَـقِّ يَدْعُـو ... إِلى الإِسْـلامِ بِالقَـولِ الثَّقِيـلِ
فَبـادَرَ بِالإِجابَـةِ كُلُّ عَبْـدٍ ... مطيـع لِلإلـه وللرسـول
وَأَنْكَـرَ كُلُّ ذِي كُفْـرٍ وَبَغْـيٍ ... وَأَعْـرَضَ كُلُّ خَتّـالٍ ضَلُـوْلِ
فَفـازَ الْمُقبِلُـونَ بِكُلِّ خَيْـرٍ ... وَعُقْباهُـمْ إِلى الظِّـلِّ الظَّلِيـلِ
وَخـابَ الْمُعْرِضُـونَ وَكانَ عُقْبَى ... مَعاصِيهِـمْ إِلى الْخِـزْيِ الوَبِيـلِ(٣)

---

(١) أَخرَجَهُ الحَسَنُ بنُ سُفيانِ الفَسَوِيّ وَغيـرُهُ ، قالَ ابنُ حَجرٍ : وَرِجالُه ثِقاتٌ ، وَصَحَّحَهُ النَّوَوِيّ فِي «الأربَعِين» .

(٢) سبق تخريجه .

ذمّ الكبر وما يترتّب عليه من آفات

وقال رضي الله عنه ونفعنا به أكثَرُ ما يُوقِعُ النّاسَ في الافتِتانِ، في الابتِداعِ، في الخُرُوجِ عَن سَبيلِ الهدَى، استِكباراتٌ وَإِصراراتٌ مِنهُم، تُساغُ بنَغْمَة مِن النَّغَماتِ، كِبْرُ القُلُوبِ وَإِعراضُها، فَيُزجُّ بصاحِبِها إذا استُثيرَتْ منه هَذِه الثّائِرةُ في أَودِيةِ الفِتنَةِ مِن أَنواعِ الغَفَلاتِ، أو الجَهالاتِ، والدّافِعُ الأَوَّلُ له فِتنَةُ كِبْرٍ انبَعَثَتْ في قَلبِه، وَتَمَكَّنَتْ فِيهِ حَمَلَتْهُ عَلَى أَن يَحسِدَ، وَحَمَلَتْهُ عَلَى أَن يَحقِدَ وَحَمَلَتْه على أَن يَسُبَّ والعِياذُ بالله .

أَنتَ بِإِمكانِكَ بِما آتاكَ اللهُ مِن سَمعٍ وَبَصَرٍ وَعَقلٍ أَن تُحسِنَ المراجَعَةَ، وَتَقُومَ بِالحِسابِ الطَّيِّبِ حَتى تُدرِكَ بِه حَقِيقَةَ حَياتِكَ وَمَصيرِكَ، وَماذا تَستَفِيدُهُ مِن هَذا ؟ وَماذا تَستَفِيدُهُ مِن هَذا ؟ وَلَكِن إِذا جاءَتْ ظُلمَةُ هَذا الكِبرِ أَثارَتْ ثائِرَةَ الإِصرارِ فِي القَلبِ فَتَنغلِقُ أَبوابُه ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف:١٤٦]، حَتَّى قالَ اللهُ عَن جَماعَةٍ مِمن كانوا يَجلِسُونَ عِندَ النَّبِي صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم وَيَسمَعونَ كَلامَهُ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾ [الحجر:١٤-١٥].

ما هَذِهِ اللَّهجَةُ ؟ هَذِهِ لَهجَةُ الكِبرِ، لَهجَةُ الحِقدِ عَلى سَيِّدِنا محمَّد، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾، وَإِذا قِيلَ لَهم : إِنَّ محمَّداً لَصادِقٌ وَهوَ رَسُولٌ مِن عِندِ الله ﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾، حَكَى اللهُ ذَلِك عَنهُم وَهوَ أَفضَلُ القائِلِينَ سُبحانه وَتَعالَى .

---

(١) الأبياتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلحَبِيبِ عَليِّ بن مُحَمَّدٍ الحَبشي مَطلَعُها :

لَكُم بُشرَى الإِجابَةِ والقَبُولِ   مِن المَولَى بِواسِطَةِ الرَّسُولِ

أُنظُر «سِمط الدُّرَرِ» ص ١٢٠ .

إذن فقَد كانَت هَذه الصِّفاتُ الذَّميمَةُ سَدّاً مَنيعاً بَينَهم وبَينَ رَحمةِ الله ، أَعاذَنا الله مِن انسِدادِ رَحمَتِه عَنّا ، وَلا حَرَمَنا خَيرَ ما عِندَهُ لِشَرِّ ما عِندَنا .

وَلا يَزالُ الحَقُّ مِن رَحمَتِهِ يَفتَحُ لهذا الإِنسانِ الَّذي أُثيرَتْ فِيه دائِرةُ كِبرِه ، أَو دائِرةُ غُرُورِه بابا مِن أَبوابِ الاعتِبارِ ، فَبِإمكانِه أَن يَتَذَكَّرَ ، وَبِإمكانِهِ أَن يَتَبَصَّرَ ، وَبِإمكانِهِ أَن يُحسِنَ التَّفكِير.. أَمّا إذا لَم يَزَلْ مَع فَتحِ الحَقِّ لَه مِثل هَذِهِ الأَبوابِ مُصِرّاً مُعرِضاً مُستَكبِراً مُتَولِّياً ، فَهُنا يَفْتَحُ الحَقُّ بابَ النِّقمَةِ ، وَإذا جاءَتْ نِقمَةُ الجَبّارِ فَنِقمَتُهُ لا يطيقُها أَحَدٌ ، فَلا يَزالُ صاحِبُها في نَكَدٍ في حَياتِه القَصيرَةِ ، وَما أَقصَرَ الحَياة ، وَلَيتَ المسأَلَةَ نَكَدٌ هُنا فَقَط ، المسأَلَةُ بَعدَ ذَلك أَمرٌ شَدِيد .

وَهَذا هوَ الَّذي حَمَلَ الدُّعاةَ قَبلَنا عَلَى أَن يَتَحَمَّلُوا المشاقَّ وَيَتَحَمَّلُوا الصَّبرَ حَتَّى يَأتُوا إِلَى مَن سَبَّهُم وَتَكَلَّمَ عَلَيهِم فَيَنصَحُوه بكلِّ ما أُوتُوا مِن لُطفٍ ، وَبكلِّ ما أُوتُوا مِن عَقلٍ، وَبكلِّ ما أُوتُوا مِن قُدرَةٍ ، يُحِبُّون أَنْ يَنتَشِلُوه انتِشالاً مِن نارِ الله الموقَدَةِ، وَأَن يُنقِذُوهُ مِن المَصِيرِ السَّيِّءِ والمستَقبَلِ الخَطِيرِ الأَسوَدِ الشَّدِيدِ الَّذي يَستَقبِله وَيَنتَظِره.

ثمرة آداب النوم واليقظة

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ مَن ضَيَّعَ آدابَ اليَقظَةِ .. صارَت يَقظَتُه نوماً ، والعامِلُ بِآدابِ النَّومِ.. يَصِيرُ نَومُه يَقظَةً ، والنَّومُ القَلبِيُّ لَه أَضرارٌ كَثيرةٌ عَلى المسلِمينَ ، الاشتِغالُ بِغَيرِه في الحَقِيقَةِ نَومٌ ، لَو أَدرَكنا الحَقِيقَةَ سَنَقُومُ ، قُم يا نائِمُ ، النَّومُ عَمِيقٌ عَلى المسلِمين ، لِهَذا يُشَبَّهُ تَسَلُّطُ الكفّارِ عَلى المسلِمين بِلَعِبِ حَيَواناتِ الغابَةِ عِندَ أَسَدٍ نائِمٍ .

وقال رضي الله عنه ونفعنا به مَصدَرُ المصائِبِ .. الغفلةُ عَنِ الله ، وَمِن هُنا فَإنَّ الطّائِرَ لا يُصادُ إلا وَقتَ غَفلَتِه عَن ذِكرِ الله ، كَذَلِكَ قَلبُكَ وَهوَ طائِرٌ في الفَهمِ والوَعي والإِدراكِ ، فَلا يَصِيدَه عَدوُّه إلا وَقتَ غَفلَتِه ، فَإنَّ عَدُوَّكَ خَنّاسٌ عِندَ ذِكرِ الله . — مصدر المصائب

وقال رضي الله عنه ونفعنا به رَبِّي يَعلَمُ ظاهِرَكَ مِثلَ باطِنِكَ ، وَسِرَّكَ مِثلَ عَلانِيَتِكَ ، وَخَواطِرُكَ خِطابٌ بَينَكَ وَبَينَهُ ، فانظُر كَيفَ تُخاطِبُهُ ، لا تَرضَ بِخِطابِ التَّفاهَةِ ، هُوَ رَبُّ الأَربابِ، وَجَبّارُ السَّماءِ والأَرضِ وَرَبُّ العَرشِ العَظِيمِ ، وَحامِلُكَ وَحامِلُ أَرضِكَ، وَحامِلُ السَّماءِ الَّتِي فَوقَكَ ، خاطِبهُ خِطابَ أَدَبٍ ، خاطِبهُ خِطابَ تَعظِيمٍ ، كُلُّ خاطِرٍ فِي قَلبِكَ خِطابٌ ؛ لأَنَّه مُطَّلِعٌ عَلَيه ، وَلأَنَّه مِثلُ الكَلامِ الَّذِي تُكَلِّمُ بِه بَنِي آدَم. — معنى الخطاب

فَينبَغِي أَنْ تَتَهَيَّأَ لِلصَّفاءِ والنَّقاءِ ، حَتَّى تَكُونَ مِن أَهلِ وادِي النَّقاءِ ، وَتَعرِفَ الارتِباطَ بِالمُنْتَقى ، الَّذِي نَقّاهُ اللهُ فَهوَ الأَنقَى ، وَنَقَّى بِهِ مَن نَقَّى وَهوَ حَبِيبُهُ المنتَقَى صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم ، وَتَعِيشُ عِيشَةَ السُّعَداءِ ، عِيشَةَ الصُّلَحاءِ ، عِيشَةَ الأَوفِياءِ ، عِيشَةَ الأَنقِياءِ ، عِيشَةَ المقَرَّبِينَ ، عِيشَةَ الصّالِحِينَ ، نِعْمَ العِيشَةُ عِيشَتُهم ، ما عَيش إلا مَعاهُم ، وَلا عَيشَ إلا عَيشُهُم ، وَهُم أَهلُ عَيشِ الآخِرَةِ كَما أَنَّهُم أَهلُ العَيشِ الحَسَنِ فِي الدُّنيا ، وَعَيشُهُم فِي الآخِرَةِ أَحسَنُ، قالَ سُبحانَه وَتَعالى : ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٨].

وَتَعُودُ عَلَيكَ دَعَواتُ المَوجُودِينَ مِن الأَولِياءِ والصّالِحِينَ ، والملائِكَةِ المقَرَّبِينَ، وَحَمَلةِ العَرشِ الَّذِين يَدعُونَ اللهَ دائماً ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ [غافر:٧]، سَتَدخُلُ أَنتَ فِي هَذا الدُّعاءِ إذا صَدَقت فِي تَوبَتِكَ مِن هَذِهِ اللَّيلَةِ .

العَزائِمُ أَمامَكَ والهِمَمُ أَمامَكَ ، مَن يَمنَعُكَ أَن تَكونَ صاحِبَ هِمَّةٍ عَظِيمَةٍ تَعمُرُ بِها وَقتَكَ ، وَتَعمُرُ بِها قَلبَكَ ، تَنتَبهُ مِن أَخلاقِكَ ، تُحسِّنُ باطِنَكَ ، تَصدُقُ مَعَ مَولاكَ ، تَبتَعِدُ عَن الشُّرُورِ كُلِّها ، كُلُّ هَذا مُمكِنٌ وَقَرِيبٌ إِذا أَنتَ قَربتَ مِنه سُبحانَه وَتَعالَى .

الاتصال بالله بالتطهر من الذنوب

وقال رضي الله عنه ونفعنا به إذا أُكرِمَ الواحِدُ مِنّا بِالتَّطَهُّرِ عَن وَسَخِ ذَنبِهِ .. مُدَّ لَه حَبلُ الصِّلةِ بِرَبِّه، وَمَن اتَّصَلَ بِهَذا الرَّبِّ .. ذاقَ حَلاوَةَ اتِّصالِ العَبدِ الذَّلِيلِ بِالملِكِ الجَلِيلِ سُبحانه وَتَعالَى.

وَمَنِ اتَّصَلَ بِمَلكِ المُلُوكِ هَل يَفُوتُه شَيءٌ ؟ وَلأَجلِ ذَلِكَ نادَى المنادِي ماذا وَجَدَ مَن فاتَه مَولاه ؟ وَماذا فَقَدَ مَن وَجَدَ مَولاه تَعالَى فِي عُلاه ؟ فاللهُ يَجعَلُنا وَإِيّاكُمْ مِمن حَظِي بِنَصِيبٍ وافِرٍ مِن التَّطَهُّرِ عَن الدَّرَنِ والاستِقامَةِ عَلى أَقوَى سَنَن .

الاتصال بالجناب النبوي

وقال رضي الله عنه ونفعنا به أَهلُ الصِّلَةِ بِالجَنابِ النَّبوِيِّ لَهُم حُسنُ اقتِباسٍ بِالوَحي حِينَ يَقرَؤُونَه وَيَفهَمُونَه ، وَعِندَما يَفهَمُونَه .. يَعُونَهُ ، وَعِندَما يَعُونَه .. صارُوا لَه أَوعِيَةً ، وَإِذا صارُوا لِلقُرآنِ أَوعِيَةً .. كانَت مَنزِلَتُهُم لِمَن سِواهُم مِن الخَلقِ مَنزِلَةَ القُرآنِ عَلى سائِرِ الكَلامِ ، فَلا نَظِيرَ لَهم .

في شأن البركة

وقال رضي الله عنه ونفعنا به لابُدَّ مِن تَضَرُّعٍ إِلى اللهِ فِي شأنِ البَرَكةِ فِي الوَقتِ والبَرَكَةِ فِي العَمَلِ ، والبَرَكَةِ فِي الوِجهاتِ ، والبَرَكَةِ فِي الحالِ ، فَليَطَّلِعِ الحَقُّ مِنكُم عَلى هَذِهِ التَّضَرُّعاتِ ، فَإِنَّ هَذا مَصدَرَ إِمدادِكُم وَقُوَّتِكم مِن جانِبِه .

أَما تَرى مَنِ استَنَدَ إِلى قُوّةِ حُكُومَةٍ أَو جِهَةٍ دائِماً يَذكُرُها لَيلَ نَهار ، وَيُفَسِّرُ[1] طَلَباتِهِ وَحاجاتِهِ وَإِشكالاتِهِ لَها ، وَأَهلُ المَنهَجِ هَذا ، مَصدَرُ قُوَّتِهِم .. رَبُّهم ، طَلَباتُهم يَذكُرُونَها عِندَه دائِماً .. دائِماً .. دائِماً .

داعٍ ما يَستَلِذُّ بِالدُّعاءِ، وَلا يَرغَبُ فِيهِ ، وَلا يُكثِرُ مِنه ، هَذا غَيرُ صادِقٍ فِي دَعوَتِهِ ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان:٧٧].

أَيُّ لَيلَةٍ مَرَّت عَلَيهِ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم مِن دُونِ كَثرَةِ دُعاءٍ وَتَضَرُّعٍ ؟ أَيّ لَيلَةٍ؟ وَلا لَيلَةَ، أَعِد اللَّهُمَّ عَوائِدَ لَيالِيه عَلى لَيالِينا، وَأَيّامِهِ عَلى أَيّامِنا ، وَساعاتِهِ عَلى ساعاتِنا، وَتَوَجُّهاتِهِ عَلى تَوَجُّهاتِنا ، وَدُعائِه عَلى دَعَواتِنا ، حَتى نَكونَ مِنه بِرَحمَتِك يا أَرحَمَ الرّاحِمِين .

في شأن ضرورة تحقّق صفة البذل عند القائمين بالدّعوة

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ المُتَعَلِّقُ بِهَذا العَمَلِ وَبِهَذِهِ الدَّعوَةِ ، يَجِبُ أَن يَعلَمَ أَنَّه عَلى مَشارِفِ وَفاءٍ بِالبَيعَةِ ، وَلِهَذا نَبدَأُ نَتَعَوَّدُ عَلَيها ، نَبذِلُ وَلَو بِاليَسِير ، فَإِنَّ ما نَبذُلُهُ مِن أَموالِنا وَلَو قَلَّ .. فَهوَ أَثقَلُ وَأَوزَنُ مِما يَأتِي مِن أَموالِ الغَيرِ وَلَو كَثُر .

فَيَنبَغِي لِكُلِّ مُتَعَلِّقٍ بِهذا العَمَلِ أَن يَجعَلَ فِي فِكرِهِ أَخذَ نِسبَةٍ وَلَو واحِداً فِي المِئَة أَو أَقَلَّ مِن كُلِّ ما يَدخُلُ عَلَيه ، يَأخُذُه إِلى مَجالِ الدَّعوَةِ ، خُذْ لَكَ النِّسبَةَ الَّتِي تَراضَيت أَنتَ وَنَفسَكَ عَلَيها ، ما أَدرِي نَفسُكَ فِي أَيِّ مَقامٍ هِي الآن .

أَمّا سَيِّدُنا أَبو بَكرٍ ما تَراضَى مَعَ نَفسِه قالَ لِلنَّبِي صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم حِينَما سَأَلَه: «ما تَركتَ لأَهلِكَ ؟» قالَ : **تَرَكْتُ لَهم اللهَ وَرَسُولَه**[2] ، فَهَذا مَقامه ، نُرِيدُ نِسبَةً وَلَو واحِداً فِي المِئَةِ أَو أَقَلَّ مِن ذَلِك مِن كُلِّ ما يَدخُلُ عَلَيك أَو يَصِلُ إِليك ، اُترُكْهُ عَلى

---

(١) أي: يُبدِي وَيَشرَح .

(٢) قالَ لَه رَسُولُ الله ﷺ : «ما أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟» قالَ : (**أَبْقَيْتُ لَهُم اللهَ وَرَسُولَهُ**) رَواهُ أَبو داوُدَ .

جَنب حِتى تُسَيِّره فِي شُؤونِ الدَّعوةِ فِي بَلَدِك أَو فِي منطِقَتِك أَو فِي المحَلِّ الَّذِي أَنتَ فِيه يُبارِكُ لكَ الله فِي ذَلِكَ .

في شأن الذّكر لله تعالى

وقال رضي الله عنه ونفعنا به شَأنُ هَذا الذِّكرِ أَن يُمِدَّ اللهُ بِه كُلَّ ذاكرٍ فِي المقامِ الَّذِي هُو فِيه ، والحالِ الَّذِي هُو فِيه بسرِّ هَذا الذِّكرِ لله تَعالى ، فَإذا حَصلَتْ آثارُ جَمعِيَّةٍ فِي القَلبِ عَليه يَنبَعِثُ العالِـمُ لِيَتَّقِي الله فِي عِلمِه وَلِيُؤَدِّي حَقَّ العِلم ، وَلِيُبَلِّغَ وَلِيُدَرِّس وَلِيَعمَلَ بِعِلمِهِ، وَسِرُّ هَذا الذِّكرِ إذا نازَلَ القَلبَ يَنبَعِثُ العابِدُ بِإحسانِ عِبادَتِه وَإتقانِ عِبادَتِه ، وارتِقائِه مَراتِبَ الإخلاصِ فِيها ، وَتَبَوُّءِ ذُروَتِها وَسِنامِها ، وَلا يَزالُ يَستَمِدُّ مِن سِرِّ هَذا الذِّكرِ زِيادَةً فِي إخلاصِه وَزِيادَةً فِي تَواضُعِه وَزِيادَةً فِي مَعرِفَتِه بِرَبِّهِ .

وَكَذَلِكَ أَهلُ كُلِّ مَرتَـبَةٍ فِي المعرِفَةِ بِالله يَستَمِدُّونَ مِن سِرِّ هَذا الذِّكرِ ما يَسْتَمِدُّونَهُ فِي حالِهِم الَّذِي هُم فِيه ، فَيَأتِي لهم الرُّسوخُ وَيَأتِي لهم الفُتُوحُ ، وَيَأتِي لَهم الاعتِلاءُ والارتِقاءُ إلى مَراتِبَ أَسنَى ، وَيَستَمِدُّ مِنه أَهلُ الإصلاحِ بَين النّاسِ ، وَيَستَمِدُّ مِنه أَهلُ المواصَلَةِ لِلأَرحامِ ، وَيَستَمِدُّ مِنه أَهلُ القِيامِ بِحُقُوقِ الآباءِ والأُمَّهاتِ ، وَيَستَمِدُّ مِنه المنْطَلِقُ فِي مَنافِعِ المجتَمَع .

وَعلَى قَدرِ السُّقيا مِن هَذا الذِّكرِ .. تَصلُحُ الأَحوالُ الَّتِي هُم فِيها ، وَتَستَقِيمُ وَتَتَنَوَّرُ وَيَنزاحُ عَنها الكَدَرُ الَّذِي رُبَّما شابَها بِشَيءٍ مِن الشَّوائِبِ الَّتِي تَقْصُرُ بِالعَبدِ عَن بُلُوغِ القَبُولِ أَو عَن بُلُوغِ الثَّمَرَة .

مفتقرا لله سبحانه وتعالى

وقال رضي الله عنه ونفعنا به ما صاحِبُـكُم إلا مِسكِينٌ ، حَقُّ مَن صاحَبَ المِسكِينَ أَن يَتَمَسْكَنَ، فَلنكُنْ كُلُّنا مَساكِينَ ؛ لأَنَّ الحَقَّ يَرحَمُهُم كَـثِيراً ، قالَ الحَبِيبُ صَلَّى الله عَلَيهِ

وآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم : «اللهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِيناً وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً واحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ المَساكِين»[1].

عَلامَةُ المِسكِينِ إذا مُدِحَ رَأى الفَضلَ لِلمادِحِ ، وَإذا ذُمَّ رَأى الذَّمَّ مِنهُ عليه ، وَإذا مُدِحَ رَأى المَدحَ فَوق ما يَستَحِقُّه ، وَأَنَّ هَذا مِن سِترِ الله عَلَيه ، وَمِن صَفاءِ المادِحِ ، وَإذا ذُمَّ رَأى أَنَّ الذَّمَّ دُونَ ما يَستَحِقُّ ، وَأَنَّ هَذا أَيضاً مِن سِترِ الله عَلَيه .

وَلا بالمَدْحِ تَفْرَحْ وَلا تَتْعَبْ مِنَ الذَّمّ

وكُنْ باللهِ يا ابْنَ الفَقِيهْ مَشْجُونْ مَجْنُون ... فَـإِنَّ العَبْـدَ يَزْهُـو بِرَبِّهْ فِي البَرِيَّـهْ

وَغُضَّ الطَّرْفَ يا ابْنَ الفَقِيهْ عَنْ كُلِّ فاني

وَلا تَعْشَقْ سِوَى اللهْ واحِدْ لَيسْ ثاني

تَعالَى كامِلُ الوَصْـفِ فِي كُـلِّ المعاني ... سَعِدْ مَنْ كانَ قَلْبُـهْ سُقِـيْ شَرْبَهْ هَنِيَّهْ[2]

الارتباط بالمنهج لا بالأشخاص

وقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ لا يُؤَثِّرُ في بُدُوِّ هَذا النُّورِ وَظُهُورِهِ غِيابُ مِثلِي وَبُعْدُه ، فَإِنَّ الأُسُسَ عِندَكُم ثابِتَةٌ مِنَ الأَعماقِ ، وَأَتَت مِنَ الأُصولِ ، وَفَوقَ الزَّرعِ حارِسُهُ ، وَكُلُّ ما غُرِسَ عَلى أَيدِي التُّقاةِ ، فالبَقاءُ لِلتُّقاةِ والبَقاءُ للتَّقوَى ، وَلابُدَّ أَنْ يَدُومَ ، وَلابُدَّ أَن يَبقَى ، وَلَيسَ مِثلِي الَّذِي يُذْكَرُ فِي تَرِيم ، إِنَّما يُذْكَرُ فِيها الصِّدِّيقُونَ ، وَيُذْكَرُ فِيها المُقَرَّبُونَ ، وَيُذْكَرُ فِيها العارِفُونَ الَّذِين نَستَحِي مِن ذِكرِهِم ، وَمِن تَردِيدِ أَوصافِهِم ، بَل نَستَحِي

---

(١) أَخرَجَهُ ابنُ ماجه والحاكِم وَصَحَّحَهُ مِن حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ ، والتِّرمِذِي مِن حَدِيثِ عائِشَةَ وَقالَ : غَرِيب .

(٢) الأبياتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلحَبِيبِ عَبدِ الرَّحمنِ بنِ الشَّيخ عَلِي بنِ أَبِي بَكرٍ السَّكران أَوصَى بِها عُبُود ابن الفَقِيه ابنِ يسلَم مَطلَعُها : أَلا يا ابنَ الفَقِيه يا عُبُود اسجع بِنِيَّة .

مِن ذِكرِ شَمائلِهِم للتَّخَلُّفِ الواقِعِ فِينا .

وَإنَّما الدَّعوةُ لَكُم للارتباطِ بِالمنهَجِ العَذْبِ الَّذِي امتَدَّ مِن عِندِ حَبيبِ القَلبِ ، وَطابَ للشّارِبينَ فِيه الشُّربُ ، فَبِإمكانِكم أَن تَنهَلُوا مِن هَذا المعِينِ الصّافِي ، وَتعلَمُوا مُهِمَّتكُم الكَبيرةَ ، فَإنَّ المهِمَّةَ كُبرى الَّتي كُوِّنْتُم مِن أَجلِها.

متحدثاً عن معنى قوله تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾

وقال رضي الله عنه ونفعنا به أُضِيفَتْ لِلسَّلامِ لأنَّها سالِمَةٌ مِن الآفاتِ والمكَدِّراتِ والمشَوِّشاتِ والمنَغِّصاتِ والأوساخِ والأقذارِ والدَّنايا ، هِي دارُ السَّلامُ ، والسَّلامُ مِن أَسمائِه تَعالى ، والسَّلامُ تَحِيَّةُ المسلِمِين ، وَإذا أُطلِقَ السَّلامُ فِي أَيِّ مَوضِعٍ فَيُحمَلُ عَلى ما هو لائِقٌ ، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥]، وَهِي الجَنَّةُ بِالدُّعاءِ إلى الإيمانِ ، فَكَيفَ مَعنَى الدُّعاءِ إلى دارِ السَّلامِ ؟ هَل مَعنَى ذَلِكَ أَنَّه يَقُولُ : تَعالَوا ادخُلُوا الجنَّةَ ؟ الدَّعوةُ إلى دارِ السَّلامِ .. دَعوةٌ إلى الإيمانِ ، دَعوةٌ إلى العَمَلِ الصّالِحِ ، دَعوةٌ إلى الإنابَةِ والخَشيَةِ ، أَيْ: إلَى أَسبابِ دُخُولِ دارِ السَّلامِ فَهَذِه الدَّعوةُ إلى دارِ السَّلامِ ، كَما قالَ الله فِي المخذُولِينَ مِن الكَفَرَةِ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص:٤١]، ما يَقُولُون لأحَد : تَعالَ .. ادخُل النّارَ ! وَلَكِن يَقُولُونَ : اترُكِ الفَرائِضَ ، افعَلِ المحَرَّماتِ ، فَهَذِه دَعوةٌ إلى النّار .

وَفِي هَذا بَيانُ بَعضِ الحَقِيقَةِ ، فالإيمانُ والعَمَلُ الصّالِحُ دارُ السَّلامِ ، والكُفرُ والسَّيِّئاتُ هِي النّارُ ؛ لأَنَّها مِن أَقوَى أَسبابِها ، ثُمَّ بَعدَ ذَلك تَعرِفُ مَعانِي اتِّصالاتِ بَعضِ الأُمُورِ ، وَيَنفَتِحُ لَك بابُ التَّعبِيرِ عَن الجَنَّةِ وَعَن النّار .

وَتَفْهَمُ أَنَّ ما يُذكَرُ مِن دُخُولِ العارِفِين إلى الجِنانِ وَما إلى ذَلِكَ مُرتَبِطٌ بِهَذا ، فَهِي ثِمارُ الطّاعاتِ وَآثارِها ، إلى حَدٍّ أَن يَصِلُوا إلَى قَولِهِم : (**إن الله تعالى جَنَّةً إذا دَخَلَ**

إِلَيها عَبدٌ فِي الدُّنيا لَم يَشتَق إِلى جَنَّةِ الآخِرَة) ، بَلْ إِلى حَدِّ أَن يَقُولُوا فَوق ذَلِك: (إِنْ كانَ أَهلُ الجَـنَّةِ (فِي الآخِرَة) عَلى ما نَحنُ فِيه بِاللَّيل (وَنَحنُ فِي الدُّنيا) إِنَّهم لَفِي عَيشٍ طَـيِّبٍ)[١] ، إِنْ كانَ كَذلِكَ فالجَنَّةُ هِي النَّعِيم ، وَإِنْ لَم يَكُن كَذلِكَ فَما يَنفَعُ ما بَقِي فِيها، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس:٢٥] دِينِ الإِسلام، وَفِي الحَدِيثِ «إِذا مَرَرْتُم بِرياضِ الجَنَّةِ فارتَعُوا»[٢] ، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس:٢٦] ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ ـ أَي: بِالإِيمانِ ـ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ ـ وَهِي الجنةُ ـ ﴿وَزِيَادَةٞ﴾ وَهِي النَّظَرُ إِلَيهِ تَعالَى كَما فِي حَدِيثِ مُسلِم.

سُبحانَ القَوِيّ ، العَجَبُ فِي هَذِهِ الأَبحُرِ أَشَدُّ مِن العَجَبِ فِي الأَبحُرِ الظّاهِرة ، لَكِن لما كانَ أَكثَـرُ النّاسِ أَربابَ أَبصارٍ ضَرَبَ الحَقُّ لَهم بِها الأَمثِلَةَ لِيَعبُـرُوا مِنها إِلى الأُمور الأُخرَى وَإِلا فَهَذِهِ أَعجَبُ .

(١) قالَ أَحَدُ العارِفِين: (إِنَّه لَيَمرُّ بِالقَلبِ أَوقاتٌ إِنْ كانَ أَهلُ الجَنَّةِ فِي مِثلِها إِنهَّم لَفِي عَيشٍ طَيِّب).
أُنظُر «فَيض القَدِير».

(٢) أَخرَجَهُ أَحمَد والتِّرمِذِي وَحَسَّنَه عَن أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ الله صَلىَّ الله عَلَيهِ وَسَلَّم قالَ : «إِذا مَرَرتُم بِرِياضِ الجَنَّة فارتَعُوا . قالُوا : وَما رِياضُ الجَنَّة ؟ قال : حِلَقُ الذِّكرِ» .

الباب الحادي عشر

معانٍ راقيةٌ بلسان الحال والذّوق في حقيقة المحبّة للحبيب صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم وحقيقة الشوق

في شأن المحبّة وحياة المحبّين

قال رضي الله عنه ونفعنا به: لا عيش .. إلا عيش المُحِبِّينَ ، الَّذِينَ قَرَّت أعيُنُهُم بِمَحبَّةِ حَبِيبِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، يَقُولُ قائِلُهم لَـمّا تُوُفِّي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم : (اللَّهُـمَّ أعمِ بَصَرِي حَتَّى لا أرَى بَعدَ نَبِيِّكَ أَحَـدا)(١) .. فَأَكُونَ جَـزِعاً عَلَى مُفارَقَةِ أنوارِهِ.

وَأَثَّـرَتِ المَحبَّةُ أثرَها فِي أحوالِهِم وَأقوالِهِم وَأفعالِهِم ، وَفارَقَهُم النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم وَهُم عَلَى قَدَمِ المَحَبَّةِ .

لَمّا بَلَغَـهُم نَـبَأُ وَفاتِهِ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .. كَيفَ كانَ حالُ الصَّحابَةِ فِي المـدِينَة(٢)؟! هَكَذا عَلائِقُ الإيمانِ الَّتِي كانَت قَوِيَّةً ، أَينَ ضاعَت عَلَى الأُمَّةِ ؟ كانَ حالُهُم فِي المَدِينَةِ المُنَـوَّرَةِ ما بَينَ صامِتٍ ما قَدِرَ عَلَى النُّطقِ ، وَما بَينَ جالِسٍ ما قَدِرَ عَلَى القِيامِ ، وَما بَينَ تائِهٍ ما قَدِرَ عَلى التَّفكِيرِ بَعدَما جاءَهُمُ الخَبَرُ ، حَتَّى ثَبَّتَ اللهُ مَن ثَبَّت ، وَطَمْأَنَ مَن طَمْأَنَ ، وَأنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيهِم ؛ لِيَقُومُوا بِهَديِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ

---

(١) عَنِ القاسِمِ بن مُحَمَّدٍ : (أَنَّ رَجُلاً مِن أَصحابِ مُحَمَّدٍ ذَهَبَ بَصَرُهُ فَعادُوهُ فَقالَ : كُنتُ أُرِيدَهُما لأنظُرَ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، فَأَمّا إِذْ قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم .. فَواللهِ ما يَسُرُّنِي أَنَّ ما بِهِما بِظَبيٍ مِن ظِباءِ تُبالَة) رَواهُ ابنُ سَعدٍ .

(٢) قالَ ابنُ المُـنَـيِّرِ : (لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ الله صَلىَّ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم وَسَجَّتْهُ المَلائِكَةُ وَدُهِشَ النّاسُ واختَلَفَت أَحوالُهُم فِي ذَلِكَ وَأفحمُوا واختَلَطُوا فَمِنهُم مَن خُبِلَ ، وَمِنهُم مَن أُقعِدَ ، ومِنهُم مَن أُصمِتَ فَلَم يَطِقِ الكَلام . وممن أُخْبِلَ عُمَرُ بن الخَطّابِ فَجَعَلَ يَجلِبُ وَيصِيحُ «ما ماتَ رَسُولُ الله وَلَكِنَّهُ ذَهَبَ إِلَى رَبِّهِ كَما ذَهَبَ مُوسَى بن عُمران حِينَ غابَ عَن قَومِهِ أَربَعِينَ لَيلَةً ثُمَّ رَجَعَ إِلَيهِم» ، وَكانَ مِمَّن أُقعِدَ عَلِيُّ بن أَبي طالِب فَلَم يَستَطِع حَراكاً ، وَكانَ مِمَّن أُخرِسَ عُثمان بن عَفّان حَتَّى جَعَلَ يُذهَبُ بِهِ وَيُـجاءُ وَلا يَستَطِيعُ كَلاماً ، وَأَمّا عَبدُ الله بنُ أُنَيس فَأَضنَى حَتَّى ماتَ كَمَداً) . انظر «سُبُل الهُـدَى والرَّشادِ» (١٢ : ٢٧٤) بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ .

وَآلِهِ وَصحبِهِ وَسَلَّم ، وَسُنَّتِهِ الَّتِي سَنَّهَا لِمَن بَعدَه ، وَقَد تَركَنا عَلى المَحَجَّةِ البَيضاءِ لَيلُها كَنَهارِها لا يَزِيغُ عَنها إِلا هالِك .

في معاني الولع والشّوق للحبيب ﷺ

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ فَإِنَّنا واللهِ لَنَرى مَن تَمُرُّ عَلَيهِ لَيلَةٌ أَو لَيلَتانِ .. لا شَوقَ فِي قَلبِهِ إِلى لِقاءِ رَسُولِ الله ، وَلا نَدرِي مَعانِيَ الإِيمانِ : كَيفَ هِيَ عِندَه ، وَماذا عَمِلَ الكِتابُ فِيهِ ، فَإِنَّ مَعانِيَ الإِيمانِ هِيَ الأَساسُ الَّذِي يَقُومُ عَلَيهِ التَّوحِيد .

إِنَّ القَومَ الَّذِينَ أَخَذُوا (لا إِلَهَ إِلا الله) عَن سَيِّدِنا مُحَمَّد بن عَبدِ الله بِمُجَرَّدِ أَن نالُوها وَمَدُّوا أَيدِيَهُم إِلى يَدِه .. امتلأت قُلُوبُهُم شَوقاً إِلَيهِ بِمُجَرَّدِ ما وَقَعَ نُورُهُ فِي قُلُوبِهِم ، حَتَّى صارَتِ التُّربَةُ الَّتِي تَحتَ رِجلَيهِ الشَّرِيفَتَينِ أَحَبَّ إِلَيهِم مِن بُيُوتِهِم وَأَولادِهِم وَأَوطانِهِم .

لَقَد صَرَّحُوا بِذَلِكَ حَتَّى قالَ أَحَدُهُم : (**واللهِ ما كانَ بَلَدٌ أَبغَضَ عَلَيَّ مِن بَلَدِك ، فَقَد أَصبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلادِ إِلَيَّ**)(١) مَتَى هَذا ؟ بَعدَما قالَ : لا إِلَهَ إِلا الله ، ما وَقَعَت فِي قَلبِهِ إِلا وَإِذا بِالتُّربَةِ الَّتِي تَحتَ رِجلِ سَيِّدِنا مُحَمَّد .. أَحسَنُ مِن بِلادِهِ ، وَمِن أَهلِهِ ، وَمِن أَولادِهِ . هَذا الشَّوقُ وَهَذِهِ المَحَبَّةُ .. مُلازِمَةٌ لِلتَّوفِيقِ ، وَمُلازِمَةٌ لِنُورِ الإِيمان .

في أثناء حديثه عن محبّة النّبي ﷺ واللّقاء به

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ وَإِنَّما عِدَّةُ النّاسِ لِهَذا اللِّقاءِ ، وَلِهَذِهِ الرُّؤيَةِ أَيّامُكُم هَذِهِ ، وَساعاتُكُم هَذِهِ .. هِيَ عِدَّتُكُم لِرُؤيَةِ وَجهِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم ، فَكُلٌّ مِنكُم يَحضُرُ بِقَلبِهِ ، وَيَبعَثُ فِي قَلبِهِ ذَوقاً ، وَيَبعَثُ فِي قَلبِهِ مَحَبَّةً ، وَيَبعَثُ فِي قَلبِهِ تَعَلُّقاً حَتَّى

---

(١) قالَهُ ثُمامَةُ بن أَثال بَعدَ أَن أَسلَم ، رَواهُ ابنُ حِبّان .

تَحيى هَذِهِ الحَقائِقُ فِيما بَينَنا ، فَأَعِيشُ كَما قالَ الحَبِيبُ عَلِيّ بن مُحَمَّدٍ الحَبشِي :

فَأَعِيشُ فِي ذِكرِ الحَبيبِ مُنَعَّما ... بِالذِّكرِ مُنبَسِطاً جَمِيعَ زَماني[1]

هَذا الانبِساطُ ما يَجِيءُ مِثلُهُ عِندَ جُلوسِ النّاسِ عَلَى مَوائِدِ الأَكلِ ، وَلا يَجِيءُ مِثلُهُ عِندَ حُلولِ النّاسِ فِي القُصورِ ، وَلا يَجِيءُ عِندَما يَضَعُونَ أَملاكَهُم فِي البُنوكِ ، هَذا انبِساطٌ عَجِيبٌ ، إِذا ذاقَه الإِنسانُ .. احتَقَرَ الدُّنيا بِما فِيها ، وَما ساوَت عِندَهُ شَيئاً .

وَلَو جَمَعنا لَذّاتِ الدُّنيا .. ما ساوَت لَحظَةً مِن لَحَظاتِ هَذا الانبِساطِ ، (**فَأَعِيشُ فِي ذِكرِ الحَبِيبِ مُنَعَّماً بِالذِّكرِ**) أَيُّ نَعِيمٍ هَذا ؟! أَنتَ تَظُنُّهُ مِثلَ نَعِيمِ هَذِهِ الدُّنيا الفانِيَةِ، (**بِالذِّكرِ مُنبَسِطاً جَمِيعَ زَماني**) نَعِيمُ الطُّمَأنِينَةِ ، قالَ اللهُ تَعالَى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨] ، (**فَأَعِيشُ فِي ذِكرِ الحَبِيبِ مُنَعَّماً**) أَي: فِي ذِكرِ الحَبِيبِ لَهُ .

نِعمَ العِيشَةُ عِيشَتُهُم ! كُلُّهُم سَعِدُوا بِهِ ، كُلَّما فَتَّشت عَلَى وِلايَةِ وَلِيٍّ ، وَصِدِّيقِيَّةِ صِدِّيقٍ ، وَقُطبِيَّةِ قُطبٍ ، وَنُبُوَّةِ نَبِي .. تَجِدُها مِن جِهَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، تَرجِعُ كُلُّها لِلبَحرِ ، سَعِدُوا كُلُّهم ، هُم وَصِدِّيقِيَّتُهُم وَقُطبِيَّتُهُم وَنُبُوَّتُهُم ، حَتَّى مَلَكِيَّةَ المَلائِكَةِ .. مَرجِعُها إِلَى هُناك ، سُبحانَ الله ! كُلُّهُم سَعِدُوا بِهِ .

كَما أَسعَدَهُم .. اللهُ يُسعِدُنا بِهِ إِن شاءَ الله ، يَجعَلُنا مِن أَسعَدِ الخَلقِ بِالله ، وَأَسعَدِ الخَلقِ بِهِ .. آمِين .

---

(١) البَيتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلحَبِيبِ عَلِيِّ بن مُحَمَّدٍ الحَبشي مَطلَعُها :

حاوَلتُ أَن أَصِفَ الحَبِيبَ بِبَعضِ ما ... فَهِمَ الفُؤادُ مِنَ الثَّنا القُرآني
فَوَجَدتُ قَولِي لا يَفِيءُ بِذَرَّةٍ ... مِن عُشرِ مِعشارِ العَطا الرَّبّاني

انظُر «سِمطَ الدُّرَرِ» ص١٥٦ .

قالَ الحَبيبُ عَلِي بن مُحَمَّدٍ الحَبشِي :

قَدْ سادَ آدَمْ وَكُلَّ الأَنبِياءْ فِي القِدَمْ ... قِسْمَهْ مِنَ اللهْ لِي قِسْمَتُهْ خَيرُ القِسَمْ

مِنَّهْ مِنَ اللهْ وَهّابِ المِنَنْ والنِّعَمْ ... وَأَنا وَقَعْ مِنْهُ قِسْمِي يا مُحِبِّينْ جَمْ

والسّابقَهْ قَدْ رَقَمْها فِي الأَزَلْ بِالقَلَمْ ... والسِّرْ مَطْوِي عَلَى حِكمَةْ حَوَتْها الحِكَمْ[1]

سُبحانَ الله ! هَنِيئاً لَهُم ، لَكَ الحَمدُ عَلَى ما وَفَّرتَ مِن أَقسامِهِم ، وَأَعِدْ عَوائِدَ سِهامِهِم عَلَينا .

في أثناء حديثه عن عظمة الحبيب ﷺ وعن عظمة العطاء الرّبّاني الّذي خبّأه الحقّ تعالى له

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ: كَيفَ يُحِيطُونَ بِعطاءِ اللهِ لَهُ وَهُم لَيسُوا فِي دَرَجَتِهِ ؟! مَن حَضَرَ مِنهُم فِي ساعَةِ المِعراجِ ؟! لَمّا تَخَلَّفَ جِبرِيلُ وارتَفَعَ نَبِيُّنا .. مَن حَضَر ؟! مَن يَعرِفُ ما نازَلَهُ فِي تِلكَ الحَضرَةِ مِن عَطاءِ رَبِّهِ ؟! يُجِيبُ واحِدٌ مِنكُم .. يَقُولُ : أَنا حَضَرتُ ، وَأَنا رَأَيتُ !

هذا سِرٌّ مَكتُومٌ .. عَلَى أَهلِ السَّماءِ والأَرضِ ، «خَصَّصَتْ بِها الحَضرَةُ الواسِعةُ * هَذِهِ العَينَ النّاظِرَة * والأُذُنَ السّامِعَة * فَلا يَطمَعُ طامِعٌ بِالاطِّلاعِ عَلَى مَستُورِها * والإِحاطَةِ بِشُهُودِ نُورِها * فَإِنَّها حَضرَةٌ جَلَّت عَن نَظَرِ النّاظِرِين * وَرُتبَةٌ عَزَّت عَلَى غَيرِ سَيِّدِ المُرسَلِين * فَهَنِيئاً لِلحَضرَةِ المحَمَّدِيَّةِ * ما واجَهَها مِن عَطايا الحَضرَةِ الأَحَدِيَّة * وَبُلُوغِها إِلَى هَذا المَقامِ العَظِيم»[2] .

---

(١) الأبياتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإمامِ عَلِي بن مُحَمَّدٍ الحَبشي مَطلَعُها :

اليَومُ مَعنا صَفّا ما يَنضَبِطْ بِالقَلَمْ ... فِي ذِكرِ مَن عِندَ ذِكرِه يَنجَلِي كُلُّ هَمْ

خَيرُ النَّبِيِّين لِي نُورُه يزِيلُ الظُّلَم ... وَإِن تَأَخَّرْ فَهُو فِي العِلمِ الأَوَّلْ قَدَمْ

انظُر «سِمطَ الدُّرَر» ص٢١٧ .

(٢) هَذِهِ العِبارَةُ مِن كَلامِ الحَبِيبِ عَلِي بن مُحَمَّدٍ الحَبشي، ذَكَرَها فِي مَولِدِهِ «سِمطِ الدُّرَر» .

تَـرَونَ أَحبابَهُ عَلَى نَعِيمٍ وَهُم فِي الدُّنيا ، وَهُم عَلَى خَيرٍ فِي هَذا العالَمِ ، ما هُم إِلا مُتَرَقِّـبُونَ ساعَةَ يُشاهِدُونَهُ فِيها المُشاهَدَةَ الكَبِـيرَةَ ، وَهُم عَلَى أَكمَلِ السُّرُورِ ، جالِسُونَ مِن أَجلِ حِفظِ شَرعِهِ فِي الدُّنـيا ، مُنتَظِرُونَ السّاعَةَ الطَّيِّبَةَ الَّتِي تَجِيءُ بِفَتحِ البابِ إِلَى عِندِهِ ، ويَقُولُ قائِلُهُم: (**غداً نَلقَى الأَحِبَّة .. مُحَمَّداً وَحِزبَه**)(١) .

هَل أَحَدٌ مِن رِجالِنا لَهُ رَغبَةٌ فِي البَقاءِ عَلَى ظَهرِ هَذِهِ الأَرضِ ؟ أَو المُخالَطَةِ لأَقوامٍ أَمثالنا ؟ وَعادَهُم بَكَوا مِن أَزمِنَتِهِم الَّتِي مَضَت ، فَهَل يَرغَـبُونَ أَن يُجالِسُوا أَحَدا مِن أَمثالِنا أَو يَجلِسُوا مَع أَهلِ القَسوَةِ ؟ لَكِنَّها إِرادَةُ الله سُبحانَهُ وَتَعالَى ، يَقضِي الواحِدُ مِنهُم ما يَقضِي عَلَى ظَهرِ الأَرضِ .. وَهوَ عَلَى أَمانَةٍ يُؤَدِّيها مُنتَظِراً السّاعَةَ الَّتِي يَلقَى فِيها أَحبابَهُ ، وَيَلقَى فِيها أَصحابَهُ ، وَيَلقَى فِيها المُقَرَّبِينَ ، وَإِلَى الرَّوحِ والرَّيحانِ ، وَإِلَى رُؤيَةِ الوَجهِ الشَّرِيفِ ، وَإِلَى المَنازِلِ الرَّفِيعَةِ .

خُذُوا نَصِيبَكُم مِنَ الإِرثِ ، خُذُوا نَصِيبَكُم مِنَ الاتِّصالِ ، خُذُوا نَصِيبَكُم مِنَ الإِقبالِ ، اغتَـنِمُوا لَيالِيكُم ، واغتَنِمُوا مَجالِسَكُم هَذِهِ ، يَشكُرُ عَلَيها الشّاكِرُ فِي قَبرِهِ ، وَيَشكُرُ عَلَيها الشّاكِرُ فِي يَومِ حَشرِهِ .

جَدِّدُوا تَوباتِكُم إِلَى الله ، واستِغفاراتِكُم مِنَ الذُّنُوبِ والـخَطايا الَّتِي مَلأنا بِها صَحائِفَنا ، وَإِذا صَدَقنا مَـعَ الله .. فَلابُدَّ أَن نَتُوبَ مِن هَذِهِ المَعاصِي ، فاللهُ يَتُـوبُ عَلَينا وَعَلَيكُم تَوبَةً نَصُوحا ، وَيُزَكِّينا بِها قَلباً وَجِسماً وَعَقلاً وَرُوحاً .

---

(١) قالها بِلالُ بنُ رَباحٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ لَمّا احتَضَرَ وَسَمِعَ امرَأَتَهُ تَقُولُ : واحُزناه ، صارَ يَقُولُ : (واطَرَباه .. **غداً أَلقَى الأَحِبَّة .. مُحَمَّداً وَحِزبَه**) . انظُر «السِّيرَةُ الحَلَبِيَّةُ» .

الباب الثاني عشر

تساؤلاتٌ في فقه الدّعوة

الأسئلة التي قد تـرد في بعض المجالس عن الفرق المختلفة

سُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ عن الأَسئِلةِ الَّتِي قَد تَـرِدُ فِي بَعضِ المجالِسِ عَن الفِرَقِ المختَلِفَةِ

فَقالَ سَيِّدِي : يَنبَغِي الابتِعادُ عَنها والانشِغالُ بِما هُوَ أَنفَعُ مِن تَثبِيتِ قاعِدَةٍ مُتَمَكِّنَةٍ فِي البِناءِ لِذَواتِ مَن حَوالَينا ، وَخُصُوصاً فِيما يَتَعَلَّقُ بِرَبطِهِم بِالحَقِّ سُبحانَه وَتَعالَى ، والحَدِيثِ مَعَهم فِيما يُثمِرُ ذَلِكَ(١) .

أَمّا الكَلامُ الَّذِي يُثِيرُ النُّفُوسَ أَو يُفَسَّرُ بِغَيرِ تَفسِيره .. فَلا حاجَةَ لَنا بِهِ وَإِلَى طَرحِهِ فِي المَجالِسِ ، فَإِنَّ إِثارَةَ مِثلِ ذَلِكَ .. مِمّا يَكُونُ سَبَباً فِي فَتحِ ثَغَراتٍ .. كانَ مِن مَقاصِدِ دَعوَتِنا سَدُّها.

كيف نجلب الناس ونقربهم ونقنعهم بما عندنا ؟

سُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ كَيفَ نَجْلِبُ النّاسَ وَنُقَرِّبُهُم وَنُقْنِعُهُم بِما عِندَنا ؟

فَقالَ سَيِّدِي : هَذا مَـجالُهُ ما آتاكَ اللهُ مِن أَمرَينِ : قَلبٌ وَعَقلٌ ، قَلبٌ يَحمِلُ الصَّفاءَ والرَّحمَةَ وَحُسنَ النِّيةِ وَحُسنَ الظَّنِّ ، وَعَقلٌ يَحمِلُ الفِكرَ والتَّأَمُّـلَ والتَّدَبُّرَ ، فَخُلاصَةُ ما يُذكَرُ مِن جَمِيعِ الوَسائِلِ .. راجِعٌ إِلَى هَذَينِ الأَمرَينِ .

(١) قَالَ الإِمَامُ الآجُرِّي فِي «أَخلاقِ العُلَماءِ»: إِنَّ مِن صِفاتِ العَالِمِ أنه إِذَا سُئِلَ عَن مَسأَلَةٍ فَعلِمَ أَنَّها مِن مَسَائِلِ الشَّغبِ وَمِمَّا يُورِثُ بَينَ المسلِمِينَ الفِتنَةَ.. استَعفَى عَنهَا ، وَرَدَّ السَّائِلَ إِلَى مَا هُو أَولَى بِهِ عَلَى أَرفَقِ مَا يَكُونُ .

هل النكت أسلوب من أساليب الدعوة؟

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ هَل النُّكَتُ أُسلُوبٌ مِن أَساليبِ الدَّعوَة ؟

فَقالَ سَيِّدي : إن كانَتْ هادِفَةً وَلها مَعنى ، وَخالِيَةً عَن التَّغرِيرِ للغَيرِ ، أَو لَها إثارَةٌ تُنبي عَلَى مَعنى أَو التَّنبيه عَلَى واقِعٍ أَو التَّنبِيهِ عَلى مَسلَكٍ .. فَحِينَئِذٍ تَكُونُ مِن أَسالِيبِ الدَّعوَةِ ، أَمّا إذا خَلَت عَن هَذِهِ المَنافِعِ والفَوائِدِ فَهِيَ لَيسَت مِنَ الدَّعوَة .

كيف نتعامل مع الأهل الذين قد يأمروننا بفعل المعاصي ونحن نعيش معهم ؟

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ كَيفَ نَتعامَلُ مَعَ الأَهلِ الَّذِينَ قَد يَأمُرونَنا بِفِعلِ المعاصِي وَنَحنُ نَعِيشُ مَعَهُم ؟ وَما هُوَ مِيزانُ مَحبَّتِهِم واحتِرامِهِم ؟

فَقالَ سَيِّدي : أَمّا المَحبَّةُ الَّتي فُرِضَتْ لَيسَت مَحبَّةَ شَيءٍ مِن سُوءِ أَعمالِهِم وَلا مِن قَبائِحِ أَفعالِهِم ، وَإِنَّما مَحبَّةُ الإِنعامِ مِن الحَقِّ تَعالَى المَتَمَثِّلَةُ فِيهِم بِجَعلِهِم آباء ، وَمحبَّةُ الأَمرِ الَّذِي نِيطَ بِرِقابِهِم بِالشُّكرِ لَهُم ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان:١٤]، والتَّعامُلِ مَعَهُم كَما قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان:١٥].

فَيُمكِنُ الإِحسانُ إِلَيهِم فِي شُؤُونِ الدُّنيا ، وَمُلاطَفَتُهُم فِي شُؤُونِ الدُّنيا ، دُونَ أَيِّ طاعَةٍ لَهم فِي أَكلِ حَرامٍ وَلا فِعلِ أَيِّ مُخالَفَةٍ لِلشَّرعِ وَلا تَركِ أَيِّ فَرِيضَةٍ .

حكم مجالسة أهل المعاصي والذنوب

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ عَن حُكمِ مُجالَسَةِ أَهلِ المعاصِي والذُّنُوبِ[1] .

فَقالَ سَيِّدي : يَنبَغِي لِلعاقِلِ أَن لا يُخالِطَ أَحَداً مِن المصِرِّينَ عَلَى المعاصِي ، وَلا

(١) وَذَلِكَ فِي ٢٦ مِن شَهرِ شَوّال ١٤١٩هـ .

يُجالِسَهُمْ وَلا يَجْتَمِعَ بِهِم .. إلا إن وَقَعَ ذَلِكَ مُصادَفَةً أَو مِن غَيرِ قَصدٍ أَو جَمَعَتهُ وَإِيّاهُم اجتِماعاتٌ عامَّةٌ ، أَو كانَ ذَلِكَ فِي الأَماكِنِ العامَّةِ كالأَسواقِ وَنَحوِها.

وَذلِكَ لأَنَّ المُخالَطَةَ مَعَ أَهلِ هَذا الوَصفِ .. تُقَسِّي القَلبَ ، وَتُضعِفُ العَزمَ عَلَى الطّاعَةِ ، وَتَجُرُّ إِلَى المَعصِيَةِ بِواسِطَةِ السِّراياتِ الَّتِي جَعَلَها اللهُ تَعالَى بِحِكمَةٍ بَينَ المَتحابِّينَ والمَتخالِطِينَ ، وَمَن جَرَّبَ هَذا عَرَفَه ، فَلا تُحِبُّ أَحَدا إِلا وَسَرَت إِلَيكَ مِنهُ سِرايَةٌ ، إِن كَثُرَتِ المَحَبَّةُ .. كَثُرَتِ السِّرايَة ، وَإِن قَلَّتِ المَحَبَّةُ.. قَلَّتِ السِّرايَة .

فَلأَجلِ ذَلِكَ .. احذَر أَن يَحِلَّ فِي قَلبِكَ بَعِيدٌ عَنِ اللهِ أَو يَصْدُرَ مِنكَ وَلاءٌ لِمبغُوضٍ عِندَ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَى ، وَلَيسَ مَعنَى ذَلِكَ أَن تُسِيءَ الظَّنَّ أَو تَتبَعَ المَعايِبَ أَبَداً ، بَل مَعناه مَن ظَهَرَ لَكَ إِصرارُهُ عَلَى مَعصِيَةِ اللهِ وَتَوَلِّيهِ عَن أَمرِ اللهِ.. فاكرَه فِعلَهُ ذَلك كَراهَةً كُبرَى ، وَلا تَمِل إِلَيهِ بِأَيِّ وَصفٍ آخر .

فالمخالَطَةُ لأَهلِ الذُّنُوبِ والمعاصِي وَمُساوَرَةُ آثارِهِم لِلبَواطِنِ .. حاجِبَةٌ عَن وُصُولِ آثارِ المُلهِمِينَ مِنَ الملائِكَةِ والرُّوحانِيِّينَ وَطَوافِهِم بِقَلبِكَ وَإِيرادِ خَواطِرِ الخَيرِ عَلَيكَ ، بَل وَمُباحَثَتِكَ وَمخاطَبَتِكَ وَمُحادَثَتِكَ فِيها وَحُسنِ استِقبالِكَ لَها .

كُلُّ تِلكَ الأَشياءِ تُضعِفُها .. المُخالَطَةُ لأَهلِ المَعاصِي والذُّنُوب ، فَإِذا ضَعُفَت.. صارَ صاحِبُها عَلَى جانِبٍ مِنَ الحِرمانِ لِكَثِيرٍ مِنَ المؤانَساتِ والمحادَثاتِ والمخاطَباتِ، فَلَو تَطَهَّرَ عَنها .. لَتَهَيَّأَ لِتَوارُدِ الملائِكَةِ عَلَى خَواطِرِهِ وَتَطوافِهِم بِبَيتِ قَلبِهِ وَعُكُوفِهِم عَلَيهِ وَهَكَذا[١] .

---

(١) وَفِي هَذا المعنَى يَقُولُ الإِمامُ الحَدّادُ : اعلَم أَنَّ فِي باطِنِكَ بَيتاً هُوَ القَلبُ ، وَقَد أُمِرَ إِبراهِيمُ عَقلُكَ وَإِسماعِيلُ عِلمُكَ أَن يُطَهِّراهُ لِلطّائِفِينَ حَولَهُ مِنَ المَلائِكَةِ وَالرَّوحانِيِّين .. أَي : إِنَّهُ كَما أُمِرَ سَيِّدُنا إِبراهِيمُ وَإِسماعِيلُ بِتَطهِيرِ البَيتِ لِلطّائِفِينَ .. فَكَذَلِكَ يُؤمَرُ العَقلُ وَالعِلمُ بِبَذلِ الوسعِ فِي تَطهِيرِ

كيف نتعامل مع أهل المعاصي؟

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ كيف نَتعامَلُ مَعَ أَهلِ المعاصي[1] ؟

فَقالَ سَيِّدي : لا نُفشي لَهُم أَمراً كَتَمُوهُ ، وَلا نُقِرُّهُم عَلَى مَعصِيَةٍ أَظهَرُوها ، وَإِذا لَم نُقِرَّهُم وَلَم نَحتَقِرهُم وَلَم نَحكُم عَلى مَصيرِهِم وَلَم نُخرِجهُم مِن دَوائِرِ الإِيمان وَلَم نَتَكَبَّر عَلَيهِم فَنَحنُ فِي وَقتِ إِنكارِنا عَلَيهِم لابُدَّ أَن يُحِسُّوا بِشَيءٍ مِمّا عِندَنا مِنَ الاحتِرامِ والرَّحمَةِ والرَّأفَةِ والأَدَبِ .

فَقَد كانَ هَذا شِعارُ أَهلِ الإِيمانِ حَتَّى وَهُم فِي وَسَطِ مَعارِكِ الجِهادِ ، فالَّذِي يَتوَقَّعُ أَنَّ الإِنكارَ وَتَغَيُّرَ المُنكَرِ مَعناهُ الاحتِقارُ أَو التَّعالِي عَلَى مَن يَنهاه .. فَهُوَ لَم يَعرِفْ قَواعِدَ الشَّرعِ ، وَلَم يَعرِفْ سِرَّ الأَمرِ والنَّهي .

الحواجز والحواجب

وَقالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ الحواجِزُ والحواجِبُ الَّتِي فِي النّاسِ .. عِبارَةٌ عَن كُدُوراتٍ فِكرِيَّةٍ وَذِهنِيَّةٍ وَعَقلِيَّةٍ وَأَغلَبُها نَفسِيَّةٌ تَكتَرِثُهُم ؛ لأَنَّهُم التَفَتُوا إِلَيها .

وَمَن لَهُ فِي الكَونِ شَيءٌ .. لَم يَمُت حَتَّى يَنالَهُ ، وَمَن له سابِقَة يُدرِك نَصِيبَه ، وَمَن أَرادَهُ اللهُ أَن يَقِفَ فِي مَكانٍ حَصَرَهُ بِشَيءٍ .. فَبِذَلِكَ يَبقَى فِيهِ ، وَمَن أَرادَ أَن يَرفَعَهُ .. يَرفَعُهُ .

يَبتَلِيكَ سُبحانَهُ وَتَعالَى بِالَّذِينَ رَفَعَهُم .. يُرِيدُكَ أَن تُحسِنَ الاستِمدادَ مِنهُم ، وَيَبتَلِيكَ بِالَّذِينَ وَضَعَهُم .. يُرِيدُكَ أَن تُحسِنَ الظَّنَّ فِيهِم ، فَيَبتَلِيكَ هُنا : هَل تَتَكَبَّرُ عَلَى مَن هُم تَحت ؟ أَو هَل تُقَصِّر فِي حَقِّ مَن هُم فَوق ؟ أَو تَستَقِيم ؟

البَيتِ الَّذي هُو القَلب .

(١) وَذَلِكَ فِي ٣ مِن شَهرِ رَبيعٍ الأَوَّلِ ١٤٢٠هـ .

الله يَرزُقُنا الاستِقامَةَ ، وَيَأخُذ بِأَيدِينا مَعُونَةً تامَّةً ، مِن جَميعِ الجَوانِبِ ظاهِراً وَباطِنا، بِوَجاهَةِ الَّذي دَعانا ، وَبِسَببِهِ اجتَمَعنا عَلَى مَولانا ، وَعَلَى النَّهجِ الَّذي بَعَثَهُ بِهِ إِلَينا ظاهِراً وَباطِناً .

الباب الثالث عشر

تساؤلاتٌ في معالم السّلوك وتزكية النّفس

كيف نخلص أنفسنا من الصفات الذميمة مثل الكبر والأنانية والحسد والرياء؟

سُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنفعنا بِهِ كيفَ نُخلِّصُ أنفُسَنا مِن الصِّفاتِ الذَّميمةِ مثْلِ الكِبْرِ والأنانيَّةِ والحَسَدِ والرِّياءِ ؟

فَقالَ سَيِّدي : نَتَخَلَّصُ منها بِمَعْجُونِ العِلْمِ والعَمَلِ ، فالعِلْمُ أن تَعْلَمَ حَقِيقَةَ هَذِهِ الصِّفاتِ وَكَيفَ تَبتَني عِندَ الإنْسانِ ، وَأنَّها تُخالِفُ واقِعَ مَصْلحَتِهِ فِي الدّارَيْن ، ثُمّ العَمَلُ أنْ يَعْمَلَ بِخِلافِها وَبِمُناقِضِها .

فَمَثَلاً : الكِبرُ وَهوَ استِعظامُ النَّفسِ .. بِأنْ يَرجِعَ إلَى مَعرِفَةِ حَقِيقَةِ نَفْسِهِ أنَّه مِن النُّطْفَةِ المذِرَةِ ، وَرُجُوعِه إلَى الجِيفَةِ القَذِرَةِ ، وَما بَينَهُما مِمّا يَحْمِلُ فِي بَطنِهِ ، وَكَذلك عَجْزِهِ وَضَعْفِهِ أمامَ الأمراضِ والأسْقامِ والشَّدائِدِ وَما إلى ذَلِكَ ، فَيَعْلَمُ أنَّ الكِبْرَ فِي غَيرِ محلِّهِ بِتكرارِ هَذا العِلمِ .. يُخرِجُ حَقائِقَ الكِبرِ ، أو يَقْتَلِعُ شَجَرَةَ الكِبْرِ مِن الباطِنِ مع العَمَلِ .

العَمَلُ أن يُناقِضَ الكِبرَ ، الكِبْرُ يَقْتَضِي مثلاً أنَّه يَتَقَدَّمُ فِي المجالِسِ ، والأَوْلَى أن يَتوسَّطَ ، الكِبْرُ يَقتَضِي أنْ يَتبَجَّحَ فِي الألفاظِ ، والأَوْلَى أن يَتواضَعَ وَيَتَذَلَّلَ وَهَكَذا .

الرِّياءُ مَثَلاً أنْ يَعلَمَ أنَّ الرِّياءَ هوَ حُبُّ المنزلَةِ فِي قُلُوبِ الخَلْقِ ، وَأنه سَيَجْعَلُ عِبادَتَه هَباءً مَنثُوراً ، وَأنَّ الَّذِين بِسَبَبِهم يَعبُدُ اللهَ لَو عَرَفوا أنَّه يَقْصِدُهُم .. لَسَقَطَ مِن أَعيُنِهِم أيضاً ، وَأنَّهم مَع ذَلِكَ كُلِّهِ لا يَقدِرُون أن يَكُفُّوا عنه ضُرًّا ، وَلا أن يَجْلِبُوا لَه نَفعاً ، وَأنَّه بِسَبَبِ ذَلِكَ يَسقُطُ مِن عَينِ رَبِّهِ ، وَيَأخُذُ بَدَلَ الحَسَناتِ سَيِّئاتٍ والعِياذُ بِاللهِ ، هَذا العِلْمُ .

وَأمّا العَمَلَ فَكُلُّ ما تَأَتَّى إخْفاؤُهُ مِن الطّاعاتِ .. أَخْفاه ، وَما لا يَتَأَتَّى إلا أَنْ يَفعَلَهُ بارِزاً كالجَماعاتِ والحَجِّ والتَّعليمِ والدَّعوَةِ .. فَإنَّه يَفعَلُهُ بارِزاً ، وَيَكرهُ جَمِيعَ

خَواطِرِ الرِّياءِ الَّتِي تَرِدُ عَلَيهِ ، ويَقُولُ : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ شَيئاً أَعْلَمُهُ وأَسْتَغْفِرُكَ لما لا أَعْلَم»(١) وَهكَذا .

الحَسَدُ(٢) مَثَلًا أَن يَعلم أَنَّ مَعناه : كَراهِيَّةُ نِعمةٍ أَرادَها اللهُ لأَخِيهِ فَهِيَ مُعاداةٌ لله تَعالَى ؛ لأَنَّه يُرِيدُ .. والله يُرِيدُ غيرَ ما أَرادَ ، فَيَعلَمُ هَذا ، وَيَعلَمُ أَنَّهُ بِالحَسَدِ يَسقُطُ مِن عَينِ رَبِّهِ ، وَلا يُبْعِدُ النِّعمَةَ عَنِ المُنعَمِ عَلَيهِ ، وَرُبَّما زادَتْ فَيَزدادُ تَعَباً فِي حَياتِه قَبلَ مَماتِه، وَيُعاقَبُ بَعدَ مَماتِه ، فَلَو عَقَلَ .. لَتَرَكَ هَذا الحَسَدَ ، هَذا هُوَ العِلمُ ..

وَأَمّا العَمَلُ فَإِنَّه سَهْلٌ ، فَكُلُّ مَنْ حَسَدَتْهُ نَفْسُكَ .. فأَكثِرِ الدُّعاءَ له وامدَحْهُ وادْعُ له فِي السُّجودِ أن يُقَوِّيَهُ الله ، وَأَن يَزِيدَ لَه مِن هَذِهِ النِّعْمةِ الَّتِي أَنتَ حَسَدتَه عَلَيها ، بِذَلِكَ يَذهَبُ الحَسَدُ ، وَهَذِهِ الصِّفاتُ السَّيِّئَةُ كُلُّها لها رَأسٌ وَأَصلٌ وَهوَ حُبُّ الدُّنيا، وَلِعِلاجِها مِن أَصلِها وَلِوُجودِ الصِّفاتِ الحَسَنَةِ المقابِلَةِ لها رَأسٌ وَأَصلٌ أَيضاً وَهوَ مَحَبَّةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّم .

كيف نتخلص من العجب؟

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ **كَيْفَ نَتَخَلَّصُ مِنَ العُجبِ ؟**

فَقالَ سَيِّدِي : وَأَمّا التَّخَلُّصُ مِن العُجْبِ .. فَبِتَذَكُّرِ حَقِيقَتِكَ ، وَحَقِيقَتُكَ .. عَدَمٌ، وَنِهايَتُك .. رُجُوعٌ لِلمُحاسَبَةِ ، فَكَيفَ لَكَ بَينَ العَدَمِ السّابِقِ والرُّجُوعِ إِلى المحاسَبَةِ، تَعَجَّبْ بَيْنَهُم !

---

(١) قالَ صَلىَّ الله عَلَيهِ وَسَلَّم لأَبِي بَكرٍ الصِّدِّيق : «أَلا أُخبِرُكَ بِقَولٍ يُذهِبُ صِغارَهُ ـ أَي: الشِّرك ـ وَكِبارَه ـ أَو صَغِيرَه وَكَبِيرَهُ ـ؟» قُلتُ : بَلَى يا رَسُولَ الله . قالَ : «تَقُولُ كُل يوم ثَلاث مَرّات : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ شَيئا وَأَنا أَعلَم وَأَستَغفِرُكَ لما لا أَعلَم» رَواهُ أَبو يَعلَى .

(٢) الحَسَدُ : تَمَنِّي زَوالَ النِّعمَةِ مِن الغَيرِ .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]، فالفَضلُ لله لَيسَ لَكَ فِيهِ شَيءٌ ، فاشهَدْ المِنَّةَ لِرَبِّكَ تَعالَى ، وَتذَكَّرِ الخَطَرَ ، وَأَنَّه لَو حاسَبَكَ عَلَى أفضَلِ أعمالِكَ .. لَعذَّبَكَ ، وَلَو آخذَكَ بِأفضَلِ أعمالِكَ .. لَعذَّبَكَ ، وَلَكن بِفَضلِهِ تَعالَى .. يُثِيبُكَ وَيجُودُ عليكَ وَيُضاعِفُ حَسَناتِك ، فَتخْرُج بِذَلِكَ مِن العُجبِ .

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفعَنا بِهِ كَيفَ نَتعامَلُ مَعَ الخَواطِرِ مِن النَّفسِ والشَّيطانِ ؟

كيف نتعامل مع الخواطر من النفس والشيطان ؟

فَقالَ سَيِّدِي : مَهما أَحَسَّ الإنسانُ بِضَعفٍ عِندَه ، أَو هَجَماتٍ مِن خَواطِرِ النَّفسِ والشَّيطانِ والشَّهَواتِ الدَّنِيئَةِ .. فَلْيَحْذَرْ أَن يَسْتَسْلِمَ لها ، وَلْيَحْذَر أَن يَضْعُفَ لها ، وَليَحذَرْ أن يَظُنَّ أَنَّها أَقوَى مِن عِنايَةِ الله بِهِ ، وَأَنَّها أَقْوَى مِن رَحْمَةِ الله إِذا جاءَت ، وَهوَ مُعَرَّضٌ للرَّحْمَةِ ، فَلْيَتَشَبَّثْ بِأَسبابِ الرَّحْمَةِ ، وَليُقبِلْ وَليَصْدُق .

فَإِنَّ الحَقَّ تَبارَكَ وَتعالى إِن اختَبَرَهُ وَفَتَنَه أَوَّلاً وَثانِيا فَما رَأَى مِنهُ إلا الذِّلَّةَ والاسْتِسْلامَ والانْقِيادَ والرَّجْعَةَ والإقْبالَ بِصِدْقٍ .. رَفَعَ الاختِبارَ عَنه ، وَحَوَّلَ جَمِيعَ شُرُورِهِ إِلى خُيُورٍ ، وَجَميعَ ظُلُماتِهِ إِلَى نُورٍ ، وَبَدَّلَ جَمِيعَ سَيِّئاتِهِ حَسَناتٍ ، ثُمَّ فَتَحَ لَهُ بابَ المُواصَلَةِ مِن حَضْرَتِهِ ، وَقَوَّمَ قَدَمَهُ عَلى الثَّباتِ .

فالحَذَرُ أَن تَقُولَ : أَنا ضَعِيفٌ أَمامَ هَذِهِ الشَّهَواتِ ، وَأَنا ضَعِيفٌ أَمامَ هَذِهِ الخَواطِرِ والسَّيِّئاتِ ، بِنَفْسِكَ ضَعِيفٌ ، وَلَكِن بِارْتِباطِكَ بِالله وَرَسُولِهِ وَمَنْهَجِهِ والمحْبُوبِين عِنْدَه .. فَلَسْتَ بِضَعِيفٍ .

فاصْدُقْ واجْزِمْ وَأَقْبِلْ ، واكْرَهْ كُلَّ ما يَعُوقُكَ عَن الله ، مَهما وَرَدَ عَلَيكَ أَو خَطَرَ عَلَيكَ .. اِكرَهه وَأَحسِنِ الأَوبَةَ إِلَى الله تَعالى ، وَمَهما بَدَرَت مِنكَ الهَفوَةُ .. فَتَكُونَ

أَسرَعَ مِن البَرقِ الخاطِفِ إِلَى الاعتِذارِ ، فتَستَبدِل الجَفوةَ بِصَفوةٍ ، وَتَصدُقُ فِي ذَلِك، وَتَبذلُ غايَةَ جُهدِك وَأبشِر ، أَنتَ الَّذِي تَرَى فِي الحالِ كَدَراً كَبيرا ، إِذا اتَّبَعتَ الأَمرَ هَذا والوَصِيَّةَ هَذِهِ ، سَيَتَحَوَّلُ الكَدَرُ .. صفاءً ، وَتَتَحَوَّلُ الظُّلمَةُ .. نُوراً ، وَيَتَحَوَّلُ الشَّرُّ .. خيراً ، وَيَتَحَوَّلُ النَّقصُ .. كَمالاً .

علاج التكاسل عن السنن والأوراد وغيرها

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ عَن عِلاجِ التَّكاسُلِ عَن السُّنَنِ والأَورادِ وَغَيرِها ؟

فَقالَ سَيِّدِي : قُـدِ[1] النَّفسَ بِزِمامِ الرَّجاءِ ، وَذَكِّرْها بِالثَّوابِ والمَصِيرِ وَما يَترَتَّبُ عَلَى ذَلِك ، واستَحضِر ما وَرَدَ عن نَبِيِّك صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم .

وَإِذا كَسَلتَ فِي وَقتٍ مِن الأَوقاتِ .. لا تَيأَس ، وَلا تَتوانَ فِيها بَعدُ أَو تَتَأَخَّـرَ ، اِرجِع فَأَنتَ مَحَلُّ النَّقصِ ، فَرُبَّما كَسَلُكَ فِي وَقتٍ مِن الأَوقاتِ .. يُعَلِّمُكَ دَرسا عَظِيما، فيُورِثُ قَلبَكَ انكِساراً لله تَعالى ، وَيُورِثُ قَلبَكَ إِبعادا لِلعُجبِ ، أَحسَن مِمّا لَو قُمتَ بِالعَمَلِ نَفسِهِ ، فَتَستَفِيدُ مِنه فائِدَةً رُبَّما لا تَجِدُها مِن العَمَلِ .

كيف نتحقق بالتوبة ؟

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ كَيفَ نَتَحَقَّقُ بِالتَّوبَةِ ؟

فَقالَ سَيِّدِي : تَحقِيقُ التَّوبَةِ ضَرُورِيٌّ ، واستِجلابُ الخَوفِ مِن الذُّنُوبِ باستِحضارِ أَنَّها سَبَبُ البُعدِ ، وَسَبَبُ الطَّردِ ، وسَبَبُ غَضَبِ اللهِ تَبارَكَ وتَعالى ، وَأَنَّها بَرِيدُ الكُفرِ ، وَأَنَّهُ لا يَطمَئِنُّ بِالمَعصِيةِ إِلا مُنافِقٌ ، وَأَنَّ المُؤمِنَ يَرَى ذَنبَهُ كالجَبَلِ يَخشَى وُقُوعَه وَسُقُوطَه عَلَيهِ فَوقَ رَأسِهِ ، وَأَنَّ المنافِقَ يَرَى ذَنبَهُ كَذُبابٍ وَقَعَ عَلَى أَنفِهِ فَقالَ بِيَدِهِ

---

(١) فِعلُ أَمرٍ مِن القِيادَةِ .

هَكَذا فَأطارَهُ ، وَباستِشعارِ هَذِهِ المعانِي وَتَذَكُّرِ الوُقُوفِ بَينَ يَدَي الله تَعالى وَسَؤالِ الحَقِّ لَه فِي ذَلِكَ المَوْقِفِ ، أَتَذْكُرُ يَوْمَ كَذا .. وَساعَةَ كَذا ؟ فَسَوفَ تَسْتَقِرُّ عِنْدَه حَقائِقُ التَّوبَةِ وَحَقائِقُ الخَوْفِ مِن الله تَعالى ، فَيُعانُ وَيُرْفَعُ لَه الشَّأن .

كيف نخرج هذا العالم الذي نعيش فيه من قلوبنا مع أننا في نفس الوقت نعيش فيه ؟

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ كَيْفَ نُخْرِجُ هَذا العالَمَ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ مِن قُلُوبِنا مَع أَنَّنا فِي نَفْسِ الوَقْتِ نَعِيشُ فيه ؟

فَقالَ سَيِّدِي : بِأَن تَعلَمَ أَنَّ لِكلِّ شيءٍ فِي هَذا العالَمِ وَجْهان : وَجْهٌ مِن حَيْثُ ذاتُ ذَلك المخلُوقِ مُنْقَطِعاً ، فَهو بِذَلِك الوَجْهِ قاطِعٌ عن الله ، ووَجْهٌ مِن حَيْثُ خَلْقُ الحَقِّ لَه وَآياتُه المَبْثُوثَةُ فِيهِ وَدَلالاتُه عَلَيهِ ، فَهوَ بِذَلك مُتَّصِلٌ بِالحَقِّ ، وَهوَ بِذَلِك الوَجْهِ مُوصِلٌ إلى الله .

إذاً فَهَذا الكَونُ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ ، إن بَقِينا مَع وَجهِهِ الأَوَّلِ .. انْقَطَعنا عَن الله بِه، وَإِن نَظَرنا إِلى وَجهِهِ الثّانِي .. وَصَلْنا إِلَى الله بِه ، أَيضاً فَنَحْنُ عِندَما نَنْظُرُ إِلَيهِ مِن الوَجْهِ الثّانِي نَكُونُ خارِجِينَ عَنه فِي شُهُودِنا ، قائِمِينَ فِيهِ بِوجُودِنا ، فَلَيسَ الخُرُوجُ عَن الكَوْنِ إِلا خُرُوجَ الشُّهُودِ .

خُرُوجُ الشُّهُودِ مِن باطِنِ الإنسانِ مَعْناهُ : خُرُوجُ شُهُودِ أَنَّ لَه أَثَراً مَع المكَوِّن ، وَأَنَّ لَه اسْتِقلالاً فِي أَيِّ شَيءٍ ، بِإثباتِ شُهُودِ أَنَّهُ فِي القَبْضَةِ ، وَأَنَّه تَحتَ التَّصَرُّفِ ، وَأَنَّه لا يَملِكُ شَيئاً ، وَأَنَّ المتَصَرِّفَ فِيهِ .. هوَ اللهُ ، فَبِذَلِكَ تَكُونُ خارِجا عَن الكَونِ، وَأَنتَ أَيضاً فِي الكَوْن .

فَتعلَمُ مَعنَى تَسبِيحِ الكَونِ بِحَمدِ رَبِّهِ ، فَتَكُونُ حاضِراً مَع الكَونِ مِن وَجهِ أَنَّه خَلقُ الله ، وَفِيهِ الدَّلالَةُ عَلَيه ، وَخارِجا عَنِ الكَونِ مِن وَجهِ قَطعِهِ وَإِلهائِهِ عَن رَبِّك.

فَإذا صَحَّ مَشْهَدُكَ فِي الكَوْنِ .. يَصِيرُ الكَونُ كالزُّجاجَةِ ، يُرَى مِن وَرائِهِ آثارُ القُدْرَة، فَهوَ الَّذي حَوالي الزُّجاجَةِ ، خارِجٌ عنِ الزُّجاجةِ بِنَظَرِهِ ؛ لأَنَّه يَنْظُرُ إِلَى ما وَراءَها ، وَهوَ مَعَ ذَلِكَ وَسْطَ الزُّجاجَةِ بِجِسْمِهِ .

أَنا الآنَ لابِسٌ هَذِهِ النَّظّارَةَ ، فَظاهِرُ عَيْنِي داخِلُ النَّظّارةِ ، وَلَكِنَّ نَظَرِي خارِجُ النَّظّارَةِ ، بَل إِنَّ النَّظّارة زادَتْني نَظراً أَوْضَح إِلَى ما هوَ فِي الخارِجِ ، وَحَسَّنَتْ نَظَرِي إِلَيْهِ وَدَلَّتْنِي عَلَيهِ أَكثَرَ ، فَكَذَلِك الأَكْوانُ تَزِيدُ مَعْرِفَةً بِالْمُكَوِّنِ .

كيف تحصل اللذة في العبادة؟

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنفعَنا بِهِ **كَيفَ تَحْصُلُ اللَّذَّةُ في العِبادَة ؟**

فَقالَ سَيِّدِي : أَمّا تَحْصِيلُ اللَّذَّةِ فِي العِباداتِ فأساسُهُ .. إِفرادُ القَصْدِ للرَّبِّ ، ثم تَكَلُّفُ حُضُورِ القَلْبِ مع الله تَبارَكَ وتَعالى ، ثُمَّ مُجالَسَةُ الصّالِحِينَ وَقِراءَةُ أَخبارِهِم، فَبِذَلِكَ تَحْصُلُ اللَّذةُ فِي العِبادَةِ ، وَقَد سُئِلَ بعضُ العارفين[1] : أَيَجِدُ لَذَّةَ العِبادةِ مَن يَعْصِي الله ؟ قالَ لَهُ : لا ، ولا مَن يَهُمُّ بِالمَعْصِيَة .

الَّذِي يَهمُّ بِالمعاصِي .. ما يَجِدُ الحَلاوَةَ هذِهِ على وَجْهِها ، وَلكنْ مَن وَطَّنَ نَفْسَهُ على تَرْكِ المعاصي .. رَزَقَه الله الأَنَفَةَ مِنها ، وجالَتْ رُوحُهُ في عالَمِ المَلَكُوتِ ، بَعْدَ ذلك يَكُونُ الأَمْرُ قَرِيباً .

---

(١) وَهوَ وُهَيبُ بنُ الوَرْدِ رَحِمَهُ الله تَعالَى .. وَكانَ اسمُهُ عَبد الوَهّاب فَصُغِّرَ فَقِيلَ وُهَيب ، أَدرَكَ عَطاءً وَمَنصُورَ بنَ زاذانِ ، وَكانَ شَدِيدَ الوَرَعِ ، كَثِيرَ التَّعَبُّدِ ، وَكانَ سُفيانُ الثَّورِيّ إِذا فَرَغَ من حَدِيثِهِ يَقُولُ : قُومُوا بِنا إِلى الطَّبِيبِ ، يَعنِي وُهَيبا ، تُوفِّيَ سَنَة ١٥٣هـ .

الخشوع في الصلاة

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ عَن شَأنِ الخُشُوعِ فِي الصَّلاة [1] .

فَقالَ سَيِّدي : الإنسانُ عَلَيْهِ أن يَحْرِصَ على الخُشُوعِ والخُضُوعِ في الصَّلاة ، وتكُون صَلاتُه صلاةَ الخاشِعِينَ إذا جَمَعَ في صَلاتِه سِتَّ معاني :

الأَوَّل : حُضُورُ القَلْبِ .

الثّاني : تَفَهُّمُ مَعْنى ما يَقُولُ ويَفْعَلُ .. وَهو فَوْقَ حُضُورِ القَلْب .

الثّالِث : الإجلالُ والتَّعْظِيمُ .. فَقَد تَحْضُرُ بِقَلْبِكَ وتَتَفَهَّمُ مَعْنَى الكَلامِ لكن بلا إِجْلالٍ ولا تَعْظِيمٍ ، كما تَتَفَهَّمُ كلامَ صَبِيٍّ .

الرّابِع : أَن يَكُونَ هذا الإجْلالُ والتَّعْظِيمُ مع الهَيْبَةِ .. ومعناه خَوْفٌ مَنْشَأُهُ التَّعْظِيمُ، تَخافُ أن تُرَدَّ عَلَيْك صَلاتُك وأن لا تُقْبَلَ مِنْك .

الخامِس : الرَّجاءُ .. وَمَعْناه أَن تَكُونَ طامِعا في قَبُولِ الله لَكَ ، وَنَيْلِ الزُّلْفى مِنه ، والثَّوابِ الجَزِيل .

والسّادِس : الحَياءُ .. والحَياءُ أن تَسْتَشْعِرَ أَنَّك ما أَدَّيْتَ حَقَّ الله عَلَى وَجْهِهِ ، وَما قُمْتَ به .

هَذِهِ المعانِي السِتُّ إِذا اجتَمَعَتْ لَكَ فِي صَلاتِكَ فَأَنتَ مِن الخاشِعِينَ ، وَقَد جَمَعْتَ مَعانِي الخُشُوعِ لله جَلَّ جَلالُه وَتَعالَتْ عَظَمَتُه .

---

(١) فِي غُرَّةِ مُحَرَّم ١٤١٦هـ .

ماذا يستشعر الذاكر عند الذكر ؟

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ ماذا يَسْتَشْعِرُ الذّاكِرُ عِندَ الذِّكرِ ؟

فَقالَ سَيِّدِي : أَمّا الاسْتِشْعارُ عِندَ الذِّكْرِ فَهو شُغْلُ القَلْبِ بِمَعْنَى ذلك الذِّكْرِ ، وَأَنه بَيْنَ يَدَي الذِي يَرْقبُ خَواطِرَه وما في ضَمِيرِه ، فَيَسْتَشْعِرُ هذا ، ويُجْرِي مَعْنى الذِّكْر على قَلْبِه الذِي هو ناطِقٌ به بِلِسانِهِ ، فيَكُون مُمْتَلِئَ القَلْبِ بالتَّوحِيدِ عند قَوْل: (لا إله إلاَّ الله) ، وَبِشُعُورِه بِالنِّعَمِ الواسِعَةِ الكَبِيرَةِ ثَناءً عِندَ قَولِهِ: (الحَمْدُ لله) ، وَبالإِعظامِ والإِجلالِ عِندَ قَولِهِ: (اللهُ أَكْبَر) ، وَبِالتَنْزِيهِ والتَّقْدِيسِ لِلحَقِّ تَعالى عِندَ قَولِهِ: (سُبْحان الله) وَأَمْثالِ هَذا .

وَإِذا صَلَّى على النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم يَسْتَحْضِرُ أنه في رَوْضَتِهِ الشَّرِيفَةِ ، وأمامَ حُجْرَتِهِ المنِيفَة ، وهو يُصَلِّي عليه ، ويُمْكِنُ أن يَسْتَحْضِرَ مَعَه أَحَدَ شُيُوخِه في ذلك المكان وهو يُصَلِّي ، لِيَكُونَ ذلك أَقْرَبَ لَهُ ؛ لأَنْ يُقْبَلَ وَيُفْتَحَ عليه ، ويَسْتَشْعِرُ أنه وصَلاتَهُ وجميعَ العَوالِم .. نِعْمَةٌ مِن الله أَبْرَزَها بالنَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم الذِي هو أَصلُها.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَعْتادَ الإنسانُ أَن يُرَدِّدَ عَلَى قَلْبِه ذِكرَ لا إلهَ إلا الله فِي أَحوالِهِ المختَلِفَة، يُرَدِّدُهُ حَتَّى لا يَصرِفُهُ عَنه إِلا الكَلامُ مَع النّاسِ أَو الحَدِيثُ مَعَهُم ، فَإِذا انتَهى مِن ذَلِكَ رَجَعَ إِلى اسْتِحْضارِ مَعْنى (لا إلهَ إلا الله) فِي قَلْبِهِ حَتَّى يُفِيضَ ذَلِكَ عَلَى حُضُورِهِ فَيَعُمَّ أَكثَرَ وَقتِه ثُمَّ جَمِيعَ وَقتِهِ ، وَتكرِيرُ لَفظِ الجَلالَةِ بِالمَدِّ وَسُكُونِ الهاءِ لَهُ خاصِّيَّةٌ فِي حَرْقِ الخَواطِرِ السَّيِّـئَة فَيَقُولُ : (الله .. الله .. الله) .

الثبات على الاستقامة

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ كَيفَ يَتِمُّ ثَباتُ العَبدِ عَلَى مَنهَجِ الاستِقامَةِ حَتَّى يَكُونَ فِي إِمدادٍ وَتَرَقٍّ دائِمٍ ؟

فَقالَ سَيِّدِي : لَه سِياجٌ وَقَواعِدُ داخِلَ السِّياجِ ، أَما سِياجُه العامُّ .. الوَلَعُ وصِدْقُ

الوَلاءِ لأَجلِ الله والمحَبَّةِ والانْطِواءِ ، وَأما قَواعِدُه داخِلَ السِّياجِ فالتَّحَسُّسُ مِن دَواعِي النَّفْسِ وَمُراداتِها وَرَفْضِها فِي كُلِّ ما تَدْعُو إِلَيهِ ، وَتَقْوِيمُ وَتَقْوِيَةُ قاعِدَةِ التَّوَكُّلِ عَلَى الله ، وَتَفوِيضُ الأَمرِ إِلَيهِ ، واستِعمالُ الاستِخارَةِ مَع اسْتِحْضارِ الجَنابِ النَّبَوِيِّ، وَكَثْرَةِ الصَّلاةِ عَلَيه .

إذا أَقمتَ هَذِهِ القَواعِدَ وَسْطَ هَذا السِّياجِ .. حَصَلَ الإِمدادُ مِن الحَقِّ تعالَى بِالعِنايَةِ فِي تَقوِيمِ كُلِّ مُعوَجٍّ ، وَإِلهامِ الرُّشْدِ فِيما يَأتِي الإِنسانِ وَيَدَع .

كيف نصل إلى مقام اليقين؟

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ كَيْفَ نَصِلُ إِلَى مَقامِ اليَقِين[1] ؟

فَقالَ سَيِّدِي : يَحصُلُ ذَلِكَ بِأَسبابٍ ، مِن أَهَمِّها ما ذَكَرَه الإِمامُ الحَدّادُ فِي أَوَّلِ كِتابِهِ «**رِسالَةِ المعاوَنَةِ**» يَقُولُ : يَقْوَى اليَقِينُ وَيَحسُنُ بِأَسبابٍ أَعظَمُها : النَّظَرُ فِي مَلَكُوتِ الله تَأَمُّلاً وَتَدَبُّراً وَتَفَكُّراً فِي مَصنُوعاتِ الله وَخَلقِهِ ، وَما يَجرِي لِلإِنسانِ فِي حَياتِهِ ، وَما يُشاهِدُه مِن العِبَرِ ، فَإِعمالُ النَّظَرِ فِيها لَه أَثَرٌ فِي تَقْوِيَةِ اليَقِينِ .

ثانِياً : والَّذِي هُوَ أَهَمُّها الاستِماعُ والإِصغاءُ إِلَى ما جاءَ عَنِ الله وَرَسُولِهِ مِن أَخبارِ عَظَمَةِ الحَقِّ وَمُعامَلَتِه ، وانْتِقامِه لِلصّالِحِينَ ، وانتِقامِهِ مِن الظّالِمِينَ ، وَما جاءَ فِي قِصَصِ الأَنبِياءِ والمرسَلِينَ ، وَأَخبارِ المرجِعِ إِلَيهِ ، وَكَثْرَةُ الاسْتِماعِ إِلَيها ، وَتردادُها عَلَى القَلْبِ وَعَلَى العَقْلِ .

ثالِثاً : العَمَلُ بِمُقْتَضَى العِلْمِ الَّذِي مِن أَهَمِّها : التَّوَلُّع بِالذِّكرِ ، فَإِذا جاءَ الذِّكْرُ عَلَى

---

(١) **اليَقِيْن** : عِبارَةٌ عَن قُوَّةِ الإِيمانِ وَثَباتِهِ وَرُسُوخِهِ ، حَتَّى يَصِير كالطَّودِ الشّامِخِ ، لا تُزَلْزِلَه الشُّكُوكُ وَلا تُزَعزِعَهُ الأَوهامُ .

أَيدِي المشايِخِ .. كانَ أَقْرَبَ وَأَقوى لِإِقامَةِ الإِيمانِ الرّاسِخِ وَهوَ اليَقِين .

ورود بعض المشاعر الطـيبة في بعض الأحوال ثم غيابها

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ ما مَعْنَى وُرُودِ بَعْضِ المشاعِرِ الطَّـيِّبَةِ في بَعْضِ الأحوالِ ثُمَّ غِيابُها ؟

فَقالَ سَيِّدِي : ذَلِكَ مِن مُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ ، وَهِي إِنْ شاءَ اللهُ دَلِيلُ اتِّصالٍ بالخَيْرِ ، إِذا وَرَدَتْ .. تُؤَثِّرُ فِي القَلبِ ، فَيَشعُـرُ الإِنسانُ بِشُعُورٍ غَرِيبٍ ، ثُمَّ يَذْهَبُ عَنه، هَذا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّها غَيرُ اسْتِدْراجٍ ، فَإِذا ذَهَبَتْ عَنهُ فَإِنْ كانَ يَتَطَلَّبُها وَيَتَطَلَّبُ مَعانِي القُرْبِ مِن رَبِّه .. تَعُودُ إِلَيهِ مَرَّةً وَتَذْهَبُ ، وَتَعُودُ وَتَذْهَبُ ، وَهَكَذا حَتَّى يَسْتَقِرَّ شَأْنُه وَحالُه ، وَتَصْفُو مُعامَلاتُه فَتَسْتَقِرَّ هِي فِيه .

فَإِذا اسْتَقَرَّتْ بَعدَ ذَلِكَ تَعرِضُ لَه حالَةٌ ثانِيَة فَوقَها وَأَحسَنُ مِنها فَتَغِيبُ عَنهُ ، فَـيَرجِعُ يَتَطَلَّبُها وَإِذا ثَبَتَ واسْتَقامَ تَسْتَقِرُّ له الثّانِيَة ، وَلا يَدْرِي إِلا وَواحِدَةٌ ثالِثَةٌ جاءَتْ أَحْسَنَ مِمّا قَبْلَها فَتَغِيبُ عَنهُ ، وَيَبْحَثُ عَنها وَيَنتَظِرُ ، فَإِذا ثَبَتَ واسْتَقامَ .. اسْتَقَرَّتْ له الثّالِثَةُ فَما يَدرِي إِلا وَواحِدَةٌ رابِعَةٌ بَرَقَتْ أَحْسَنَ مِمّا قَبْلَها وَهَكَذا وَلا نِهايَةَ لِلسَّيرِ .

الارتباط بالمشايخ

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ عن الارْتِباطِ بالمشايِخ ؟

فَقالَ سَيِّدِي : أَما الارتباطُ بِالمشايِـخِ .. فَبِتَعَلُّقِ القُلُوبِ مَعَ الاقْتِداءِ ، والتَّشَبُّهِ وإِنْفاذِ الأَمرِ ، والمنُوبُ عَن رَبِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم أَعظَمُ الخَلائِقِ هُوَ الَّذِي يَقُولُ

لَنا: «مَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطاعَنِي ، وَمَنْ أَطاعَنِي فَقَدْ أَطاعَ الله»[(١)] ، فَشُيوخُنا طاعَتُهم مِن طاعَتِه ، وطاعَتُه مِن طاعَةِ الله تَعالى .

وكَيْفَ حالُك مَع بابِك إلى الحقِّ وَرَسُولِه ، هَذا والِدُ الرُّوحِ أَعْظَم مِن والِدِ الجَسَد.. كانَ الحَبيبُ عُمَرُ بنُ سُمَيْطٍ[(٢)] - شَيْخُ الحَبيبِ عَبْدِ القادِرِ السَّقّاف - عِندَما يَكْتُبُ لِبَعْضِ الصّادِقِينَ فِي المَحَبَّةِ مِن طُلاَّبِهِ يَقُولُ «إلى وَلَدِي الرُّوحِي فُلان» ؛ لأَنَّه مِن جِهَةِ الطِّينِ ما عِنْده أَبناءٌ ، بَل عِندَه بَعْضُ البَناتِ ، لَكِن لَهُ أَبناءٌ كَثِيرونَ مِن جِهَةِ الرُّوحِ[(٣)] .

كيف نشاهد الشيوخ الذين بيننا وبينهم ارتباط ؟

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنا بِهِ كَيفَ نُشاهِدُ الشُّيُوخَ الذِينَ بَيْنَنا وبَيْنَهم ارتِباطٌ ؟

فَقالَ سَيِّدِي : أَمّا مُشاهَدَةُ الشُّيُوخِ وَغيْرِهِم فِي اليَقْظَةِ فَهَذا مِمّا يَنبَغِي أَن لا يَتَعَلَّقَ القَلْبُ بِهِ ، إِذْ هُو يُعطَى مِن الحَقِّ تَعالى إمّا تَطْمِينٌ ، وَإمّا زِيادَةُ إِيمانٍ ، أَو لِحِكْمَةٍ ، وَلَكِن يَكُونُ اهْتِمامُنا بِالاقْتِداءِ بِالشُّيُوخِ والعَمَلِ بِأَعمالِهِم وامْتِثالِ أوامِرِهِم ، هَذا الَّذِي نُرَكِّزُ عَلَيهِ وَنَتَوَجَّهُ إِلَيهِ ، **وَلَيسَ كُلُّ مَن يَرَى .. أَفضَلَ مِن الَّذِي لا يَرَى** .

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيه ، وَفِي مُسنَدِ الإِمامِ أَحمَد بنِ حَنبَل بِلَفظِ «مَن أَطاعَ أَمِيري فَقَد أَطاعَنِي ، وَمَن أَطاعَنِي فَقَد أَطاعَ الله عَزَّ وَجَلّ» .

(٢) هُوَ الإِمامُ عُمَر بنُ أَحمَدَ بنُ أَبِي بَكرِ بنِ عَبدِ الله بنِ عَبدِ الرَّحمن بن سُمَيط ، وُلِدَ بِمَدِينَةِ «أَنقرِيجه» مِن جُزُرِ القُمُرِ سَنَةَ ١٣٠٣هـ ، تَرَبَّى عَلَى يَدِ أَبِيه ، وَكانَ قَلِيلَ الكَلام ، كَثِيرَ الصَّمت ، حامِلاً لِرايَةِ العِلمِ والدَّعوَةِ بَعدَ أَبِيه ، حَتَّى وَفاته فِي نَفسِ الجَزِيرَةِ الَّتِي وُلِدَ فِيها فِي ٩ مِن شَهرِ صَفَر ١٣٩٧هـ .

(٣) مِن جِهَةِ الارتِباطِ والتَّلَقِّي لِلعُلُوم .

عن النية التي ينبغي أن نستحضرها حينما نسمع كلام أهل الصدق مع الله

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ عَنِ النِّـيَّةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ نَسْتَحْضِرَها حِينَما نَسْمَعُ كَلامَ أَهْلِ الصِّدْقِ مَع الله .

فَقالَ سَيِّدِي : يَستَحْضِرُ تَرجَمَةَ خِطابِ الرُّبُوبِيَّةِ ، مِن مَعانِي الوَحِي ، فِي قَوالِبِ الأَلفاظِ المَمْدُودَةِ مِن سَيْلِ بَحْرِ النُّبُوةِ ، كَيْ يَتَلَقَّى بِسَمْعِ كُلِّه ، فَيَصِير كُلُّه سَمْعًا، ويَنْوِي العَمَلَ ، فَتُفْتَحُ له أَبْوابُ التَّوفِيقِ ، ثم يَتَصَوَّرُ انْغِماسَه في نَهْرِ ذلك التَّيّارِ فَيَمْتَزِج ويَتَّصِل .

أيهما أفضل شهود الجمال أم شهود الجلال؟

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ أَيُّهما أَفضَل شُهُودُ الجَمالِ أَمْ شُهُودُ الجَلالِ؟ (١)

فَقالَ سَيِّدِي : شُهُودُ الكَمالِ فِي الجَلالِ والجَمالِ ، فالجَلالُ كامِلٌ والجَمالُ كامِلٌ ، والكامِلُ جَلِيلٌ والكامِلُ جَمِيلٌ .

لا إِلهَ إِلا الله.. أَيُّ أَوصافِ وَأَسماءِ جَمالِهِ لَيسَتْ جَلِيلَةً ؟ أَيُّ أَوصافِ وَأَسماءِ جَلالِهِ لَيستْ جَمِيلَة ؟ وَأَيُّ شَيءٍ مِن كُلِّ ذَلِكَ لَيسَ بِكامِلٍ ؟

وَطَوْراً تَخْتَفِي الأَوْصافُ مِنِّي   فَيَمْتَزِجُ الْجَمالُ مَعَ الْجَلالِ

كيف تكون محبة الذات؟

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ كَيفَ تَكُون مَحَبَّةُ الذّاتِ ؟

فَقالَ سَيِّدِي : فِي الامْتِثالِ ، وإِفْناءِ الصِّفاتِ فِي الصِّفاتِ ، فَإِذا لَم يَبْقَ لَكَ مَعَكَ عِنْدَكَ وَصْفٌ .. هُيِّئْتَ لأَنْ تَشْهَدَ لِلذّاتِ ، وَأَن تُحِبَّها بِالذّاتِ ، فَتَتَحَقَّقَ بَعدَ أَن تَفْنَى، أَوَّلَ فَناءٍ فِي الذّاتِ .

فَتَبقَى جَمِيعُ أَقوالِكَ وَأَفعالِكَ مُقَيَّدَةً بِالامتِثالِ ، صادِرَةً عَنِ الامْتِثالِ بِمَعْنَى

(١) في ٢٦ من شَهرِ صَفَر ١٤١٩هـ .

الامْتِثالِ، فَفَنِيَتْ أفعالُك وأقوالُك ، ثم تَبْدأُ فَناءَ صِفاتِك ، بِذَوْقِ لَذائِذِ الوِصالِ ، ثُمَّ تَبدأُ تَعرفُ الذّاتَ ، بالفَناءِ عَن الوِصالِ بِالمواصِل ، وَإِذا وَصَلْتَ إِلَى ذَلِكَ أَوصَلَتْكَ الذّاتُ إِلَى ذاتٍ قَد فَنِيَتْ فِيها ، ثُمَّ بَقِيت بِها ، قالَ :

وَأَنْ أَبقَى بِهِ بَعْدَ التَّفاني ... فَيا بُشْرايَ ما أَوْفَى نَصِيبي[1]

وقالَ :

أَحِبَّتنا بِنَجْدٍ[2] والصَّفِيحِ[3] ... مَراهِمُ كُلِّ ذِي قَلْبٍ جَرِيحِ[4]

أَنْتُمُ أَنْتُمُ أَحِبَّةُ قَلْبِي ... وَمُرادِي مِنَ الوُجُودِ وَحَسْبِي

وَمُرادِي مِنَ الوُجُودِ وَحَسْبِي ، الوُجُود هُنا مَصْدر وَهَكَذا إِلَى أَنْ قالَ :

فارْتَضُونِي عَبْداً لَكُمْ وَنَزِيلاً ... وَلَزِيماً لَكُمْ فَقِيراً مُلَبِّي

دَعْوَةَ الحَقِّ حِينَ يَدْعُو إِلَيْكُمُ ... داعِيُ الحَقِّ خَيْرُ عُجْمٍ وَعُرْبِ[5]

وقالَ الآخر :

آنَسْتُ أُنْسَ الأُنْسِ ... فِي مَهْرَجانِ القُدْسِ

---

(١) البَيتُ فِي «الدُّرّ المنظُوم» ص ١١ مِن قَصِيدَةٍ لِلإمام الحَدّادِ مَطلَعُها :

أَلا يا نازِلِينَ عَلَى الكَثِيبِ ... مِن الوادِي عَلَى المرعَى الخَصِيبِ

(٢) **النَّجدُ** : استِعارَة عَن مَقام الفُتُوحِ وَهوَ المكانُ العالِي .

(٣) **الصَّفِيحُ** المَكانُ العاكِفُونَ بِهِ الملائِكَة حَولَ البَيتِ المعمُورِ ، والبَيتُ المعمُورِ بَيتٌ يَطُوفُونَ بِهِ فِي السَّماءِ.

(٤) البَيتُ هو مطلع قَصِيدَةٍ لِلإمامِ الحَدّادِ، «الدُّرّ المنظُوم» ص ١٧٠ .

(٥) الأَبياتُ الثَّلاثَةُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإمامِ الحَدّادِ مَطلَعُها :

أَنْتُم أَنْتُم أَحِبَّةُ قَلبِي ... وَمُرادِي مِن الوُجُودِ وَحَسبِي

وَإِذا ما وَجَدْتُكُم طابَ عَيْشِي ... وَتَوَلَّى هَمِّي وَغَمِّي وَكَربِي

إِلَى أَن قالَ :

وَإِذا ما ذَكَرتُم سُرَّ سِرِّي ... واستَراحَت رُوحِي بِأُنسٍ وَقُربِي

فارتَضُونِي عَبدًا لَكُم وَنَزِيلا ... وَلَزِيمًا لَكُم فَقِيرًا مُلَبِّي

«الدُّرّ المنظُوم» ص ١٢.

وَافْنَيْــتُ هَيْــكَلَ نَفْســِي وَقالَبِـــي وَحِسِّــــي
وَزالَ وَهْـــمُ اللَّـــبْسِ وَحُنْدُســـاتُ الحَـــدْسِ
بِالْبــارِقِ النَّـــوراني والـــوارِدِ الرَّبّانِـــي[1]

معنى سجود القلب

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَنَفَعَنا بِهِ عَنْ مَعنَى سُجُودِ القَلْبِ.[2]

فَقالَ سَيِّدِي : قالَ أَحَدُ العارِفِين فِي بِدايَته : «وَقَعَتْ فِي قَلْبِي مَسْأَلَةٌ: هَلْ لِلقَلْبِ سُجُودٌ ؟ فَذَهَبْتُ أَسْأَلُ عَنْها ، فَما شَفَى لِي أَحَدٌ غَلِيلِي ، فَتَوَجَّهْتُ مِن مَكانٍ إِلَى مَكانٍ حَتَّى دَلُّوني عَلى بَعْضِ العارِفِينَ ، فَوَقَفْتُ بَينَ يَدَيه وَقُلتُ لَه : هَل لِلقَلْبِ سُجُودٌ ؟ قالَ : فَنَظَرَ إِلَيَّ وَقالَ : سُجُودٌ لا يَرْفَعُ عَنْه أَبَداً» .

وَمَعْنَى ذَلِكَ : إدراكُ القَلبِ لِعَظَمَةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُه وَكِبرياؤُه وَعُلُوُّه وَقُدْسِيَّتُه وَنَزاهَتُه سُبحانَه ، تَعالى عن كلِّ خَيالٍ وَعَن كُلِّ ما يُتَصَوَّرُ بِالبالِ ، وَأَنَّه صاحِبُ الكَمالِ المُطلَقِ فِي كُلِّ شَأنٍ ، القاهِرُ لِكُلِّ شَيءٍ ، المُحِيطُ بِكُلِّ شَيءٍ مِن جَمِيعِ الجَوانِبِ والوُجُوه .

إذا بَلَغَ الواحِدُ مِنّا فِي استِشعارِ هَذا الأَمرِ مَبلَغاً .. بَدَأَ القَلبُ يَتَحَرَّكُ لِلسُّجُودِ، وَمَعناه: أَنَّه يُقبِلُ عَلَى المَلِكِ المَعبُودِ إِقبالَ مَحَبَّةٍ واضطِرارٍ وافتِقارٍ كامِلٍ تامٍّ بِاختِيارٍ مِنه .

أَمّا الاضطِرارُ غَيرُ الاخْتِيارِي الَّذِي يُسَمَّى بِالقَهْرِي فَهوَ واقِعٌ رَضِيَ النّاسُ أَمْ لَمْ يَرْضَوا ، بَل مَلائِكَةُ السَّماواتِ وَأَهْلُ الأَرضِ وَصِنفُ المُقَرَّبِينَ مَمْنُوحِي الخَصائِصِ،

---

(١) الأبياتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإمامِ العَدَني أَبِي بَكرِ بنِ عَبدِ الله العَيدَرُوسِ مَطلَعُها :
يا ذا الَّـــذِي ناداني وَقتَ السُّحَـيْرِ اشجاني
(٢) وَذَلِكَ فِي ٨ مِن شَهرِ رَجَبٍ ١٤١٩ هـ .

وصِنْفُ المَبْعُودِينَ السّاقِطِينَ ، الكُلُّ فِي القَبْضَةِ والقَهْرِ سَواءٌ ، والكُلُّ فِي الخُضُوعِ والذُّلِّ سَواءٌ ، لَكِنَّ أَهْلَ الخَصائِصِ والصّالِحِينَ سَجَدُوا اخْتِياراً ، اخْتارُوا السُّجُودَ وَطَلَبُوه وَتَحَقَّقُوا بِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فالكُلُّ تَحتَ القَهرِ ، فَما أَحَدٌ مِنهُم يُقَدِّمُ وَلا يُؤَخِّرُ إِلا بِأَمرِه ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود:٥٦].

فَسُجُودُهم قَهْرِيٌّ، وَهَذا مَعنَى قَولِ الله ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥] ، أَمّا الطَّوعُ فَأَوَّلاً يَبْدَأُ بِالجَسَدِ ، يَبْدَأُ خُضُوعُ مَعْرِفَةِ أَنَّ اللهَ جَلِيلٌ وَعَظِيمٌ ، وَيَبْدَأُ الجَلالُ يَأْخُذُ مِنه مَأْخَذَهُ فَيَتَجَلَّى اللهُ عَلَيهِ بِصِفاتِ جَلالِهِ فَيَرَى الجَلالَ مُحِيطاً بِهِ مِن كُلِّ جانِبٍ ، فَيَخِرُّ ساجِدا لله تَعالَى وَيَخضَعُ .

فَإِذا تَحقَّقَ بِهَذا يَبدَأُ يَظهَرُ لَه جَمالُ الله مِن أَجلِ أَن يُحيِيَهُ ؛ لأَنَّه لَو بَقِيَ فِي شُهُودِ هَذا الجَلالِ .. لَتَلاشَى وَلاضمَحلَّت بَشَرِيَّتُهُ فَما قَدِرَ أَن يَتَحَرَّكَ مِن مَكانِهِ ، لَكِن إِذا أُكرِمَ بِالسُّجُودِ يَبدُو لَه جَمالُ الله تَعالَى فَيَتَجَلَّى لَه الجَمالُ بَعدَ الجَلالِ .

أَمّا الجَلالُ فَفائِدَتُه أَن يُفنِيَهُ عَنه وَيُخَلِّصَهُ مِن الشَّوائِبِ كُلِّها ، وَيَجْعَلَهُ عَبداً مَحضا خالِصا لله تَعالَى فَيَسْجُدُ قَلبُه ، فَهَذِهِ فائِدَةُ الجَلالِ ، وَمِن دُونِ ظُهُورِ هَذا الجَلالِ لَنْ يَصِلَ الإِنسانُ إِلَى حَقِيقَةِ هَذا السُّجُودِ وَلا إِلَى حَقِيقَةِ الفَناءِ فِي نَفْسِهِ مِن الشَّوائِبِ ، فَمَهْما اجْتَهَدَ .. تَبْقَى عِندَه شَوائِبُ خَفِيَّةٌ مِن وَراءِ السِّتارِ ما يُدْرِكُها وَلا يَأْتِي عَلَيها ، فَإِنَّ بَعضَها كَما قالَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «الرِّياءُ أَخفَى فِي أُمَّتِي مِنْ دَبِيبِ النَّملِ»[1]، وَتَبقَى أَشْياءُ مَستُورَةٌ حَتَّى يُكرَم بِتَجَلِّي الجَمالِ ، فَإِذا بَدا لَه الجَلالُ حَرَقَ جَمِيعَ صِفاتِ

---

(١) حَدِيثُ «الشِّرْكُ أَخفَى فِي أُمَّتِي مِن دَبِيبِ النَّملِ عَلَى الصَّفا» رَواهُ أَبو يَعلَى وابنُ عُدَي وابنُ حِبّان فِي «الضُّعفاءِ» مِن حَدِيثِ أَبِي بَكرٍ ، وَلأَحمَدَ والطَّبَرانِيّ نَحوَه مِن حَدِيثِ أَبِي مُوسَى ، قال ابنُ الأَثِيرِ : يُرِيدُ بِه الرِّياءَ فِي العَمَلِ، فَكَأَنَّه أَشرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيرَ الله ، وَمِنهُ قَولُه تَعالَى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ .

السُّوءِ الَّتِي فِيهِ وَجَمِيعَ الشَّوائِبِ ، فَيَبْدُو لَه بَعدَ ذَلِكَ الجَمالُ ، وَلهَذا يَقُولُ الإِمامُ أَبوبَكرٍ العَدنِي العَيدَرُوس فِي ذِكرِ هَذِهِ الحَقِيقَةِ السُّجُودِيَّة لِلقَلْبِ :

فَنَـوْا عَـنِ الكَـوْنِ جُـمْلَةً ... لَـمّا بَـدا طالِـعُ الجَـلالْ
وَأَحْياهُـمُ بَعْـدَ مَـوْتِـهِمْ ... بالجَمْعِ فِي مَشْـهَدِ الجَمالْ
حَتَّـى صَـفا إِبْرِيزُ[1] تِبْـرِهِمْ ... فَـلا يُساوِيـهْ قَـطّ مالْ
هَـذِهِ عُلُـومٌ مُحَقَّـقَـهْ ... رِجالُـها نِعْـمَ مِـنْ رِجالْ
يَقِينُـهُمْ لا ارْتِـيـابَ فِـيهْ ... وَهَدْيُـهُمْ لَـيْسَ بِـه ضَـلالْ
قَـدْ اقْـتَـدَوْا ثُـمَّ جاهَـدُوا ... وَشـاهَـدُوا فانْتَـفَـى المحالْ[2]

وَلأَجلِ ذَلِكَ قالَ الإِمامُ الحَدّاد :

وجاهِدْ تُشاهِدْ واغْنَمِ الْوَعْدَ بالْهُدَى ... هُـدًى نَصُّـهُ فِي العَنكَبُـوتِ بِآيَـةِ[3]

مَع أَنَّهُم ما جاهَدُوا إلا بَعْدَ الهِدايَة ، لَكِن تِلْكَ هِدايَةُ تَوْفِيقٍ والآنَ تَأتِي هِدايَةُ كَشفٍ وَفَتحٍ لِلغَيبِ ، فَهَذِهِ الهِدايَةُ الثّانِيَةُ بَعدَ المُجاهَدةِ .

الهِدايَةُ الأُوْلَى هِدايَةُ التَّوْفِيقِ، بِها جاهَدُوا، وَإِلا كَيْفَ يُجاهِدُونَ بِلا هِدايَةٍ ؟ فَلَمّا

---

(١) **الإِبريز** : هُو الذَّهَبُ الخالِصُ ، **والتِّبر** : مِنَ الذَّهَبِ وَهُو ما يَبقَى فِيهِ مِن غَيرِه، وَهوَ هُنا إِشارَةٌ إِلَى تَخَلُّصِ جَواهِرِ أُولَئِكَ العارِفِينَ عَن عَوارِضِ الأَجسام ، وَعَلائِقِ الأَكوانِ ، حَيثُ اضمَحَلَّت حُظُوظُهُم وَفَنِيَت إِراداتُهُم واختِياراتُهُم وَلَم يَبقَ لَهُم حَظٌّ وَلا أَرَبٌ فِي غَيرِ اللهِ وَما يُقَرِّبُ مِنه .

(٢) الأَبياتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإِمامِ العَدَني مَطلَعُها :

هَبَّت نَسِـيمُ المواصَلَة ... بِلا اتِّصالٍ وَلا انفِصالْ

(٣) البَيتُ مِن قَصِيدَةٍ لِلإِمامِ الحَدّادِ مَطلَعُها :

بَعَثتُ لجِيرانِ العَقِيقِ تَحِيَّتِي ... وَأَودَعتُها رِيحَ الصَّبا حِينَ هَبَّتِ

أُنظُرُ «الدُّرّ المنظُوم» ص ١٥١ .

والآيَةُ هِي ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

جاهَدُوا بِهِدايَةِ التَّوْفِيقِ قالَ الله : خُذُوا هَذِهِ هِدايَةً ثانِيَةً ، الآنَ أُعْطِيكُم إِيّاها مِن نَوْعٍ أَعلَى وَأَكبَرَ، وَهِي هِدايَةُ الكَشْفِ والعِيانِ ، حَتَّى تُصْبِحَ المَشْهُوداتُ الغَيْبِيَّةُ عِنْده كَأَنَّه يَشْهَدُها رَأْيَ عَيْن وَيَقُولُ كَما قالَ سَيِّدُنا عَلِي بن أَبِي طالِب : «**لَوْ كُشِفَ الغِطاءُ ما ازْدَدْتُ يَقِيناً**»[1] وَهَكَذا .

فالله يرزُقنا وَإِيّاكُم سُجُودَ القَلْبِ ، الله يَرْفَعُنا مَراتِبَه ويُرِينا عَجائِبَه ، لَه عَجائِبُ كَثِيرَةٌ ، وَلَهُم فِيهِ أَحوالٌ عَظِيمَةٌ ، فالله لا يَحرِمُنا خَيْرَ ما عِنْدَه لِشَرِّ ما عِنْدَنا .. إِنَّه أَكرَمُ الأَكرَمِينَ .

اسم الله الأعظم

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ عَن اسمِ الله الأَعظَم .

فَقالَ سَيِّدِي : هُوَ إِدراكُ العَظَمَةِ والجَلالِ لِلحَقِّ تَعالَى الَّتِي تَزُجُّ بِكَ إِلَى الإِيمانِ والتَّصدِيقِ بِها واليَقِينِ ، إِضافَةً إِلَى الشُّعُورِ الغالِبِ بِها عَلَيكَ الَّذِي يَمْلِكُ مِنكَ المَشاعِرَ ثُمَّ إِلَى ذَوْقِها وَإِلَى التَّحَقُّقِ بِها .

فَفِي هَذِهِ الحالِ أَيُّ اسمٍ خاطَبتَه بِهِ فَهُوَ الاسمُ الأَعظَم ؛ لأَنَّه إِنَّما يَخْرُجُ مِنكَ عَلَى حالٍ أَعظَم ، فَهوَ اسمٌ أَعظَمُ ، تَنالُ مِن أَسرارِ ذَلِكَ الاسم ، فَتَنْفَتِحُ لَكَ مِن كُنُوزِهِ ما يَلِيقُ بِما أَوصَلَكَ إِلَيهِ مِن ذَوقِ تِلكَ العَظَمَةِ لَه جَلَّ جَلالُه ، وَعلَى قَدْرِ كِبَرِ واتِّساعِ العَظَمَةِ عِندَكَ يَأْتِي التَّخَلِي عَن كُلِّ ما سِواه وَهَكَذا .

وَبَعْدَ ذَلِكَ تَرْتَقِي مِن نَبْذِ المَحْسُوساتِ إِلَى المَعانِي إِلَى الأَحْوالِ إِلَى ما سِواها، وَتَبْقَى فَرْدًا لِلفَرْدِ تُفَرِّدُه بِالقَصْدِ فِي كُلِّ شَأْنٍ ، والشَّيْخُ عَبْدُ العَزِيزِ الدَّبّاغ[2] ذَكَرَ أَنَّ أَسماءَ الله

---

(١) أُنظُر كِتاب «الأَسرارِ المرفُوعَة فِي الأَخبارِ المَوضُوعَة» .

(٢) هُو عَبدُ العَزِيزِ بن مَسعُودٍ الدَّبّاغ ، مِن رِجالِ التَّصَوُّفِ الكِبارِ ، ومِن كبار الأَشرافِ أَهل البيت، وُلِدَ بِفاس ١٠٩٥هـ ، وَتُوُفِّي بِها سَنَة ١١٣٢هـ .

الحُسنَى لها مَظاهِرُ ، فَفِي كُلِّ سَنَةٍ يَكُونُ الظُّهُورُ لأَسماءٍ ، وَيَكُونُ الدُّعاءُ بِها مُسْتَجاباً.

سر بكاء النبي ﷺ حينها قرأ عليه سيدنا عبدالله بن مسعود قول الله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ عن سِرِّ بُكاءِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم حِينَما قَرَأَ عَلَيْه سَيِّدُنا عَبْدُ الله بنُ مَسْعُودٍ قَوْلَ الله تَعالَى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١].

فَقالَ سَيِّدِي : يَتكَلَّمُ أَهلُ العِلمِ عَلَى ذَلِك فَقالُوا : مِنْ خَشْيَةِ الله ، وَلا أَخْشَى مِنْه لله لكِنِ المقامُ هُنا مَقامُ تَكْرِيم ، وَكَوْنُه هُو الشَّهِيدُ مِن فَوْقِ الخَلائِقِ فِي أَعلَى الرُّتَبِ ما فَوْقَ شَهادَتِهِ إِلا شَهادَةُ الله ، أَمرٌ عَجِيبٌ ، وَكَونُه هُو الشَّهِيدُ عَلَى الأُمَّةِ الَّذِي هُو مُهتَمٌّ بِشَأنِها أَمرٌ يَسْتَدْعِي الفَرَحَ ، ما كانَ بُكاؤُه إِلا مِن سُرُورِه بِهَذا العَطاءِ وَبِهَذا المقامِ الَّذِي أَقامَه اللهُ سُبْحانَه وَتَعالَى فِيهِ ، والفَرَحُ بِعَطاءِ الله يُدمِعُ العَيْنَ وَيُنْزِلُ مِنْها الدَّمْعَ البارِدَ .

سر عتاب الحق لنبيه ﷺ في سورة عبس

وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَنَفَعَنَا بِهِ عَن سِرِّ عِتابِ الحَقِّ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّم فِي سُورَةِ عَبَسَ

فَقالَ سَيِّدِي : جاءَت تَحَنُّناً مِن الله لِنَبِيِّه فِي صُورَةِ العِتابِ ، فَجاءَ غَيرُ أُولِي الأَلْبابِ فَظَنُّوها عِتاباً . أَمّا تَسمِيَةُ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْه وآلِهِ وسَلَّم لهَذا عِتاباً فَهِي عَلَى ما تَقْتَضِيه الآدابُ وَهِي سُلُوكُ المخاطَبَةِ بَينَ الأَحبابِ أَن يَقُولَ لِلمُتَحَنِّنِ عَلَيه إِذا أَتَى لَه بِالحَنانِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ : أَدَّبتَنِي ، هَذا خِطابُ الأَحبابِ لِبَعْضِهِم كَما تَقْتَضِيه الفُهُومُ ، وَهوَ بَينَ الأَحِبَّةِ مَعْلُومٌ .

كيف نـتخلص من ضعف الفهم في القرآن؟

وَسُئِلَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ كيفَ نَـتَخَلَّص مِن ضُعفِ الفَهْمِ فِي القُرآنِ ؟

فَقالَ سَيِّدي : أَمّا ضَعفُ الفَهْمِ فِي القُرْآنِ ما سَبَبُه إلا قِلَّةُ التَّدَبُّرِ ، أَو كُدُورَةُ الباطِنِ بِالذُّنوبِ ، فَإِذا تَصَفَّى مِن كَدَرِ الذُّنُوبِ وَتَدَبَّرَ القُرآنَ .. تَنفَتِحُ لَه مَعانِيهِ.

الفهرس

نبذة مختصرة عن صاحب الأنفاس ٥

المقدمة ٩

الباب الأول : مدخل واستفتاح لفقه الدعوة وشرف القيام بها ١٣

في عالمية رسالة الحبيب صلى الله عليه وسلم ١٥

فيما يتعلق بمعاني خصوصية النسبة إلى رسالة الحبيب ١٦

في شأن ارتباط مجالس المؤمنين بجلسات نبيهم المصطفى ١٧

من معاني «الواحدية» و«الإحاطة» ١٨

فيما يتعلق بالمخاطبة والتذكير ١٩

في جلسة مع طلبة كتاب «المنهاج» عند الإمام المهاجر إلى الله أحمد بن عيسى ٢٠

فضل الحق علينا بتوفيقه لنا لسماع التذكير به ٢٥

ربط التذكير بنيات الصالحين ٢٦

معاني النيابة ٢٧

التناجي بين الناس وما يترتب عليه ٢٩

المبدأ وأهميته في توضيح الطريق ٣١

معاني تكليف الله لعباده ٣٤

خطر التكاسل والتواني في خدمة الرسالة ٣٥

دعوة الأنبياء عهود بين العباد والمعبود ٣٦

مهمة الداعي في الحياة ٣٨
اتصال سـند الدعوة ٣٩
مفهوم العيد ٣٩
سر القرب في استشـعار الاهتمام بالأمة ٣٩
ثمرة الاهتمام بالأمة ٤٠
مهام يلزم التحقق بها ٤٠
نية الخدمة والتعلق بسر الصالحـين ٤١
مخاطبا طلابه المتخرجين من دار المصطفى ٤٤
في صفـات الصادق في حمل الدعوة ٤٩
مستحثا الهمم والعزائم ٥١
معرفـة عظمة الله تثمر معرفة حق الدعوة ٥٣
ضرورة المشـابهة لأحوال الصحب الكرام ٥٤
في التفاني لتبليغ أمـر الخالق ٥٥
مـا ينبغي أن يبذل الجهد فيه للناس ٥٥
أقسام العهد ٥٦
في التسـابق في ميدان الدعوة ٦٠
المواعيد التي وعد الحق بها أحبابه ٦٣
في مظاهر عظمة الرسـالة ٦٤
التهيؤ للوفاء بالعهـود يظهر معاني نداء الأذان ٦٥
ثمرة مقابلـة الأرواح ٦٦

صور الأعمال وروحها ٧٠
حقيقة العلاج ٧٢
التوكل على الله ٧٤
منبهـا إلى بعض الضوابط في العمل الدعوي ٧٤
الباب الثاني : عالميـة الدعـوة وقواعـد السـعة ، والاتسـاع في الفهـم والمعاملة والخطاب ٧٧
الشعور بوحدتنا مع الأمة ٧٩
بيان ملامح عالمية هذه الدعوة ٧٩
في معاني السـعة وأهميتها في الفهم لشـؤون الدعوة والتعامل مع الآخرين ٨٢
الدعوة موجهة لـكل مؤمن ٨٢
أمور يحتاجها الدعاة مع الخلق ٨٤
ضبط المشـاعر حول تعظيم الطريقة ٨٤
في معاني السعة ٨٧
موضحا جانبا من معاني السـعة ٨٨
فيما يتعلق بمعاني السعة عند النظر إلى مناهج الآخرين ٩٠
التخلق بالسعة ٩١
أهمية المخاطبة للناس بلسـان الشريعة ٩٢
مخاطبا القائمين بمجالات الخدمة لهذه الدعوة ٩٣
إعطـاء كل ذي حق حقه ٩٤
الاتصال بأهل الخير والثناء عليهم ٩٤

أهمية الصلة وتوسيع العلاقة بالآخرين ٩٦

الأقربون أولى بالمعروف ٩٧

سر الاجتماع........................ ٩٨

الدعوة بلسان الشريعة العامة ٩٩

في شأن الارتباط بالمشايخ والتعظيم لهم ١٠٠

اصطباغ الخطاب بالقرآن والسنة ١٠٠

في بيان ما تتمم به أمور الدعوة ١٠١

حين طلبت منه وصية للإخوان المرتبطين به في الخارج ١٠١

في توسيع المدارك وتنمية القدرات ١٠٢

توكيل المسؤوليات للمتأهلين ١٠٣

أهمية المراسلات ١٠٤

الباب الثالث : الهمة والعزيمة بداية الانطلاق لفقه الدعوة والارتباط بالله ١٠٧

تعميق معاني الترقي والسمو ١٠٩

في تزكية النفس ١١٠

في توسيع معنى الرجاء في الله سبحانه وتعالى ١١١

في التهيؤ للترقي والانتفاع ١١٣

في الاستزادة من الأوصاف الحسنة ١١٣

في معاني الإقبال والتسليم ١١٤

مستحثا منا الهمة والعزيمة ١١٥

في كيفية تحقيق الأوصاف في الناس ١١٦

البـاب الرابـع : الجديـة : ضوابطهـا وأهميـتهـا في حياة الداعي والسـالك وأهمية السكينة والوقار ١١٩
موضحـا معاني الجندية وصفات أصحابها ١٢١
الجدية في شؤون الدعوة ١٢٣
مكانة المنتمي لطريقة الدعـوة ١٢٤
فيـما يتعلق بشـأن بعـض الملاحظـات التي لاحظها سـيدي أثنـاء القيـام بالخدمة لهذه الدعـوة مع العاملين في دار المصطفى ١٢٦
أهمية السـكينة في حياة الداعي ١٣٠
أهمية التحلي بالسـكينة والوقار في شؤوننا المختلفة ١٣٢
فيما يتعلق بشأن السكينة والوقار ١٣٢
فيما يتعلق بصدق الوجهة التي تظهر من خلال الثبات ومظاهر السكينة والوقار ١٣٣
مشـيرا إلى بعض قواعد هذا المسلك ١٣٧
القصد أن تواصلوا الأعمال بقوة ١٣٧
ثمرة الإقدام مع الاستسـلام ١٣٧
في تنزيل الموعظة على أرض الواقع ١٣٨
في فهـم بعض قواعد العمل الدعوي ١٣٨
في شـأن مراعاة حاجة الأمة الملحة لمهمات الدين ١٤٢
البـاب الخامس : المحبـة في الله : آدابها وآثارها على الدعوة والدعاة ١٤٥
إن صحت المحبة صحت المسامحة ١٤٧
رعاية حق الأخـوة في الله ١٤٧

التآخي سلم لتقريب الخلق ١٤٨
فيما يتعلق بشـأن التسامح بين الإخوان مخاطبا بعض طلابه ١٥٠
في واجبات الأخـوة في الله ١٥١
فيـما يتعلق بحقوق الأخوة في الله ١٥٢
فيما يتعلق بشؤون المحبة والأخوة الصادقة ١٥٣
حول كيفية تحصيل الإيمان الكامل ١٥٦
في نشر الرحمة بين المسـلمين ١٥٧
في ما يحجز الداعية عن الانتفاع ١٥٨
النصر يجنى بأرباب الألفة ١٥٨
في المجاهدة وتصفيـة الباطن ١٥٨
الباب السادس : أسس وقواعد الاحترام الخاص والعام وقاعدة في التعامل مع المستقبليات والمرائي ١٦١
في معاني الاحترام ١٦٣
ضوابط في الاحترام الخاص ١٦٤
في شـأن قواعد الاحترام والأدب مع الخلق ١٦٥
ضوابط الاحترام العام ١٦٧
مخاطبا جميع إخواننا المنتمين لهـذه الدعوة ١٦٨
في شأن معاني الاحترام ١٧٧
ترجمة التواضـع باب لتقريب الناس ١٧٧
من كلامه في مصلى أهل الكسـاء بدار المصطفى بعد ختم القرآن ١٨٢

فيما يتعلـق بقواعد المحبة والاحترام ١٨٦

الوفاء بالبيعـة ١٨٩

مخاطبا بعض تلامذته ومريديه ١٩٠

ميزان في الفرح بالشـيوخ ١٩١

قواعد الخلافة والتجديـد ١٩١

فيما يتعلق بالحوادث المستقبلية ١٩٢

البـاب السـابع : حسـن الظـن وسـعة المشـهد ، قاعـدة لابد منهـا لصحة المعاملة مع الله ١٩٥

معنى «واحدية الفاعل» ١٩٧

فيما يتعلق بحسن الظن بالآخرين ١٩٨

الكتـمان في قضاء الحوائج ٢٠١

فيما يتعلق بحسـن الظن وتوسيع المشاهد في من حوالينا من الإخوان ٢٠١

في كيفية التعامل مع مختلف مراتب الناس ٢٠٤

البـاب الثامـن : ضوابـط في التعامل مع الكفـار ومنهجنـا في الفهم وعدم الانبهـار لما يأتي من قبلهم ٢٠٧

قواعد في مواجهة الكفار ٢٠٩

ضرورة ارتـكاز التوجيهات الربانية في بواطن القائمين بالدعوة ٢١٠

تحقيق شـعار «الله أكبر» ٢١١

ضوابط الانبهار ٢١٤

واصفا بعض أحوال مجتمعات الكفـار ٢١٤

في شأن الثقة بالله ٢١٧

الباب التاسع : ضوابط في التعامل مع المعترض والتفكير في جمع الأمة ... ٢١٩
في منهج ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ٢١٩
في خطر ما يحدثه البعض من تفريق في صفوف الأمة ٢١٩
السمو عن البشريات ٢٢٠
الثقة في أمر البلاغ ٢٢١
معنى الوحدة بين الناس ٢٢١
في ضرورة جمع كلمة المسلمين انطلاقا من حكمة اجتماعهم في الحج الأكبر ٢٢٣
الباب العاشر: معان سامية في قواعد السير إلى الله وتزكية النفس وكلام في الحقائق والذوق ٢٢٧
في شأن إدراك الوجه الباطن للدعوة وثمرته ٢٢٩
فيما يتعلق باتصال هذه الدعوة بسر الشهادتين ٢٣٠
الإقبال على الله لا يقبل الشركة ٢٣٣
في مظاهر حقائق التوحيد ٢٣٤
في شأن المحبة لله ٢٣٨
في شأن المحبة ٢٣٩
في ثمرات هيبة الحق إذا استقرت في القلب ٢٤٠
العلم في الميزان الرباني ٢٤١
قوة التعلق بالأكوان وآفته ٢٤٣
العالم الأسمى والعالم الأصفى وأول الإدراك ٢٤٥
في معاني تفريغ القلب عن كل ما سوى الله ٢٤٨

ترجمة الشوق إلى الله ٢٥١
في ذكر بعض قواطع الطريق ٢٥١
الاستعداد لتلقي المعاني ٢٥٤
الطمع في صاحب الحكم المطلق ٢٥٥
فيما يتعلق بصدق الإقبال ونفي الالتفات لغير الحق سبحانه وتعالى ٢٥٧
الأنس بالله ٢٥٨
ثمرة الحفاظ على شهود الحق تعالى ٢٥٩
إفراد القصد لله تعالى ٢٥٩
في شأن قصد الوصول إلى الله من خلال أعمالنا ٢٦٠
في معاني تقويم المعاملة مع الله ٢٦٠
في شأن قاعدة التبري من الحول والقوة ٢٦١
فيما يتعلق بشأن الارتباط برجال الإرث من خلفاء الحبيب ٢٦١
في شأن الارتباط والصلة بالمشايخ ٢٦٢
الأصل في الأعمال الصلة بسلسلة النبوة ٢٦٤
ثمرة مجالسة الأولياء ومعرفتهم ٢٦٤
طلب الترقي بالأخذ بأسبابه ٢٦٥
مظهرا معنى الافتقار لله ٢٦٥
الاعتقاد في الشيوخ ٢٦٧
في شأن التخلية ٢٦٧
منة الله بقبول أهل التقصير في ميدان الخدمة ٢٦٩

الثبات على مبدأ السابقين ٢٧١
نتيجة انحطاط المسلمين ٢٧٣
في شـأن الصدق والتعلق به ٢٧٤
خدمـة كل صاحب مقام في مقامه ٢٧٤
مخاطبا المرتبطين من العاملين في ميدان الدعوة ٢٧٦
في شـأن ضابط الجمع بين الحرص والتسليم ٢٧٦
في شأن ضوابط الكتم والإفصاح ٢٧٧
في شأن محبة الله للسـتر وآثاره على العبد ٢٧٩
فيما يتعلق بشـأن الحديث عن الأحوال والمقامات والخوض فيها ٢٨٠
في شـأن الخوض في المقامات والأحوال ٢٨١
في شأن لسـان الحال ٢٨٢
في شأن معرفة الإنسان بنفسه ٢٨٣
في معنى العبودية ٢٨٤
تحسين المشهد ٢٨٥
أسباب الهزيمة ٢٨٥
فيما يتعلق بشأن إظهار بعض أعمال الدعوة ٢٨٥
مشـيرا إلى خفايا من حظوظ النفس ٢٨٦
في شـأن أهمية التزكية ٢٨٧
في شأن خطر الهـوى على الإنسـان ٢٨٨
في شـأن اختلاف الناس في تسـيير أهوائهم ٢٨٩

ذم الكبر وما يترتب عليه من آفات ٢٩١
ثمرة آداب النوم واليقظة ٢٩٢
مصدر المصائب ٢٩٣
معنى الخطاب ٢٩٣
الاتصال بالله بالتطهر من الذنوب ٢٩٤
الاتصال بالجناب النبوي ٢٩٤
في شأن البركة ٢٩٤
في شأن ضرورة تحقق صفة البذل عند القائمين بالدعوة ٢٩٥
في شأن الذكر لله تعالى ٢٩٦
مفتقرا لله سبحانه وتعالى ٢٩٦
الارتباط بالمنهج لا بالأشخاص ٢٩٧
متحدثاً عن معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ٢٩٨
الباب الحادي عشر: معان راقية بلسان الحال والذوق في حقيقة المحبة للحبيب ﷺ وحقيقة الشوق ٣٠١
في شأن المحبة وحياة المحبين ٣٠٣
في معاني الولع والشوق للحبيب ٣٠٤
في أثناء حديثه عن محبة النبي ﷺ واللقاء به ٣٠٤
في أثناء حديثه عن عظمة الحبيب ﷺ وعن عظمة العطاء الرباني الذي خبأه الحق تعالى له ٣٠٦
الباب الثاني عشر: تساؤلات في فقه الدعوة ٣٠٩
في شأن الأسئلة التي قد ترد في بعض المجالس عن الفرق المختلفة ٣١١

كيـف نجلب الناس ونقربهم ونقنعهم بما عندنا ؟ ٣١١
هل النكت أسلوب من أسـاليب الدعوة ؟ ٣١٢
كيـف نتعامل مـع الأهل الذين قد يأمروننـا بفعل المعاصي ونحن نعيـش معهم ؟ وما
هو ميزان محبتهم واحترامهـم ؟ ٣١٢
عن حكم مجالسة أهل المعاصي والذنوب ٣١٢
كيـف نتعامل مع أهل المعاصي ؟ ٣١٤
في شـأن الحواجز والحواجب التي في الناس ٣١٤
الباب الثالث عشر: تساؤلات في معالم السلوك وتزكية النفس ٣١٧
كيف نخلص أنفسـنا من الصفات الذميمة مثل الكبر والأنانية والحسـد والرياء ؟ ٣١٩
كيف نتخلص من العجـب ؟ ٣٢٠
كيف نتعامل مع الخواطـر من النفس والشـيطان ؟ ٣٢١
عن علاج التكاسـل عن السنن والأوراد وغيرها ؟ ٣٢٢
كيف نتحقق بالتوبة ؟ ٣٢٢
كيف نخرج هذا العالم الذي نعيش فيه من قلوبنا مع أننا في نفس الوقت نعيش فيه؟.. ٣٢٣
كيف تحصل اللذة في العبادة ؟ ٣٢٤
عن شأن الخـشـوع في الصلاة ٣٢٥
ماذا يستشـعر الذاكر عند الذكر ؟ ٣٢٦
كيف يتم ثبات العبد على منهج الاسـتقامة حتى يكون في إمداد وترق دائم ؟ ٣٢٦
كيف نصل إلى مقـام اليقين؟ ٣٢٧
ما معنى ورود بعض المشـاعر الطـيبة في بعض الأحوال ثم غيابها ؟ ٣٢٨

عن الارتباط بالمشايخ ؟ ٣٢٨
كيف نشاهد الشيوخ الذين بيننا وبينهم ارتباط ؟ ٣٢٩
عن النية التي ينبغي أن نستحضرها حينما نسمع كلام أهل الصدق مع الله ٣٣٠
أيهما أفضل شهود الجمال أم شهود الجلال؟ ٣٣٠
كيف تكون محبة الذات ؟ ٣٣٠
عن معنى سجود القلب ٣٣٢
عن اسم الله الأعظم ٣٣٥
عن سر بكاء النبي ﷺ حينما قرأ عليه سيدنا عبد الله بن مسعود قول الله تعالى:
﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ ٣٣٦
عن سر عتاب الحق لنبيه صلى الله عليه وسلم في سورة عبس ٣٣٦
كيف نتخلص من ضعف الفهم في القرآن ؟ ٣٣٧